تيسير التفسير

لقطب الأيمـــة

الشيخ الحاج امحمَّد بن يوسف اطفـيَّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الرابع عشر)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: بكري أحمد ويازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى الشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبت الذين

ءامنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)

تفسير سورة ق وآياتها ٤٥

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ
(١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا
فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ
وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾

إنكار المشركين للبعث والرَّدُّ عليهم

﴿قَ﴾ كان ﷺ كثيرًا ما يقرأها في الأولى من الفجر، وفي الثانية: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، قالت أمُّ هشام بنت حارثة: «ما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ إلاَّ من في رسول الله ﷺ يقرأ بها في كلِّ جمعة على المنبر في الخطبة».

وَممَّا قيل في «ق»: إنَّه فعل أمر ومُفاعلةٌ مِنْ: قفا يقفو، يقال: قافى يُقافي قافِ (بكسر الفاء)، أي: تابع (بإسكان العين)، أمره باتِّباع القرآن والعمل بما فيه. أو افْعَلْ، من وَقَفَ، أي: قِفْ عندَ مَا شرع الله ﷻ لا تجاوزه. وقيل: اسم لله ﷻ، وقيل: مفتاح كلِّ اسم لله تعالى مبدوء بالقاف، مثل قادر وقدير

وقاهر وقريب وقابض وقدُّوس وقيُّوم.

(قصص) وشهر أنَّ وراء البحر المحيط جبلاً محيطًا بالدنيا يقال له: «ق» من زمرُّد أخضر، وعروقه في الصخرة التي عليها الأرض، إذا أراد الله زلزلة أرض حرَّك عرقًا يليها.

(نقد الرواية) [قلت:] ولم أر ذلك في حديث مسند عن رسول الله ﷺ، بل وقف على التابعين وبعض الصحابة كابن عبَّاس، ولو روته جماعة يلتزمون تخريج الحديث الصحيح، ومع ذلك في القلب من صحَّته شيء، والله قادر على أضعاف ما لا يحصى من ذلك.

وأمَّا أن يردَّ ذلك بأنَّ الناس قطعوا هذه الأرض برَّها وبحرها ولم يروه فلا يصحُّ، لأنَّه لا يوجد من قطع البحر المحيط عرضًا لهول ما بَعُدَ منه، ولو بسفن النار، ولظلمته، فإنَّه لا تقطعه إلاَّ الشمس دبورًا وشمالاً ومشرقا فكيف الجنوب؟. وأمر الزلزلة لا يتوقَّف على جبل «ق» وعرقه، بل يزلزلها الله ﷻ بلا شيء، وإن شاء زلزلها باحتقان بخارٍ فيها صلب تحتها أو بغيره.

﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ قسمٌ مستأنفٌ، أو عطفٌ على الإقسام بقاف على أنَّ قافًا جبل أقسم به الله، أو أنَّه السورة هذه أقسم الله بها، والجواب محذوف تقديره: لتبعثنَّ، أو إنَّك جئـتهم منذرًا بالبعث، أو إنَّا أنزلناه لتنذر به، أو إنَّك لمنذر، أو لا حجَّة لهم في الردِّ عليك، أو قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الاَرْضُ﴾ أو ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أو ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ وحذفت اللام في هذه الأربعة لطول الفصل.

أو هو قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُواْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وفيه أنَّ «بَلْ» ولو لم تكن عاطفة لكنَّها للإضراب، فلا تكون في الجواب، وهب أنَّها فيه لكن لم

يجئ مثل ذلك في كلام العرب، فلا يخرج عليه القرآن.

[قلت:] والأَوْلى أنَّها عاطفة على محذوف، وأنَّ الجواب: إنَّك جئتهم منذرًا بالبعث، أو إنَّك لمنذر، أو إنَّا أنزلناه لتنذر به، وصورة العطف هكذا مثلاً: إنَّا أنزلناه لتنذر به الناس فلم يؤمنوا به، بل عجبوا، أو فلم يقبلوا بل عجبوا، أو فشكُّوا بل عجبوا، لم يكتفوا بالشكِّ بل جزموا بالتكذيب، وجعلوه من الأمور التي يُتعجَّب منها.

وقيل: الإضراب متعلِّق بقوله: ﴿الْمَجِيدِ﴾، أي: بل عجبوا لجهلهم بمجد القرآن لا لانتفاء المجد عنه، فإنَّه مَجِيدٌ، والتعجُّب من الشيء يقتضي الجهل بسببه، وهو تكلُّف لا يتبادر.

ومعنى «الْمَجِيدِ» الشريف، ومجدُه حُسنه لفظًا ومعنًى، فلا حاجة إلى جعله للنسب، أي: ذي الشرف، على أنَّ المشهور في النسب فَاعِلٌ، كتَامِر ولاَبِن، لا فعيل، كقريب وعجيب، ولو صحَّ حفظه عن العرب. ولا يخفى أنَّ شرفه على سائر كتب الله لأنَّه أحسن لفظًا ومعنى، وأنَّه معجز وناسخ غير منسوخ، ولأنَّه مشتمل على أسرار لم ينزِّلها الله تعالى في غيره.

وغفلوا عن كون حسنه يوجب له اسم «مجيد»، فأوَّلوه بالنسب ليكون المعنى: إنَّه صاحب المجد المنسوب لله تعالى. وأوَّلوه بأنَّه من المجد الذي هو السعة في الكرم، فقالوا: معناه إنَّه مشتمل على ذكر مكارم كثيرة دُنيَوِيَّة ودِينِيَّة وأُخْرَوِيَّة. وأوَّلوه بأنَّه وصف بصفة جاعله، كما في القرآن الحكيم بالإسناد المجازيِّ العقليِّ، أو تقدير مضاف، أي: المجيد مُنَزِّلُه، أو جاعله، أو خالقه، والقرآن مخلوق. أو المجيد متَّبِعُه بالعمل به. وأوَّلوه بأنَّه فعيل من الثلاثيِّ بمعنى اسم مفعول من أمجده (بالهمزة)، أو مجَّده (بالشدِّ)، أي: صيَّره مجيدًا.

قلت: لم يتخلَّص قائله من الإشكال، مع أنَّ استعمال الثلاثيِّ بمعنى الإفعال أو

التفعيل لا نسلّم حسنه، ولا جوازه، وإن قلنا به في موضع فعلى طريق الحكاية.

و«أَن جَآءَهُمْ» على تقدير اللام أو الباء، أي: لمجيء منذرٍ منهم، أو بمجيء منذرٍ منهم، أي: من جنس قريش أو من جنس العرب أو جنس البشر. والأوّل أشدُّ عيبًا عليهم، ويليه الثاني إذ لم يقبلوا ما هو شرف لهم، والثالث أنسب بقولهم كيف يكون النبيء بشرًا ؟. وكذا واو «عَجِبُوا» لقريش أو العرب أو للناس.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير وتفصيل لعجبهم، والفاء لذلك، أو عطف لتعجُّبهم من البعث على تعجُّبهم من إرساله ﷺ ، والإشارة إلى كونه منذرًا أو إلى البعث المدلول عليه بقوله تعالى:

﴿أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ مقرِّرًا للتعجُّب، ومؤكِّدًا للإنكار، ومبيِّنًا لموقع تعجُّبهم، وهو بعثهم بعد أن كانوا ترابًا، والفاء لكون تعجُّبهم بالبعث بعد تعجُّبهم بالإرسال، إذا جعلنا الإشارة للبعث، ومعلوم أنّ البعث يذكر بعد الرسالة، وإنكار أحدهما إنكارٌ للآخَر.

ومقتضى الظاهر: «فقالوا»، وأظهر ليصفهم بما فيهم من قبلُ من الكفر، فذلك كالعهد الذكريّ، وليدلّ على أنّ تعجُّبهم من البعث أقبح من تعجُّبهم من إرسال البشر، لتضمُّن إنكار البعث نسبة الله تعالى إلى العجز عنه، مع معاينتهم ما يدلُّ له، وما هو أقوى منه. و«إذَا» متعلّق بمحذوف يقدَّر قبله على خروجها عن الصدر، أي: أنحــيَى إذا كُــنَّا ترابًا ؟ أو إذا كُــنَّا ترابا نحيَى؟ كما يقول محمَّد ﷺ ، وذلك كما يدلُّ له قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإحياء، أو ذلك البعث، أو ذلك الرجع ﴿رَجْعُۢ﴾ ردٌّ من موت إلى حياة، مصْدَرُ "رَجَعَ" المتعدِّي. والهمزة للإنكار. ﴿بَعِيدٌ﴾ من الأوهام والعادة والإمكان، وذلك من كلامهم.

ويجوز ـــ على ضعف ـــ أن يكون الرجع بمعنى ردِّ المشركين لمخبرهم بالبعث، فتكون الإشارة إلى إنكارهم البعث في قولهم: «أَ.ذَا مِتْنَا...» أو إلى قولهم: «هَذَا...»، أو إلى جوابهم النبيء ﷺ بالإنكار، فيكون قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ من كلام الله تعالى، أي: بعيد عن الحقِّ، أجابوا به منذرَهم ﷺ، ولا يلزم في هذا الوجه أن يكون «رَجْعٌ» بمعنى مرجوع، كما قيل، أي: جواب مرجوع.

ووجه إنكارهم البعث تفتُّت الجسم وفناؤه، فردَّ الله تعالى عليهم بأنّه عالم بما تفتَّت وما فني منهم في الأرض، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ﴾ وغَيْرُهَا، اقتصر عليها لأنّها أكثر في ذلك، ومعناه: تُفنِي وتأكل، وهو أولى من تفسيره بتغييب الميِّت فيها، فينقص من عدد الأحياء ﴿مِنْهُمْ﴾ من شعورهم وجلودهم ولحومهم وعظامهم وأظفارهم.

﴿وَعِندَنَا﴾ وحدنا ﴿كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ زيادة تعميم في علمه بكلّ شيء، وانتفاء عجزه، وذلك كناية عن الضبط والإحاطة بكلّ شيء، علمًا بأعمالهم وأجزاء الموتى.

وإن قلنا: [المراد] اللوح المحفوظ فذلك بيان لما ذكر، وتقريرٌ له، ولا ينسى شيئًا ولا يحتاج إلى اللوح المحفوظ.

(أصول الدين) ولا يخفى أنّ القادر على خَلْقِ شيءٍ مِن غير شيءٍ، قادرٌ على إعادة ما فني، ولم يبق منه بعض، ولا أثر، نقول هذا تقليدًا لكمال قدرته، وإلاّ فالمعدوم كيف يرجع بنفسه؟! فإنّه إذا تصوَّرت وجوده فإمَّا أنّ الموجود شيء آخر مثله، كما قال به بعض، وهو مخالف للصواب، لأنّ الله ﷻ يقول: «أَبْعَثُكُم» ولم يقل: أبعث أمثالكم، وإمَّا أن يكون هو الأوَّل، فأين كان حتَّى رجع؟ والفرض أنّه عدم وأمَّا صفته وأشكاله فلا إشكال، كما يبقى عندك

وصف الشيء وشكله ووصف الفعل بعد العدم.

وإنَّما قلت: ذلك خلاف الصواب، لأنَّ فيه نسبة العجز إلى الله، وتعريض أجسام لم تعص على صورة العذاب، والخصم يقول: لا بأس في ذلك، ولله أن يفعل ما يشاء، مع أنَّ العذاب مطلقًا ليس للجسم، وإنَّما هو للروح، والروح باقٍ، وقد أذعنت قلوبنا إلى أنَّه قادر على إيجاد ما فني، كما قدر على خلق شيء من غير شيء، بل نقول ـ ولا بأس ـ : تفنى الأرواح التي في صور إسرافيل ويخلقها الله، أو تبقى وهي كالجماد ولا بأس، ويحيي الله تعالى بها الموتى.

وإن قلنا: هي أحياء في الصور، فلا بدَّ من موتها ثمَّ إحياؤها، قال أبو هريرة عنه ﷺ : «**ليس من الإنسان شيء لا يبلى إلاَّ عظم واحد، وهو عجب الذَّنَب، منه يركَّب الخلق يوم القيامة**»[1]، رواه البخاري وغيره، ولا بأس، فإنَّ المعنى: إنَّ حكمة الله إبقاؤه، لا أنَّ الله يعجز عن البعث بدونه، وهو أوَّل ما يخلق وآخر ما يخلق، فالله ﷻ يحيي من الميِّت ما بقي وَيَرُدُّ ما فني ويحيـيه.

﴿**بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ**﴾ النبوءة ﴿**لَمَّا جَآءَهُمْ**﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ إلى ما هو أفظع من الأوَّل، وهو أنَّهم فاجؤوه ﷺ بالتكذيب بلا تفكُّر ولو قليلا. ومَحَطُّ الإضراب «لَمَّا» الوجوديَّة، أو محطُّه أنَّ إنكار النبوءة أعظم من إنكار البعث المذكور في قوله: ﴿أ.ذَا مِتْنَا...﴾، فإنَّ إنكاره إنكار للبعث.

وقيل: لأنَّهم قد يسمعون بالبعث من مِلَلٍ أخرى ولا يسمعون بنبوءته ﷺ ، لكن قد يسمعون بها من أهل الكتاب.

وقيل: «الحق» الإخبار بالبعث، فإنَّ التكذيب أفظع من التعجُّب، ولو بني

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج١١، ص٥٤.

على الإنكار، وقيل: «الحق» القرآن وبه الإضراب، والمضروب عنه قوله: ﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾. **وحاصله نقل الكلام من مدح القرآن إلى ذكر تكذيبهم.**

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مختلط مضطرب، يقال: مرجت العهود، أي: اختلطت، ومرج الخاتم في الإصبع إذا قلق لسعته، أو لرِقّة الإصبع، وإسناد المرج إلى الأمر حقيقة، لأنّ الأمر حالهم وأقوالهم. وقيل: مجاز، والمضطرب حقيقة أصحاب الأمر، على معنى أنّهم كشيء واحد مختلط، بعضه كذا وبعضه كذا، والأوّل أظهر.

وعلى كلّ حال اختلفت أحوالهم بين تكذيبٍ بالبعث واستبعادٍ له وتردُّدٍ فيه، وقولِهم: القرآن أساطير الأوَّلين، وقولهم: سحر، وقولهم: تعليم بشر، وقولهم: كذب، ونفيهم الرسالة عن البشر، وقولهم: لولا أنزل جملة واحدة، وقولهم: ولولا أنزل على رجل من القريتين عظيم، تارة يقولون كذا، وتارة يقولون كذا، أو بعضٌ يقول كذا وبعض كذا.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ أغفلوا فلم ينظروا، أو أعموا فلم ينظروا **﴿إِلَى السَّمَآءِ﴾** السماء الدنيا، وقيل: الإجرام العليا، وهي السماء الدنيا والكواكب والشمس والقمر، بعض مبنيٌّ، وبعض زيّن ذلك المبنيَّ به، والصحيح الأوّل.

والنظر بمعنى العلم، وإن كان بمعنى الإبصار بالعين فمجاز عن علمهم به، وإيقانهم بها، كأنّهم شاهَدُوها، وما شاهدوا إلاّ ما زيِّنت به من الكواكب والقمرين، وأمّا تلك الخضرة فظلمة لعجز البصر، لا ظلمة حقيقة.

ورأينا غرابًا طار وما زلنا نشاهده حتَّى عجزت أبصارنا عن مشاهدته لدخوله في تلك الظلمة، ومن هو أقوى نظرًا يتأخَّر خفاؤه عنه عَمَّن هو دونه، ومن ضعف بصرُه يرى تلك الظلمة أسفل ممَّا يراها فيه قويُّ البصر.

فلا نسلِّم أنَّ تلك الظلمة بخار كما قيل، ولا هي لون السماء حقيقة، ولا هي لون الهواء، ظهر كذلك، ولا لون له حقيقة، والحقُّ ما قلته أوَّلاً، وهو مطّرد فيما لا ينفذه البصر فوق أو تحت أو جانبًا، ألا ترى البحر أخضر ولا خضرة فيه؟ وإنَّما ذلك كثرة طبقات الماء حتَّى عجز البصر عن إنفاذها من فوق، وألاَ ترى أنَّ النيِّرات كالكواكب ترى؟ لأنَّ ضوءها ينفذ تلك الظلمة.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ حال من «السَّمَاءِ» مؤكّدة لصاحبها، وحكمته التلويح بجهالتهم، كأنَّهم لا يرونها، كما يذكر اسم الإشارة مع الإدراك بدونه في مثل ذلك. وأنا أعجب لم لا أرى أحدًا يقول بما قلت كأنَّه مشيٌ على الماء أو صعود السماء ! .

﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ مرتفعة بلا عمد تعتمد عليه من فوق، أو من تحت، والعلاقة من فوق عمدة أيضًا كما هي علاقة، وذلك أنَّه لو كانت لها عمدة لاحتاجت هذه العمدة إلى أخرى، فتسلسل ذلك، أو يدور، وكلاهما محال.

﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالقمرين والكواكب للناظرين ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ شقوق لقوَّتها، ولها أبواب، ويعهد أن يقال للأبواب شقوق لكن ليست هنا مرادة بالفروج، لأنَّها تتعمَّد للمنفعة لا لشقٍّ يحدث من ضعف.

[قلت:] وأخطأ من قال السماوات متلاصقات لحديث: «بين كلِّ سماء وسماء خمسمائة سنة»[1]، لا للآية لأنَّ الآية في نفس السماء لا شَقَّ فيها.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها وهي كريَّة الشكل، ولكنَّها لعظمها يحصل انبساط تامٌّ في أجزائها، وهي باعتبار المجموع كريَّة، وكريَّتها تامَّة، أو ناقصة من

١- أخرجه الترمذيُّ في كتاب التفسير، تفسير سورة الحديد، رقم٣٣٩٨، عن أبي هريرة

جهة القطب الجنوبيِّ، والقطب الشماليِّ، وذلك قول الأكثر[١].

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ من السماء ﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً رواسي، أي: ثوابت ماسكة لها عن التحرُّك، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (سورة النبأ: ٧) ، وقال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (سورة النحل: ١٥) .

وقال الفلاسفة المتأخِّرون وبعض المغاربة: تتحرَّك بالحركة اليوميَّة بما فيها من العناصر. [قلت:] ولا شرك بذلك، لأنَّ التحرُّك المنفيَّ في القرآن التحرُّك المشاهد في زعمهم، والتحرُّك الذي أثبتوه، لا يرى وذلك قول الأكثر، وهو خطأ، لأنَّ ظاهر القرآن ينفي التحرُّك مطلقًا ولا دليل لهم على غير ذلك.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن يسرُّ الناظرين ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ اسم مصدر، أي: تذكيرًا، ونُصبَا على التعليل لـ«أَنبَتْنَا»، أي: للتبصير والتذكير.

وأجيز أن يكونا تعليلاً أيضًا لـ«أَلْقَيْنَا» و«مَدَدْنَا» على تنازع الثلاثة فيهما، فيقدَّر للمهمل ضمير مجرور باللام التعليليَّة، أو على الحذف لدليل، وأولى من ذلك أن يقدَّر ما يَعُمُّ، أي: فعلنا ذلك ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ﴾ تنازع فيه «تَبْصِرَةً» و«ذِكْرَى»، ﴿مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله بالتفكُّر في خلقه. والباء في عبارتي للتصوير، وفي معنى ذلك أنَّ تفسير الإنابة بالتفكُّر في صنعه تعالى، وذلك حقيقة شَرعيَّة وعرفيَّة أيضًا، يقال: رجع فلان إلى

١- في النسخة الحجريَّة كلام طويل في إثبات عدم كرويَّة الأرض، واكتفينا بما سيذكره في سورة الذاريات في قوله تعالى: {وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}.

كلام فلان ورجع إلى فلان، أي: رأيه.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا﴾ مكثرًا منافعه ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أشجارا كثيرة ذوات ثمار.

(صرف) وكثر في القرآن جمع المؤنَّث السالم في الكثرة، ووقع في القلّة بمعنى القلّة، كقوله تعالى: ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (سورة الإسراء: ١٠١) ، وقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّومِنَاتٍ قَانِتَاتٍ...﴾ (سورة التحريم: ٥) ، ودليل إرادة الكثرة في الآية أنّ المَقام للامْتِنَان؛ ولو قصدَ بتوسُّطه الاستدلال.

﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ حبَّ الزرع المحصود، أي: من شأنه أن يُحصد أو يؤول إلى الحصد، على مجاز الأَوْل، أو الوصف للاستقبال، وكلٌّ ذلك بمعنى واحد صحيح، ولاحاجة إلى جعله من إضافة المنعوت إلى النعت، كمسجد الجامع، كأنّه قيل: الحبُّ الحصيد والمسجد الجامع.

ويتخلّص عن هذه العبارة بأن يقال: الإضافة للبيان، أي: حبٌّ هو الحصيد، ومسجدٌ هو الجامع، على أن يكون الحصيد بمعنى سيحصد أو من شأنه الحصد، وَإِنَّمَا احتجنا إلى ذلك لأنّ المراد في الآية ذكر الحبِّ وهو في شجره كشجر البرِّ والشعير، وذَكَرَ الحبَّ لأنّه المقصود بالذات.

﴿وَالنَّخْلَ﴾ عطف على «جنّات»، لأنّ المقصود بالجنّات الأشجار المجتمعة، لا مع أرضها، لدليل ذكر الإنبات، وإلاَّ كان المعنى: أنبتنا الأرض والأشجار، وذلك العطف عطف خاصٍّ على عامٍّ لبيان مزيَّته، فإنّ ثمرات النخل أفضل الثمرات.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوَالاً أو حَوامِل، حال مقدَّرة، لأنّها حال الإنبات ليست بواسق، يقَال: أَبْسَقَتِ الشاةُ، أي: حملت.

(صرف) والأصل مبسقات، وهو من الرباعيَّات بالهمزة الآتي اسم الفاعل منها كثلاثيٍّ، كالطوائح بمعنى مطيحات، واللواقح بمعنى ملقحات، ويافع بمعنى موفع، وباقل بمعنى مبقل.

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ منضود، أي: مركَّب بعضه مع بعض، أو فوق بعض، وذلك عبارة عن الكثرة، أو ثمرات كلِّ طلعٍ كثيرة.

(نحو) والجملة حال ثانية للنخل مقدَّرة، أو للمستتر في «بَاسِقَاتٍ»، وهي مقارِنَةٌ، لأنَّ الطلع حال البسق موجود. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ بمعنى مرزوقًا لهم، فهو حال من المستتر في «لَهَا» أو هو بمعنى المصدر، فنصبه على التعليل بـ«أَنبَتْنَا»، أو مفعول مطلق لتضمُّن «أَنبَتْنَا» معنى رزقنا، ولام «لِلْعِبَادِ» لام التقوية لـ«رِزْقًا» على معنى المصدر، ولام التمليك على معنى مرزوق، يتعلَّق بـ«رِزْقًا» أو بمحذوف نعت لـ«رِزْقًا»، ويجوز تعليقه بـ«أَنبَتْنَا».

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضًا شبيهة بالحيوان الميِّت في عدم الازدياد، وإنْماؤُها بالماء شبيه بإحياء الحيوان.

(صرف) وذُكِّر لأنَّ أصله ميِّت (بالشدِّ) كما قرأ به أبو جعفر[1] وخالد، وأصل المشدَّد مويتٌ، وهو أيضًا أصل للمخفَّف، قدِّمت الياء وقلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وفعيل بمعنى فاعل يجوز إفراده وتذكيره مطلقًا، ومنه في أحد أوجه: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (سورة التحريم: ٤) ، و﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (سورة فاطر: ١٠) ، أو ذُكِّر بتأويل «بَلْدَةً» بمكان.

١-أبو جعفر هو يزيد بن القعقاع القارئ المخزوميُّ بالولاء المدنيُّ، أحد القرَّاء العشرة، ومن التابعين، كان إمام أهل المدينة في القراءة، وكان من المفتين المجتهدين، تُوُفِّيَ بالمدينة سنة ١٣٢هـ. الزركلي: الأعلام، ج٨، ص١٨٦.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الحياة المتولِّدة من الإحياء، أو مثل ذلك النبات المتولِّد من الإنبات ﴿الْخُرُوجُ﴾ خروجُ الموتى من القبور بالإحياء. أو «الْخُرُوجُ» اسم مصدر بمعنى الإخراج، فتكون الإشارة إلى الإنبات، أو الإحياء.

والآية احتجاج على صحَّة البعث: تبعثون كما يخرج النبات.

(نحو) و«كَذَٰلِكَ» خبر مقدَّم، وإن جعلنا الكاف اسمًا مبتدأ خبره «الْخُرُوجُ» كان مبالغة بالعكس، كما قيل في قولك: أبو يوسف أبو حنيفة، أي: مثل أبي يوسف هو أبو حنيفة، وكما في قولك: أبو حنيفة أبو يوسف، أي: كأبي يوسف، بأن يشبَّه بالخروج نبات الأرض، بمعنى أنَّ الأصل الخروج، وأنَّه الراسخ في نفس الأمر، فشبَّه به النبات، أو شبَّه الإنبات بالإخراج.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

التذكير بحال المكذِّبين الأوَّلين من الأمم السابقة

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾...إلخ تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لقومه، بأنَّ الأمم السابقة كذَّبوا رسلهم، كما كذَّبك قومك فيما بعثوا به من التوحيد والبعث، وكانت لهم العاقبة على أممهم، فكذلك أنت، وتقوية له ﷺ بأنَّهم بعثوا بما بعثت به من أصول الدين.

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ البئر التي لم تطوَ، أو وادٍ، وهم ــ قيل ــ قوم حنظلة بن صفوان، أو بعض من بعث إليهم شعيب عليه السلام .

﴿وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ اسم لقومه سمُّوا باسمه، كما أنَّ ثمود وعاد اسمان لرجلين سُمِّيَ قومهما بهما، وكما سُمِّـيَت قريش باسم جَدِّهم، والمراد ما يعمُّ فرعون نفسه، أو يدخل بالأولى.

﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ ليسوا من نسبه بل من أصهاره، فليس المراد أخوَّة النسب ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ قوم بعث إليهم شعيب عليه السلام، غير أهل مدين، كانوا يسكنون الأَيْكَة، وهي أرض شجر وماء مستوية أضيفوا إليها.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحِمْيريِّ المؤمن، وقومه كفرة، ولذلك ذُمُّوا و لم يُذَمَّ كما ذمَّ قوم لوط دونه، قال ﷺ: «**لا تسبُّوا تبَّعًا فإنَّه مؤمن**»[1] ﴿كُلٌّ﴾ كلٌّ هؤلاء ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ رسلهم الذين أرسلوا إليهم. ضمير «كَذَّبَ» عائد إلى «كُلٌّ» باعتبار لفظه، كلٌّ قوم كذَّب من أرسل إليه، أو كلٌّ قوم كذَّبوا الرسل جميعًا من بعث إليهم ومن بعث إلى غيرهم لاتِّحاد الدعوة.

ثمَّ إن كان تبَّع نبيئًا فلا إشكال، وإن كان غير نبيء ـــ كما هو مذهب الجمهور ـــ فتكذيبه تكذيب ما يقوله عن الأنبياء قبله، إذا دعاهم إليه، والمراد بالكلِّ إمَّا التكثير، كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة النمل: ٢٣)، وإمَّا أن يراد بالأقوام الكفرة خصوصًا، لأنَّهم المراد في مقام الوعيد ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ حلَّ عليهم، وهو كلمة العذاب بإنجازه.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أقصدنا الخلق الأوَّل وهو الخلق في الدنيا فعيينا من إتمامه؟ فضلا عن أن نقدر على الخلق الثاني، وهو العبث، أو أأتْمَمْنا الأوَّل و لم

١- رواه **الطبرانيُّ** في الأوسط: ج٢، ص٢٤٧، رقم ١٤٤١؛ وفي ج٤، ص١٧٦، رقم٣٣١٤. من حديث ابن عبَّاس. ورواه **أحمد** في مسنده، ج٦، ص٤٦٦، رقم٢٢٣٧٣. من حديث سهل بن سعد.

نقدر بعده على الثاني؟ وقيل: الخلق الأوَّل خلق السماوات والأرض، وأوَّليَّتهُنَّ بالنسبة إلى الناس، وإلاَّ فالعرش والكرسيُّ والماء قبلهما، ويناسبه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوَا اَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السَمَاوات والاَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٣) ، وذلك أنَّهم مقرُّون بخلقه إيَّاهُم.

[وقيل] : أوَّل الخلق على الإطلاق نور النبيء ﷺ وروحه، وقال الحسن: الخلق الأوَّل خلق آدم، وأوَّليَّته بالنسبة إلى حوَّاء وأولادهما إلى آخر الدَّهر، وهو ضعيف، إذ لا يتوهَّم أحد أنَّه يعيى بخلق آدم، وأيضًا لماذا يخصُّ آدم وقد خلق بعده غيره؟.

(نحو) ويتعدَّى عَيِيَ بالهمزة، فتقول: أعياه الأمر، أي: أتعبه حتَّى أعجزه، ويقال: أعيَى بالهمزة غير متعدٍّ، وصحَّح بعض أنَّ عييَ في العجز عن الحيلة، وأعيي في التعب.

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عطف على محذوف، أي: لا وجه لإنكارهم الخلق الثاني وهو البعث، وعبَّر بـ«جَدِيدٍ» ليدلَّ على تجدُّد أمر عظيم به على المكلَّف من الحساب والأهوال يجب الاهتمام به.

(بلاغة) فتنكير «خَلْقٍ جَدِيدٍ» للتعظيم باعتبار ما فيه من الحساب والأهوال لا بذاته، إذ قد يقولون لجهلهم: هو أهون من الأوَّل. أو نُكِّر لاستعظامهم له، أو لأنَّه على وجه لا يعرفه الناس.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦
إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ
١٨ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ

يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قدرة الله في خلق الإنسان، وعلمه بأحواله

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ﴾ الجنس ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ﴾ الباء لوصل الفعل، وأجيز أن تكون زائدة، ولا داعي إلى هذا، و الأصل عدم الزيادة.

﴿نَفْسُهُ,﴾ ما تتكلّم به نفسه على وجه الخفاء، كوسوسة الحلي. وهاء «بِهِ» للموصول، ويجوز شمولها للإنسان، على أنّ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي: نعلم وسوسة نفسه، فتكون الباء للإلصاق، أو ظرفيَّة، وقيل: للتعدية، بمعنى: إنّ النفس تجعل الإنسان قائمًا به الوسوسة. والمضارع للاستمرار.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فلا يخفى علينا شيء من شأنه، والإضافة للبيان، أي: من حبلٍ هو الوريد، شُبِّهَ عرق في العنق بالحبل مُتَّصِلٍ بالقلب يُسَمَّى فيه الوتين، وإلى الظهر وَيُسَمَّى فيه الأبهر، وإلى الذراعين والفخذين وَيُسَمَّى فِيهِنَّ الأكحل والنسا، وفي الخنصرتين الأسلم، وهو نهر الجسد.

وفي العنق اثنان هما: الوريدان، مكتنفان لصفحتيِ العنق في مقدَّمها، وهما من الرأس. فعيل بمعنى فاعل، لأنَّهما يردان من الرأس؛ أو بمعنى مفعول، لأنّ الروح يردُّه، وهو متَّصل بالكبد أيضًا، وفيه مجاري الروح.

والقرب من الشيء سبب للعلم به وبأحواله في الجملة، فالمراد في الآية العلم؛ أو ذلك من باب التمثيل، ومن ذلك قولهم: مقعد القابلة ومقعد الإزار، والله تعالى منزّه عن الحلول والقرب الحِسِّي.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الملكان الموكَّلان على كتابة عمل الإنسان، فالتلقِّي ملاقاة الفاعل، ليكتبا عمله، ليكونا هُمَا وكتابتُهما حجَّةً عليه يوم يقوم الأشهاد.

وفي إعلام الله بتلقِّيهما زجر عن عمل السوء وترغيب في عمل الحسن، وذلك حكمة الكتابة، والله غنيٌّ عنها، كما أخبرنا الله أنَّه أقرب إليه بالعلم بما يفعل حين يراه الملكان، ويكتبان ما يفعل، فإنَّ «إِذْ» متعلِّق بــ«أَقْرَبُ»، فالمعنى: إنَّه أعلم منهما بما فعل حين يكتبانه، وليس في كونه أقرب ــ أي: أعلم في ذلك الوقت ــ نفيُ كونِه أَقْرَبَ في غيره، إذ لا حصر في الآية وإنَّما خصَّه بالذكر ليزدجر عن السوء إلى الحسن.

﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ قعيد، حُذِفَ للدلالة عليه بقوله: ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

(صرف) وقال الفرَّاء: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل (بضمِّ الميم) يصدق على الواحد فصاعدًا فلا حذف، فمعنى «قعيد» قاعدان أو مجالسان، ولا يختصُّ ذلك بفعيل بمعنى مفعول كما قيل، بل هذا معروف فيه لا في فعيل بمعنى مفعول، وعلى كلِّ حال المراد قعيدان في الآية لا واحد، وأنَّ أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله في قعوده وقيامه وسيره.

[قلت:] ولايصحُّ ما قيل: عن معاذ بن جبل عنه ﷺ : «إنَّهما على الناجدين، وإنَّ لسانه قلمهما، وإنَّ ريقه مدادهما». ويبعد أن يراد باليمين والشمال الناجد الأيمن والناجد الأيسر.

ولا ما قيل: عن ابن عبَّاس في اليمين والشمال حال القعود والوقوف، وخلف وقدَّام في المشي، وعند الرجلين والرأس عند الاضطجاع. ولا ما قيل: إنَّهما على طرفي الحنك. **بل نؤمن بالآية على ظاهرها.**

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ممَّا له ثواب أو عقاب فقط عند ابن عبَّاس، ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملكٌ مراقِبٌ يكتبه، ويكتب أيضًا حسنات الأطفال، وقد قيل: إنَّ الأطفال مأمورون أمر نَدْب، صاحبُ اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السَّــيِّـئَات.

﴿عَتِيدٌ﴾ محضَّر مُهَيَّأ للكتب، ولم يذكر الفعل لعلم حكمه من القول، ومن الآي الأخر[1]، ولأنَّ الكلام قبل وبعد في الألفاظ، ومن جنسها ما توسوس به النفس، وسواء في ذلك الكافر والمؤمن، ويكتبان الاعتقاد أيضًا، والتقرير.

وعن حذيفة بن اليماني: إنَّ للكلام سبعة أغلاق إذا خرج منها كلِّها كُتب، وإلاَّ لم يُكتب: القلب واللهاة واللسان والحنكان والشفتان، ولا يكتبان ما في القلب معصية أو طاعة أو غيرهما. وقيل: يكتبان كلَّ ما يخرج ولو مباحًا أو غلطًا أو نسيانًا.

ولا يكتبان ما في القلب ولو طاعة أو معصية، وقال الحسن: يكتبان ما فيه، وما في الخارج طاعة أو معصية أو غيرهما عمدًا أو نسانًا. وقيل: يُكتب كلُّ شيء، ويوم القيامة ــ أو كلَّ يوم خميس أو كلَّ يوم إذا صعد العمل إلى السماء ــ أسقط ما لا شرَّ فيه ولا خَيْرَ، مثل: يا غلام اسقني، وياغلام أسرج الدَّابَّة، وأكلت، وشربت، وجئت، وذهبت.

فقيل: ذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُ اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثَبِّتُ﴾ (سورة الرعد: ٣٩) ، وإن أراد بالمباح طاعة أو معصية فقد يظهر الله لهما إرادته بأثر في فعله وقد لا يظهره.

١- كما في آية سورة الانفطار: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} الآيات ١٠ ــ ١٢.

[قلت:] والصحيح أنَّهما لا يكتبان ما في القلب ولا يطّلعان عليه، لقوله تعالى: «**أنتم الحفظة على ظاهر عبدي، وأنا الرَّقيب على ما في قلبه**»[1]، تزكّي الملائكة العمل فيقول الله تعالى: اضربوه به، فإنَّه لم يردني به. ويحتقران عملاً ويقول الله تعالى: ضاعفوه واجعلوه في علّـيِّين، وإنَّا أعلم به، ويقول: اكتبوا لفلان كذا، فيقولون: يا ربِّ لم يفعله، فيقول: إنَّه نواه.

وأمَّا قوله تعالى: «**اكتبوا لعبدي ما كان يعمل قبل سفره وقبل مرضه**»[2]، فلا دليل فيه على علمهم بما في القلب، لأنَّه يحمل على ما ظهر لهم من أعماله قبل هكذا، وعلى كتابة ما ليس طاعة ولا معصية فهو يكتبه ملك الشمال، لرواية الأوزاعي عن حسَّان بن عطيَّة: إنَّ رجلاً عثر به حماره فقال: تَعِسْتَ، فقال صاحب اليمين: ما هي حسنة فاكتبها، وقال صاحب الشمال: ماهي سَـيِّـئَة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال: ما ترك صاحب اليمين فاكتبه.

وعلى هذا إنَّه لم يرد بتَعِسْتَ الجزعَ من قضاء الله أو ظُلْمَ الحمارِ بالسُّوءِ فقد يظهر الله تعالى فيه ظلمة المعصية وقد لا يظهره، وكذا ما احتمل الطاعة فقد يظهر الله فيه النور إذا أريدت به.

وملك اليمين أمين على صاحب الشمال إذا عمل حسنة كتبها في الحين بعشر، وإن عمل سَـيِّـئَة قال لملك الشمال: أخِّره ستَّ ساعات أو سبعًا لعلَّه

١- أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج٨، ص٢٦٦. والسيوطي في الدر: مج٦، ص١٤٤. وقال: أخرجه ابن المبارك وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وأبو الشيخ في العظمة، عن حمزة بن حبيب. وأوَّل الحديث هو قوله ﷺ : «إنَّ الملائكة يصعدون بعمل العبد...».

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ تماما، وقد أورد السيوطي في الدر مج٦، ص١١٥ ما يقاربه لفظا ومعنى.

يتوب، فإن لم يتب كتب واحدة.

ولا يُكتب عن مجنون شيء ولا عن سكران بنحو مرض، ويُكتب عن سكران خمر كلّ ما فعل أو قال من معصية.

ويظهر أنّ للجنّ ملائكة يكتبون عليهم وهم كالإنس، وإنّه ليس للملائكة من يكتب لهم، وإلاّ تسلسل، إلاّ أن يقال: يكتب الملك لآخر ويكتب له الآخر أو غيره من الملائكة. ويروى أنّ للملائكة ملائكة حفظة عليهم.

وعن أنس أنّه ﷺ قال: **«إنّ ملكي العبد يقومان على قبره يحمدان الله ويسبّحانه ويكبّرانه بأمر الله تعالى، ويقول لهما: اكتب ذلك له، ويقومان على قبر الكافر يلعنانه»**.

وعن الحسن: الحفظة اثنان بالنهار واثنان بالليل، وهو يحتمل التبدُّل فملائكة كلّ يوم وليلة غير ملائكة اليوم والليلة قبلهما ويحتمل عدم التبدُّل، وقيل: ملائكة الحسنات يتبدَّلون تنويهًا بشأنه لا ملائكة السَّـيِّـئات سترًا له. ويفارقه الملائكة عند الجماع والخلاء ولا يمنعهما ذلك عن كتب ما يصدر عنهما. وعن عثمان أنّه سأل رسول الله ﷺ كم ملك للإنسان ؟ فذكر له عشرين. والمعقّبات في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ (سورة الرعد: ١١) ، غير الكاتبين.

وعن عبد الله بن المبارك وكّل بالعبد خمسة أملاك، اثنان بالليل واثنان بالنهار يتبادلان، وواحد لا يفارقه. والله أعلم بصحَّة ما قيل عن ابن عطيَّة: على الإنسان من حين كان نطفة في الرحم إلى أن مات أربع مائة ملك.

وجملة: «اِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» حال من ضمير «يَلْفِظُ».

والآية في أهل التوحيد وأهل الشرك. [قلت:] وزعم بعض أنّ أهل الشرك لا حفظة لهم، لأنّ أمرهم ظاهر وعملهم واحد ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ

بِسِيمَاهُمْ﴾ (سورة الرحمن: ٤١) ، ولا يؤخذ بذلك، بل لهم حفظة، والآية نزلت فيهم، قال الله ﷻ : ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورةالانفطار: ٩ ــ ١٢) .

﴿وَجَآءَتْ...﴾ تقرير للبعث الذي أنكروه بذكر بابه وهو الموت وبذكر النفخ **﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾** أي: شدَّته، شبِّهت شدَّته بسكرة العقل، لأنَّ كُلاًّ يصيب العقل بِضُرٍّ، أو شُبِّهَ الموتُ بالخمر لجامع الإصابة، ورمز إليه بلازمه وهو السكر، والإضافة للجنس، أي: سكراته بالجمع، كما قرأ به ابن مسعود، وكما روت عائشة رضي الله عنها أنَّه كانت بين يدي رسول الله ﷺ [في مرض موته] ركوة أو علبة يدخل يديه فيها ويمسح وجهه بهما، ويقول: «**لاَ إِله إِلاَّ الله إنَّ للموْتِ سَكَرات**»[١] رواه البخاري وغيره. وعن عائشة يدخل يده في قدح ويمسح وجهه بالماء ثمَّ يقول: «**اللّهمَّ أعِنِّي على سكرات الموت**»[٢].

﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء للتعدية، أي: أجاءته، أي: صيَّرته جائيًا، كقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (سورة مريم: ٢٣) ، والمعنى أحضرت سكرة الموت الحقَّ الذي نطق به القرآن، أو الحقَّ الذي هو السعادة أو الشقاوة،

١- رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (٤٢) باب سكرات الموت، رقم٦٥١٠. ورواه **التبريزي** في كتاب الفضائل (٩) باب في هجرة الرسول ﷺ ووفاته، رقم٥٩٥٩. من حديث عائشة. وأوَّل الحديث عن هذا الأخير هو قولها: «إنَّ من نعم الله عليَّ أنَّ رسول الله ﷺ تُوُفِّيَ في بيتي وفي يومي...».

٢- رواه **ابن ماجه** في كتاب الجنائز (٦٤) باب ما جاء في ذكر مرض الرسول ﷺ ، رقم١٦٢٣. **والتبريزي** في كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر المريض وثواب المرض، رقم١٥٦٤. من حديث عائشة.

أو الأمر الذي هو لا بدَّ منه، وهو الموت والحساب والجزاء. والباء للملابسة، أي: مقترنة بالحكمة والغاية الجميلة، أو بحقيقة الأمر. والماضي هذا وقوله: ﴿وَنُفِخَ﴾ و﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ لتحقُّق الوقوع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحقُّ أو الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ الخطاب في المواضع الثلاثة للفاجر، ولا يصحُّ أنَّه للإنسان فاجرا أو بَارًّا، وأنَّ الإشارة للموت، لأنَّ الكلام في الكفَّار. وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ﴾ فلإثبات العلم بجزئيَّات أحوال الإنسان، وتضمين شبه الوعيد والتخلُّص والخروج إلى بيان أحواله في الآخرة، وكذا ناسب: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ﴾ يناسب خطاب الكفرة في تلك المواضع الثلاثة وبه قال صالح بن كيسان[1]. وقال الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عبَّاس: الإشارة للموت والخطاب للإنسان بَارًّا أو فاجرًا.

ومعنى «تَحِيدُ» تميل وتنفر عن الموت، والنفرة عن الموت تعمُّ أفراد الإنسان. والظاهر أنَّ قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ...﴾ لا بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾.

فالمناسب أنَّ المشار إليه «الحقُّ»، والخطاب للفاجر والبارِّ، لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ...﴾ وتفصيله بـ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ **قلنا: هذا العموم أولى.**

كما روي أنَّه مات الوليد بن الوليد بن المغيرة قالت أمُّ سلمة: يا عين

١- صالح بن كيسان المدنيُّ: مؤدِّب أبناء عمر بن عبد العزيز، كان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه، وهو أحد الثقات في رواية الحديث، تُوُفِّيَ سنة ١٤٠هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٩٥.

فابك للوليد بن الوليد بن المغيرة، فقال ﷺ : لا تقولي ذلك وقولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ...﴾، وَلَمَّا حضرت الوفاة أبا بكر تمثّلت عائشة رضي الله عنها بقول الشاعر:

أعاذل ما يغني الــثراء عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يَومًا وضاق بها الصدر[1]

فقال: يابنيّ قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ...﴾. ويروي قالت:

«وأبيض يستسقى الغمام بوجهه...» البيت

فقال: قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ...﴾.

وقال بعض: الذي يتبادر بأوّل وهلة أنّ الخطاب للنبيء ﷺ ، كما روي عن زيد بن أسلم ولكنّهم ردُّوا عليه، ووجه ذلك أنّه ﷺ ينفر عن الموت بالطبع، ولو كان يحبُّ لقاء الله، وأنّك تنفر عنه أنت فكيف هم؟ يقرأ عليهم الآية فيُقرُّون أنّهم أحقُّ بالنفرة منه، وقد خوطب ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ...﴾، قلت: لا يَصِحُّ، لأنّ قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ...﴾ خطاب للكافر أيضًا.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ النفخ المعلوم من «نُفِخَ» على تقدير مضاف، أي: وقت ذلك النفخ، ويضعف ردُّ الإشارة إلى زمان «نُفِخَ»، لأنّ الإشارة إلى زمان يدلّ عليه الفعل غير معروفة، والمعروف الإشارة إلى المعنى المصدريّ من الفعل، لأنّه من لفظ الفعل، وليس الزمان من حروفه.

﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ إنجاز قولنا: سيعذّبون، وإنفاذه وتصديقه بإحضار

١- البيت بلا نسبة في اللسان بلفظ:

لعمرك ما يغني الثراء ولا الغنى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٣٧. مادة: «حشرج».

العذاب، أو يوم العذاب الموعود. والاقتصار على ذكر الوعيد دون الوعد ممَّا يناسب أنَّ الخطاب قبلُ للفاجر، ووجه الاقتصار عليه إذا كان الخطاب عامًّا التهويل ليزداد البارُّ برًّا، ويزدجر الكافر، ويقول لذلك: لَعَلَّ ذلك حقٌّ إذ خافه البارُّ مع بِرِّه.

﴿وَجَآءَتْ﴾ إلينا، أو إلى الموقف، أو إلى الحساب والجزاء ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بارَّةٍ أو فاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك سائق لها إلى الموقف، أو إلى الحساب والجزاء، أو إلينا، وملك آخر شاهد بعملها عظيمان، كما دلَّ عليه تنكيرهما، وكما يدلُّ على عظم الشهادة بفعيل لأنَّه أشدُّ من فاعل.

روى جابر أنَّهما ملك الحسنات وملك السَّـيِّـئات، فلعلَّ السائق ملك السَّـيِّـئَات، والشهيد ملك الحسنات. وعن أبي هريرة: السائق ملك الموت، والشهيد النبيء ﷺ . وفي رواية عن أبي هريرة: السائق ملك الموت، والشهيد العمل. وقيل: الشهيد كتابه يلقاه منشورًا.

وعن ابن عبَّاس: السائق الملك، والشهيد الجوارح، ويردُّه قوله: ﴿مَعَهَا﴾ فإنَّ الجوارح نفسه لا شيء آخر معها، وأيضًا الجوارح تشهد على الكافر بمعاصيه، والآية له وللبارِّ.

وقيل: السائق والشهيد ملك واحد، والعطف لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، أي: ملك يسوقها ويشهد لها وعليها.

وقيل: السائق نفس الجائي والشهيد جوارحه، ويردُّه أنَّ الجائي نفس الجوارح على حدة، والجواب بالتجريد بعيد بأن يجرَّد منه جوارح، ويردُّه أيضًا أنَّ الجوارح تشهد على العاصي بعصيانه، والآية في العاصي والمطيع.

وقيل: السائق قرينه من الشياطين، وهو ضعيف، وكأنَّه لَمَّا ساقه في الدنيا

إلى المعاصي ساقه يومئذ.

وقيل: المراد الجنس، ملائكة يسوقون وملائكة يشهدون، وهم الحفظة، ومن يشهد من الإنس وغيرهم، كالبقاع، كما جاء: «**لا يسمع صوت مؤذّن إنسٌ ولا جانٌّ ولاشيء إلاّ شهد له يوم القيامة**»[1] ونحو ذلك. ولكن مثل ذلك في الشرِّ من عصى الله في موضع شهد عليه الموضع، ورُقْعةُ السماء فوقه، ونحو هذا.

(نحو) أو جملة «مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» يتبادر أنّها حال من «كُلُّ» ولو كان نكرة لإضافته ولعمومه، أو نعت ولو كان مضمونها غير معلوم عند المخاطين، لجواز النعت بما لم يعلم مضمونه قصدًا إلى إنشاء المعرفة به للمخاطب، نحو: جاء الرجل البارُّ بوالديه، تخاطب به من لم يبرَّه لتفيد أنّه يبرُّهما[2].

﴿لَقَدْ كُنتَ﴾ خطاب للجنس الكافر، محكيٌّ بقول محذوف مستأنف، كأنّه قيل: فماذا بعد مجيء كلِّ نفس معها سائق وشهيد؟ فقيل: يقال للكافر: «لَقَدْ كُنتَ» ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمة، أي: إعراضٍ عظيم القبح، حتّى كأنّه ممَّا لا يصدر عن العاقل عمدًا مستمرًّا، بل هفوة ﴿مِّنْ هَذَا﴾ عن هذا الحاضر المشاهد الموعود به، من البعث وما بعده، كأنّه حضر وأشير إليه.

١-رواه **الربيع** في كتاب الصلاة ووجوبها (٢٧) باب في الأذان، رقم ١٧٦. وأوّل الحديث عنده أنّه ﷺ قال لرجل: «إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ وَبَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ لِلصَّلاَةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْمَعُ صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ...». ورواه **البخاري** في كتاب التوحيد (٥٢) باب قول النبيء ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»، رقم ٧٥٨٤، من حديث أبي ذرٍّ.

٢- كذا في النسخ، ولعلّ الصواب: «جاء رجل بارٌّ بوالديه» بالنكرة في اللفظين.

ويجوز جعل «منْ» للابتداء، أي: في غفلة متحصِّلة من شأن هذا. ويجوز أن تكون الجملة محكيَّة بقول مقدَّر نعت لـــ«نَفْسٍ»، أو حال.

والخطاب للكافر والمؤمن، أي: كلُّ نفس مقول لها أو مقولاً لها: «لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا»، والمؤمن لا يخلو من إعراض بملل أو فترة. وجوِّز الاستـــئناف على عموم الخطاب.

وقال زيد بن أسلم[1]: الخطاب في: ﴿لَقَدْ كُنتَ...﴾ للنبيء ﷺ، أي: لقد كنت في غفلة، أي: ذهول عن هذا، أو عدم علم به ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾. وَيَدُلُّ لمَا مَرَّ من أنَّ الخطاب للجنس الكافر أو له ولجنس المؤمن قِراءة الجحدري[2] بكسر تاء «كنتِ» خطابا للنفس المذكورة، وقراءته وقراءةُ طلحة بن مصرف[3] بكسر الكافات الثلاث، فإن قرأ مع ذلك بفتح التاء فبالنظر إلى لفظ «كُلّ».

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ بمشاهدة ما أنكرت في الدنيا، وعلى عموم المؤمن فإنَّه يزداد مع إيمانه في الدنيا كشفنا بالمشاهدة. والغطاء: الحجاب المانع

١- زيد بن أسلم العدويُّ العمريُّ مولاهم، أبو أسامة: فقيه مفسِّر محدِّث من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيـــام خلافته، له حلقة في المسجد النبويِّ وكتاب في التفسير، وراه عنه ولده عبد الرحمن. تُوُفِّيَ سنة ١٣٦هــ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٥٦.

٢- هو كامل بن طلحة الجحدريُّ، أبو يحيى: من رجال الحديث، ولد بالبصرة سنة ١٤٥هــ، وسكن بغداد إلى أن تُوُفِّيَ بها سنة ٢٣١هــ. وهو ثقة عند بعض المحدِّثين: الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٢١٧.

٣- طلحة بن مصرف بن كعب بن عمرو الهمذانيُّ الكوفيُّ أبو محمَّد: أقرأ أهل الكوفة في عصره، كان يلقَّب «سيِّد القرَّاء»، وهو من رجال الحديث الثقات، ومن أهل الورع والنسك، شهد وقعة الجماجم. وقال: رميت فيها بأسهم ولوددت أنَّ يدي قطعت ولم أشهدها. تُوُفِّيَ سنة ١١٢هــ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٣٠.

المغطّي لأمور المعاد عن الإدراك، بالانهماك في اتّباع الهوى والشهوات، والمراد: غطاء قلبك، أو غطاء العينين على الاستعارة.

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ﴾ الحاضر وهو يوم القيامة مطلقًا، ويزداد إذ كان الخطاب للنبيء ﷺ وجه آخر: هو أنّ اليوم يوم نزول آية البعث ﴿حَدِيدٌ﴾ نافذ بالمشاهدة يوم القيامة، أو بنزول آية البعث الآن.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قرين النفس المذكور، لأنّ النفس يُذكّر ويؤنّث، وهو الشيطان المقرون للنفس، يغويها للابتلاء من الله تعالى، قال ﷺ : «**ما من أحد إلاّ وكّل به قرينه من الجنّ**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلاّ أنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بالخير**»[1].

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا الكافر ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ما هو عتيد، أي: مهيًّأ للنار، في قبضتي بإغوائي، وهذا يُعيِّن أنّ الخطاب للكافر في المواضع، لكن لا مانع أن

١-وراه **مسلم** في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس... رقم٢٧١٤. وابن **خزيمة** في كتاب الصلاة، باب وضع الكفّين على الأرض... رقم٦٥٨، من حديث ابن مسعود.

يكون له هنا وفيما هناك له وللمؤمن، ولا تنافي الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ,﴾ لأنَّ هذا نظير قوله عَجَلَّ : ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ (سورة النساء: ١١٩) ، و﴿وَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢) ، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ,﴾ نظير ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ الآَّ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٣) .

وقال قتادة: قرينه الملك الموكل بسوقه، يقول مشيرًا إليه: هذا ما لديَّ حاضر، وقال الحسن: كاتب سَيِّئَاته مشيرًا إلى ما في صحيفته: «هيأته للعرض». وقيل: قرينه عمله. ويردُّ هذه الأقوال الثلاثة قوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ,﴾ فإنَّ عَمله لا يقول ذلك، والمَلَك لا يتبادر أن يقوله أيضًا.

(نحو) و«هَذَا» مبتدأ، و«مَا» خبر، و«لَدَيَّ» متعلّق بـ«عَتِيدٌ»، و«عَتِيدٌ» خبرٌ لمحذوف، أي: هو عتيد لديَّ، والجملة صلة «مَا» وحذف صدر صلتها للطول، أو «لَدَيَّ» صلة «مَا» و«عَتِيدٌ» خبر ثانٍ.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب للسائق والشاهد، أو للملكين من خزنة النار، أو لملك واحد على أنَّ الألف ليست للتثنية بل بدل من نون التوكيد الخفيفة، أبدلت في الوصل إجراء له مجرى الوقف، فإنَّ إبدالها ألفًا من شأن الوقف، ويدلُّ على هذا الوجه قراءة الحسن «أَلْقِيَنْ» بنون التوكيد الخفيفة. أو الألف ضمير الواحد خطابًا له بخطاب الاثنين بدل خطابه بتكرير الفعل، أي: ألق ألق، كقوله:

وإن تزجراني يا ابن عفان انزجر وإن تَدَعانِي أَحْمِ عرضًا مُمَنَّعَا[1]

وذلك معمول دفعة، وقيل: حذف ألق الثاني ووصل ضميره بضمير الأوَّل فكانا تثنية، وهو مجاز بعيد، **والصحيح ما ذكرته أوَّلاً**، ويليه الثاني. وعلى كلِّ

---

١ -البيت من الشواهد، وهو لسويد بن كراع العكلي. إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج٤، ص٢٤٢.

حال القول مقدَّر.

(صرف) ويقال: يُعبَّر بصورة الاثنين عن واحدة كالآية، وكانوا يسافرون ثُلاثَ فيخاطب الواحد الاثنين، فجاءت الآية بصورة ذلك، ويعبَّر بصورهما عن الجمع نحو: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (سورة الملك: ٤) ، وبصورة الجمع عن المفرد نحو: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩) ، وعن المثنَّى نحو: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (سورة التحريم: ٤) ، أي: قلباكما، ومثل ذلك خطاب الاثنين في مقام خطاب الواحد، كقوله تعالى وعَزَّ : ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الاَرْضِ﴾ (سورة يونس: ٧٨) ، بعد قوله تعالى: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾، وخطاب بالجماعة في مقام خطاب الواحد، كقوله تعالى : ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ﴾ (سورة الطلاق: ١) ، وخطاب الواحد في مقام خطاب الاثنين، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ (سورة طه: ٤٩) ، والأصل: يا موسى وهارون، وينتقل من خطاب الاثنين إلى خطاب الجماعة، كقوله تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ (سورة يونس: ٨٧) ، ومن خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ (سورة يونس: ٨٧) ، وإلى خطاب الاثنين كقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالاِنسِ إِنِ استَطَعْتُمْ... فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٣٣) .

﴿عَنِيدٍ﴾ مبالغ في العناد بالجحود والتمرُّد، أو هو من قولك: عَنَد عن الطريق، أي: انحرف عنه؛ أو من العند وهو عظم يعرض في الحلق، أي: ضارٌّ مشاقٌّ. وأمَّا تفسيره بالمعجب بما عنده فتفسير بالمعنى الواقع.

﴿مَّنَّاعٍ﴾ عظيم المنع ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ للمال عن الزكاة والضيافة واليتامى والمحتاج، والكفَّارةِ، شُحًّا وبغضًا لأمر الإسلام، وقال مجاهد وعكرمة: للزكاة،

وقيل: للإسلام، **ويجوز كونه في المال والإسلام ومطلق الخير**.

قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، قال لبني أخيه: من دخل منكم في الإسلام لن أنفعه بمالي ولابغيره ما عشت، فهذا منعٌ للإسلام ومنع للمال ولكُلِّ نفعٍ عمَّن يسلم. والمبالغة في «مَنَّاعٍ» للكيف والكمِّ، بمعنى: إنَّ منعه شديد، وأفْرَادُ منعه كثيرة، يمنع كلَّ سائل وبني أخيه كلَّما سألوه.

﴿**مُعْتَدٍ**﴾ مجاوز للحدود الشَّرعيَّة، ﴿**مُّرِيبٍ**﴾ داخل في الريب، أي: في الشكِّ في دين الله والبعث ﴿**الذي جَعَلَ مَعَ اللهِ**﴾ صيَّر أو اعْتَقَدَ مع الله ﴿**إِلَهًا ءَاخَرَ**﴾. «الذي» بدلٌ من «كُلِّ»، أو بدل من «كَفَّارٍ»، والمراد بـ«الذي» الجنس، أو منصوب على الاشتغال، والفاء صلة أو مبتدأ خبره جملة طلبيَّة من قوله تعالى:

﴿**فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾ والفاء لشبهه باسم الشرط في العموم، ولايتكَرَّر ذلك الإلقاء في العذاب مع الإلقاء في جهنَّم، لأنَّ الكفر أعمُّ من جعل إلها آخر مع الله تعالى، والكفر بجعل إلها آخر أشدُّ قبحا من الكفر بغيره تعالى، فذلك ذكر خاصٍّ بعد عامٍّ.

وأيضًا ذكر العذاب الشديد تخصيص، كأنَّه قيل: ألقياه في موضع العذاب الشديد في جهنَّم، ولا عذاب غَيْرُ شَديدٍ لَكِنَّ المراد شديدا جدًّا فوق سائر عذابها، حتَّى إنَّه يعدُّ سائر عذابها بالنسبة إليه غير شديد.

(نحو) والقول المقدَّر قبل «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ» منسحب على هذه الجملة، أو قَدِّرْ هنا قولاً، أي: فيقال ألقياه، ويجوز أن يكون «أَلْقِيَاهُ» تأكيدًا للأوَّل قُرِنَ بالفاء كما يقرن بثُمَّ، قيل: أو بالواو، وذلك على أنَّ «الذي» بدَلٌ، يقال: قام قام، وقام ثمَّ قام، وقام فقام، تأكيدًا إذا لم يكن لَبْسٌ بالعطف.

﴿**قَالَ قَرِينُهُ**﴾ شيطانه المقرون به للإغواء ﴿**رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ**﴾ ما حملته على

الطغيان بالإجبار، وهذا الكلام يستدعي أنّ الكافر اشتكى إلى الله عَجَلَّ بأنّ قرينه أضلّه وطَمِعَ أن يكون له عذر أو يعذّب قرينه بدله، أو يخفّف عنه العذاب، ويكون تحته في النار أو نحو ذلك.

أو القرين: كلٌّ من قرن به ويغويه من الإنس أو الجنّ، وعن ابن عبَّاس: القرين الملَك، يقول الكافر: إنّ الملك زاد عليَّ من السيّئات ما لم أفعله، فيكون معنى ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُ﴾ ما زاد عليه ما يكون به طاغيًا.

﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلاَلِۭ﴾ باختياره لا بإجبار، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ...﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢) ، ﴿بَعِيدٍ﴾ راسخ شديد من جهة نفسه، حتَّى أثّر فيه أدنى وَسْوَاسٍ، فذلك هو البعد، وقيل: بعيد عن الحقّ لم يقرب منه، وكأنّه قيل: فما قال الله عَجَلَّ ؟ فقال:

﴿قَالَ﴾ الله عَجَلَّ : ﴿لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ أي: عندي في موقف الحساب، وليس ينفعكم اختصامكم، والحال أنّي قد أنذرتكم وبيّنت لكم في الدنيا، كما قال: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ في كتبي وعلى ألسنة رسلي، افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، وأنّه من عصاني أعذّبه، وجاءكم أنّي قلت لإبليس: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ منكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ (سورة ص: ٨٥) . والباء صلة، و«الْوَعِيدِ» مفعول به؛ أو ﴿قَدَّمْتُ﴾ بمعنى تقدّمت فالباء على أصلها.

ولا يصحُّ أن يكون قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ مفعولا به لـــ«قَدَّمْتُ» إلاّ على أنّ المراد هذا اللفظ الذي هو: ﴿مَا يُبَدَّلُ...﴾ أو تقدير أنّه ما يبدّل، أو تضمين ﴿قَدَّمْتُ﴾ معنى قلت.

والأصل خلاف ذلك كلّه، فهو مستأنف في مجموع ما انسحب عليه قوله: ﴿قَالَ﴾. و«لَدَيَّ» متعلّق بـــ«يُبَدَّلُ»، ولاحاجة إلى تعليقه بالقول، والقول هو قوله عَجَلَّ : ﴿لأَمْلأَنَّ جهَنَّمَ﴾، أو الوعيد مطلقًا، أو قوله يوم خلق العباد: هذا

سعيد وهذا شقيٌّ، أو قوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾، أو مطلق الوعد والوعيد.

والمُرَادُ: لاَ أُبَدِّلُ القولَ ولا يبدِّله غيري، لا طاقة لأحدٍ أن يبدِّل ما قلت ﴿وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إنَّما أجازيكم بأعمالكم، وقد فعلتموها باختياركم، لا بإجباري، ولو أجبرتكم عليها وعاقبتكم عليها لكنت ظالمًا لكم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ متعلّق بـ«ظَلاَّمٍ»، أو بـ«يُبَدَّلُ»، أو مفعول به لـ«اذكُر»، أو لـ«أنذر»، لأنَّه كما يقال: أنذرهم بكذا يقال: أنذرهم كذا. وقوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ إيحاءٌ إليها بملَك، أو بخَلْقِ كلامٍ حيث شاء، وقولها هو نطق بإذن الله، يخلق فيها عقلاً ونطقًا، [قلت:] وقد تُعُبِّدنا باتِّباع الظواهر كما في قول جهنَّم ما لم يمنع مانع كما في قول الله فإنَّه منزّهٌ عن التلفّظ.

ومن تمييز النار وعقلها وتمييز الجنَّة وعقلها تحاجُّهُما، تقول النار مفتخرة: «إنَّه وضع فيها المتكبِّرون»، وتقول الجَـنَّة: «ما لي لا يدخلني إلاَّ الضعفاء؟»، فيقول الله ﷻ للنار: أنت عذابي، وللجنَّة: أنت رحمتي.

[قلت:] **ولعلَّ الحديث موضوع** وكيف تفتخر النار بالعصاة؟ وكيف يهون على الجنَّة من يدخلها؟ وإن لم يكن موضوعًا فالمراد: **التمثيل والبيان فلا نطق ولا محاجَّة.**

ولا حاجة إلى قول بعض: يوم نقول لخزنة جهنَّم هل امتلأت جهنَّم؟ وتقول هي ـــ أي: خزنتها ـــ : هل من مزيد ؟ .

و«مِنْ» صلة لتأكيد العموم، و«مَزِيدٍ» مبتدأ خبره محذوف، أي: عندك، أو لي، سواء جعلناه مصدرًا ميميًّا بمعنى الزيادة أو اسم مفعول، أي: مزيود، أثقلت الضمَّة على الياء فحذفت، وقلبت الواو ياءً لكسر محدث قبلها وحذفت الياء الأولى أو الثانية للساكن.

وقيل: المراد إنَّها متَّسعة يبقى فيها فراغ عَمَّن يدخلها من الإنس والجنِّ، فذلك كناية عن اتِّساعها، وليست تطلب الزيادة حقيقة، ويعترض بقوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ فلا فراغ فيها، وأجيب بأنَّ المراد بملئها إكثار داخليها، حتَّى لا تخلو طبقة من طبقاتها من كثرة، وهذا معتاد، تقول: امتلأت القرية بالناس، تريد كثرتهم، ولا تريد أنَّه ما فيها فراغ.

(بلاغة) والاستفهام للتقرير، ويجوز أن يكون المعنى أنَّها لا تقبل الزيادة، فيكون الاستفهام للإنكار، وبه قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما، ونجمع بين ذلك بأن يكون فيها فراغ فتطلب الزيادة، حتَّى تمتلئ.

وفي حديث أنس عنه ﷺ : «**لا تزال تطلب المزيد حتَّى يضع الربُّ فيها قدمه**» وفي حديث أبي هريرة: «**حتَّى يضع الربُّ فيها رجله**»[1] وذلك تقرير للزيادة لا إنكار لها.

[قلت:] والقدم عبارة عمَّا يقدَّم إليها آخرًا، فلا تزال تستزيد ويلقى فيها ما يلقى حتَّى يلقى فيها آخر ما يلقى، أو المعنى: حتَّى يتمَّ فيها ما قضى الله أن يتقدَّم إليها، كقوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ (يونس: ٢) ، أي: متقدَّم صدق. والرِّجل الجماعة، كما في حديث أيُّوب عليه السلام : «**وَأَلقَى اللهُ إِلَيهِ رِجْلاً مِن جَرَادٍ**»[2]، أي: جماعة من جراد من ذهب.

أو وضع القدم والرجل عبارة عن كفِّها عن طلب الزيادة وإبطاله، كما تقول: وضعته تحت قدمي، تريد إبطاله.

١- هذا جزء من حديث سيأتي تخريجه في الصفحة الموالية.

٢- راجع القصَّة في التيسير، ج١٢، ص٢٠٥. وروح المعاني للألوسي، مج٩، ص١٨٨، في تفسير الآية.

(أصول الدين) وسلف الأَشعَرِيَّة يقولون: «إنَّ ذلك قدم ورجل بلا كيف»، ويعرضون عن التأويل. ونقول: الحديث إن لم يكن موضوعًا فهو مؤوَّل بما مرَّ لا محالة.

وعن ابن عبَّاس: «سَبَقَت كَلِمَةُ اللهِ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» فتقول: ألست أقسمت لتملأنِّي؟ فيضع قدمه فيها، فيقول: «هل امتلأت، فتقول قط قط، قد أمتلأت ولا مزيد في».

ولفظ البخاري ومسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ : «**لا تزال جَهَنَّم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد ؟ حتَّى يضع ربُّ العرش**»، وفي رواية: «**ربُّ العزَّة**» وفي رواية: «**الربُّ فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، بعزَّتك ولا يزال في الجَـنَّة فضل حتَّى ينشئ الله تعالى لها خلقا آخر فيسكنهم فضول الجَـنَّة**»[1] ولأبي هريرة نحوه، وزاد: «**ولا يظلم الله أحدًا من خلقه**».

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٥٠) باب تفسير سورة ق ١ ، باب قوله: {وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}، رقم٤٨٥٨. من حديث أبي هريرة. و**الترمذي** في كتاب التفسير (٥١) باب ومن سورة ق، رقم٣٢٧٢، من حديث أنس، (الشطر الأول منه). و**أحمد** في مسنده كتاب مسند أنس بن مالك: ج٣، ص٥٤٩، رقم١٩٧٢. كما أورد **السيوطيُّ** الحديث كاملا في الدر، مج٦، ص١١٨. وقال: أخرجه أحمد والبخاريُّ ومسلم والنسائيُّ وابن جرير وابن مردويه والبيهقيُّ في الأسماء والصفات عن أنس.

حال المتقين يوم الجزاء

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ قرَّبها الله تعالى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ في ذلك تشريف لهم، إذ لم يقل: أزلف المتَّقون إلى الجنَّة، وهم في قريب منها، أو نقلت من فوق السماوات إليهم، في أرض المحشر، وهي أوسع منه، ويجوز أن يراد تقريب الحصول والدخول فيها لا تقريب المكان.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكانًا غير بعيد بحيث يروها، فـ«غَيْرَ» ظرفٌ، لأنَّه نعت لظرف محذوف، أو هو مفعولٌ مطلق، أي: إِزْلاَفا غَيْرَ بعيدٍ، أو حال من «الْجَنَّة».

(صـرف) وعليه فلم يقل: بعيدة، بالتأنيث لتأويلها بمذكر، وهو المكان، أو البستان، أو لأنَّ بعيدًا كوزن مصدر أفعال السير والصوت، كالصهيل والدميل، يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، أو حَمْلاً على فعيل بمعنى مفعول، فإنَّه يذكَّر ولو جرى على مؤنَّث، نحو: امرأة كحيل.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ نائب لقول محذوف، يكون حالاً من «الجنَّة»، أي: مقولاً في شأنها: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أو من «الْمُتَّقِينَ»، أي: مقولاً لهم: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾. والإشارة للجنَّة، والتذكير باعتبار معنى المكان أو البستان أو الثواب، أو هذا الشيء المرئيُّ من غير اعتبار اسم يخصُّه، فضلاً عن أن يعتبر أنَّه مؤنَّث، أو ذُكِّر لتذكير الخبر، أو الإشارة إلى الثواب أو الإزلاف.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ عظيم الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة. و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من قوله: «لِلْمُتَّقِينَ»، ﴿حَفِيظٍ﴾ عظيم الحفظ لذنوبه، وعظيم الاستحضار لها فلا ينساها، فلا يزال يتوب منها، ويخضع من أجلها، وقيل: الحفيظ لأمر الله ﷻ ونهيه، ولا يُضَيِّعُهما، وقيل: المحافظ على نفسه المراقب لها.

وقال مجاهد: الأوَّابُ الحفيظُ من يذْكر ذنبه خاليًا فيستغفر منه، وقال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من نعمته وحقّه، وقيل: الذي يحافظ عن أن ينقض توبته، وقيل: الذي إذا قام من المجلس قال: «اللّهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا»، إلاّ على إرادة التمثيل، وقيل: المسبِّح، وقيل: المصلّي.

(نحو) ﴿مَّنْ﴾ بدل من «كُلّ»، أو من «أوَّاب» لكن باعتبار موصوفه، أي: إنسان أوَّاب، أو بدل من «المتّقين». وليس فيه تعدُّد البدل، ولا الإبدال من البدل، لأنّ البدل الأوَّل هو قوله: «للمتَّقين» لا المتقين وحده[1]، لمَا مرَّ من بطلان قولهم: إنّ البدل المجرور وحده لا مع الجارّ، وإنّ التحقيق أنّ البدل هو الجارُّ والمجرور من الجارُّ والمجرور لا المجرور وحده زيد معه الجارُّ.

﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ خاف عذابه، مُعْتَقدًا جلاله، واختار لفظ «الرحمن» تلويحًا بأنّهم مع خشيتهم راجون رحمته، لا آيسون، ولا قريبٌ إيَّاسهم، وبأنّ سعة رحمته لم تمنعهم من الخوف، فهم راجون خائفون لا آيسون ولا آمنون.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المستتر في «خَشِيَ»، أي: في غيب عن أن يشاهد الله، أو عن الخلق، أو من لفظ «الرَّحْمَنَ»، أي: الله غائب عنه، أو خشي عقابه وعقابه غائب عنه، أو نعت لمصدر مقدَّر، أي: خشيةً ثابتة في الغيب، أي: غيب الله عنه، أو الغيب القلب، أي: خشي في قلبه أو بقلبه الغائب عن الناس.

﴿وَجَآءَ﴾ إلى الله إذْ بعث ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مقبل إلى الله عن غيره، إذ كان في الدنيا، والباء للمصاحبة، وجاز أن تكونَ للتعدية، أي: جاء قلبًا مُنيبًا، أي: صيَّره جائيًا، أي: لقي الله به لا بقلب قاسٍ. وليس إسنادُ الإنابة إلى القلب مجازًا

١-وفي النسخة "ب": «لأنّ البدل الأوَّل هو قوله: {لكلٍّ} لا " كلٌّ " وحده».

بل حقيقة بل ينيب القلب، والجوارح تتبعه، نعم تسند الإنابة أيضًا إلى الجوارح حقيقةً والعمدة القلب.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ مقول لقول مقدَّر مستأنف، أي: يقال لهم: ادخلوها بسلام، أو حال من «الْمُتَّقِينَ»، أي: مقولا لهم: ادخلوها بسلام. والباء للملابسة، أي: مع سلامة من المكاره، أو مع تسليم الملائكة عليكم. وواو «ادخلوا» للمتَّقين إذا جعلنا القول حالا من «الْمُتَّقِينَ»، وإن جعلناه مستأنفًا فكذلك، أو تعود إلى «مَنْ» باعتبار لفظها[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الوقت الممتدُّ، وهو يوم البعث الواقع في بعضه دخول الجَنَّة ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ البقاء الدائم، أو ذلك الوقت الذي هو وقت الدخول يوم الخلود، أي: يوم ابتداء الخلود، أو يوم تقدير الخلود. واليوم بمعنى وقت، أو ذلك الوقت الذي هو وقت السلام وقت الخلود، أي: إعْلَامُ الخلود، أي: الإعلام به.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ من فنون المطالب، ولايشاءون فيها مستحيلاً، كرؤية الله ﷻ ، ولاحرامًا. وتعليق «فِيهَا» بـــ«لَهُمْ» لنيابتها عن ثابت، أو بثابت أولى من تعليقه بـــ«يَشَاءُ» أو بمحذوف حال من الواو، أو من هاء يشاءونه المحذوفة.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ لا يخطر ببالهم. «وَمَزِيدٌ» اسم مصدر، أو اسم مفعول كما مرَّ. تمرُّ عليهم سحابة فتقول: ما تريدون أن أمطره عليكم؟ فما يريدون شيئًا إلاَّ أمطرته، حتَّى إنَّها ليحبُّون إِمْطار كعاب أتراب فتمطرها، وهذه السحابة لم تخطر لهم ببال.

وقيل: المراد أزواج من الحور العين عليهنَّ تيجان أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب، على كلِّ واحدة سبعون ألف حلَّة، يرى مخ ساقها من

١- كذا في النسخ، لَعَلَّ الأصوب: «باعتبار معناها».

وراء ذلك. ومن ذلك أن يبيح لهم الله ما يحبُّون من فضل الجنَّة، ومع ذلك لا يزال في الجنَّة فضل حتَّى ينشئ الله خلقًا يعمرونه على ما جاء في الأثر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝٤٠ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ ۝٤٤ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾

تهديد منكري البعث بما ينتظرهم وتوجيهات إلهيَة للرسول ﷺ

﴿وَكَمْ﴾ مفعول لقوله: **﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾** قبل قومك يا محمَّد **﴿مِّن قَرْنٍ﴾** قوم مقترنين في زمان واحد. و«مِنْ» للبيان متعلِّق بمحذوف نعت لـ«كَمْ»، فأفراد قوله: «كَمْ» هي القرون، وكأنَّه قيل: أهلكنا قرونًا كثيرة، ونَعتَ القرنَ بقوله: **﴿هُم أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾** قوَّةً أو أخذًا شديدًا في كلِّ ما أرادوا، كعادٍ وثمود وفرعون.

﴿فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلَادِ﴾ ساروا في الأرض، وعن ابن عبَّاس: هربوا فيها، وقيل: تصرَّفوا فيها بالملك والتمليك، والعمارة والتخريب، وشاع أنَّ التَّنقيب البحث عن الشيء. والفاء عاطفة على «هُم أَشَدُّ» عطف فعليَّة

على اسْمِيَّة، وقيل: على «أَهْلَكْنَا» على تقدير: أردنا إهلاكهم وظهرت أمارته فهربوا، أو شرعنا فيه.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ منصوب بمحذوف، أي: قائلين: هل من محيص؟. و«مِنْ» صلة، و«مَحِيص» مرفوع بفعل محذوف، أي: هل ثبت لنا محيص ؟ أو يوجد محيص لنا ؟ أو مبتدأ، أي: هل محيص لنا ؟ أو منصوب بمحذوف، أي: هل نجد محيصا ؟ والمراد الملجأ عن الله ﷻ ، أو عن الموت.

وقيل: الواو لأهل مكّة، أي: ساروا في أسفارهم على بلاد المهْلَكِينَ، فهل رأوا محيصًا للمهلكين، حتّى طمعوا أن ينجوا مع عملهم بعمل المهلكين ؟ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك أو ما ذكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرًا ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ واعٍ، ولو لم يسمع الوحي، فإنّ دلائل المخلوقات موضِّحة لطريق التوحيد، أمَّا من قلبُه غير واعٍ فكأنَّه لا قلب له، وكأنّ قلبه كسائر جسده.

﴿أَوَ اَلْقَى السَّمْعَ﴾ أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي، و«أوْ» لمنع الخلوّ، لجواز أن يكون الإنسان فقيهًا، ومستفيدًا للقبول من الفقيه، أو لتقسيم الذاكرِ إلى تال وسامع، أو إلى فقيه ومتعلّم، أو إلى عالمٍ كاملِ الاستعداد لا يحتاج لغير التأمُّل فيما عنده، وقاصرٍ مُحتاجٍ للتعلُّم، فيتذكَّرُ إذا أقبل بكلّـيَّته.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر متفطّنٌ، وغير المتفطّن كالغائب عن السمع، كأنّه غير سامعٍ، شُبِّهَ المتفَطّنُ بالحاضِرِ لجامع الإدراك، أو عبَّر عن التفطُّن بالحضور لِلُّزومِ والتسبُّب، أو معنى «شَهِيد»: شاهد على أنّ ما يقوله ﷺ وحي من الله ﷻ ، أو شاهد على الناس، كقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) .

وعن قتادة: المعنى لمن سمع القرآن من أهل الكتاب، وهو شاهد على صدقه لمَا يجده في التوراة والإنجيل. والجملة حال من ضمير «ألْقَى».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ممَّا ليس جزء سماء أو أرض، ولو غرز به كالجبل والشجرة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فالأيَّام مخلوقة قبل خلق العالم، والمراد مقاديرها وترتيبها.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ عطف على «لَقَدْ» فهو ممَّا أقسم عليه، وكأنَّه قيل: والله لقد خلقنا السماوات والله ما مسَّنا من لغوب، أي: عياء، فكيف يعجزنا البعث بالعياء بخلق السماوات والأرض، كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الاَوَّلِ﴾ (سورة ق: ١٥) .

أو الجلمة حال من «نَا»، أي: ما أصابنا بخلق ذلك مع عظمه تعبٌ مَّا، ولو قليلاً جدًّا. والستَّة حكمة تشير إلى التأنِّي في الأمور، ولو شاء لخلق أضعاف ذلك ممَّا لا يحصى في أقلَّ من لحظة.

والآية ردٌّ على اليهود لعنهم الله، أو نزلت فيهم، إذ قالوا عن التوراة كذبًا: إنَّ الله تعالى بدأ خلق العالم في يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى عن العرش، **سبحانه عن ذلك وأمثاله،** أو كان شيء من ذلك في التوراة ولم يفهموه، والأحد والاثنان وغيرُهما أزمنة، فإذا كان ابتداء خلق السماوات والأرض في يوم الأحد لزم تقدُّم الزمان على الأجسام، والزَّمان لا ينفكُّ عن الأجسام وقبل خلق السماوات والأرض لم يكن شمس ولا قمر.

(أصول الدين) وزعموا لعنهم الله أنَّه خلق العرش وجلس عليه متربِّعًا، فهم لعنهم الله ينهون الناس عن التربيع في القعود لذلك، وهم قبَّحهم الله سبحانه مُجَسِّمة، ونسبوا إليه تعالى الاستلقاء والقعود بتربيع. قيل: ومنهم وقع التشبيه في الأمَّة.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول قومك من إنكار البعث والقرآن والوحي، وعدم اللغوب بخلقهنَّ في ستَّة أيـَّـام، ومن قدر على خلقهنَّ يقدر على البعث، وعلى الانتقام منهم. أو اصبر على ما يقول اليهود من اللغوب، أو على ما يقول قومك واليهود.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّـكَ﴾ نَزِّه الله عن كلِّ نقصٍ كاللغوب، والعجز عن البعث والتشبيه، وخلف الوعد أو الوعيد ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وقت الفجر ووقت العصر.

﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ متعلِّق بمحذوف نعت لمحذوف متعلِّق بـ«سَبِّحْ»، أي: ووقتًا ثابتًا من الليل سبِّحه، والفاء صلة، أو «مِنْ» التبعيضية اسم للزمان هنا مضاف للَّيل، متعلِّق بـ«سَبِّحْهُ»، أي: وسبِّحه بعض الليل، وهذا البعض السحر، أو نصف الليل. وقدَّر بعضٌ: مهما يكن من شيء فسبِّحه بعض الليل. وقدَّم بعض الليل ليكون كالعوض عن مهما يكن من شيء. أو الفاء عاطفة على محذوف تعلَّقت به «مِنْ»، أي: استيقظ بعض الليل فسبِّحه، وذلك أنَّ الإنسان تبتدئ له مبادئ اليقظ فيحقِّقه أو يتسبَّب لليقظ.

﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ وقت إدباره، فـ«إِدْبَارَ» مصدر ناب عن الزمان، كجئت طلوع الشمس، والمراد وقت انقضاء الصلاة، وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة، لأنَّها كلَّها عبادة له خَاصَّة وتنزيه، أو من تسمية الكلِّ باسم البعض، لأنَّ تسبيح الركوع والسجود بعض الصلاة، فقبل طلوع الشمس صلاة الفجر، وقبل الغروب صلاة العصر.

و«ال» في «الْغُرُوبِ» عوض عن الضمير، أي: وقبل غروبها، أو للعهد الذهنيِّ للخلق، فإنَّ طلوع الشمس مؤْذِن بغروبها، كالولادة مؤذنة بالموت.

ويجوز أن يكون «مِنَ اللَّيْلِ»: المغرب والعشاء، و﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: الفجر، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر.

وعن جرير بن عبد الله عنه ﷺ : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾: صلاة العتمة، ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾: صلاة النوافل بعد المكتوبة، وعن ابن عبَّاس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: الفجر، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء، ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ النوافل بعد الفرائض ليلاً ونهارًا، وعنه: الوتر. وعنه وعن عمر وعليٍّ وابنه الحسن وأبي هريرة: ركعتان بعد المغرب، وعن مجاهد: ركعتان بعد العشاء، في الأولى ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.

وقيل: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء والنفل، وعن مجاهد: النفل. وعن عمر وعليٍّ وابن عبَّاس وغيرهم: ﴿إِدْبَارَ السُّجُودِ﴾: الركعتان بعد المغرب ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: الركعتان قبل صلاة الفجر. وعن عائشة رضي الله عنها: «لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تعهُّدًا منه على ركعتي الفجر». وفي مسلم عنه ﷺ : «ركعتا الفجر خير من الدُّنيا وما فيها» يعني: سنَّة الفجر.

روى الترمذيُّ عن ابن مسعود: «ما أحصي ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب، والركعتين قبل صلاة الفجر بـــ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾».

وقيل: ﴿إِدْبَارَ السُّجُودِ﴾: التسبيح بالذكر بعد الصلوات الخمس، وروى البخاريُّ عن ابن عبَّاس: «أمر رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أن يسبِّح في أدبار الصلوات كلِّها».

وفي مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ : «**من سبَّح دبر كلِّ صلاة ثلاثًا**

وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثًا وثلاثين، فذلك تسعة وتسعون، ثمَّ قال تمام المائة: " لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير"، غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»[1].

وفي البخاريِّ: قال الفقراء: ذهب أهل الدثور بالدرجات ـــ ويروى بالأجور، وبالنَّعيم المقيم ـــ صلَّوْا كما صلَّينا، وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفَقُوا من فضول أموالهم، وليس لنا ما ننفق، فقال: «**ألا أخبركم بما تدركون به من قبلكم، وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يجيء أحد بمثل ما جئتم به إلاَّ من جاء بمثله، تسبِّحون دبر كلِّ صلاة عشرا، وتحمدون عشرًا، وتكبِّرون عشرًا**»[2].

﴿**وَاسْتَمِعْ**﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للاستماع مطلقًا ﴿**يَوْمَ يُنَادِي**﴾ مفعول لـــ«اسْتَمِعْ»، أي: استمع نفس لفظ اليوم الذي يذكر في القرآن للبعث لمَا فيه من الأهوال، وتصديقك والحجَّة لك، كذا قيل، وفيه أنَّه يبقى قوله: ﴿يُنَادِي الْمُنَادِي﴾ على هذا متعطِّلاً، نعم يصحُّ أن يقال: استمع مجموع لفظ ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

و«اسْتَمِعْ» بمعنى انتظر، فـــ«يَوْمَ» مفعول به له، أي: انتظر ذلك اليوم لما ذكر، واستمع اكتسب السمع، والمراد: الحرص والزيادة، أو اسمع سمعًا عظيمًا. وقيل: مفعوله مقدَّر، أي: استمع ما تخبر به من أهوال يوم القيامة، أو استمع نداء المنادي، وذلك أمر له في الدنيا بسمع يكون يوم القيامة ضرورة عليه بلا كسب،

١- رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة (٧١) باب الذكر بعد الصلاة، رقم٨٠٧، ورواه **مالك** في الموطَّأ، كتاب القرآن، باب ما جاء في ذكر الله، رقم ٤٩٠. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الدعوات (١٧) باب الدعاء بعد الصلاة، رقم٥٩٧٠، من حديث أبي هريرة.

وذلك كناية عن أنَّه سيكون النداء ولا بدَّ، أو استمع نداء الكافرين باليوم. و«يَوْمَ» متعلّق بلفظ "نداء" المقدَّر في الوجهين، أو بـ«يَخْرُجُونَ» من القبور دلَّ عليه ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أو لا معمول له، أي: كن مستمعًا لا غافلاً.

﴿الْمُنَادِي﴾ إسرافيل على الأصحِّ، ينفخ في الصور وينادي: «أيَّتها العظام النخرة، والجلود المتمزِّقة، والشعور المتقطِّعة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل الحساب»، وقيل: المنادي جبريل، ينفخ إسرافيل وينادي جبريل: «أيَّتها العظام...».

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، على ما حكي عن كعب، أو باثني عشر ميلاً.

[قلت:] والله أعلم أصحَّ ذلك؟ وقالوا: إنَّها وسط الأرض، ولا أعلم هذا هل صحَّ؟ وتأباه معرفة الأطوال والأعراض، فقيل: بل المراد قريب ممَّن يناديهم حتَّى قيل: يناديهم من تحت أقدامهم، وقيل: من منابت شعورهم، يسمع من تحت الأرجل، أو من منابت الشعر: «أيَّتها العظام...».

وقيل: المراد بالقرب استواء الناس في سماعه بلا كلفة،كما تقول في الأمر الذي هو سهل التناول لمن أراده: إنَّه قريب. وأجيز أنَّ النداء أن يقال: أيَّتها النفس ارجعي إلى ربِّك لتدخلي مكانك في الجنَّة أو النار، أو: هؤلاء للجنَّة وهؤلاء للنار، أو: ﴿احْشُرُواْ الذينَ ظَلَمُواْ...﴾ (سورة الصافات: ٢٢) ، أو ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ...﴾ (سورة ق: ٢٤) ، و﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ (سورة ق: ٣٤) ، أو ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (سورة الحاقة: ٣٠) ، أو ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ (سورة فصلت: ٤٧) ، أو ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ...﴾ (سورة الزخرف: ٧٧) ، أو ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا...﴾ (سورة الأعراف: ٥٠) ، والصحيح ما تقدَّم.

أو المراد بالنداء توجُّه الإرادة إلى إحيائهم كما أن بدأهم بقول: كن، أي:

بتوجُّه الإرادة إلى وجودهم، وهو خلاف الظاهر.

﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يَوْمَ»، أو متعلّق بـــ«يُنَادِي» ﴿يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ﴾ هو البعث، حال من «الصَّيْحَة». والباء للمصاحبة، أو متعلّق بالصيحة، أو بـــ«يَسْمَعُونَ»، أو يسمعون بيقين، تقول: أذّن بيقين، أي: تحقّقت أنّه أذّن، فالمراد: الصيحة واقعة تحقيقًا. أو الباء للقسم والحقُّ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأغنى عن جوابه قوله: «يَسْمَعُونَ»، وهذا خلاف الظاهر.

﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماء يوم القيامة، أو الإشارة إلى النداء على حذف مضاف، أي: يوم ذلك النداء يوم الخروج، أو ذلك النداء نداء يوم الخروج.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لا غيرنا ﴿نُحْيِي﴾ نحيي النطف ونحوها فتصير حيواناً ﴿وَنُمِيتُ﴾ الأحياء، أو المراد بالإحياء إحياء الدنيا وإحياء البعث، وعلى كلّ حال الآية حجّة على منكري البعث ﴿وَإِلَيْنَا﴾ وحدنا لا إلى غيرنا وحده، ولا إلى غيرنا معنا ﴿الْمَصِيرُ﴾ مصدر ميميٌّ، أي: الرجوع للحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ بدل من «يَوْمَ»، أو متعلّق بـــ«إِلَيْنَا» لنيابته عن الفعل، أو الوصف أو بالوصف، أو الفعل أو بـــ«مصير»، قيل: أو بـــ«يُحشَرون» محذوفًا. والأصل: "تتشقّق" أبدلت التاء الثانية شينًا، وسكّنت فأدغمت في الشين.

﴿سِرَاعًا﴾ حال من واو «يَخْرُجُونَ» مقدّرا، أو من هاء «عَنْهُمْ»، وهذه الحال مقدَّرة، لأنّ إسراعهم بعد التشقّق لا معه، إلاّ أن يترل مترلة المقارنة لشدّة القرب، أو يعلّق «يوم يخرجون» المقدَّر العامل في «سِرَاعًا». قال مجاهد: تمطر السماء عليهم ماء كالمنيِّ، حتّى تنشقَّ الأرض. وجاء عن ابن عمر: إنّ أوّل من

تنشقُّ عنه الأرض رسول الله ﷺ إذ يقول: «**أنا أوَّل من تنشقُّ عنه الأرض**»[1]، ثمَّ أبو بكر، ثمَّ عمر، ثمَّ أهل البقيع فيحشرون معي، ثمَّ أنتظر أهل مكَّة، وتلا ابن عمر: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الإخراج المعلوم من «الْخُرُوجِ» ومن «تَشَقَّقُ» أو ذلك التصيير إلينا المعلوم من قوله: ﴿إِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ وهو أولى، لأنَّ الإخراج والتشقُّق ليسا نفس الحشر بل بابٌ له ﴿**حَشْرٌ**﴾ جمع ﴿**عَلَيْنَا**﴾ لا على غيرنا، متعلِّق بقوله: ﴿**يَسِيرٌ**﴾ هيِّنٌ، ولا يتصوَّر من غيرنا.

﴿**نَّحْنُ أَعْلَمُ**﴾ منك يا محمَّد ﴿**بِمَا يَقُولُونَ**﴾ من تكذيبك وتكذيب ما جئت به، وسائر ضلالهم فنعاقبهم، وهذه تسلية له ﷺ وتهديد لهم.

﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم**﴾ متعلِّق بـ«جبَّار» من قوله: ﴿**بِجَبَّارٍ**﴾ وعدِّي بـ«عَلَى»، بمعنى: ما أنت متسلِّطًا عليهم، أو مستعليًا بالسوء، أو متعدِّيًا عليهم، وذلك من الإجبار بمعنى الإكراه، فَلَسْتَ تتعدَّى عليهم، وما أنت إلاَّ منذر.

(صرف) يقال: أجبره (بالهمزة)، وجبره (بلا همزة): قهره، فهو جبَّار، وهذا قليل، والأصل: أجبره (بالهمزة)، وأمَّا بلا همز فشهر في إصلاح الكسر، وقيل: هو بلا همز بمعنى أجبر، أي: أكره، لغة كنانة.

وحاصل الآية نفي التسلُّط عليهم بالسوء، ونفي قهرهم على الإيمان. وقيل:

١-رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (١٨) باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم٣١٤٨، في حديث طويل، وأوَّله قوله ﷺ : «أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة...»، من حديث أبي سعيد. وفي كتاب المناقب (١٨) باب في مناقب عمر بن الخطَّاب، رقم٣٦٩٣. من حديث عائشة. ورواه **الحاكم** في كتاب التفسير، تفسير سورة ق : ج ٢، ص ٥٠٥، رقم ٣٧٣٢. من حديث ابن عمر.

المراد التحلّم عليهم، فقيل ذلك منسوخ بآية السيف، وليس كذلك، فإنّ التحلُّم مشروع أيضًا بعد نزول القتال كما كان قبله.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِ﴾ يخافه تحقيقًا أو ظنًّا أو شكًّا، أمّا من أظهر العناد فلا تعتن به، ولكن أنذر في الجملة كيما يصله، أو كرِّر تذكير من يخاف تحقيقًا ليزداد ويرسخ، أو ذكّر بالقرآن من يخاف وعيدي ولست تدري كلَّ من يخافه، فذكّر الناس مطلقًا.

(سبب النزول) وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قال الصحابة: يا رسول الله «لو خوَّفتنا»، فنزل: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِ﴾. ومع هذا يعتبر عموم اللفظ.

والله الموفّق الهادي
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

تفسير سورة الذاريات وآياتها ٦٠

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⑦ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ⑨ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ⑫ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ⑭﴾

التأكيد بالقسم على وقوع البعث

أقسم الله ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ بالرياح التي تذرُو التراب وغيره، كما قال الله ﷻ : ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ (سورة الكهف: ٤٥) ، أي: تحمله وتفرِّقه وذلك بإعلال اللاَّم في الذاريات، وتعليلها في «ذَروًا»، كما يقال: ذَرَّت الريح التراب، مثلا بالتضعيف وتصحيح اللام، أي: حملته وفرَّقته.

﴿فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا﴾ السحب الحاملات للمطر حَمْلاً، فـ«وِقرًا» مفعول مطلق كـ«ذَرْوًا»، أو «وِقْرًا» نفس الشيء المحمول، فيكون مفعولاً به ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ السفن الجاريات في البحر إلى حيث يقصد بها. و«يُسْرًا» مفعول مطلق على حذف مضاف، أي: جَري يُسْرٍ، أي: سُهُولة، أو جَريًا مصاحب يسر.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسِّم الأمور على الخلق بإذن الله طبق ما في اللوح المحفوظ، وقيل: المقسِّمات أربعة ملائكةٌ، ولكلٍّ واحد أعوانٌ، جبريل يفرِّقُ الوحي على الأنبياء، وميكائيل يحمل الرزق لأصحابه، وإسرافيل

للنفخ، وعزرائيل للموت.

فـ«أَمْرًا» مفعولٌ به، وَهُوَ واحدُ الأمور، والمراد الجمعُ، وأُفرِدَ لمناسَبَةِ رؤُوس الآي. وأوْلَى من ذلك أن نقول: «أَمْرًا» مفردٌ لفظًا ومعنًى، وهو مقدار مجموع لمن قضى لهم به، يفرق كقبضة تفرق على متعدِّدٍ، ونبقي «وِقْرًا» على المَصدَرِيَّة الصالحة للقليل والكثير.

روي أنَّ أبا الكَوَّاء سأل عليًّا على المنبر عن ﴿الذَّارِيَات...﴾ ففسَّرها بما ذَكَرتُ، وأنَّه سأل صبيغُ التميميُّ عنها عُمرَ، فكلَّما فسَّر له واحدة قال: لَوْلا أنِّي سمعتها من رسول الله ﷺ مفسَّرة لما فسَّرتها لك، وجلده مائة، ولما برئ جلده مائة، وحمله على قتب وأمر أبا موسى أن يكفَّ الناس عن الكلام له وحلف له بالإيمان المغلظة ما في نفسي سوء، فكتب إلى عمر إنِّي ما أخاله إلاَّ صادقًا فخلَّى بينه وبين مجالسة الناس والتكلُّم معهم[1].

[قلت:] ولا يصحُّ ذلك عن عمر، وإنْ صحَّ فلأمر فعل به ذلك كإرادة الجدال ومعاباة الناس.

وقيل: الأربعة رياح تنشئ السحاب وتحمله وتجري به، وتقسم الأمطار، وعن ابن عبَّاس: «الحاملات» السفن، و«الجاريات» السحب، وقيل: الكواكب في منازلها، وقيل: الكواكب السبعة. وقيل : «الحاملات» الحوامل من الحيوانات. وقيل: «الذاريات» النساء الوالدات يذرين الأولاد، شبَّه تتابع الأولاد بما يتطاير من الريح. وقيل: «الذاريات» الأسباب التي تذرو الخلائق، تشبيهًا بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها. وقيل: «الحاملات» الرياح الحاملة للسحب،

١- نقل الشيخ القصَّة عن ابن كثير منسوبة إلى أبي بكر البزار وقد ضعَّف الحديث هو أيضا. ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج٤، ص٢٣١.

وقيل: الأسباب الحاملة لمسبِّباتها. وقيل: «الجاريات» الرياح تجري في مهابِّها. وقيل: «المقسِّمات» السحب يقسِّم الله بها أرزاق العباد ﷻ . وفي الإسناد مجاز لأنَّ القاسم هو الله ﷻ .

(أصول الدين) [قلت:] ومن قال: «المقسِّمات أمرًا» الكواكب السبع، تُدَبِّر أمر عالم الوجود والفناء **أشرك، وأثبت ما نفته الملائكة والأنبياء،** وإنَّما هي لَمَّا ذكر الله سبحانه من أنَّها زينة ورجومٌ للشياطين وعلامات يهتدى بها، قال الربيع بن أنس[1]: «والله ما جعل الله في نجم حياة أحد ولا موته، **والحقُّ ما فسَّر به النبيء ﷺ وقد تبعه عمر وعليٌّ**».

والفاء للترتيب الذكريِّ والرتبيِّ، لتفاوت المراتب في الدلالة على كمال قدرة الله ﷻ على الترقِّي والتدلِّي، أو بالنظر إلى الأقرب فالأقرب إلينا.

وقيل: كلُّهنَّ الرياح تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، فإنَّها تذرو السحاب وتحمله، وتجري في الجوِّ جريًا سهلا، وتقسِّم الأمطار بتصرُّف السحاب في الأقطار، فتكون لترتيب الأفعال: تذرو الأبخرة حتَّى تنعقد سحابا، فتحمله، فتجري سائقة له، فتقسِّم أمطاره. وشدَّد القسم للتأكيد، فإنَّ المقصود عند الناس النفع. ومالا مفعول له قدِّر أو نزِّل منزلة اللازم، مثل أن تقدِّر: الذاريات ترابًا.

وجواب القسم قوله: **﴿إنَّمَا تُوعَدُونَ﴾** من الجزاء أو البعث وعليه الأكثر، لأنَّ الجزاء مذكور في قوله ﷻ : ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ والمراد: توعدون أيُّها الكافرون والمؤمنون، من الوعد العامِّ للخير والشرِّ، أو أيُّها الكافرون، على أنَّه من الإيعاد مصدر " أوعَدَ " (بالهمزة) المختصِّ بالشرِّ، وهو أنسب بآخر السورة قبلُ، والمقصود التخويف، وبه قال مجاهد. و«مَا» اسم، والعائد إليها محذوف مفعول

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٨، ص٤٠٩.

ثان، أي: توعدونه.

ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّة لا على تأويل المصدر بمَوعُود أو موعَد، لأنَّه مع التأويل يغني عنه جعل «مَا» اسمًا، ومعنى صدْق الوعد أو الإيعاد عدم كونه كاذبًا، تعالى الله، ومعنى صدق المَوْعُود أو المُوعَد تحقُّق وقوعِه لأوانه، وكلٌّ ذلك في قوله: ﴿لَصَادِقٌ﴾ لا يتخلَّف.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي: الجزاء بشرٌّ أو به وبالخير ﴿لَوَاقِعٌ﴾ كأنَّه قد وقع لتحقُّقه، أو سيقع، ومن قدر على ذلك فهو الإله، أو من قدر على إيجاد الصفات المذكورة في قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ...﴾ فهو قادر على البعث والجزاء بعده.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي: الطرق، جمع حبيكة كطريقة وطرق، أو جمع حباك كمثال ومثل، وذلك كحبك الماء الجاري القليل، أو الماء الماكث الذي تحرِّكه الريح، والمراد الطرق المُحَسَّة التي تسير فيها الكواكب، أو المعقولة كوحدة الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته وسائر صفاته، وإيجاده الأشياء وإبقائه لها، وإعدامها، وسائر أفعاله. ومن أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز أجاز إرادة الطُّرق المُحَسَّة والمعقولة.

وعن ابن عبَّاس: ذات الخلق المستوي الجيِّد، وقيل: المتقنة البنيان، وهما روايتان عن مجاهد، وقيل: ذات الصفاقة، يقال: حبكت الشيء أحسنته وأتقنته، والحباكة الصفاقة.

وعن الحسن: الحبك النجومُ، وهو مجاز، ووجهه أنَّها كالطرق في التزيين للسماء، كما يزيِّن الثوب بوشيه. و«السَّمَاء»: السماوات زيِّنت بالنجوم في الفلك الأعلى، وهنَّ شفَّافات، أو السماء الدنيا زيِّنت بالنجوم فيها أو تحتها، وعن عليٌّ وابن عبَّاس السماء السابعة وذلك قسم ثان أجابه بقوله:

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ اختلف بعضه مع بعض أو مع الحقِّ، مثل قولهم بتكذيبه ﷺ ، وقول المؤمنين بصدقه على تعميم الخطاب، أو من الافتعال بمعنى التفاعل، أي: متخالف ينقض بعضه بعضًا، فإنَّ كُلاًّ من قولهم: سحر وأساطير الأَوَّلِينَ، وافتراء وتعليم بشر، وكلام مجنون، يخالف الآخر، ولا سيما أنَّ المجنون لا يتعلَّم ولا يسحر، لأنَّ السحر بالعقل وجودة الاحتيال، وقد يقولون ذلك من الجنِّ على يد المجنون، لكن لا مميِّز ــ ولو من الأطفال ــ يقول: إنَّه ﷺ مجنون.

ومن اختلاف قولهم أنَّهم يقولون: إنَّه ﷺ ساحر، وتارة يقولون: مسحور، وذلك قول بعض. وأمَّا شفاعة الأصنام لهم فالظاهر أنَّهم قالوا بها على فرض صحَّة البعث، لا على الجزم به، أو أثبتوها لأمر الدنيا، وعلى كلٍّ في قولهم عور وشين وقبح، لا كحبك السماء. ويبعد ما قيل: إنَّ أقوالهم شبيهة في تخالفها بتخالف طرق السماء.

﴿يُوفَكُ عَنْهُ مَنُ افِكَ﴾ أي: عن الإيمان بما يجب الإيمان به، ومنه البعث، أو عن القرآن، أو عن الرسول ﷺ ، أو عَمَّا توعدون، أو عن الدين المذكور في الآية.

ويدلُّ لذلك كُلِّه المقامُ، وكونُ الإفك في القرآن يستعمل في الصرف عن الحقِّ، والصارف اللهُ تعالى بالخذلان، أو الشيطان بالوسوسة، أو الإنسان بعض لبعض، والمصروف عنه الإيمان بالقرآن والنبيءِ ﷺ ، أو الدين الذي هو الجزاء، لا كما قيل: يوفك من القول المختلف من أفك من المسلمين بالصرف إلى الإيمان.

(بلاغة) ولا تكرير في إسناد الإفك إلى «مَنُ افِكَ، لأنَّ المراد تعظيمه في الشرِّ، كما تقول في تهويل الأمر: كان ما كان، أو يكون ما يكون، كقوله

تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (سورة طه: ٧٨) ، وكأنَّه قيل: صرف الصرف الذي لا أعظم منه، وكأنَّه أثبت للمصروف صرف آخر، فجاءت المبالغة من المضاعفة.

وهكذا لا يسند الفعل إلى من وُصف به إلاَّ لداعٍ كالتهويل وكالإبهام، مثل أن يسألك إنسان عَمَّن جاء فتقول: جاء من جاء، وإلاَّ كان من توضيح الواضح.

وقيل: يوفك عنه في الخارج من أفك عنه في القضاء الأزليِّ، أو في اللوح، واعترض بأنَّه معلوم أنَّه لا يكون إلاَّ ما قضى الله تعالى، ويجاب بأنَّه أفاد أنَّ الحجَّة البالغة لله ﷻ في صرفه، إلاَّ أنَّه ليس فيه المبالغة المذكورة في سائر الأوجه.

﴿قُتِلَ﴾ لعن كما قال ابن عبَّاس، ووجهه أنَّ من لعنه الله كالمقتول الهالك في أنَّه فاتته المصالح لا يدركها لموته، وخسر بدنه، والقاتل الله كما يقال في الشتم: قتله الله، وفي التعجُّب، وكما قرئ: «قَتَلَ الْخَرَّاصِينَ» (بالياء وفتح القافِ والتاء). وقيل: المراد الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقيِّ، والمقصود صورة الدعاء، لأنَّ الله ﷻ لا يدعو، لأنَّه لا يخرج شيء عنه.

﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذَّابون، وهم أصحاب القول المختلف، وأصل الخرص الظنُّ، كما يقال: خرص عامل الأمير الثمار. والظنُّ سبب للكذب، ففي الخرَّاصين مجاز مرسل تبعيٌّ، لعلاقة السَّـببِـيَّة. أو «الْخَرَّاصُونَ»: الذين قسَّموا طرق مكَّة يرتقبون فيها من يجيء فيحذِّرونه عن الإيمان.

﴿الذينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهل عظيم غطَّاهم كما يغطي الماء الغريق ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن التذكُّر، فيما أمروا به ﴿يَسْئَلُونَ﴾ سؤال هزء وتعجيل ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾؟ خبر ومبتدأ محكيٌّ بـــ«يَسْأَلُ»، لتضمُّنه معنى القول، وقدَّر بعض: «يَسْأَلونَ فيقولون: متى يوم الدين؟» وفيه حذف العاطف وهو الفاء المستعملة في بيان المجمل، فلو قدَّر:

«يقولون» بلا فاء لتخلّص من ذلك.

وفي ظاهر الآية ظرفيَّة الزمان للزمان، على الوجه الجائز، كقولك: في يوم الجمعة ساعة الإجابة، وفي الليل ساعة الإجابة. أو السؤال عن الحدث، وهو الوقوع كأنَّه قيل: متى وقوع يوم الدين؟ والدين الجزاء.

والأَشْعَرِيَّة أجازوا أن يكون للزمان زمان حتَّى إنَّهم يقولون يبعث زمان أعمال الكفرة ليشهد عليهم.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون، وأصل الفتن إذابة الذهب أو الفضَّة أو غيرها ليظهر ما ليس منه كالنحاس في أحدهما، ثمَّ استعمل في الإحراق والتعذيب على الاستعارة، والجملة جواب لسؤالهم، أي: يقع يوم الدين يوم هم على النار يفتنون. وقدَّر الزجَّاج: «هو واقعٌ ـ أو هو كائن ـ يَوْمَ هُمْ...» إلخ. والضمير الذي قدَّره عائد إلى «يَوْمُ الدِّينِ».

(نحو) وقيل: «يَوْمُ» مرفوعٌ مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى غير اسم، بل أضيف إلى جملة، كأنَّه قيل: هو يوم هم على النار، أي: نفس يَوْمِ الدِّينِ هو نفس يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ. ويدلُّ له قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني[1] برفع «يَوْمُ» كأنَّه قيل: يوم الجزاء يوم تعذيب، أو قدِّر لفظ هو على حذف مضاف، أي: «وقتُ وقوعِ الجزاءِ يَوْمُ هُم...» أو «هو ـ أي: وقت الوقوع ـ يَوْمُ هُم...».

ويجوز أن تكون الجملة من كلامهم، فـ«يوم» بدل من «يَوْمُ» مرفوعٌ مبنيٌّ على الفتح، فمقتضى الظاهر في هذا: يوم نحن على النار نفتن على زعمكم

١- هو الحسين بن محمَّد بن علي أبو سعيد عالم بالحديث والأصول من أصبهان، له مصنَّفات كثيرة منها: كتاب الشيوخ، والمسند، والتفسير. الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٢٥٤.

أيُّها المؤمنون، **وهو بعيد**، فيكون قوله تعالى: ﴿**ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ**﴾ مستأنف من الله ﷻ، **والصحيح ما مرَّ**. وهذه الجملة مقولة لقول مقدَّر يكون حالاً من واو «يُفتَنُونَ»، أي: يفتنون مقولاً لهم: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾، أي: عذابكم المعدَّ لكم، أو الإحراق المعدَّ لكم. والقائل الملائكة أو الزبانية منهم.

أو «فتنتكم» كفركم وأعمالكم، أي: جزاء فتنتكم، بتقدير مضاف، أو يجعل الكفر والأعمال عذابًا مجازًا، إذْ هُنَّ سببه.

وقوله ﷻ : ﴿**هَذَا الذي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ من جملة ما حكي بالقول المقدَّر قبْلَ «هَذَا»، و«هَذَا» مبتدأ خبره «الذِي»، والإشارة إلى العذاب الذي استعجلوه استهزاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

جزاء المتَّقين ووصف أعمالهم الصالحة في الدنيا

﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات**﴾ عظام ﴿**وَعُيُون**﴾ عظام، ضدٌّ ما أنتم فيه من النِّيران والإحراق، على أنَّ هذا وما بعده ممَّا خوطب به أهل النار ﴿**ءاخذينَ**﴾ حال من ضمير الاستقرار، أي: نائلين وقابضين ﴿**مَآ ءاتَاهُمْ رَبُّهُمْ**﴾ كمن قبض ما وعد له و لم يخلف.

وحاصله أنَّهم اتَّصَلُوا بما وعدهم به، ولم يفتهم، أو قابلين لكلِّ ما آتاهم ربُّهم، لأنَّه ليس فيه شيء غير كامل، وفي هذا الوجه ضعف، إذ لا يتوهَّم المؤمن نقصًا فيدفعه، وَالكُفَّار نفوا الثواب والبعث البتَّة، فلا يصحُّ على ظاهره، بل على وجه الكناية عن الكمال فقط، ولو أعطي المؤمنون الموت أو نعما كنعم الدنيا لرضوا أعظم الرضا إذ نجوا من النار.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَالِكَ﴾ أي: كانوا في الدنيا، فالإشارة إلى اليوم، أو الوقت أو البعث ﴿مُحْسِنِينَ﴾ آتين بأعمال حسان، فاستحقُّوا الجنَّة وما فيها، والجملة تعليل.

وبيَّن الله ﷻ بعض إحسانهم بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾، وأشار إلى باقي أعمالهم بهذه الخصال، لأنَّ من حاله هذه لا بدَّ أن يكون قدْ وَفَّى بغيرها أيضًا، ولأنَّ هذه نوافل فلا بدَّ أن يكونوا قد أتوا بالفرائض، وما دون تلك النوافل ممَّا هو أخفُّ منها.

أو ذلك قبل فرض الفرائض كما قيل ـ على ضعف ـ : ما آتاهم ربُّهم من الفرائض إنَّهم كانوا قبل نزول الفرائض محسنين بالنفل.

والآية في قوم مخصوصين، أو شُدِّد على الناس أوَّل الإسلام ثمَّ نسخ التشديد، وإلاَّ فليس كلُّ المؤمنين ﴿قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

(نحو) والجملة مستأنفة لبيان البعض، والاستئناف لا ينافي البيان، فلا حاجة إلى جعلها بدلاً من جملة خبر «إنَّ»، ولا إلى جعلها تفسيريَّة نحويَّة لا محلَّ لها، وعلى الإبدال تكون بدل بعض، ويجوز أن تكون خبرًا ثانيًا.

والهجوع النوم مطلقًا، أو نوم الليل، أو النوم القليل.

(نحو) و«قليلاً» مفعول مطلق، أي: هجوعا قليلاً، و«مِنْ» بمعنى في، متعلّق بـ«يَهْجَعُونَ»، أعني بـ«يَهْجَعُ» من جملة «يَهْجَعُونَ»، وكذا مرادي في مثل ذلك، أو «قَليلاً» ظرف زمان، أي: زمانا قليلا متعلّق بـ«يَهْجَعُ». و«مِنْ» للتبعيض، تعلّق بمحذوف نعت لزمانا المقدَّر. و«ما» صلة للتأكيد، أو «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر فاعل لـ«قَلِيلاً»، و«قَلِيلاً» خبر «كان» لا ظرف ولا مفعول مطلق.

(نحو) أو هجوعهم بدل من واو «كَانُوا» بدل اشتمال، و«قَلِيلاً» اعتبر فيه البدل فأفرد، أو المبدل منه وأفرد لفظا، والمعنى جمع كما مرَّ في فعيل بمعنى فاعل، و«مِنْ» بمعنى في متعلّق بـ«يَهْجَعُ».

(نحو) وأجيز أن تكون «ما» نافية، أي: لا يهجعون قليلا من الليل، بل يحيونه كلّه، على أنّه لا صدر لـ«مَا» النافية مطلقا، أو إن لم تعمل عمل كان، أو على التوسُّع في الظرف، فيكون ذلك مدحا لهم بنفل يعمُّ الليل، ولا إشكال في ذلك.

(فقه) ولم يطلب ذلك منهم على الوجوب، وقيل: كان قيام الليل كلّه واجبا ثمّ نسخ الوجوب بعد شهرين، وكان أبو ذرٍّ يعتمد على العصا، يهجعون قليلا من الليل، ويصلُّون أكثره.

وعن ابن عبَّاس: المعنى أنّه قلّت ليلة لا يصلُّون فيها إلاَّ الفرض، وأكثر لياليهم الصلاة أوَّل الليل، أو وسطه أو آخره.

وروى أبو داود أنّهم يصلُّون بين المغرب والعشاء، أي: في الليل وقت لا يضجعون فيه، بل يصلُّون فيه، وقيل: كانوا لا ينامون حتَّى يصلُّوا العشاء.

ووقف بعض على «قَلِيلاً» وابتدأ بقوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، أي: مثلهم قليل الوجود، ولا يهجعون البتَّة، وقيل: قلَّ ليل ناموه كلّه.

﴿وَبِالأَسْحَارِ﴾ قدِّم على متعلّقه ــ وهو «يَسْتَغْفِرُ» ــ للفاصلة، ولطريق الاهتمام بذكر الوقت الذي هو شريف للعبادة، مع أنّه قد عبد الله أيضا في أوقات قبله من الليل، قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ آخر الليل في التهجُّد أحبُّ إليَّ من أوَّله**»[1] لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

﴿هُمْ﴾ ذكر هذا الضمير وأخبر عنه بالاستغفار إشعارا بأنَّهم الأحقّاء بالاستغفار، كأنَّهم المختصُّون به لاستدامتهم له ولطفا بهم فيه.

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هم مع قلّة هجوعهم، وكثرة تهجُّدهم، يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنَّهم عصوا في ليلهم قبلها لمزيد خشيتهم، وعدم اغترارهم بعبادتهم، قال الطبري: «صلُّوا ولَمَّا كان السحر استغفروا»، وقيل: المراد طلبهم المغفرة بالصلاة، وعن ابن عمر: «يَسْتَغْفِرُونَ» يصلُّون، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا إلى رسول الله ﷺ ، وفي صحَّة رفعه نظر.

والظاهر أنَّ المراد بالاستغفار ظاهره لا الصلاة، والمراد أنَّهم يقومون الليل بالصلاة ويستغفرون في الأسحار بعد ذلك، واستغفارهم من الذنوب أو من تقصيرهم في العبادة، أو من ذلك النوم القليل.

وفي البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ : «**ينزل ربُّنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»[2]، أي: ينزل ملك الله بتقدير مضاف.

١-أورده **السيوطي** في الدر: مج٦، ص١٢٥، وقال: أخرجه ابن مردويه عن أنس. **والألوسي** في تفسيره، مج٩، ص٩.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٧٩) باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم٣٤٩٨. ورواه **أبو داود** في كتاب السنَّة، باب الردِّ على الجهميَّة، رقم٤٧٣٣. من حديث أبي هريرة.

والخلوة مظنَّة حضور القلب والإخلاص والرغبة. وروى الربيع والبخاي ومسلم عن ابن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ إذا قام من الليل قال: «**اللهمَّ لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤك الحقُّ، قولك الحقُّ، والجنَّة حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيئون حقٌّ، ومحمَّد حقٌّ، والساعة حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكَّلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منِّي أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلاَّ أنت**»[(١)] زاد النسائي: «**ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم**»[(٢)].

وفي البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبيء ﷺ : «**من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله العظيم، اللهمَّ اغفر لي أو اللهمَّ افعل لي كذا استجيب له وإن توضأ وصلَّى قبلت صلاته**»[(٣)]. وتعارَّ قام من النوم وله صوت، والمراد مطلق القيام من النوم ولو بلا صوت.

١-رواه **الربيع** في كتاب الأذكار (٢١) باب في الدعاء، رقم٤٩١. و**البخاري** في كتاب التهجُّد (١) باب التهجُّد بالليل، رقم١١٢٠. و**مسلم** في كتاب صلاة المسافرين (٢٦) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: ١٩٩. من حديث ابن عبَّاس مع تقديم وتأخير.

٢ -رواه **النسائي** في كتاب قيام الليل (٩) باب ذكر ما يستفتح به القيام، رقم١٦١٨، من حديث ابن عبَّاس.

٣-رواه **البخاري** في كتاب التهجُّد (٢١) باب فضل من تعارَّ بالليل، رقم١١٥٤. ورواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٢٦) باب ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل، رقم٣٤١٤. من حديث عبادة بن الصامت.

﴿وَفِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب وافر استوجبوه، لرحم أو ضيف أو غيرهما على أنفسهم، تقرُّبا إلى الله ﷻ، وإشفاقا على الناس، فهو غير الزكاة، لأنَّ السورة مَكِّيـــّة، والزكاة وجبت في المدينة، فالمراد بالأموال مطلق ما ملكوه، سواء مِمَّا تشرع فيه الزكاة بعد ذلك، أو مِمَّا لا تشرع فيه.

وقال المنذر بن سعيد[1]: هذا الحقُّ هو الزكاة. وعن ابن عمر: الزكاة وغيرها، واعترض ذكر الزكاة بأنَّها مَدَنِيَّة والسورة مَكِّيـــّة كما مرَّ. وقيل: أصل الزكاة فرض بِمَكَّةَ، والذي في المدينة القدر المعروف اليوم، أو فرض القدر المعلوم فرض استعداد، وإذا هاجروا كان فرض إنجاز، أو فرض مجملا ليستعدُّوا لا ليفعلوا، فإذا هاجروا فصَّل لهم.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الطالب ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: الذي لا يُعْطى لتعفُّفه يحسبه الجاهل لحاله غنيًّا، كما يدلُّ له قرنه بالسائل، وكأنَّه قيل: الذي لا يسأل. قال رسول الله ﷺ : «**ليس المسكين الذي تردُّه التمرة والتمرتان، والأكلة والأكلتان**» قيل: فمن المسكين؟ قال: «**الذي ليس له ما يغنيه ولا يعلم مكانه فيتصدَّق عليه**»[2] فذلك المحروم والمراد بمكانه في الحديث شأنه ومرتبته من الاحتياج.

ولا يبعد أن يريد ﷺ التمثيل بذلك، وأنَّ المراد من لا مال له لحرمان أصابه، فيشمل المحترف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، ولا يسأل الناس، كما فسَّر به ابن عبَّاس في رواية عنه.

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٤، ص٥٠٦.

٢- رواه **البيهقي** في كتاب قسم الصدقات (١١) باب ما يستدلُّ به على أنَّ الفقير أمس حاجة من المسكين، رقم١٣١٤٧ و١٣٤٨. وروواه **أبو داود** في كتاب الزكاة باب من يعطى من الصدقة؟ وحدُّ الغنى، رقم١٦٣٢. كما روى **البخاري** وغيره الحديث مع اختلاف في اللفظ في كتاب التفسير (٤٧) باب {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} رقم٤٥٣٩، من حديث أبي هريرة.

وشمل الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه، فيناله الحرمان، وشمل الذي حرمه الله من ثمرته باجتياحها، كما فسَّر به زيد بن أسلم[1]، وشمل الذي حرمه الله بموت ماشيته، وكما هو قول، وشمل من ليس له سهم، كفقير ذمِّيٍّ، أو معاهد، ومن لا يجاهد لمرض أو صغرٍ، والنساء كما هو رواية عن ابن عبَّاس، ومن لا ينمو له مال.

وقيل: المملوك، وقيل: المكاتب، والظاهر الأوَّل، كما هو ظاهر الحديث، وكما مدحهم الله تعالى بالتعفُّف: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٣) .

﴿وَفِي الاَرْضِ ءَايَاتٌ﴾ دلائل على وجود الله تعالى الخالق لكلِّ ما سواه، وعلى علمه وقدرته، وإرادته ووحدته، وسعة رحمته.

والدلائل أنواع المعادن والنباتات، فالدليل ما في الأرض من الموجودات. والظرفيَّة حَقِيقيَّة، والجمع على ظاهره، كذا قيل، وفيه أنَّ المعادن جزء من الأرض لا شيء آخر فيها، إلاَّ أن يقال: ظرفيَّة الشيء لجزئه حقيقة.

أو الدلائل نفس الأرض، والجمعيَّة باعتبار وجوه الدلالة من كونها مدحوَّة، وارتفاع بعضها على الماء، وكون بعضها تحت، واختلاف أجزائها كَيفيَّةً وَخَاصَّةً، وصلوح بعضها للنبات مطلقا، وبعضها لنبات دون آخر، وعدم صلوح بعضها لنبات كالسبخة، والظرفيَّة من ظرفيَّة الصفة في الموصوف ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الراسخين في الإيمان، لكونه منهم باعتقاد نافذ مصيب.

١- هو زيد بن أسلم العدوي العمري مولاهم أبو أسامة، فقيه مفسر محدِّث، من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيــَّام خلافته، له كتاب في التفسير، تُوُفِّيَ سنة ١٣٦هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٥٦.

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ عطف على «فِي الأَرْضِ» أو يقدَّر: وفي أنفسكم آيات، وهي علمه بأنَّه كان نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ عظما...إلخ، وأكله وشربه من مدخل واحد، والخروج من سبيلين والحواسُّ الخمس وما في الإنسان من الهيئات والتراكيب العجيبة، والأفعال البديعة، والصنائع والاستنباطات، واختلاف الألسنة والألوان، والصور والطبائع، وسبيل الطعام والشراب، وغير ذلك...

(طب) ركَّب الله تعالى أربعة طبائع: اليبوسة، والرطوبة، والحرارة، والبرودة، في البدن، وخلق الله تعالى أربعة أشياء لصلاحه لا يقوم إلاَّ بها: السوداء، والمرَّة السوداء، والصفراء، والدم والبلغم، ومسكن اليبوسة السوداء، ومسكن الحرارة الدم، ومسكن البرودة البلغم، ومسكن الرطوبة الصفراء. إذا اعتدلت كملت الصحَّة، وإن غلب أحدها كان السقم من جهته، ويكون العزم من اليبوسة، واللين من الربوطة، والحدَّة من الحرارة، والأناة من الرطوبة، فإن زاد واحد أو قلَّ دخل المرض من جهته بإذن الله تعالى، وموضع الضحك والسرور الطحال، وموضع الخوف والهيبة الرئة، وموضع الغضب الكبد، وموضع العلم والفهم القلب، وموضع العقل الدماغ، وموضع الحزن والفرح الكلية، ويقال الصدر[1].

(طب) وفي الجسد ثلاثمائة وستُّون عرقا للشدِّ والوصل، ومائتان وأربعون عظما لمصلحة البدن، قيل: فذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾. وعن عليٍّ: «العقل في القلب والرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والنفس في الرئة».

١- لا تغفل أنَّ هذه المعلومات من الطبِّ القديم، أمَّا الآن فقد تغيَّر الأمر كثيرا.

وقال بعض الحكماء: موضع العقل الدماغ، وموضع الحمق العينان، وموضع الباطل الأذنان، وموضع الحياء الوجه وطريق الروح الأنف، وموضع الحياة الفم، وموضع الهموم الصدر، وموضع الضحك الطحال، وموضع الرحمة والغضب الكبد، وموضع الحزن والسرور القلب، وموضع الكسب اليدان، وموضع التعب الرجلان.

﴿أَفَلاَ﴾ أتهملون النظر فلا **﴿تُبْصِرُونَ﴾** بقلوبكم تدبُّرا في دلائل الأرض، ودلائل أنفسكم، وقيل: في دلائل أنفسكم، على أنَّها خصَّت لأنَّها في ذات الإنسان.

﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ في جهة العلوِّ، الشاملة للسحاب والسماء الدنيا وما فوقها، واللوح المحفوظ، والمراد: تقدير رزقكم وأسبابه، من القمرين والنجوم والمطالع والمغارب التي تحصل بها الفصول، التي هي مبادئ الرزق، وذلك على تقدير الإضافة كما رأيت.

أو على جعل وجود الأسباب فيها وجودا للمسبَّب، وعطف «مَا تُوعَدُونَ» عطف عامٍّ على خاصٍّ، فإنَّه كلُّ ما قضى الله تعالى من كلِّ خير وشرٍّ، والثواب والعقاب.

وقيل: السماء السحاب، والرزق المطر، وما توعدون الجنَّة والنار، زعم بعض أنَّ النار في السماء، وقيل: المراد الجنَّة فوق السماء السابعة تحت العرش، وقيل: أمر الساعة، وقيل: الثواب والعقاب، لأنَّهما معنيان فيها.

وقيل: «ما» مبتدأ موصولة، خبرها هو قوله: **﴿فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالاَرْضِ إِنَّهُ, لَحَقٌّ﴾** وهاء «إِنَّهُ» عائد إليها، **والصحيح ما مرَّ من عطف العامِّ على الخاصِّ**، والهاء لـــ«مَا» أو للرزق، أو لله تعالى، أو لرسول الله ﷺ ، أو للقرآن

لدلالة المقام، أو للدين في ﴿إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (سورة الذاريات: ٦) ، أو لليوم في ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾، أو ما ذكر من أوَّل السورة.

﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ «مَا» صلة كما قال الخليل، و«مِثْلَ» مفعول مطلق، أي: حقٌّ ذلك حقًّا مثل نطقكم كما لا شكَّ في نطقكم الواقع، أو في قدرتكم على النطق لاشكَّ في ذلك، تقول: هذا حقٌّ كما أنَّك ترى وتسمع أو حال، وإضافته للمصدر المعرَّف لا تفيد تعريفا وصاحب الحال الضمير في «حقٌّ».

وإن جعلنا «مَا» نكرة موصوفة والمصدر ممَّا بعدها خبر لمحذوف، والجملة نعت «مَا» فـ«مِثْلَ» مضاف لنكرة، أي: مثل شيء هو نطقكم، أو مثل نطق هو نطقكم، أي: لا شكَّ في ذلك كما لا شكَّ في أنَّكم تنطقون، أو كما أنَّك تنطق بلسانك لا بلسان غيرك كذلك تأكل رزقك لا رزق غيرك. والواو للقسم في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال رسول الله ﷺ : «**قاتل الله قوما أقسم لهم ربُّهم ثمَّ لم يصدِّقوه**».

(قصص) أقبل الأصمعيُّ من جامع البصرة فلقي أعرابيًّا على ناقة، فقال: ممَّن؟ قال: من بني أصمع، قال: من أين؟ قال: من موضع يتلى فيه كلام الله، قال: اتل عليَّ، فتلا ﴿وَالذَّارِيَاتِ... رِزْقُكُمْ﴾ فنحرها وقسَّمها، وكسر سيفه وقوسه، وحجَّ الأصمعيُّ مع الرشيد، وسمع في طوافه بصوت رقيق، فإذا الأعرابيُّ ناحلا مصفرًّا وسلَّم واستقرأه السورة، فَلَمَّا قرأ الآية صاح وقال: «قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا»، وصاح وقال ثلاثا: «من أغضب ربَّنا حتَّى حلف» ومات في حينه.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ

﴿٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٩ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٣٠ قَالَ
فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً
مِنْ طِينٍ ٣٣ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ٣٧﴾

قصّة ضيف إبراهيم ومهمّتهم في إهلاك قوم لوط

وسلّى الله تعالى رسوله ﷺ وهدّد قومه بقصّة إبراهيم ولوط، على جهة التعظيم لها، كالتبويب لشيء عظيم فقال:

﴿هَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله ﷻ، وعند إبراهيم، كما قال في شأن الملائكة: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٦)، وكما خدمهم إبراهيم بنفسه، وطلاقة وجهه وزوجه، وعجّل لهم طعام الضيافة، ورفع مجالسهم.

وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: هم اثنا عشر ملكا. وسمّاهم ضيفا لأنّهم بصورة الضيف، وحسبهم إبراهيم ضيفا، والضيف يطلق على الواحد فصاعدا، لأنّه في الأصل مصدر بمعنى الميل.

والآية وما بعدها في معنى: هل علمت قصّة إبراهيم ولوط عليهما السلام؟ يكرمك الله كما أكرمهما، ويهلك مكذّبيك كما أهلك مكذّبيهما، والله أكرمهم بالعبادة والعصمة، وبإضافة خير الخلق يومئذ إبراهيم، وبتعجيل الضيافة.

ثمّ إن كانت هذه الآية أوّل آية نزلت في ضيف إبراهيم فالاستفهام للإعلام بما بعد أداته، كما تقول لمن لم يعلم بقيام زيد ليعلم به: هل علمت أنّ زيدا قام؟ أو هل أتاك قيامه؟ وإلاّ فللتقرير.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ متعلّق بنعت محذوف، أي: الواقع إذ دخلوا عليه، أو بـ«حَدِيث»، لتضمُّنه معنى الحدوث، وأصليَّة الحدوث له، فإنَّه سُمِّيَ الكلام حديثا لحدوثه، فهو حادث، أو بـ«ضَيْفِ»، لأنّ فيه معنى الميل، أو بـ«مُكْرَمِينَ»، سواء قلنا: أكرمهم الله أو أكرمهم إبراهيم، كما قال بعض.

أو أريد أكرمهم الله وإبراهيم، لأنّ إكرام الله يتزايد، فهم مكرمون عند الله عَجَلَّ من قبل، وأكرمهم يومئذ بملاقاة خليله، ومعاملته لهم، وبتبشيره، كما أنّ النبيء مكرم عند الله، وتقول بعد ذلك: أكرمه بكذا، وأكرمه إذا كان كذا، ويجوز تقدير: اذكر إذ دخلوا عليه.

﴿فَقَالُواْ سَلاَمًا﴾ منصوب بفعل محذوف هو إنشاء، أي: نسلّم عليك سلاما، ومعنى كونه إنشاء أنّه حصل تسليمهم بهذا اللفظ حين تلفّظوا به، كألفاظ العقود، أو منصوب بـ«قَالُوا»، أي: ذكروا له لفظ سلام، أو ذكروا له لفظا هو تَحيَّة، وهو قولهم سلام عليك، أو المعنى حيَّوه تَحِيَّة.

(بلاغة) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلاَمٌ﴾ أي: سلام عليكم، فتحيَّته التي ردَّ بها عليهم أفضل من تحيَّتهم لأنَّها بالجملة الاسمِيَّة، وتحيَّتهم بالفعليَّة في التفسير الأوَّل لـ«قَالُوا»، ومحتملة على غيره.

والردُّ بأفضل من تحيَّتهم من كرمه عليه السلام، ومن التأدُّب معهم بمزيد الإكرام، وقرئ بالرفع في الموضعين، وبالنصب، فتساوى سلامه وسلامهم على احتمال في النصب.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنتم قوم منكرون، ووجه إنكارهم أنَّهم ليسوا مِمَّن عهدهم، أو لأنَّهم على غير شكل الإنسان، أو لأنَّه لا يُعرف السلام والإسلام في تلك الأرض، أو أنَّهم دخلوا بلا استئذان، أو أنَّ السلام علم للإنسان خاطب به الملائكة.

أو «هؤلاء قوم منكرون» قاله لمن معه من أتباع وغلمان، أو لمن حضره مطلقا، أو قاله في نفسه، ووجه تقدير: «أنتم قوم» طلب أن يعرِّفوا له أنفسهم، كما تقول لمن لا تعرفه وأردت منه معرفة: أنا لا أعرفك، هذا هو المتبادر.

[قلت:] وفيه أنَّ المناسب أن لا يخاطب الضيف بذلك، فإنَّه يوحشه بل بمثل أن يقال: لا أعرفكم، أو من أنتم؟ وأمَّا قوله: «هؤلاء قوم منكرون» بغير سماع لهم فوجهه الاستعانة والاستعداد لقوم نزلوا به، ولا يعرفهم، أو مع طلب معرفتهم مِمَّن معه، ولو خاطبهم بأنتم قوم منكرون لقالوا له في حينه: نحن ملائكة، وقد يقال أمرهم الله تعالى أن لا يقولوا له ذلك حَتَّى يحضر لهم الطعام ليكمل أجره.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ﴾ ذهب في عجلة بلا مهلة كما هو معنى الفاء، ذهاب خفاء، أو ذهاب احتيال كروغان الثعلب، وذلك لِئَلاَّ يعلم الضيف به فيمنعه من الإتيان بالطعام، وليسرَّه بفجأة الطعام، ولئلاَّ يناله ألم الانتظار، ومن آداب المضيِّف تعجيل الطعام.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ﴾ ولد البقرة، سُمِّيَ لسرعة كونه ثورًا بعد صغره، أو تفاؤلاً بأن يكبر على عجلة، أو لعجلته في حركته ما لم يصر ثورًا ﴿سَمِينٍ﴾ ممتلئ لحمًا وشحمًا، والمراد بـ«عِجْلٍ سَمِينٍ» مذبوح حينئذ، إذ لا يؤكل حيًّا ولا غير محنوذ ولا مطبوخ، وذلك المجيء بجديد أنسب بإكرام الضيف من أن يتي له بشيء سابق، فالتفسير بذلك أولى مِمَّا قيل: إنَّ ذلك العجل قد حنذ قبل وهيِّء للضيفان.

وأكثر مال الخليل عليه السلام البقر، ولحمه عنده أطيب، ولو كان لحم غيره أطيب لكان هوالذي يقدِّمه للضيف.

﴿فَقَرَّبَهُ, إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا منه، فمن آداب المضيِّف أن يحضِّر أكثر مِمَّا يأكل الضيف، ويجاء إليه بالطعام، لا أن يجاء به إلى الطعام، وذلك بحسب الإمكان.

﴿قَالَ أَلاَ تَاكُلُونَ﴾؟ أي: فأعرضوا عن الأكل، فقال: ألا تاكلون؟ والاستفهام تقرير أو توبيخ أو إنكار للياقة عدم الأكل، أو ذلك تعريض للأكل تأنيسًا لهم، أو تحضيض.

قيل: قالوا على سبيل التعريض بالأمر بذكر الله عند الأكل، إنَّا لا نأكل إلاَّ ما أدَّيْنا ثمنه، فقال: لا أبيحه لكم إلاَّ بثمن، قالوا: وما هو؟ قال: أن تُسمُّوا الله عند الابتداء، وتحمدوه عز وجل عند الفراغ، فقال بعضهم لبعض: بحقٍّ اتَّخَذَه الله عز وجل خليلاً.

﴿فَأَوْجَسَ﴾ أضمر في قلبه ﴿مِنْهُمْ﴾ بهم، أو هي للابتداء ﴿خِيفَةً﴾ نوعًا من الخوف، حين أعرضوا عن الطعام، قيل: لأنَّ الآتي لسوء لا يأكل طعام من أتى إليه، وأكل الضيف أمنة من فعل الشرِّ، وللطعام حرمة أن يخدع عنده، خاف أن يكونوا قومًا أرادوا قتله.

وعن ابن عبَّاس: إنَّه وقع في نفسه عليه السلام أنَّهم ملائكة أرسلوا للعذاب، وروي أنَّ جبريل منهم مسح بجناحه العجل الحنيذ، فقام حيًّا، ومشى إلى أمِّه، فعرف أنَّهم ملائكة وزال خوفه.

﴿قَالُواْ لاَ تَخَفْ﴾ منَّا إنَّا رسل الله تعالى، وهذا تأمينٌ له، وإنَّما قالوا: «لاَ تَخَفْ» لرؤيتهم أثر الخوف على وجهه، أو أخبر هم الله بخوفه، أو أطلعهم الله

على ما في قلبه من الخوف، ويقال: خافهم مع أنَّه علم أنَّهم ملائكة كما مرَّ لأنَّه خاف أن يكونوا للعذاب.

﴿**وَبَشَّرُوهُ**﴾ بيان لما في الآية الأخرى: ﴿**فبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ**﴾ (الصافات: ١٠١)، أي: بشَّرناه بواسطتهم ﴿**بِغُلَامٍ**﴾ هو إسحاق الطَّيْكِلاَ عند الجمهور، وهو من سارة، وقيل: إسماعيل من هاجر، والصحيح الأوَّل وعلى الثاني الطبري وغيره ﴿**عَلِيمٍ**﴾ عند بلوغه.

بشَّروه بأنَّه يلد له ذكر، وأنَّه يحيى حتَّى يكون عالمًا بليغًا في العلم، وذلك أشدُّ سرورًا، والعلم أشرف شيء، ومِنْ علمهُ علم النبوءة، وقيل: هي المراد في الآية، آنسوه أوَّلاً بإزالة الخوف ثمَّ بشَّرُوهُ لأنَّ التخلية قبل التحلية، ودفع المفسدة والمضرَّة أهمُّ من جلب المنفعة والمصلحة.

وقد قيل: علمهم ملائكة حين بشَّروه بغلامٍ ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ**﴾ سَارة جاءت إلى جهتهم بعد أن كانت في غيرها، وقد سمعت تبشيرهم، أو «أَقْبَلَت» شرعت ولو بلا انتقال ﴿**فِي صَرَّةٍ**﴾ حال كونها في صياح ورنَّة بقولها: «يَا وَيْلَتَى ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوز وعقيمٌ، وهذا بعلي شيخًا إنَّ هذا شيء عجيب»، أو الصَّرة الجماعة جاءت مع نسوة منضمَّة كالشيء المصرور ليرين الملائكة.

﴿**فَصَكَّتْ**﴾ ضربت ﴿**وَجْهَهَا**﴾ ضرب تعجُّب كما هو فعل النساء إذا تعجَّبن من شيء، قال مجاهد: ضربت بيدها على جبهتها، وزعم بعضٌ أنَّها وجدت حرارة الدَّمِ فلطمت وجهها من الحياء الشديد، كأنَّهم علموا بالدَّم وهو دم الحيض، وقد ارتفع عنها، فإذا طهرت حملت من إبراهيم.

﴿**وَقَالَتْ عَجُوزٌ**﴾ أنا عجوزٌ، أو أتلد عجوزٌ؟ ﴿**عَقِيمٌ**﴾ خبر ثانٍ أو نعت، وهو فعيل بمعنى فاعل، أو مفعول لأنَّه لازم ويتعدَّى أيضا.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ إنَّكِ تلدين وأنت عجوز عقيم، أي: مثل ذلك قال ربُّكِ، في غيرِ شأنكِ، فشأنكِ مثلُ ما قال في غيره ممَّا هو قدرة كاملة.

أو الكاف صلة أو تشبيه فإنَّ لفظهم غير لفظ الملَك الموحِي إليهم من اللوح المحفوظ بإذن الله، وهو إسرافيل الطّيلا ، ولو كان المعنى واحدا فإنَّ قول عمرو: قام زيد، غير قول بكر: قام زيد، والمعنى واحد، أرادوا إنَّ ذلك من الله تعالى لا من تلقاء أنفسنا. وقيل: وَلَمَّا قالت ذلك قال لها جبريل: انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فما قاله إلاَّ حَقًّا ينجزه.

(أصول الدين) والله ﷻ عالم بكلِّ ما كان أو يكون وما هو كائن، وعالم بما لا يكون من الممكنات بأنَّه لو كان لكان على كمِّية كذا، أو هيئة كذا، ممَّا هو حكمة لأنَّه حكيم، كما قال ﷺ : «**الله أعلم بماكانوا عاملين لو كانوا عاملين**»[1] وذلك التخاطب مع إبراهيم لا معها وحدها كما في آية أخرى، وكذا ذكر المرأة هنا ولم يذكرها في آية أخرى (سورة الحجر: ٥١ ــ ٥٧).

﴿قَالَ﴾ إبراهيم بعد علمه بأنَّهم ملائكة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ, أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ شأنكم الخطير الذي جئتم فيه.

﴿قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد قلب قراهم عاليها سافلها فتصلهم الحجارة، بعد أن كانوا تحت الأرض، وقيل: رجموا قبل القلب ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ الطين المتحجِّر المسمى سجِّيلاً.

١-رواه **البخاري** في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٨. ورواه **مسلم** في كتاب القدر باب معنى: كلُّ مولود يولد على الفطرة... رقم٢٦٥٨. من حديث أبي هريرة. بدون ذكر: «لو كانوا عاملين».

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة كتب على كلٍّ واحد اسم صاحبه الذي يرمى به، والسومة العلامة، أو علّمت أنَّها من حجارة العذاب، أو أنَّها ليست من حجارة الدنيا، أو من أسَمت الدَّابة: أرسلتها في المرعى، فيكون نعتًا مؤكّدًا لعامله، وهو «نُرْسِل»، والأوَّل أولى، لأنَّه أعظم فائدة.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلّق بـ«مُسَوَّمَةً»، أي: معلّمة في أوَّل خلقها، أو معدَّة في علم الله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الفجور باللواط، وفسَّر ابن عبَّاس الاسراف بالإشراك، لأنَّه أعظم من اللواط. وال» للعهد عند إبراهيم، فالأصل لهم، فعبَّر بالظاهر ليذكر سبب الإهلاك، وهو الإسراف ويذمَّهم به بعد أن ذمَّهم بالإجرام.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ بلوط ﷺ ، و«ها» عائد إلى قرى قوم لوط، ولو لم تذكر لدلالة الإخراج، والقومِ المجرمين عليها. وفي الآية حذف، أي: خرجوا عن إبراهيم فجاءوا القوم المسرفين في قراهم، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، وأهلكنا الباقين، بعد خطاب بين لوط والملائكة.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهل بيت، أو البيت الجماعة مجازًا لوطًا وبنتيه عند مجاهد، وقال سعيد بن جبير: ثلاثة عشر رجلاً ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ نعت، وفيه دلالة على أنَّ الإسلام والإيمان بمعنى ولو اختلف المفهوم، فإنَّ مفهوم الاسلام الإذعان، ومفهوم الإيمان التصديق.

ووجْدان الله علمُه أو ما وجد ملائكتنا فيها، بعد الفحص الشديد غير بيت، فإنَّما يقال: ما وجدت كذا إلاَّ بعد كذا فيما فيه تفحُّص شديد.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: في تلك القرى، وقيل: يجوز عود الضمير إلى الإهلاكَة فإنَّها إهلاكة عجيبة، إذ كانت جعل عاليها سافلها، والضرب بالحجارة ﴿ءَايَةً﴾ علامة على ما أصابهم من العذاب.

قيل: هي حجارة سود رموا بها، وهذا على أنّه قلبت قراهم دون تلك الحجارة، بعد أن رموا بها، أو رموا بها في الباطن بعد القلب، وأخرجت لتدلّ، وقال ابن جريج: هي أحجار كثيرة منضودة، وقيل: ماء منتن قيل: كأنّه بحيرة طبريَّة.

﴿لِّلذينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾ من شأنهم الخوف بخلاف القاسية قلوبهم فإنَّهم لا يعتدُّون بها علامة.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

جزاء أقوام آخرين كذَّبوا أنبياءهم

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ أي: وجعلنا آية في موسى عليه السلام، وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ وعطف على «فِيهَا» بتغليب معنى إبقاء الآية في تلك القرى على جعل آية في موسى، أو على سبيل المشاكلة، ولا يصحُّ عطفه على «فِيهَا» بلا تأويل بما ذكرته، لأنّ قوله: ﴿تَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ معطوف على ما فيه الفحص الشديد وهو ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ...﴾ وليس الفحص مرادًا في موسى، ويجوز أن يقدَّر: وفي موسى آية. ويضعف عطفه على «فِي الاَرْضِ» لكثرة الفصل.

﴿إِذَ اَرْسَلْنَاهُ﴾ بدل من «مُوسَى»، كذا قيل، وفيه أنَّه لا تدخل «في» على «إِذْ» إلاّ على أنَّه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، أو يعلّق بما علّق به «فِي مُوسَى» وهو «جَعَلْنَا»، أو «تَرَكْنَا»، أو عامل الاستقرار إذا قدِّر: «وفي موسى آية».

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجَّة قويَّة كاليد والعصا، أطلق السلطان على المتعدِّد لأنَّه في الأصل مصدر ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان بموسى ﴿بِرُكْنِهِ﴾ بجانب بدنه، كناية عن الإعراض بقلبه. والباء للتعدية، أو للملابسة. وقال قتادة: ركنه قومه، لأنَّه يركن إليهم، ويتقوَّى بهم، وقيل: القُوَّة والسلطان على الاستعارة.

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ قال فرعون: موسى ساحر، توصَّل بسحره إلى عصاه ويده ونحوهما باختياره ﴿اَوْ مَجْنُونٌ﴾ توصَّل بسحره إلى ما يفعله من نحو العصا بالجنِّ، كأنَّ ذلك منه على غير اختياره. و«أَوْ» للشكِّ، وقيل: للإبهام على قومه، وقيل: بمعنى الواو، لأنَّه قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الشعراء: ٣٤) ، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُم لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الشعراء: ٢٧) ، إلاّ أن يقال: إنَّه لم يقل بالأمرين على الثبات، بل تارة يقول هذا وتارة يقول هذا تحيُّرًا منه، كتلوُّنِ الحرباء.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ,﴾ لقوله ذلك ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ طرحناهم باحتقار ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر، في أرضه بإلقاء الماء عليهم ﴿وَهُوَ﴾ أي: فرعون ﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه، من المعاصي والإشراك، كـ" أغرب ": أتى بما هو غريب، وكذلك يونس مليم أتى بما يلام عليه [الصافات آية ١٤٢]، وليس معصية، وقيل: المعنى: انتسب للوم، وقيل: المعنى: ثبت لومه.

﴿وَفِي عَادٍ﴾ مثل [ما مرَّ في تفسير] ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ ﴿اذَ اَرْسَلْنَا﴾ مثل ﴿إِذَ اَرْسَلْنَا﴾ السابق ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ الذي لا يأتي بخير، ولا يلقِّح

شجرا، ولا بركة فيه، فلا يقع مطرٌ به، شبّه انتفاء الخير عنه بعقم المرأة، وهو بمعنى فاعل من عَقم اللازم، أو بمعنى مفعول من عقم المتعدِّي.

ومع عدم نفعها لم يقتصر على نفي نفعها، بل هي ضارَّة إذ أهلكتهم وقطعت دابرهم، لشدَّتها وتلحق مسافرهم وتقلته، وتقتل منهم من كان في جماعة من غيرهم وحده وهي الدبور، لقوله ﷺ: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[1]، فما يروى عن عليٍّ أنَّها النكباء لا يَصِحُّ، وعن ابن المسيّب: أنَّها الجنوب، وهو ضعيف، وأضعف منه قول مجاهد: إنَّها الصبا لمضادَّته للحديث.

﴿**مَا تَذَرُ**﴾ تترك ﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ حيوان أو جماد ﴿**أَتَتْ عَلَيْهِ**﴾ نعت «شَيْءٍ»، فلا تهلك ما لم تأت عليه، ولو مسَّته لكن لا تمسُّه بعنف، أو لا تمسُّه البتَّة، [قيل:] تأتي إلى عاديٍّ في جملة ناس غير عاديِّين قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا فتجبده من بينهم فتهلكه، وذلك بأيدي ملائكة، أو لتكوين الله ﷻ، أو بجعلها عاقلة مميِّزة مأمورة.

ومعنى الإتيان على الشيء أنَّ الله تعالى أرسلها إليه، أو جرت عليه، ولا تجري إلاَّ على ما أراد الله ﷻ إهلاكه، فقيل: جرت على حيوانهم وشجرهم وديارهم.

(لغة) ﴿**إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**﴾ الشي ء البالي من عظم أو نبات، أو حبل أو غير ذلك. يقال: رمَّ الشيء بالبناء للفاعل، أي: بلي، وهو لازم غير متعدٍّ.

١- رواه **مسلم** في كتاب صلاة الاستسقاء (٤) باب في ريح الصبا والدبور، رقم ١٧ (٩٠٠). و**البخاري** في كتاب الاستسقاء (٢٦) باب قول النبيء ﷺ نصرت بالصبا، رقم١٠٣٥. من حديث ابن عبَّاس.

وفسَّره السدِّي بالتراب، وقتادة بالهشيم، وقطرب[1] بالرماد، وبعض بالمنسحق الذي لا يصلح.

(صرف) ولا وجه لهذا إلاَّ أنَّ جعل الهمزة في "أرمَّ" الذي أخذ منه لفظ رميم للسلب، كأقرد البعير، أزال قراده، إلاَّ أنَّ هذا وصف فعل ثلاثيٌّ لا همز فيه، فلا يصحُّ.

وتفسيره بالهشيم لا بأس به، وأمَّا بالرَّماد فليس لذات الرماد بل لكونه حطبًا مثلا اندقَّ ولا وجه لتفسره بالتراب، إلاَّ لشبهه في الدقَّة. والجملة بعد «إلاَّ» حال من الضمير في «أَتَتْ».

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فيه ما مرَّ في قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذَ ارْسَلْنَاهُ﴾. والحين هنا ثلاثة أيـــَّام بعد عقر الناقة، كما قال الله ﷻ : ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُم ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾ (سورة هود: ٦٥) ، وهذا التمتُّع مؤخَّر عن العتوِّ، كما قال الله ﷻ : ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ...﴾ ولو كان ما هنا يدلُّ على أنَّ العتوَّ متأخِّرٌ عن التمتُّع، إذ قال: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَعَتَوْاْ عَنَ اَمْرِ رَبــِّهِمْ﴾ لأنَّ قوله هنا: ﴿فَعَتَوْاْ﴾ مرتَّب على تمام القصَّة، كأنَّه قيل: جعلنا لثمود آية، وشرع في بيان تلك الآية، فأخبرنا ﷻ أنَّهم عتوا...إلخ، أي: استكبروا عن الامتثال. والفاء للتفصيل.

وعن الحسن قال الله ﷻ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حين بعث إليهم صالح، وأمروا بالإيمان به، والحين آجالهم، والعتوُّ بعد أمرهم بالإيمان، فالعتوُّ متأخِّر عن قوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾، واختار بعض المحقِّقين هَذَا لظاهِرِ فاء التعقيب كأنَّه

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٨، ص٣٨٨.

قيل: تمتَّعوا إلى آخر آجالكم، فإنْ أحسنتم فزتم بتمتُّع الدَّارين، وإلاَّ فما لكم في الآخرة نصيب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أهلكتهم لعتوِّهم ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ النار من السماء، أو الصيحة من السماء، أو النار مصحوبة بالصيحة، أو الصيحة مصحوبة بنار.

(قصص) وعدهم صالح الهلاك بعد ثلاثة أيَّام، وقال: تصبح وجوهكم غدًا مصفرَّة وبعد غد محمرَّة، وفي الثالث مسودَّة، ويصبِّحكم العذاب، فلمَّا رأوا وجوههم مصفرَّة قصدوا قتله، فنجَّاه الله تعالى إلى فلسطين، قيل: ولو تابوا لم تقبل عنهم، لأنَّهم شاهدوا، وفي ضحوة الرابع تحنَّطوا وتكفَّنوا بالأنطاع فجاءتهم الصاعقة.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها وهي النار بعيونهم.

(بلاغة) وإن كانت الصاعقة الصيحة فقد نزَّل المسْمُوعَ منزلة المنظور، استعارة للنظر للسمع بجامع الإدراك، أو استعمالا للمقيَّد وهو الإدراك بالعين للمُطْلَقِ، وهو الإدراك هكذا، فأخذ منه السمع على التجوُّز الإرساليِّ، وإن قلنا: «يَنظُرُونَ» بمعنى ينتظرون صلح للسمع والإبصار، فهم ينتظرون العذاب، إذ رأوا علاماته.

[قلت:] وَممَّا يقال ولا يتحقَّق: انتظار العذاب أشدُّ من وقوعه، ولا شكَّ أنَّ وقوعه أشدُّ، وإنَّما الانتظار زيادةٌ فيه نَعَمْ إن كان السوء خفيفا ولا يدري بخفَّته واشتدَّ القلق مدَّة انتظاره، يكون انتظاره أَشَدَّ منه.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ من حركة استعمالا للمقيَّد في المطلق، وذلك أنَّهم موتى لا يتحرَّكون، كما قال: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٧٨) ، أو من قولهم: ما يقوم فلان بكذا، بمعنى لا يقدر عليه، وهذا مجاز، أو كناية شاعت حتَّى صارت حقيقة عرفيَّة عامَّة.

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم قبل الصيحة، ولا بعد موتهم بها.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ اذكر قوم نوح، أو أهلكنا قوم نوح قبْلُ، أو معطوف على هاء ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ أو هاء ﴿نَبَذْنَاهُم﴾ وفيه أنَّ الأخذ والنبذ مفرَّعان على ما قبلُ، وليس هذا التفريع في نوح، فإنَّه لم يهلك قومه بعتوِّ قوم صالح، ولا أخذتهم الصاعقة بعتوِّ قوم صالح. وأجيز عطفه على محلِّ «فِي عَادٍ» أو محلِّ «فِي ثَمُودَ»، ويدلُّ له قراءة الكسائيِّ وحمزة وأبي عمرو بجرِّ «قَوْمِ».

﴿مِّن قَبْلُ﴾ قبل قوم لوط وعاد وثمود وفرعون المهلكين، متعلِّق بناصب «قَوْمَ نُوحٍ» إن نُصِبَ بـ«أهلكنا»، أو حال من «قَوْمَ» ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الإيمان بالشرك والمعاصي.

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ الْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

إثبات وحدانيَة الله وعظيم قدرته

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا﴾ نصب على الاشتغال للتأكيد، لأنَّه من باب التوكيد اللفظيِّ، أي: بنينا السماء وبنيْناها ﴿بِأَيْيدٍ﴾ بقُوَّة، وهو مفرد، ولا حذف فيه، وآخره دال، والهمزة أصل، ويضعف جعله جمع يَدٍ على طريق التورية، وعليه فالهمزة زائدة، والياء محذوفة بعد الدَّال، والوجهان محتملان لتعظيم القدرة، ولِمَتَانَة السماء، والإشعار بالمتانة إشعارٌ بعظمة القدرة، والإشعار بعظمتها إشعار بالمتانة.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قادرون، من الوسع بمعنى عدم العجز عن الشيء، فإنَّ قدرته وسعت كلَّ شيء، فهو قادر على خلق السماء، فذلك تقوية لقوله:

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا﴾ وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (سورة الذاريات: ٣٨) ، وردٌّ على من قال بخلاف ذلك.

ويجوز أن يكون «مُوسِعُونَ» بمعنى موسِّعين للرزق بالمطر على أنَّ المساق للامْتنان، على أنَّ قوله: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ مُلَوِّحٌ إلى قوله ﷻ : ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُم﴾ (سورة الذاريات: ٢٢) ، ويجوز أن ينوى هذا المعنى بجعل «أَيْدٍ» جمع يد بمعنى نعمة، محذوف الياء، من يد الجوارح مجازًا. أو معنى الإيساع جعل السماء أضعاف الأرض ببحورها، لأنَّها كحلقة في السماء، أو جعل السعة بين السماء والأرض.

﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ فرشنا الأرض على حدِّ ما مرَّ في ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا﴾ تتراءى الأرض فراشًا مبسوطًا لسعتها، ولو كانت كريَّة في نفس الأمر، ذلك امتنان من الله ﷻ .

وَمِمَّا يستدلُّون به على كريَّتها غيبة السفينة أو الجبل أو الصومعة مثلا، ولا يزال يظهر بحسب القرب إليه بعد خفاء في الماء، وذلك لانحدار الماء تبعًا لانحدار الأرض لتكوِّرها، وهو [قيل:] استدلال باطل، لأنَّ سعة الأرض جدًّا تمنع ظهور التكوُّر والانحدار لذلك المقدار القليل، وأيضًا ينعكس الانحدار من الجهة الأخرى بأن تكون حيث كانت السفينة، وتكون أنت حيث كانت، ودعوى تكوُّر الماء معها لا دليل عليه، فالبحور لعدم انحدار الماء وعدم تكوُّره دليل بسط الأرض.

ودعوى أنَّ الأرض للماء كالمغناطيس للحديد لا دليل عليه، واستدلوا على التكوُّر بأنَّها لو بسطت لطلعت الشمس عليها بمرَّة، وغربت بمرَّة، وهو استدلال باطل بل لطولها مع بسطها تظهر الشمس عليها شيئًا فشيئًا، ألا ترى أنَّ لها ظِلاًّ مع الأشياء ولو حال توسُّطها، وأجابوا بأنَّ كلَّ موضع من الماء أو من الأرض

مرتفع عَمَّا حوله من جوانبه كلِّها، كهذه الزجاجة المعمولة على صورة بيضة النعامة، بل أشدُّ.

﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ المفرشون نحن ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كلِّ نوع من الحيوان، ويحتمل عموم غير الحيوان أيضًا ممًّا ينمو ولو كُنَّا لا ندركه إلاَّ قليلاً، كما أدركنا ذكار النخل وبعض الأشجار ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرا وأنثى.

وقال مجاهد: متقابلين، فيعمُّ الحيوان وغيره النامي، وغيره كالذكر والأنثى، والسعادة والشقاوة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، وَالصِّحَّة والمرض، والليل والنهار، والبرِّ والبحر، والسهل والجبل، والصيف والشتاء، والجنِّ والإنس، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والحقِّ والباطل، والحلو والحامض، ورجَّحه الطبريُّ بأنَّه أدلُّ على القدرة.

وقيل: المراد الجنس المنطقيُّ، وأقلُّ ما يكون تحته نوعان؛ خلق الله ﷻ من الجوهر مثلا المادِّيَّ وهو الجسم إذ له مادَّة، والمجرَّد عن المادَّة كالعقل، ومن المادِّيِّ الناميَ والجامدَ، ومن النامي المدرك وهو الحيوان، وغيرَ المدرك كالنبات، ومِنَ المدركِ الناطقَ والصامتَ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كي تذكَّروا، وهو تعليل متعلِّق بـ«خَلَقْنَا»، ويقدَّر مثله لـ«فَرَشْنَا» ولـ«بَنَيْنَا» فذلك بسط بلا طول، ولك تقدير ما يعمُّ ذلك كلَّه، أي: فعلنا ذلك لعلَّكم تذكَّرون.

والمراد تذكُّرُ أنَّ الله تعالى القادر الذي لا يعجز، ولا عبادة لسواه، أو تذكُّر أنَّ التعدُّد من خواصِّ الممكنات دون الواجب بالذات، أو تذكُّر صحَّة البعث بما ذكر من إيجاد ما ذكر، فَإِنَّهُ قادر على الإعادة، أو تذكُّر ذلك كلِّه.

﴿فَفِرُّواْ إِلَى اللهِ﴾ تفريع على قوله ﷻ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتمثيل للاعتصام بالله سبحانه وتعالى ، وبتوحيده ﷻ ، وهو خطاب من الله ﷻ للمشركين،

بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـــ اخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أو الكلام على تقدير القول، أي: قل يا محمَّد للمشركين: «فَفِرُّواْ...»، أو قل يا محمَّد «فَفِرُّواْ إِلَى اللهِ...» تعالى بتوحيده إنِّي لكم من عقابه لمن لم يوحِّده نذير ظاهر الإنذار بالآيات المتلوَّة، والمعجزات، أو مظهر لهنَّ، أو موضِّحٌ لما يجب أن يحذر عنه، ولا تشركوا به غيره باسم ولا فعل، ولا صفة ولا عبادة.

وَذَكَرَ الإنذار والإبانة بعد الأمربالفرار وبعد النهي عن الإشراك، وذلك تأكيد ومبالغة في النصح لا تكرير.

أو فروا إلى **الإيمان بالله وطاعته من معصيته وعقابه، ولا تشركوا به تعالى،** أو من عقابه إلى ثوابه، وفي كلٍّ ذلك الفرار من الله إلى الله ﷻ .

[قلت:] ويجوز أن يقال: قل يامحمَّد حيث لا يتوهَّم أنَّه من القرآن كما تجوز الصلاة عليه في قراءة القرآن، إذا ذُكر اسمه، لكن بصوت خفيف دون صوت القرآن، فالإنذاران والإبانتان في كلٍّ من الموضعين مغايران لما في الموضع الآخر، لتغاير ما رتِّب عليه.

أو ذكر الإنذار في الموضعين ليعلم أنَّ الإيمان لا ينفع بلا عمل كما أنَّ العمل لا ينفع بلا إيمان. والآيتان في تقديم الإيمان على الشرك مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ ...﴾ (سورة الكهف: ١١٠) ، وقوله: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ (سورة النساء: ٣٦) .

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا
أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ
ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

تهديد المشركين بالعذاب والأمر بالتذكير

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمحذوف، أي: الأمر كذلك، وهذا من فصل الخطاب ومن التخلُّص، كما يقال: أمَّا بعد، وكما يقال: هذا وإنّ كذا. والإشارة إلى قوله: ﴿مَآ أَتَى الذينَ من قَبْلِهِم﴾ فيشكل بأنّ الأمر هو نفس قوله: ﴿مَآ أَتَى الذينَ مِن قَبْلِهِم...﴾ لا مثله، فإمَّا أن يقال: الكاف زائدة، وإمَّا أن يقال: الأمر المطلق من أمور الله مثل قوله: ﴿مآ أَتَى﴾. أو الإشارة إلى تكذيب قومك، أي: تكذيبهم لك مثل تكذيب مَن قبلَهم رسلَهم.

ووجه التخلُّص أنَّه تقدَّم الكلام في القول المختلف وعقَّبه بغيره، ورجع الكلام إليه هنا.

(نحو) ومن أجاز خروج «ما» النافية عن المصدر إن لم تعمل عمل «ليس» أجاز أن يكون «كَذَلِكَ» مفعولا مطلقا لـ«أَتَى»، والإشارة إلى الإتيان، أي: ما أتى الذين من قبلهم من رسول إتيانا مثل إتيانهم. وأجاز أن يكون معمولاً لـ«قَالُوا» والإشارة للقول، أي: إلاّ قالوا ساحر أو مجنون مثل ذلك القول، لَكِنَّ الأصل بقاء «مَا» النافية على المصدر. وهاء «مِن قَبْلِهِم» عائد إلى قريش.

﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من رسل الله، وَإِمَّا أن يقدَّر: ما أتى من الله الذين من قبلهم من رسول ﴿إِلاَّ قَالُواْ﴾ في شأنه.

﴿سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ﴾ هو ساحر أو مجنون، إلاَّ قالوا تارة: هو ساحر وتارة: هو مجنون، و«أَوْ» لمنع الخلوِّ، لا لمنع الجمع، لأنَّ من اختلاف قولهم أن لا يبالوا بالجمع بين المتنافيين، أو قال بعض: هو ساحر، وبعض: هو مجنون.

ويجوز أن تكون «أَوْ» من كلام الله تعالى، أي: لا يخلون من صدور: إنَّه ساحر أو إنَّه مجنون لا بدَّ أن يقولوا أحدهما، أو يجمعان، أو تارة قال بعض: ساحر، وبعض: مجنون، وبعض: ساحر ومجنون.

و«رسول» نكرة في سياق النفي تعمُّ، ولا سيما مع «مِنْ» الزائدة، فإنَّها مع «من» في السلب نصٌّ في العموم، فيشكل بآدم فإنَّه لم يقل أحد: إنَّه ساحر أو إنَّه مجنون، فيجاب بأنَّ الآية جاءت في الرسل الذين تقدَّمهم قوم، فكانوا فيهم فخالفوهم فكذَّبوهم لتلك المخالفة وآدم لم يتقدَّمه أحد.

وَأَمَّا ما أجيب به من أنَّه نبيء غير رسول فلا يتِمُّ، لأنَّه رسول لأولاده ومن أدرك من نسلهم، على الصحيح.

وأجيب أيضا بأنَّ الآية في رسل من بني آدم، وآدم ليس من بني آدم، وفيه أنَّه كثيرا ما يدخل في بني آدم إذا ذكروا، أو أشكلت الآية بأنَّ الرسل المقرِّرين لشرع من قبلهم لم يكذِّبهم قومهم، بل كذَّبوا أهل الشرع قبلهم، فيجاب بأنَّ تكذيبهم تكذيب لأهل الشرع قبلهم، فهم كذَّبوا الرسل المحكيَّ عنهم، وبأنَّ الرسل الحاكين مِمَّن قبلهم يسمَّون رسلا، وكذَّبهم قومهم، فقومهم يكذِّبونهم فهم كذَّبوا رسل زمانهم.

وأخطأ من قال: إنَّ المقرِّرين كلَّهم أنبياء لا رسل، بل منهم نبيء رسول ومنهم نبيء غير رسول، حكمه حكم الرسول، وأيضا يوحى إلى الأنبياء ما ليس في كتب من قبلهم أيضا، وأجيب أيضا بأنَّ الآية في الرسل لا في المقرِّرين لهم.

وأشكلت الآية لقوله: ﴿إِلاَّ قَالُواْ﴾ وليس أمَّة كلّ نبيء تقول، بل يقول بعض الأمَّة دون بعضها، فيجاب بأنّ الكلام كلّ لا كُلّـيَّة، والمراد المجموع لا الجميع، والأكثر يقولون. وذكر المكذّبين فقط لأنّ المقام تسلية له ﷺ في تكذيب قومه له، ولا يقال مثل هذا من النظر للأغلب في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ لِمَا علمت أنّ «مِنْ» في السلب نصٌّ في الاستغراق.

(فقه) وعند الوصول في هذا المحلّ سئلت عن آدميَّة يجامعها جنّيٌّ قهرا ولا تطيق ردَّه بعد إسكارها وبدون إسكارها [أي صرعها] هل تحرم على زوجها ؟ فأجبت بأنّها لا تحرم إذْ لم تطق منعه.

﴿**اَتَوَاصَوْاْ بِهِ**﴾ الاستفهام للتعجيب وهو الحمل على التعجُّب، والهاء للقول بأنّه ساحر أو مجنون، كأنّه أوصى بعضٌ بعضًا به حتَّى اتَّصَلَ بقومك فقالوه. أو الاستفهام للإنكار، أي: ما تَوَاصَوْا به لكن جمعتهم عليه قسوة القلوب، وإهمال النّفوس من التفكّر، فجاوزوا الحدَّ حتَّى قالوه كما قال: ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ إضرابٌ عن التعجيب انتقالاً، أو عن التواصي إبطالاً.

﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**﴾ أعرض عن جدالهم فقد أبلغت جهدَكَ فأبوا عنادًا، أو تَوَلَّ عنهم بقلبك ولا يحزنك عنادُهم ولا تطمع في إيمانهم، وليس المراد ترك التبليغ بعد ﴿**فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ**﴾ إذْ لم تُقَصِّرْ في الإبلاغ والإنذار.

﴿**وَذَكِّرْ**﴾ لا مفعول له، لأنّ المعنى: دُمْ على التذكير هكذا، أو له مفعول محذوف، أي: ذَكِّرْهم بلا جدال ولا همٍّ، أو ذَكِّر الناس مُطْلَقًا.

وقد أمر عمر رضي الله عنه تميمًا الداريّ[1] أن يعظ النَّاس في كلّ سَبْت بعد طلب تميم ذلك، وقال: «عِظْ واعلم أنّه الذبح»، **وينبغي للقاصِّ أنْ لا يطيل فيملُّوا**

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٩، ص٢٥١.

فتذهب بركة العلم. وعن ابن مسعود: «للقلوب نشاط وإقبال وإدبار، فحدِّث القوم ما أقبلوا عليك». وعن رسول الله ﷺ : «**روِّحوا القلوب ساعةً**»[1].

[قلت:] وينبغي لمن يطيل أن يَذْكُر لهم في مَجلسه بعض ما يتَبَسَّمُون به ترويحًا لهم، وقد روي أنَّ الخليل بن أحمد[2] يذكر بعض الأضاحيك تنشيطًا بذلك، ويأمر به. وكان عمر يذكر الزُّهد ويخوِّف، وإذا رآهم كسلوا ذَكر الغرس والبناء، وإذا نشطوا رجع إلى الوعظ. وينبغي للمستمع أن يقول للواعظ أو المعلِّم كلَّما حدَّثه بحديث أن يقول له: صدقت، أو أحسنت، ليكون راغبًا. ولا بدَّ من حذر الرياء.

﴿**فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ**﴾ التذكير ﴿**تَنفَعُ الْمُومِنِينَ**﴾ من قضى الله ﷻ له بالإيمان، أو تزيد من كان مؤمنًا إيمانًا، وتُثبِّته.

[قلت:] ومثل الآية في القرآن كثير من الموادعة يقال: إنَّه منسوخ بآية القتال، وليس كذلك، فإنَّ التذكير لا ينسخ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ. وعن ابن عبَّاس: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمْرٌ بالتولِّي عنهم ليعذِّبهم ونسخه بــ﴿ذَكِّر...﴾، ولا يصحُّ هذا عنه، لأنَّ قصد التعذيب لا ينسخ، وإنَّما النسخ في الأحكام، وإن صحَّ فمراده إظهار خلاف ما فهموا.

وعن عليٍّ: لَمَّا نزل ﴿فَتَوَلَّ...﴾ لم يبق منَّا أحد إلاَّ أيقن بالعذاب، فنزل: ﴿وَذَكِّر...﴾، فطابت أنفسنا وظننَّا أنَّ من الكُفَّار من يؤمن. وعن قتادة: ظنُّوا أنَّ الوحي قد انقطع وأنَّ العذاب قد حضر، فنزل: ﴿وَذَكِّر...﴾. وظاهر كلام عليٍّ أنَّ المؤمنين خافوا عموم العذاب في الدنيا، وإلاَّ فهاء ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لِلْكُفَّارِ

١- انظر: السيوطي: الجامع الصغير، ج٢، ص٢٤.

٢- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٧، ص١٤٣.

فقط، والتذكير عامٌّ. وقيل: ذكِّر المؤمنين بأنَّ الذكرى تنفع المؤمنين، أي: يزدادون بها خيرًا.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ كيف يكفر قومك بي وما خلقتهم والجنَّ وسائر الناس إلاَّ للعبادة ؟!. واستدلَّ بعض بالآية على أنَّ الاشتغال بالعبادة والتفرُّغ إليها أفضل من الكسب للمال ولو على وجه الانتفاع للآخرة، وكذا قال ﷺ : «**ما أوحى الله تعالى إليّ بأن أجمع المال أو أكون من التاجرين، ولكنَّه أوحى إليّ أنْ ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**»[1].

[قلت:] ولا شكَّ أنَّ قدر الكفاية يجب، والزائد مباح. وقيل: ترك الكسب هو الأولى، فيشتغل بالعبادة حتَّى إذا احتاج كسب، **وما تقدَّم أولى**، قال ﷺ : «**تبايعوا بالبزِّ إنَّ أباكم إبراهيم كان بزَّازً**». قال الله ﷻ : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِي الاَرْضِ...﴾ (سورة الجمعة: ١٠) .

(من الحكمة) ويقال: لا دواء للفقر إذا خالطه الكسل، ولا للمرض إذا خالطه الهَرَمُ، ولا للعَداوَة إذا خالطها الحسد.

[قلت:] ومن أفضل العبادة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، ولا سيما إذا سمع ذكره في قراءة الجماعة للقرآن، يصلِّي عليه كلٌّ واحد لأنَّه سمعه من أصحابه، ومن نفسه إذا قرأه، وأهل نفوسة وجربة إذا قرأوه صلّوا عليه وسلّموا ومسحوا بوجوههم، وقد قالوا: هذا قديمٌ عندنا، وقد يكون من زمان

١- أورده **أبو نعيم** في الحلية، ج٢، ص٢٣١. و**ابن عديٍّ** في الكامل: ج٣، ص٦٩. من حديث أبي الدرداء.

الشيخ عامر[1] أو قبله أو بعده، وسواء ذلك كلّه لأنّه حقٌّ يقبل متى قيل به ومن أيٍّ قائل.

وكتابتها في أوّل لوح القرآن أو غيره جائزة، وقد اعتيدت بعد كتابة البسملة ليفصل بين البسملة وما يكتب فيه من القرآن، وفي شرح دلائل الخيرات للجزولي الإجماعُ على كتابة الصلاة والسلام والبسملة أوّل الكتاب.

وقدَّم الجنَّ في الآية لتقدُّمهم خلقةً على الإنس، وللمبالغة في إيجاب العبادة بالتأكيد والتعميم، [كأنّه قال:] أُمِرَت الجنُّ بالعبادة فكيف أنتم؟ وأنتم أنسب وأقوى لها، ولم يذكر الملائكة لأنَّ المشركين سَلَّمُوا أنَّ الملائكة تعبد الله ﷻ، ولأنَّهم لا يصدر منهم العصيان، والكلام مع أهل التكذيب، وفي شأن من يصدر منه الذنب، ولأنَّهم مستغنون عن التذكير والوعظ، إذْ طُبِعُوا على أن لا يعصوا لكن يعبدون الله ﷻ اختيارًا.

وأمَّا ما قيل لأنَّه ﷺ لم يُبعث إليهم فلا نسلّمه لأنَّه مبعوثٌ إليهم وإلى كلِّ أحد، بل قيل: إلى كلِّ ذي روحٍ، قيل: وإلى الجمادات، نعم بعث إليهم بمعنى إيجاب الإيمان به ﷺ عليهم، وقد آمنوا به ومضوا في سبيلهم، ولم يبعث إليهم بأن يأمرهم وينهاهم، ولا يعارض بما وقع من هذا شاذًّا فصحَّ أن يقال بهذا الاعتبار: إنَّهم لم يُذْكروا لأنَّهم لم يبعث إليهم، وقيل: دخلوا في لفظ الجنِّ، لأنَّ مَادَّة الجنِّ للاستتار وهم كالجنِّ مستترون، وهو غير متبادر.

١-عامر بن علي الشَّمَّاخِيُّ النفوسيُّ، أبو ساكن، الفقيه المحقّق، أخذ العلم عن أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي في جبل نفوسة بليبيا، اشتهر بالاستقامة منذ صغره، جلس للتدريس والتأليف طول حياته، وقد درس بمتيون ويفرن إلى أن تُوُفِّيَ سنة ٧٩٢هـ. له كتاب الإيضاح في الفقه معتمد الإباضية في شمال إفريقيا، ورسالة في الديانات. جمعية التراث: معجم أعلام الإبَاضِيَّة: مج٣، ص٥٠١، رقم٥٢٩ (بتصرُّف).

و«ال» في الجنِّ والإنس للجنس، فلا يشكل بمن لم يكلَّف كالأطفال ومن لم يميِّز، وكالمجنون ومن لا عقل له. وشهر أنَّها للاستغراق، وعليه فالمراد بالإنس والجنِّ المكلَّفون، لأنَّ المقام لمن لا عذر له.

وقيل: «ال» للعهد، والمراد المؤمنون، ويدلُّ له ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ﴾ وما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّه ﷺ قرأ «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ مِنَ الْمُومِنِينَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ»، وهو قراءة لابن عبَّاس مرويَّة عنه.

(أصول الدين) والمشهور أنَّ أفعال الله لا تُعلَّل بالأغراض، والحقُّ جواز تعلُّلها بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتي. وعلى المنع فمعنى التعليل باللام أنَّه خلقهم على وجه يتوصَّل به من كلِّف منهم إلى عبادته، وتكون غاية لذلك الوجه، وليس المراد أنَّه أراد منهم كلّهم العبادة، أعني المكلَّفين، لأنَّه لو أرادها لم تتخلَّف، وعبدوه كلُّهم، والموجود غير ذلك: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩) ، وإنَّما الذي يمكن تخلُّفه أمره ونهيه، بمعنى أنَّه أمرهم فلم يأتمروا كلُّهم ونهاهم ولم ينتهوا كلُّهم، بل بعضهم. ولمحاذرة تعليل أفعاله بالأغراض قيل: اللام للعاقبة، تقول: خلق البقر للحرث، وليست كلُّها تحرث.

وزعم بعض أنَّ العبادة التذلُّل، أي: ليذلُّوا لي، فكلُّ ما سوى الله قد عبده بمعنى خضع له، أي: لم يتعاصَ عنه، أو العبادة الدلالة عليه تعالى.

وفي كـلِّ معبود سـواك دلائل   من الصنع تُنبي أنَّه لك عـابد

وهل في التي طاعوا لها وتعبَّدوا   لأمرك عاصٍ أو لحقِّك جاحد

وقد قيل: العبادة التوحيد، عن ابن عبَّاس: كلُّ عبادة في القرآن توحيد، وكُلُّهم وحَّدوا، إلاَّ أنَّ المؤمن يوحِّد في الرخاء والشدَّة، والمشرك في الشدَّة، إذا

أرادوا ركوب السفينة قالوا: أخلصوا. ويوم القيامة يقولون: ﴿واللهِ رَبِّنا مَّا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) ، وتفسير الآية بذلك خلاف الظاهر.

وعن عليٍّ وابن عبَّاس: المراد ما خلقهم إلاَّ لأمرهم بالعبادة، فعبَّر بالمسبَّب أو اللازم وهو العبادة عن السبب أو الملزوم وهو الأمر بها، وعن مجاهد ليعرفوا إطْلاقًا للمسبَّب أو اللازم وهو العبادة على السبب أو الملزوم وهو المعرفة، وروي أنَّه تعالى قال: «**كنت كنزًا فخلقتُ الخلق لأُعرف**»[1] وقد عرفوه يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) ، وكلٌّ مولود يولد على الفطرة.

[قلت:] ولا يعرف قوله: «كنت كنزًا...» حديثا.

﴿**مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُّطْعِمُونِ**﴾ الرزق أعمُّ من الطعام، لشموله المنافع من لباسٍ وغيره، وليس تعالى كالناس يستعينون بعبيدهم في أرزاقهم، ولم يخلقهم الله استعانة بهم بل ليعبدوه، **وهو غنيٌّ عن عبادتهم، وهو منزَّهٌ عن الأكل والحاجة.**

ويجوز أن يكون المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، ولا أن يطعموا خلقي وأنا رازق الكلِّ، ومطعم الكلِّ، وروي هذا عن ابن عبَّاس.

والمراد بالإطعام ما يشمل السقي، وقد سَمَّى الشرب طعامًا في سورة البقرة [آية ٢٤٩]، وأسند الإطعام إلى نفسه، والمراد: إطعام خلقه وهم عياله، ومن أطعم عيال أحد كمن أطعمه، أي: ولا أن يطعموني بإطعام عيالي.

وفي الحديث القدسي: «**ياعبدي مرضت فلم تعدني وجعت ولم**

١-أورده **العلجوني** في كتاب كشف الخفا: ج٢، ص١٩١، وابن **العراق** في تنزيه الشريعة: ج١، ص١٤٨، (م.أ.ج.ن). وقد قال الشيخ بعد أن أورده: ولا يعرف حديثا.

تطعمني»، أي: مرض عبدي فلم تعده وجاع عبدي و لم تطعمه.

ولفظ مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الله ﷻ يقول يوم القيامة**: «**يا ابن آدم مرضت فلم تعدني**» **قال: ياربِّ كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال**: «**أما علمت أنّ عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما إنّك لو عدته لوجدتني عنده**» **يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: ياربِّ كيف أطعمك وأنت ربُّ العالمين؟ قال**:«**أما علمت أنّ عبدي فلانًا استطعمك ولم تطعمه؟ أما علمت أنّك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسقيتك ولم تسقني**» **قال: يا ربِّ كيف أسقيك وأنت ربُّ العالمين؟ قال**: «**استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنّك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟**»»[1] ومعنى قوله: «كيف أعودك»: كيف تمرض فأعودك؟.

وقيل: بتقدير قل في الآية، أي: وقل ما أريد منكم من رزقٍ وما أريد أن تطعموني، أي: قل في شأنهم معك: ما أردت من هؤلاء أن يرزقوني، وما أريد أن يطعموني، كقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (سورة الشورى: ٢٣) ، كما جاء ﴿قُل لِّلذينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٢) ، بالتاء وجاء بالياء.

﴿**إِنَّ اللهَ**﴾ لأنّ الله وحده لا غيره ولا معه أحد ﴿**هُوَ الرَّزَّاقُ**﴾ لمن احتاج إلى الرزق، فهو لا يحتاج إلى الرزق ﴿**ذُوالْقُوَّةِ**﴾ القدرة ﴿**الْمَتِينُ**﴾ شديد القوّة، أي: القدرة.

وقوله : ﴿هُوَ اَلرَّزَّاقُ﴾ متعلّق بقوله : ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وطالب الرزق فقير. وقوله: ﴿ذُوالْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُّطْعِمُونِ﴾

١-رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، رقم٢٥٦٩. **وابن حبّان** في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في الصفات، رقم٢٦٩. من حديث أبي هريرة.

لأنّ مريد الإطعام عاجز كطفل ومريض يطبخ له.

وجاء لفظ الغيبة بعد التكلُّم الذي هو مقتضى الظاهر، كما قرأ ﷺ: «إنِّي أنَّا الرَّزَّاق» ليذكر نفسه بالاسم المشهور في معنى العُبُوديَّة التي هي علَّة الحكم، ولتكون الآية كالمثل. ويقدَّر القول في هذه القراءة إذا قدَّرنا القول قبل هذا كما رأيت، ولا بأس بعدم تقديره لأنَّه معلوم أنَّ القائل «أنَا الرَّزَّاقُ» هو الله عن نفسه.

وقال: ﴿ذُو القُوَّةِ﴾ بدل القويِّ، لأنَّ في «ذُو» تعظيم ما أضيفت إليه، وتعظيم ما وصف بها.

﴿فَإِنَّ لِلذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم عطف على ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالاِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: فإنَّ للذين ظلموا لاشتغالهم بعصيانهم عن عبادته، أو جواب لمحذوف مقرون بالفاء، أي: إذا ثبت أنَّ الله تعالى ما خلق الجنَّ والإنس إلاَّ للعبادة، فإنَّ للذين ظلموا، أي: أشركوا أو عصوا من كُفَّار مكَّة وغيرهم.

﴿ذَنُوبًا﴾ نصيبًا عظيمًا من العذاب استعارة من الذَّنوب، وهي الدلو العظيمة الممتلئة ماءً، أو القريبة من الامتلاء، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، أو قليلة الماء، ويستعار أيضًا للنصيب من الخير.

أَسِر الحارث بن أبي شمر الغساني شَاس بن أبي عبْدة التميمي فاستعطفه علقمة الفحل أخو شاس وقال:

وفي كلِّ حيٍّ قد خطبت بنعمة فحُقَّ لشاسٍ من نَداك ذَنُوب

فسمع الحارث البيت فقال: نعم وأذنِبَة[1].

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ من الأمم السابقة من عذاب الدنيا أو من عذاب

١-أذنبة جمع ذنوب كما في لسان العرب ج٦، ص٦٤ ، مَادَّة: «ذنب».

الآخرة، هو عذاب بدر، لأنَّ ما قبل في عذاب الدنيا. وقيل: عذاب الآخرة، لأنَّ ما فتحت السورة له فتكون بدئت بعذاب الآخرة، وختمت به، والأوَّل أولى بالاعتبار في التفسير.

﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلُون﴾ بالإتيان به قبل وقته، فإنَّه لا يكون قبل وقته، ولا يكذِّبوا به، ولايقولوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟.

﴿فَوَيْلٌ...﴾ عطف إخبار على نهي وتفريعٌ، أو مجرَّد تعليل بأنَّ لهم ويلاً لا بدَّ لهم منه، والويل الهلاك ﴿لِّلذِينَ كَفَرُواْ﴾ مقتضى الظاهر: فَوَيْلٌ لَهُم، فوضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالكفر الموجب للويل، ويحتمل أن يكون المراد بـ«الذِينَ كَفَرُواْ» العموم.

﴿مِنْ يَّوْمِهِمْ﴾ في يومهم، أو بسبب يومهم، أي: لحضوره، أو يبتدئهم من يومهم، أي: فيتحصَّل لهم منه ﴿الذي يُوعَدُونَ﴾ أي: يوعدونه، من وعد الثلاثي المستعمل في الشرِّ، أو من الإيعاد المختصِّ به.

والله الموفِّق وهو أعلم
ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلم.

تفسير سورة الطور وآياتها ٤٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ
② فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يُدَعُّونَ
إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ
⑮ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯﴾

وقوع القيامة وإثبات العذاب في اليوم الموعود

﴿وَالطُّورِ﴾ جبل الطور، وهو الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى، ويسمَّى طور سيناء، وطور سينين، قرب التيه بين مصر والعقبة.

[قلت:] ودع عنك القول بأنَّه جبل محيط بالدنيا والقول بأنَّه جبل من جبال الجنَّة، لكنَّه رواية عن أبي هريرة مرفوعة غير أنَّها لم تصحَّ.

والقول بأنَّه جنس الجبال ولو قال به أبو حيَّان والكلبيُّ ومجاهد، ولو قال بعض المتلقِّبين بأهل السنَّة إذا جاء التفسير عن مجاهد كفى، وأهل السنَّة في عرف هؤلاء هم الأشاعرة، والماتريديَّة.

وما ذكرته أوَّلاً هو قول الجمهور المشهور، ويقوِّيه ذكر هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ (سورة التين: ٢) ، و﴿طُورِ سِينَآءَ﴾ (سورة المؤمنون: ٢٠) ، وتفسير القرآن بالقرآن أولَى. ويقال: هو بمدين أو بالقدس، ولا ينافي أنَّه قرب التيه.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوب سطورًا وهو القرآن، نكِّر للتعظيم بحيث يعرَف بلاَ تعريف، [قيل:] كتبه إسرافيل من اللوح المحفوظ جملةً إلى السماء الدنيا. أو كتاب تجمع الملائكة فيه الأعمال، أو هو التوراة، ويروى أنَّ الله ﷻ كتب التوراة لموسى وهو يسمع صرير القلم، أي أمر الله القلم فكان القلم كاتبًا كما روي عن الكلبيِّ، أو الزبور أو الإنجيل أو اللّوح المحفوظ.

﴿فِي رَقٍّ﴾ جلد يرقّق للكتابة فيه، وهذا يناسب ما عدا اللوح المحفوظ وأمَّا التوراة والإنجيل والزبور فيحتمل أنَّها كتبها الله في جلد خلقه، **أو يراد أنَّها كتبهنَّ الناس في جلد فذكر الله كتابتهم**، وشهر أنَّ التوراة نزلت في ألواحٍ من زبرجد، وكذا القرآن كَتَبَه الصحابة في الجلد كما كتبوه في الخشب والعظام والحجارة البيض، وأمَّا كَتْبُه من اللوح جملة وكَتْبُ الأعمال ففي جلود خلقها الله أو في غيرها مِمَّا شاء الله تعالى.

[قلت:] ولعلَّ المراد بالرَّق ما يَعُمُّ الجلد المرقّق للكتابة والورق، وكلّ ما يرقّق ويصفّى للكتابة، يبرق أو يكاد يبرق، وإذا قيل: المراد بـــ«كِتَاب» جنس كتب الأعمال فوجه الإفراد إرادة العموم البدليّ، وإلاّ فاللفظ مفردٌ منكّر في الإثبات وفي غير الشرط فلا يعمُّ.

﴿مَّنشُورٍ﴾ مبسوط ما فيه عيب، ككذب في حقٍّ، أو على أحدٍ وظلم أو خطأ فيطوى سترًا عليه، وهو أيضًا مبسوط للملائكة يرجعون إليه إذا فسِّر باللوح المحفوظ، أو بكتاب الأعمال، أو مكتوب لأهل الدنيا، أو يكتبونه.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ المسمَّى الضُّرَاحُ (بضمِّ الضَّاد وتخفيف الراء) فوق الكعبة في السماء الدنيا، وقيل: في الرابعة لو سقط أو تدلّى منه شيء أو وقع لوقع على الكعبة، سمِّي معمور لأنَّه عمر بعبادة الملائكة يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ولا يرجعون إليه إلى قيام الساعة، وحرمته كحرمة الكعبة في الأرض،

أو قيل: في كلّ سماء فوق الكعبة بيت معمور كذلك، على وصفه وصف الكعبة من العمارة، وعدد الملائكة.

أو البيت المعمور الكعبة يحجُّها كلّ عامٍ ستُّمائة ألف، وإن نقص العدد كمِّل بالملائكة. وقيل: البيت المعمور فوق السابعة تحت العرش كما في مسلم، وإنَّه المسمَّى بالضُّراح. وقيل: البيت المعمور السماء الدنيا أو جنس السماوات، فما في واحد موضع قدم غير معمور بالملائكة وعبادتهم.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ السماء الدنيا، فهي كسقف على الأرض، أو جنس السقف وهو السماوات، كلٌّ واحدة كسقف لما تحتها، أو العرش فإنَّه سقف للجنَّة.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء ماءً وهو المحيط، فإنَّه عميقٌ جدًّا عريضٌ جدًّا، لا تقطعه الشمس ولا ضوؤها، دائر بالدنيا كلّها هذا ما في بعض الكتب، وأمَّا بالمشاهدة فقال السيَّاحون من الإفرنج وغيرهم: إنَّها تقطع المحيط والأرض كلّها، وليس على استدارة بل على الإحاطة، ألا ترى أنَّه داخل في المغرب الأقصى، حتَّى إنَّ عليه سبتة. أو **البحر المسجور جنس البحور المالحة.**

(نقد بعض الروايات) وزعم بعض أنَّه بحر تحت العرش، قيل: فيه ماء غليظ عمقه ما بين سبع سماوات إلى الأرض السفلى، ينزل أربعين يومًا كالنطفة ينبت الناس به يوم القيامة، **وهو خطأ وروايته مرفوعة لاتصحُّ**. ولا عن عليٍّ وابن عمر. وزعموا أنَّه يمطر ذلك الماء على القبور فتخرج الموتى كما يخرج النبات ثمَّ ينفخ إسرافيل فيحيون. والصواب أنَّهم يحيون في قبورهم بالنفخ فيخرجون أحياء ينفضون التراب عن رؤوسهم.

ويقال: المراد جنس البحر المالح أو المحيط، وأنَّه يوقد يوم القيامة مادَّة على أهل النار، وكذا فيما قيل: من أنَّ البحار كلَّها تجعل بحرًا واحدًا محمًّى؛ فيكون اسم المفعول للاستقبال في القول، أو للمضيِّ، بل للحال لتحقُّق الوقوع.

وقيل: المسجور المزال الماء، على أنَّه يزال ماؤه يوم القيامة؛ فيكون من الأضداد مع القول بأنَّه المملوء، ولعلَّه مملوء يوقد ثمَّ يفرغ على أهل النار.

وعن ابن عمر أنَّه ﷺ قال: «**لا يركبنَّ رجل البحر إلاَّ غازيًا أو معتمرًا أو حاجًّا، فإنَّ تحت البحر نارًا وتحت النار بحرًا**»[1].

وقيل: محبوس عن أن يغاض ماؤه وعن أن يفيض على الأرض، كما يقال: كلب مسجور، وقيل: المعنى المفجَّر لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (سورة الانفطار: ٣) ، وأصحاب هذه الأقوال ناظرون لِمَا يَصِحُّ في اللغة، ولا مستند لها، وبين المحبوس والمفجَّر تضادٌّ أيضًا.

(قصص) وهذه خمسة واوات: الأولى للقسم على وقوع الشرِّ بلا واسطة، والأربع للقسم كذلك بواسطة العطف، رأى رجل خمس واوات في كفِّه، فعبِّرت له بخير، وقال ابن سيرين: تهيَّأ للشرِّ، فقيل: من أين؟ فقال: من قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ...﴾ فما مضى يومان أو ثلاثة إلاَّ قتل وأخذ ماله.

﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ**﴾ متَّصل بمن كذَّبك، كسقوط الشيء من عال عليهم، وأنت ناجٍ منه، كما دلَّ عليه إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ ﴿**مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ**﴾ عمَّن كذَّبك.

١-رواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب في ركوب البحر في الغزو، رقم٢٤٨٩. ورواه **البيهقي** في كتاب الحج (١٣) باب ركوب البحر لحجٍّ أو عمرة أو عزو، رقم٨٦٦٢. من حديث ابن عمر.

(نحو) والجملة خبر ثان أو معترضة في آخر الكلام، ولا يصحُّ أن تكون نعتًا لـ«وَاقِعٌ» إلاَّ على ضعف، لأنَّه بمنزلة الفعل.

وفي الآية وعيد شديد ولم يذكر أهله للعلم به، وهم المكذِّبون له ﷺ، ويروى أنَّ عمر ﷺ قرأ من أوَّل السورة إلى هنا، وأصابه وجع شديد من شدَّة خشوعه، حتَّى عاده الناس به عشرين يومًا. وبكاؤه بكاء حقٍّ، بدليل أنَّه لم يسترح به، لأنَّ الضعيف الخشوع يستريح ببكائه.

(سيرة) وجاء جبير بن مطعم إلى رسول الله ﷺ ليفدي أسرى بدر، فوافقه يُصَلِّي المغرب بسورة الطور، ولَمَّا سمع قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ كاد قلبه ينصدع، فأسلم في حينه خوفًا من أن ينزل عليه العذاب قبل قيامه، وذلك قبل أن يسمع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ﴾ من فيه ﷺ، أو سمع ولم يفهمه لشدَّة ذهوله، أو سمعه ولم يعلم أنَّه يوم القيامة، أو تأوَّل أنَّه مفعول به لاذكر، كما قال به مكِّيٌّ، وهو رجل أندلسيٌّ جاور بِمَكَّةَ فنسب إليها[1]، أو فهم كما أنَّه يقع يوم القيامة يقع قبله.

﴿يَوْمَ﴾ متعلِّق بـ«وَاقِعٌ»، وهذا أولى من أن يعلَّق بـ«دَافِعٍ» أو بـ«مَا»، ووجه تعلُّقه بـ«مَا» أنَّها حرف نفي، وكأنَّه قيل: انتفى الدفع يوم تمور، وإنَّما كان الأوَّل أولى لأنَّه صريح في أنَّه يقع العذاب يوم القيامة، والأصل عدم التعليق بالحرف، والوجهان الأخيران يدلاَّن على وقوع العذاب يوم القيامة ضِمنًا، لأنَّ الشيء ينتفي دفعه وقت حضوره.

﴿تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا﴾ تضطرب في مكانها وتميل بأهلها كالسفينة، أو تختلف أجزاؤُها أو في سيرها، أو تنتقل سريعًا؛ ويترتَّب على ذلك انشقاقها، كما روي عن ابن عباس تفسيره بـ«تنشقُّ».

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٥، ص٣٦٤.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ على وجه الأرض بالقلع، وتتلوَّن وتخفُّ كالعهن المنفوش، وتكون كالسحاب فتفنى، [قلت:] لأنَّ الله ﷻ خلق الأرض وما فيها ليعبد الله فيها، وكذا السماوات وجعلها لأهلها دلائل، فإذا ماتُوا ذهبت. وإنَّما أُكِّد الفعلان بـ«مَوْرًا» و«سَيْرًا» تعظيمًا له لغرابة ذلك المَوْرِ وذلك السَّيْر، والمعنى: مورًا وسيرًا عجيبين، أو بديعين.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك، أو إذا وقع ذلك فويل، ويجوز أن لا يقدَّر شرط فتعطف الاسميَّة على إحدى الفعلتين.

﴿الذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ يلهون في باطل ممَّا لا نفع فيه، وَممَّا هو ذنب إشراك وما دونه. وأصل الخوض أن يكون في الماء، استعمل في الأمر الباطل، ووجه ذلك أنَّ الخائض في الماء يثير ما فيه من تراب أو وسخ، وقد لا يدري ما تقع عليه قدمه من مضرَّة.

ويستعمل الخوض في الشروع في الشيء مطلقًا وغلب استعماله في الباطل، كما أنَّ أصل الإحضار إحضار الشيء مطلقًا وغلب في الشرِّ، يقال: في أهل النار: «مُحْضَرُونَ»، ولا يقال في أهل الجنَّة، كما مرَّ كلام في ذلك. وكما غلب الثقل في الحسنات والخفَّة في السَّيِّئات. وقدَّم «فِي خَوْضٍ» على متعلَّقه على طريق الاهتمام بذكره وللفاصلة، ويجوز أن يكون خبرًا و «يَلْعَبُونَ» خبرا ثانيًا، أي: ثابتون في خوض لاعبون بكلِّ ما أمكن اللعب به.

﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ من «يَوْمَ» أو متعلِّق بقول محذوف ناصب لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ﴾ أو رافع له، أي: يقول الله تعالى: هذه النار، أو يقال: هذه النار؛ وهذا الوجه مع اشتماله على الحذف أولى، لأنَّه لا بدَّ من تقدير القول، ولو جعل «يَوْمَ» بدل من «يَوْمَ».

﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يدفعون بشدَّة بلا مشي منهم، لأنَّهم تغلُّ أقدامهم بنواصيهم، وأيديهم إلى أعناقهم، أو يمشون بتعنيف ثمَّ يغلُّ ما ذكر ﴿هَذِهِ النَّارُ التِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تكذِّبون الوحي الجائي بتثبيتها. ويجوز أن يقدَّر حال من واو «يدعُّون»، أي: مقولاً لهم: هذه النار.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَآ﴾ قد رموه ﷺ بالسِّحر، فقال الله تعالى: أمحمَّد كاذب في ما أتاكم به فهذا الذي أتاكم به سحر؟ أو أمحمَّد مبطل فهذا الذي أتاكم به سحر. فـ«سِحْرٌ» خبر مقدَّم، لأنَّه المقصود بالإنكار والتوبيخ، وذلك داخل في القول المقدَّر.

﴿أَمَ اَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ بل أنتم لا تبصرون، أو بل أنتم لا تبصرون لا تدركون هذه النار كالأعمى، كما كنتم في الدنيا لا تدركون الحقَّ ﴿اَصْلَوْهَا﴾ اُدخلوها، أي: النار، ولاقوا حرَّها لا تخفَّف عنكم ولا ترحمون ﴿فَاصْبِرُواْ أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ﴾ على شدَّتها لا يبالى بكم، وما يروى أنَّهم يقولون: تعالوا نصبر كما أنَّ الصبر في الدنيا نافع، فيصبرون خمس مائة عام فينطقون، لعلَّه تمثيل بكون الله ﷻ يخرصهم تلك المدَّة بحيث يكونون كهيئة الصابر بلا شكوى.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر لمحذوف، أي: الصبر وعدمه مستويان في عدم النفع لكم، والأصل: سواء في شأنكم، ولكن جيء بـ«على» إشعارًا بالضرر، فإنَّ صبرهم وعدمه كليهما ضرران عليهم، وأفرد لأنَّه في الأصل مصدر. وعلَّل التسوية بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: استويا عليكم لقضاء الله ﷻ بالجزاء فلا يتخلَّف بالصبر.

□ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم

بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا
أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ
مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا
إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

جزاء المتَّقين ونعم الله عليهم يوم القيامة

﴿**إِنَّ الْمُـتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ**﴾ معنى كونهم فيهما ملابستهم لهما، وذلك مجاز في الحرف، فشمل الكون في الجنَّات، ومجاورة سائر النعيم. وذلك كلام مستأنف من الله عَزَّوَجَلَّ، ويضعف أن يكون ممَّا يقال للكُفَّار، فيدخل في القول المقدَّر، ووجهُهُ أنَّ خطابهم بما هو فَوْزٌ لأعدائهم غَمٌّ لهم. والتنكير للتعظيم أو التنويع، أي: في جنات عظيمات ونعيم عظيم، أو مخصوصات بهم، ولا يقبل ما أجيز من أنَّ التنوين عوض عن المضاف إليه، لأنَّ ذلك معروف فيما يلزم الإضافة ككلٍّ وبعض، ولأنَّه لا فائدة في قولك: جنَّاتهم ونعيمهم إلاَّ باعتبار في جنَّاتهم ونعيمهم المعهودة لهم، ولا دليل على قصد هذا التأويل.

﴿**فَاكِهِينَ**﴾ متلذِّذين ﴿**بِمَآ ءاتَاهُمْ رَبُّهُمْ**﴾ إيَّاه من الإحسان، والنصب على الحال من المستتر في قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ العائد إلى «الْمُتَّقِينَ» ﴿**وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ عطف على ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ...﴾ عطف فعْلِيَّة على اسْمِيَّة، أو على ثابتون أو ثبتوا الذي تعلَّقت به «في»، أو على ﴿ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على أنَّ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي: فاكهين بإيتاء ربِّهم، ووقايته إيَّاهم عذاب الجحيم، فإنَّ

التلذُّذ يقع بالإيتاء كما يقع بالموتَى، قيل: أو على أنَّها اسم على تقدير الرابط، أي: ووقاهم به.

وأجيز أن تكون الواو للحال على تقدير قد قيل، أو بلا تقدير، وصاحب الحال المستتر في «فَاكِهِينَ» أو في متعلّق الظرفي الخبري، أو في الظرف أو في من ربٍّ، أوالهاء قبله، وكَرّر لفظ «ربّ» تشريفًا وتعليلاً للوقاية بأنَّها لربوبيَّته لهم.

﴿كُلُواْ﴾ كلَّ ما اشتهيتم ﴿وَاشْرَبُواْ﴾ كلَّ ما اشتهيتم ﴿هَنِيئًا﴾ أي: بلا مشقَّة ولا وخامة، أي: شربًا هنيئًا، ويقدَّر مثله لـــ«كُلُوا»، أي: أكلاً هنيئًا. وليسً من التنازع، لأنَّ الهنيء أكلٌ أو شربٌ لا شيء واحد، كقولك: جاء وأكرمت زيدًا، فإنَّ الجائي والذي أكرم واحد هو زيد. ويجوز أن يكون مفعولاً به، أي: كلوا طعامًا هنيئًا واشربوا شرابًا هينئًا.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كونكم عاملين، أو بعوضه، أو بسبب ما كنتم تعملونهُ أو عوضه، تنازع فيه «كُلُوا و«اشْرَبُوا»، أعني تنازع فيه الفعلان لا مع فاعلهما، وكذا في مثل هذه العبارة من كلامي.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من المستتر في خبر «إنَّ»، ولو فصل بكثير لينسحب على ما بعد ذلك، أو من واو «كُلُوا» أو من واو «اشْرَبُوا»، ويقدَّر للآخر كلوا متَّكئين، واشربوا متَّكِئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وهو شيء يعمل مرتفع للنوم عليه، أو للقعود عليه، وهو من معنَى السرور، وتسمية ذلك الذي للميِّت تشبيه صوريٌّ به، أو تفاؤل لخروجه من سجن الدنيا إلى رحمة الله جل وعلا ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ مجعولة خطًّا مستويًا.

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قرنَّاهم بنساء بيض حسان العيون، واسعات العيون. ولكون التزويج بمعنَى القرن والإلصاق عدِّي بالباء، والذي بمعنى عقد

النِّكاح يتعدَّى بنفسه إلى اثنين، وإلى أحدهما بالباء، ولا يخلو عن معنى القرن، ولا عقد نكاح في الجنَّة إذ لا تكليف فيها بل يهب الله ﷻ النساء للرجال، والتزويج يتعدَّى بالباء في لغة أزد شنوءة، وبنفسه عند غيرهم.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ أولادهم الأطفال ذكورًا وإناثًا، وقيَّد الاتِّباع احترازًا عن أن يبلغ الطفل فيكفر، وعطفُ «اتَّبَعَتْهُمْ...» على «ءَامَنُوا» صحيح بلا ضعف، فلا داعي إلى جعله حالاً مع تقدير قد، بناء على وجوب قرن الماضي المثبت بقد، إذا كان من جملة الحال، أو بدون تقديرها لأنَّ الأصل القرن بها، والأصل عدم التقدير، والأصل في الواو العطف لا الحاليَّة.

﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ في درجاتهم، والمعنى اتَّبَعَتهم ذرِّيتهم بإيمانٍ مَّا قويٍّ أو ضعيفٍ، فإنَّ الإيمان يتفاوت على الصحيح، وإيمان الطفل قد يقوى كما سمعت في القصص عن بعض الاطفال، فالتنكير للتعميم، وإن شئت فقل: للتنويع.

وقيل: يتفاوت الإيمان بالأعمال، ويجوز أن يكون للتعظيم، لأنَّه إيمان على أصل الفطرة لم تحدث عليه معصية ولا مكروه، وعلى كلِّ حال تكون عبادته دون عبادة أبيه، لأنَّه غير مكلَّف، إلاَّ أنَّه يجمع بأبويه ليزدادوا سرورًا به.

وقد قال بعض العلماء: يُتولَّى الطفل بولاية أمِّه ولو كان أبوه في البراءة. وعن ابن عبَّاس روايتان في إلحاق البالغ بأبيه في درجته، ولو لم يكن في درجة عمل أبيه لتقرَّ به عينه، والذكر والأنثى سواء في ذلك كلِّه.

ورواية البغويِّ[1]: «إنَّ أولاد المشركين في النار مع آبائهم» كاذبة، وإن

١-هو الحسين بن مسعود بن محمد الفرَّاء، أبو محمَّد، ويلقَّب بمحيي السنَّة، البغوي، فقيه، محدِّث مفسِّر، نسبته إلى «بغا» من قرى خرسان، ولد بها سنة ٤٣٦هـ. وتُوُفِّيَ بها سنة ٥١٠هـ. له مصنَّفات كثيرة منها: "لباب التأويل في معالم التنزيل" في التفسير. وكتاب "شرح السنَّة =

صحَّت فأولادهم البالغون المشركون ليتأذَّوا بهم، قال ابن عبَّاس: قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله تعالى ليرفع درجة ذرِّيـــَّة المؤمن معه في درجته وإن كانوا دونه لتقرَّ بهم عينه**» وقرأ الآية. وعن رسول الله ﷺ : «**إذا دخل الرجل الجنَّة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال له: إنَّهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: ياربِّ قد عَمِلْتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به**»[1]، أي: فيسكنون معه أبدًا.

[قلت:] ومعنى عمله لهم أنَّه كان يدعو لهم، وهذا يكفي، ولا سيما أنَّه قد يهب لهم عملاً صالحًا في حياته. وأقول: لا مانع من أن تشمل الآية والحديث البالغ القريب من الطفوليَّة المطيع لله.

ويلحق ابن أمِّه أمَّه في درجتها إن تابت، وكذا من لم يثبت له الشرع أبًا، وإن شقي الأب وسعدت الأمُّ رفع إليها، وسواء في ذلك كلّه المهاجرون والأنصار وسائر الصحابة وغيرهم. ولم يضمر للذُّرِّيـــَّة في قوله: ﴿أَلْحَقْنَا...﴾ للبيان.

(أصول الدين) وولد الموحِّد يحكم عليه بالتوحيد، وولد المشرك لا يحكم عليه بالشرك، بل ببلل الشرك[2]، وقيل: إن أسلمت أمُّه دون أبيه حكم له بحكم التوحيد.

وأمَّا أولاد المشرك والفاسق ففي الجنَّة خدم لأهل الجنَّة، لأنَّهم ولدوا على

= في الحديث" وكتاب "التهذيب" في فقه الشَّافعيَّة. الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٢٥٩.

١- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١١، ص٣٤٩، رقم١٢٢٤٨. وأورده **الهندي** في الكنز، ج١٤، ص٤٧٨، رقم٣٩٣٣٣. من حديث ابن عبَّاس.

٢- أي على قول من يقول: إنَّ بلل المشرك مطلقا نجس، انظر: ج٥، ص٤٣٣، في تفسر قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} (التوبة: ٢٨).

الفطرة، ولحديث: «**سألت ربِّي في اللاهين فأعطانيهم**»[١]. وأخطأ من قال: هم في النار، إذ لا معصية لهم، وأخطأ من قال: توقد لهم نار فمن دخلها نجا، لأنَّ الآخرة ليست دار تكليف[٢].

وأمَّا ما روي أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن أولاد لها من غيره ﷺ ماتوا في الجَاهليَّة، فقال: «**إن شئت أسمعتك أصواهم في النار، وإن شئت أريتك تقلُّبهم في النار**»[٣] فأوْلادٌ بُلَّغ، ولو سمَّتهم أطفالاً لقلنا: المراد بُلَّغٌ قربوا من الطفوليَّة.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (سورة نوح: ٢٧) ، فمعناه لا يلدوا إلاَّ من يبلغ ويكفر، أو إلاَّ من يكفر إن بلغ، كما قال لعائشة في طفل قالت: إنَّه من أهل الجنَّة: «**ما يدريك ما يفعل إن بلغ**». وأمَّا ما روي أنَّ غلام الخضر كافر فإنَّ المراد أنَّه شابٌّ بالغ.

﴿وَمَآ أَلَتْنَاهُم﴾ نقصناهم لأجل إلحاق ذرِّيــتهم بهم **﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾** «مِنْ» للابتداء أو متعلِّقة بمحذوف حال من المفعول به المجرور بـ«مِنْ» التي هي صلة في قوله: **﴿مِّن شَيْءٍ﴾**. والنقص من العمل إسقاط بعضه، فيلزم عليه إسقاط ثواب ذلك البعض، أو يقدَّر مضاف، أي: من ثواب عملهم.

﴿كُلُّ امْرِيءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مرهون بذنوبه، فإن تاب منها فُكَّ بدنُه من النار كشيء مرهون في دين، يفكُّ إذا قضي الدين، وإن مات غير تائب من ذنوبه دخل النار، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلاَّ

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٧، ص٣٤.

٢- انظر ما تقدَّم في الموضوع: ج٧، ص٣٤، في تفسير قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} (هود: ١٠٥).

٣- رواه أحمد في مسنده، ج٦، ص٢٠٨، من حديث خديجة.

أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (سورة المدَّثــِّر: ٣٨) ، فإنَّ أصحاب اليمين فكُّوا رقابهم من النار بما أطابوا من أعمالهم. وقيل: «رَهِينٌ» بمعنى راهنٌ، أي: دائم، لأنَّ الدوام يقتضي عدم المفارقة بين المرء وعمله، ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شيء، وأنا أعجب من مثل هذا التكلُّف.

(لغة) ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ أي: عملنا لهم الزيادة مُدَّةً بعد أخرى، كما تقول: عملت له الثياب بالصوف، وسمِّيت مدَّة لامتدادها، وغلب الإمداد في المحبوب، والمدَّة في المكروه، عكس أوعد ووعد، لكن يستعمل أيضًا وعد في الشرِّ كما في الخير، وقد يستعمل أيضًا في الخير، وما لم يمتدَّ من الزمان لا يُسَمَّى مدَّة إلاَّ مجازًا بمعنى قولك: مقدار كذا.

﴿بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ثابتين مِمَّا يشتهون، أو متعلِّق بـــ«أَمْدَدْنَاهُمْ». و«مِنْ» للابتداء، ويجوز التبعيض على الأوَّل.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يأخذ كلٌّ من الآخر كأسًا بعد شربه، كصورة التجاذب بالقهر أو الملاعبة، وليس قهرًا ولا ملاعبة، ووجه هذا التجوُّز أنَّ النفس تحبُّ اللهو وتحبُّ القهر، فلهم تلذُّذ بهذا المحبوب دون حقيقته.

واختار بعض أنَّ المراد تجاذب الملاعبة كما اعتاد بالندماء. والكأس الإناء مع ما فيه من خمر أو غيرها، وشهر أنَّه الإناء الذي امتلأ خمرًا، أو كاد يمتلئ، ويُسَمَّى كأسًا بلا مائع فيه، ويسمَّى ما فيه كأسًا مجازا لعلاقة الحالِّـــيَّة والمحلِّــيَّة.

﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: في الكأس باعتبار شربها، أي: شرب ما فيها، والذي يتنازع هو نفس الكأس لا خمرها، إلاَّ بالتبع. واللغو لا يكون داخل الإناء، وإنَّما المراد في شأن الكأس من أخذها وشرب ما فيها، فالمراد لا لغو في شـــأنها أو

عندها، واعتبر أنّ العربدة والتأثُّم تكون بشرب الخمر ففسّر الكأس بنفس الخمر، والضمير لها بمعنى الخمر، والكأس مؤنَّث فيها شيء أو لا، والخمر مؤنَّث. واللغو: ما لا فائدة فيه من الكلام، ذنبا أو غيره.

﴿وَلاَ تَاثِيمٌ﴾ نسبة إلى الإثم وهو الذنب، بكلام يتكلّم به شاربها ممَّا لا يجوز، ولا بتحريم شربها إذ لا ذنب عليهم في شربها، كما أنّ في خمر الدنيا لغوا وتأثيما واقترافًا لذَنْب بشربها لتحريمها، بل يتكلّم أهل الجنَّة في حال الكأس بأحاسنِ الكلام، لا يتكلّمون بكلام فيه نسبة الغير إلى الإثم، مثل: ياسارق، أو يازاني، أو فلان سارق أو زان، ولا كلام يعدُّ ذنبا كالإشراك فينسب إليه أنّه آثم.

﴿وَيَطُوفُ﴾ بالكأس **﴿عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾** خَلَقَهُم وملكهم الله جلّ وعلا، وغلمان اليهود والنصارى وسائر المشركين، والأشقياء، فهؤلاء خَدَمُ أهل الجنَّة، وأمَّا أولادهم الذين ألحقوا بهم فهم ملوك فيها لا خدم.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في صَدَفة، ووجه الشبه البياض وعدم الوسخ بيد أو غيرها، أو كأنّهم لؤلؤ كنَّه مالكه في حرز عظيم لعظم ثمنه.

قيل: يا رسول الله هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال ﷺ : «**والذي نفسي بيده لَفَضْلُهُ عليه كفضل البَدْرِ على سائر الكواكب**»[1]. و«غِلْمَانٌ»: جمع كثرة، كما يروى أنّ أدنى أهل الجَـنَّة ينادي الخادم فيحضر مائة ألف ببابه، قائلين: لبَّيك لبَّيك[2]، وعن عبد الله بن عمرو بن

١-أورده **السيوطي** في الدر: مج٦، ص١٣٢. بلفظ: «إنّ فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على النجوم»، وقال: أخرجه عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة. وأورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص٣٤.

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره: مج٩، ص٣٤، بدون سند.

العاصي: ما من أحد من أهل الجنَّة إلاَّ يسعى عليه ألف غلام كلٌّ واحد منهم على عَمَلٍ غيْر عَمَلِ صاحبه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ حال من البعض في الموضعين مقارنة، على أنَّ التساؤل من مبدأ الإقبال، كما إذا تكلَّمت أحدًا من ابتداء التفاتك إليه، أو مقدَّرة ولو قرب الفصل، والأوَّل أولى، لأنَّه إذا قارب بين السُّؤال والإقبال كان أعْجل، وقد يقال: إذا فصل بقليل أو كثير كان أهْنأ وأثبت.

وكلٌّ واحد سائلٍ ومسؤولٌ، لا بعض معيَّن يسأل بعضًا معيَّنًا، كذا قيل، والأظهر أنَّه يسأل كلٌّ واحد من يناسب سؤاله، فيقول: أحدهم للآخر مثلا: كيف تخلَّصت من ذنب كذا ؟ أو كيف بلغت درجتك؟ وكيف سعد فلان؟ وكيف شقي فلان؟ وهكذا...

[قلت:] وقد يقال: المراد بالتساؤل مطلق الكلام يتداولونه بينهم إطلاقًا للخاصِّ على العامِّ، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾... الخ تمثيلاً لبعض ما يتكلَّمون به.

وذلك التساؤل في الجنَّة لا عقب البعث، لأنَّهم عقب البعث خائفون ذاهلون لا يحضر لهم النجاة من عذاب السموم، اللهمَّ إلاَّ شاذًّا من الناس أو يؤمَّنون ثمَّ يخافون، وفي ذلك ضعف، فلا يفسَّر به.

والمعنى: إنَّا كُـنَّا قبل هذا الحال في أهلنا، أي: في الدنيا خائفين من عصيان الله، معتنين بطاعته، أو معنى ﴿فِي أَهْلِنَا﴾ نخاف على أنفسنا وعلى أهلنا، لأنَّ أهل الإنسان تابعون لهٗ عادةً، فحمدوا الله على اتِّباعهم لهم في الخير، أو ذلك شكرًا للنعمة مع أنَّهم أطاعوا الله ﷻ في أهلهم، وكيف في غير أهلنا ؟ أو المعنى: إنَّا من قبل على أهلنا مشفقين.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة والتوفيق ﴿وَوَقَانَا﴾ منعنا ﴿عَذَابَ السَّمُومِ﴾ النار السموم، أي: النافذة في مسامِّ البدن، فهذا اسم عامٌّ في الاشتقاق لكلّ ما يدخل المسامَّ، واستعمل في فرد منه وهو النار، وهذا أولى من أن يقال: هو اسم للريح الحارَّة المعروفة مثَّل الله بها ولو كانت النار أحرَّ، ومن قول الحسن: السموم من أسماء نار الآخرة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أن يوفِّقنا ويغفر لنا ولا يدخلنا النار ويدخلنا الجنَّة، أو ندعوه أن يقينا عذاب السموم، أو «نَدْعُوهُ» بمعنى نعبده. والجملة تعليل، ولذلك لم تعطف، أو مستأنفة في كلامهم، على معنى أنَّهم قالوا مجموع ذلك، ولو أريد التفصيل لكان بالعطف، أي: قالوا: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ...» وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾.

﴿أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المُحسن إلى عباده بالبيان وقبول التوبة، أو المحسن إلى عباده بنعم الدنيا، فهو يجود أيضًا بالآخرة لكرمه، أو المحسن بوفاء وعده ﴿الرَّحِيمُ﴾ كثير الإنعام وعظيمه. والجملة تعليل لـ«نَدْعُوهُ» كما يدلُّ له قراءة فتح الهمزة، أي: لأنَّه، أو مستأنف في كلامهم على حدِّ ما مرَّ.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

الأمر بمتابعة التذكير والموعظة

﴿فَذَكِّرْ﴾ اُثبت على التذكير، أي: إذا كان الأمر كذلك فَذَكِّر كلَّ من أمكن تذكيره بما أنزل إليك من قرآن وغيره، والآيات التكوينيَّة والعَقْلِيَّة، ولا يَرُدُّك عن التذكير تكذيبُهم.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ كما قال شيبة بن ربيعة ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما قال عقبة بن أبي معيط. والفاء للتعليل، والباء متعلّق بـ«مَا»، لأنّ المعنى: انتفى الكهانة عنك بسبب نعمة ربّك فيما تقوله من الوحي، ولست قائلاً بكهانة. والنعمة الإنعام.

وزعم بعض أنّ الباء للملابسة، وأنّها متعلّقة بمحذوف حال من المستتر في «كَاهِنٍ»، ويقدَّر مثله لـ«مَجْنُونٍ»، وبعض أنّها للقسم وأغنى عن جوابه قوله: ﴿مَآ أَنتَ... بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، كقولك: ما زيد والله بقائم.

(لغة) والكهانة: الإخبار عن الجنّ بالتلقّي منهم، سواء ما مضى أو حضر أو استقبل، ويطلق أيضًا على الإخبار بالغيب للظنّ، وقيل: الكاهن: المخبر عمّا مضى بالظنّ. والعرَّافُ: المخبر عَمَّا يستقبل بالظنّ. والباء الثانية صلة في خبره.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، أو بل أيقولون ؟ والإضراب انتقاليّ، والاستفهام توبيخيٌّ، أو إنكار للياقة ﴿شَاعِرٌ﴾ أي: هو شاعر، لا يخفى عنهم أنّه لا يقول شعرًا، فإمَّا أنّهم يكذّبون صُراحًا، وإمَّا أن يريدوا: إنّ له حِذْقَةَ الشاعر.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ ننتظر به ريب الدهر من موت أو قتل أو مرض، أو يموت كما مات أبوه شابًّا، وسمّي لأنّه قاطع، والمنُّ القطع، لأنّه يقطع الأشياء بالموت وغيره، وريب الدهر: حوادثه، سمِّيت ريبا لأنّها تقلق النفوس، وأصله مصدر عُبِّر به مبالغةً، والأصل: رائبات الدهر. أو الريب: النزول، يقال: راب عليه الدهر، أي: نزل، أي: نزلت حوادثه، والمصدر مبالغة، وشهر تفسير المنون بالموت، أي: نزول الموت أو حدوثه.

(سبب النزول) اجتمعت قريش في دار الندوة، فخاضوا في شأن رسول الله ﷺ، فقال بنو عبد الدار: تربَّصوا به ريب المنون، فإنّه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى، وافترقوا على هذا فنزلت:

﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ أي: انتظروا هلاكي، قل لهم ذلك تهكُّمًا بهم وتهديدًا ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ منتظر هلاكم، وهذا وعد بهلاكهم، والمعنى: إنِّي من جملة المتربِّصين مطلقًا، ولَكِنَّ تربُّصي في هلاككم.

﴿أَمْ تَامُرُهُمُ, أَحْلاَمُهُم بِهَذَآ﴾؟ بل أتامرهم لقولهم؟ والعقل لا يأمر بهذا الكلام منكم المتناقض، بل تأمرهم أهواؤهم، فهذا تلويح بأنَّ عقولهم كلاَ عَقْلَ، إذ لم تغلب الهوى، ألا ترى إلى ركَّة قولهم: ﴿لَهُ الْبَنَاتُ﴾ كما يأتي. وفيه ردٌّ على ما يُزعم لهم من أنَّ في الآية مدحًا لهم، بأنَّ عقولهم كاملة لملاقاتهم أقوامًا متغايرة في أسفارهم وبلادهم، فلا تأمرهم أحلامهم بذلك لكمالها لكن خالفوها عنادًا.

وبيان التناقض أنَّ شأن الكاهن والشاعر جودة الفطنَة والفكر، وشأن المجنون خلاف ذلك، وتعمَّدوا جمع ذلك في رسول الله ﷺ اضطرابًا وعجزًا عن وجود مسلك يصلون به إلى تكذيبه، ومن لم يقل فيه شيئًا من ذلك فقد رضي بقول قائله، أو يستأنفه منهم أحد ويتابعونه.

(بلاغة) وإسناد الأمر بذلك إلى الأحلام مجاز لعلاقة السَّببِيَّة والمسبَّبِيَّة، أو شبَّه الأحلام بسلاطين مطاعة لعلاقة الاستيلاء، ورمز إلى ذلك بلازمه وهو الأمر، فذلك التشبيه استعارة مكنيَّة، وإثبات الأمر تخييليَّة.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل هم، أو أَهم قوم مبالغون في العناد والبعد عن الرشاد بأقاويلهم تلك؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، أو بل أيقولون؟ وكذا في مثل هذا ممَّا يأتي ﴿تَقَوَّلَهُ,﴾ تقوَّل محمَّد القرآن ﴿بَل لاَّ يُومِنُونَ﴾ قضى الله ﷻ أن لا يومنوا فلا يقولون إلاَّ ذلك ومثله تعمُّدًا للمكابرة، إذ رسول الله ﷺ أعجز العربَ ـــ وهو واحد منهم ـــ والعجمَ، كما قال:

﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ مثل القرآن في الفصاحة والبلاغة والإخبار بالغيوب، ولياقة أمره بما أمر به ونهيه عَمَّا نهى عنه، ﴿إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾ في قولهم: إنَّه يقول من عنده، أو من غيره لا من الله ﷻ، فقد عجزوا وعجز غيرهم عن مثله مع استقصائهم في الأخبار والفصاحة والبلاغة، فما هو إلاَّ من عند الله ﷻ، فبطل دعواهم التقوُّل ودعواهم القدرة على الإتيان بمثله.

﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣﴾

تقريع المشركين بما يدَّعون في حقِّ الله تعالى ورسوله

﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير خالق، كذا قيل، وفيه أنَّه متناقض تناقضًا ظاهرا لا يقولونه، فإنَّ قول «خُلِقُوا» مناقض لقول: من غير خالق، ويجاب بأنَّهم يقولون مثل هذا الكلام المتناقض في البطلان، وقال ابن جرير: أم خلقوا من غير شيء حيٍّ لا يكلَّفون، وفيه أنَّ الملائكة والجانَّ المخلوقة من النار خلقوا من غير حيٍّ، وقد كلَّفهم[1] الله ﷻ، وآدم خلق من غير حيٍّ، وقد كلَّفه الله ﷻ. و«مِنْ» للابتداء في ذلك كلِّه، وقيل: المعنى أم خلقوا بلا علَّة تكليفٍ وجزاء، فـ«مِنْ» سَبَبِيَّة، ويناسبه قوله:

١- تنبَّه أنَّ الضمير في «كلَّفهم» يعود إلى المشركين لا إلى الملائكة والجنِّ.

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم، فلا يجري عليهم تكليف ولا حقّ لله تعالى عليهم، والمعدوم لا فعل له، ويناسبه أيضًا قوله ﷻ :

﴿أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ﴾ فيتأهّلون للعظمة وَالأُلوهِيَّة، ويتكبَّرُون عن اتِّباعه ﷺ ، ويجوز أن يكون ذكر السماوات والأرض إشارة إلى خلق الأشياء كلّها.

﴿بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ أنّ الله ﷻ خلق السماوات والأرض، ولو قالوا: بألسنتهم وبادي قلوبهم: خلقهنّ الله، إذ لو قالوا ذلك عن إيقان لم يَعْدِلُوا عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ مخزونات رزق ربِّك، فخزين بمعنى مخزون، أو موضع المخزون، والمراد: الموضع وما فيه، أو ما فيه، والمخزون الرزق وغيره من سائر الرحمة، فيرزقوا النبوءة وإرزاق من يشاؤون، فيستحقُّوا أن يعبدوا.

وقيل: خزائنه مقدوراته، وزعم بعض أنّ الخزائن بمعنى الاستغناء عن الله ﷻ في كلّ ما يحتاجون إليه، وبعضٌ أنّ الخزائن علم الله ﷻ ، وفيه أنّ علمه لا يتعدَّد، وإنَّما يتعدَّد متعلّقاته.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المحافظون على الأشياء، المراقبون لها، لجريان بقائها عليهم. وفي معناه قول ابن عبَّاس: المسيطر القاهر، فلا يكونون تحت أمر ولا نهي، وقول غيره: المسيطر الغالب.

(صرف) وهو بوزن المصغَّر وليس مصغَّرًا، ومثله: المهيمن والمبيقر، ومبيطر، ومحيمر اسم جبل، ولا سادس لهذه الاسماء إلاّ بالإبدال، كالمصيطر بالصاد بدل السين مطابقة لاستعلاء الطاء، وهو قراءة الأكثر، كإشمام حمزة وخلاّد الصَّاد أو السين بالزاي.

(لغة) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ ما يتوصَّل به إلى الأمكنة العالية من درج مصنوعة من حديد، أو خشب أو نحو ذلك، كالحبل، سمِّي ذلك سلّما لأنَّه يَسْلَمُ الإنسان مطلقًا بطلوعه من مضرٍّ أسفلَ، ومن مَضَرَّة السقوط، والتكلُّف بتكلُّف الطلوع في غيره، ويسلم بالنزول فيه من مضرَّة الوقوع.

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ كلام الله ﷻ على أنَّ له كلامًا يسمع منه في زعمهم الباطل، أو المراد: يحصل لهم سماع، فلا منصوب له ﴿فِيهِ﴾ حال من الواو متعلِّق بـ«يَسْتَمِعُ» لأنَّ المعنى: يحصل لهم استماع لكلامه تعالى فيه، وذلك صالح لمن في أعلى السلَّم كما يصلح لمن دونه، لأنَّه فيه لا خارج عنه، وقدَّر بعض: صاعدين فيه، على أنَّ السمع عند الصعود وعند انتهائه مبالغة. وأجيز أنَّ «في» بمعنى على، وأنَّها بمعنى مِنْ.

﴿فَلْيَاتِ﴾ إن كان ذلك فلْيات ﴿مُسْتَمِعُهُم﴾ في ذلك السلَّم ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجَّة واضحة في أنَّ محمَّدًا ﷺ ليس رسولاً من الله ﷻ، أو أنَّ ما يقولُ سحر أو كهانة أو شعر أو كلام عن نفسه، أو عن غيره.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ الملائكة ﴿وَلَكُمُ﴾ مقتضى الظاهر: «ولهم» بالهاء، ولكن خاطبهم تشديدًا عليهم في خطابهم ﴿الْبَنُونَ﴾ الأولاد الذكور، لا يخفى أنَّ لهم ذكورًا وإناثًا، ولكن خصَّ الذكور بالذكر لأنَّ المراد أنَّهم أثبتوا لأنفسهم ما لم يثبتوه لله ﷻ، ومن رأيه إثبات البنات لله ﷻ والذكور لهم بعيدٌ عن فرض طلوع السلَّم واستماع كلام الله تعالى من الملائكة.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا﴾ إعراض عنهم إلى خطاب رسول الله ﷺ، والمراد: الأجر على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ عطف اسميَّة على فعليَّة. والمغرم: مصدر ميميٌّ، وهو إعطاء شيء قهرًا بموجب جناية أو غيرها، ويطلق

على نفس ذلك المال الذي يعطى، من إطلاق المصدر على معنى مفعول، وعليه يقدَّر مضاف، أي: إعطاء مغرم المال، أو نفس مغرم، **والأصل عدم التقدير.**

ومعنى «مثقلون» مجعولون حاملين لشيء ثقيل على ظهورهم، استعارة لصبرهم على فعل شيء تكرهه النفس، كما تكره الحمل الثقيل، وهو ما يعطونه على الوحي لو كانوا يعطون، [فهم مثقلون بالديون، وهو تهكُّم بهم]. و«مِنْ» بمعنى الباء.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾؟ علم الغيب **﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾** منه ما يريدون لمن يريدون كالألوهيَّة للأصنام وتسييب السوائب.

وقيل: يكتبون موت محمَّد ﷺ في أيِّ وقت، أو الغيب: اللوح المحفوظ، يُسمَّى غيبًا لإثبات الغيوب فيه، أو يقدَّر مضاف، أي: ذو الغيب فهم يكتبون منه، ويخبرون به الناس، وقيل: «يَكْتُبُونَ» بمعنى يحكمون، أي: يحكمون كحكم الله بالأشياء، وفي الأشياء، فيحكمون بما أرادوا لمن أرادوا.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؟ مكرًا ذكروه في دار الندوة بعد نزول السورة فذلك إخبار بالغيب، لأنَّ قِصَّة الدَّار كانت قرب الهجرة والسورة قبل ذلك بكثير، فالمضارع للحَال لتحقُّق الوقوع، كأنَّهم شرعوا في المكر وهم لَمَّا يشرعوا أو للاستقبال.

﴿فَالذِينَ كَفَرُواْ﴾ المذكورون قبلُ بإرادة الكيد **﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾** عطف اسْمِيَّة على فِعْلِيَّة، والمعنى: هم الذين يقع بهم المكر ويهلكهم، وقد وقع بهم يوم بدر السنة الخامسة عشرة من الوحي، كما تكرَّرت «أَمْ» خمس عشرة مَرَّة في السورة إلى هذا المحلِّ. والجملة للحصر، أي: هم المكيدون قولاً وفعلاً، وحجَّة وسيفًا.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ﴾؟ يمنعهم من عذاب الله ﷻ. و«أم» في تلك المواضع كلّها منقطعة، وعن الخليل أنّها متّصلة. [قلت:] فإن صحّ كما رواه عنه الثعلبيُّ فمراده ــ والله أعلم ــ أنّها بمعنى الهمزة الاستفهاميَّة، ولم يرد أنّ لها معادلاً، بل نفي أنّها منقطعة.

﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فسبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك ينجيهم من كيده، والمراد: سبحانه عن إشراكهم، أو عن شركاء يشركونها به، أو عن الشركاء التي يشركونها به.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

الأمر بالإعراض عن الكُفّار والصبر وانتظار ما يحيق بهم

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قطعة عظيمة من جهة السماء، أو هي بعض السماء. و«مِنْ» للابتداء في الوجهين، أو في الثاني للتبعيض متعلّق بما بعد، أو نعت لـ«كِسْفًا» على أنّها للتبعيض، والتعظيم جاء من التنكير لا من مَادَّة "كَسَفَ"، فإنّها للقطعة الكبيرة ولغيرها، ويدلُّ للثاني قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ (سورة الإسراء: ٩٢)، ﴿سَاقِطًا﴾ أعدَّ للسقوط عليهم وتعذيبهم به، وقيل لهم: إنَّه يسقط عليكم لكفركم.

﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ هو سحاب مركّب بعض على بعض، ليس لتعذيبنا، أو المعنى: إن رأوا كسفًا وسقط عليهم وعذّبوا به يقولوا قبل موتهم: هو

سحاب مركومٌ أصابنا، لا لتكذيبنا، لفرط عنادهم. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، أي: قطعا تقطع من نفس السماء، أو قطعًا من السحاب.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ ولا عليك فقد بلَّغت، وقيل: نَهْيٌ عن قتالهم، فيكون منسوخًا، وليس المراد ذلك، بل المراد: لا شيء عليك إذْ بلَّغت ﴿حَتَّىٰ يُلاَقُواْ﴾ مفاعلة بمعنى الفعل، كما قرئ: «حَتَّى يَلْقَوْا» (بفتح الياء وإسكان اللام)، أو شبَّه اليوم بشيء يتلقَّاهم، فتكون المفاعلة على بابها ﴿يَوْمَهُمُ الذي فيه يَصْعَقُونَ﴾ يموتون، أو يسكرون سكر الموت، وذلك يوم بدر، وقيل: يوم نفخ البعث، ويردُّه أنَّهم يومئذ موتى قبل، وإنَّما يصعق من وجد حيًّا في ذلك الوقت.

وفي الحديث: «**لا يبقى أحد ممَّن حيي الآن حيًّا بعد مائة عام**»، أي: إلاَّ الخضر وإلياس، وقيل: ماتا، وكذا لو فسَّرنا اليوم بيوم نفخة الفزع، على أنَّ الفزع شبيه بالسكر، أو يسكرون به ثمَّ يصحون، فإنَّه إنَّما يسكر الحيُّ وهم موتى قبل ذلك.

[قلت:] ولا يقبل ما قيل: إنَّ الموتى يصعقون أيضًا لا كصعق الأحياء من كلِّ وجه، وذلك يحتاج إلى نقْلٍ، وإلى أنَّهم يحيون في قبورهم. وأيضًا يضعف التهديد بالصعق بعد الموت. والجمهور على أنَّ اليوم يوم موت الناس كلِّهم، وقيل: يوم موت هؤلاء.

ولا يخفى أنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ظاهر في أنَّ ذلك وقت يطمعون أن ينفعهم كيدهم، وإنَّما ذلك وقت حياتهم، ولاحيلة يوم نفخة الموت.

وقد يقال: المراد يوم لا كيد لهم فضلاً عن أن ينفعهم، كقوله: «على لاحب لا يهتدي بمناره»، أي: لا منار فيه فضلاً عن أن يهتدي به. و«شَيْئًا»

مفعول به لـ«يُغْنِي»، أي: لا يدفع عنهم كيدهم شيئًا من العذاب، أو مفعول مطلق، أي: لا يغني عنهم إغناءً مًّا، وقد يقال: المعنى: لا يغني عنهم كيدهم الذي كادوه في الدنيا، أي: نَفْعهم نفعًا مًّا قبل الموت، ولا ينفعهم بعده، وذلك أنَّك تكيد إنسانًا فيؤثّر فيه كيدك في ذلك الوقت، وفيما بعد مثل أن يهابك ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة غيرهم كما لم ينصروا من جهة كيدهم.

﴿وَإِنَّ لِلذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لهؤلاء، و لم يضمر لهم ليصفهم بالظلم الموجب للعذاب، أو المراد: الظالمون عمومًا، فيدخل هؤلاء أوَّلاً وبالذات، والظلم ظلمهم أنفسهم بالمعاصي، وظلمُهم غيرهم بالإضلال، وفي الأبدان والأعراض والأموال.

﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير ذلك وهو أكبر وأدوم من ذلك، وهو عذاب القبر، أو عذاب النار، أو عذابًا قبل ذلك، وهو قحط سبع سنين قبل قتل بدر، وقيل: المراد ما قبل بدر والفتح.

وفسَّر بعض ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ بما قبل يوم القيامة على أنَّ يوم صعقهم يوم القيامة، وبعض بما قبل عذاب القبر على أنَّ يوم الصعق يوم عذاب القبر، وهو مرويٌّ عن البراء بن عازب، وفسَّر العذاب أيضًا بالمصائب.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه ﷺ صادق في ذلك، وقليل يعلم ويجحد، أو لا يعلمون شيئًا مًّا من الدين علما حقيقا، ولو علموا به لجرَّهم إلى غيره.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى أجلهم، ولا تستفزُّك الأحزان والهموم ﴿فَإِنَّكَ﴾ لأنَّك ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ في أعيننا، أي: حفظنَا، لا يصلُونك بما تكره، فالعين مجاز عن الحفظ وعن المحافظة. وجَمَعَ العين لإضافته إلى «نَا»، وفي ذلك مبالغة في حفظه تعالى، أو كأنَّ معه من الله حفَّاظًا يحفظونه بأعينهم، ولأنَّ المراد تصبيره ﷺ على أشياء من المكائد والتكاليف.

وأفرد في طه [آية ١٣٠] لإضافته إلى ضمير الواحد، ولإفراد الفعل، وهو كلاءة موسى عليه السلام ، وجمع هنا لتعدُّد الفعل وهو الصبر على المكائد وتكاليف الطاعات، وفي ذلك تفضيله ﷺ على موسى عليه السلام .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قل: سبحان الله، ملتبسًا بحمد ربِّك على نعمه التي لا يعلم عددها إلاّ الله تعالى. قال عاصم بن حميد: سألت عائشة: بأيِّ شيء يفتتح رسول الله ﷺ صلاته في الليل إذا قام؟ فقالت: سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك. كان إذا قام كبَّر عشرًا، وحمد الله عشرًا، وسبَّح عشرًا، وهلَّل عشرًا، واستغفر عشرًا، وقال: «**اللهمَّ اغفر لي وارحمني، واهدني وارزقني وعافني، وكان يتعوَّذ من ضيق المقام يوم القيامة**»[1]، رواه أبو داود.

وروى الترمذيُّ وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ ذلك هو قوله عند الصلاة: «**سبحانك اللهمَّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك**»[2] وذلك أمر بمدح للأمر الذاتيِّ، وللأمر الفعليِّ، وذلك تسبيح وحمد، يقول: سبحان الله، والحمد لله، بهذا اللفظ أو ما يُؤَدِّي معناه.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: في قيامك في الصلاة، فإنَّ الصلاة لا تخلو عن التسبيح والحمد بأيِّ لفظ، ولاسيما أنَّ فيها الحمد لله ربِّ العالمين، وفيها سبحان رَبِّي العظيم، وفيها سبحان رَبِّي الأعلى، ويراد بالقيام في الصلاة الكون فيها، فشمل الركوع والسجود وَالتَّحِيَّات.

١-رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب مايستفتح به الصلاة من الدعاء، رقم٧٦٦. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الصلاة (١٨٠) باب ما جاء في الدعاء، رقم ١٣٧٤. من حديث عائشة.

٢-رواه **الترمذيُّ** في كتاب الصلاة (١٧٩) باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، رقم٣٤٢ و٣٤٣. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، رقم٧٧٥، ٧٧٦. من حديث عائشة.

وعن ابن عبَّاس والضحَّاك: إنَّ ذلك قولنا: «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك». وعن سعيد بن المسيّب: حُقَّ على كلّ مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول: «سبحان الله وبحمده» لهذه الآية المنزّلة على رسول الله ﷺ ، وذلك زيادة على ما قبله أو المراد ذلك.

وعن ابن عبَّاس: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة. وقيل: القيام في القائلة، والتسبيح صلاة الظهر.

وعن أبي بردة الأسلميِّ أنّه كان ﷺ إذا أراد أن يقوم من المجلس قال: **«سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت استغفرك وأتوب إليك»**[1]، فقيل: كَفَّارَة لِمَا يكون في المجلس.

قال الترمذيُّ: قال أبو هريرة عنه ﷺ : **«من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه، فقال: قبل أن يقوم: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك» كان كَفَّارَة لِمَا في ذلك المجلس»**[2]، وإن كانت تباعة فليودّها، [قلت:] وذلك تعليم لنا، لأنَّه ﷺ لا يلغو في مجلس ولا غيره، ولا يلزم تفسير الآية بذلك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: وفي الليل، متعلّق بقوله تعالى: **﴿فَسَبِّحْهُ﴾** والمراد: صلاة المغرب والعشاء. أو «مِنْ» للتبعيض كالظرف، أي: سبِّحهُ في بعض الليل، والفاء صلة أو في جواب «أمَّا» محذوفة، أي: أمَّا إذا قمت من الليل

١-رواه **الترمذيُّ** في كتاب الصلاة (٣٩) باب ما يقوله إذا قام من المجلس، رقم٣٤٣٣. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **الترمذيُّ** في كتاب الدعوات (٣٩) باب ما يقول إذا قام من المجلس، رقم٣٤٣٣. وأورده **الهندي** في الكنز: ج٩، ص١٤٢. رقم٢٥٤١٨. من حديث أبي هريرة.

فسبِّحه، أي: في الليل، أو من نوم الليل، أو قمت بعض الليل، وذلك أنّ العبادة في الليل أشقُّ على النفس وأبعد عن الرياء، وهو ﷺ بعيد عنه، ولكن تعليم لنا، والتقديم بطريق الاهتمام.

(فقه) ﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ ذهاب ضوئها بطلوع الشمس، وذلك الركعتان قبل صلاة الفجر. وخصَّ الحديث جواز النفل بطلوع الشمس، وارتفاعها قليلاً، ومابعده، ولا صلاة عند طلوعها أو قربها جدًّا.

أو ﴿إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾: وقت صلاة فرض الفجر، ففيه تلويح إلى استحباب الإسفار، أو الابتداء قبله والدخول فيه والإطالة إلى أن لا يخاف طلوع الشمس، وذلك أنّ النجوم تدبر بطلوع الفجر.

والإدبار مصدر بمعنى وقت الإدبار ظرف منصوب معطوف على مجموع المجرور وجارِّه.

وقيل: ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء، ﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ ركعتا الفجر المسنونتان. وعن عمر وأبي هريرة: ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ النوافل ﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ سنَّة الفجر. وعن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ : «**﴿إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ الركعتان قبل صلاة الفجر، و﴿إِدْبَارَ ٱلسُّجُودِ﴾ الركعتان بعد صلاة المغرب**». رواه الترمذيُّ. وقيل: ﴿إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ فريضة الفجر.

والله المستعان

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه.

تفسير سورة النجم وآياتها ٦٢

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا
ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ
الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا
يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى
السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

إثبات ظاهرة الوحي

اتَّصلَت بالتي قبلها لاختتامها بالنجوم كابتداء هذه بعد البسملة المشتركة وواو القسم بالنجم، ولأنَّ في الأولى ذكر ﴿الذينَ ءامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمَان﴾ على ما مرَّ فيه، وفي هذه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ, إِذَ انشَأَكُم مِّنَ الارْضِ وَإِذَ انتُمْ, أَجنَّةٌ﴾ (سورة النجم: ٣٢) .

وأيضًا قال في الكُفَّار أو العموم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلانسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣٩) . [وأيضا إذا مات صبيٌّ لليهود قالوا: صديق، فقال ﷺ : «**كذبوا، ما من نسمة إلاَّ وهي شقيَّة أو سعيدة**»، ونزل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...﴾، وَهَذَا قبل أن يعلم ﷺ أَنَّ أطفال أهل النار في الجنَّة، أو أراد اليهود في ذَلكَ ما يشمل البالغ الحديث السنِّ، فَإِنَّهُ يحتمل الشقاوة والسعادة][1].

١- ما بين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

﴿**وَالنَّجْمِ**﴾ جنس النجم ﴿**إِذَا هَوَىٰ**﴾ انتثر يوم القيامة، أو أثرُ مُسترِقي السَّمْعِ، وبه قال ابن عبَّاس، أو النجم الثريَّا كما هو عَلَمٌ بالغلبة عليها، قال ﷺ : «**إذا طلع النجم صباحًا ارتفعت العاهة**»[١]، ولفظ أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**ماطلع النجم قطُّ وفي الأرض من العاهة شيء إلاَّ رفع**»[٢] أراد بالنجم الثريَّا[٣]. و«هَوَى» ظهر من المشرق منخفضًا، وقيل: «هَوَى» غرب منخفضًا، وقيل: المراد إذا غربت مع الفجر.

وقيل: النجم الشِّعْرَى، قال ﷻ : ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ (سورة النجم: ٤٩) ، والكهَّان يتكلَّمون على الغيب عند ظهورها. ومعنى «هَوَى» طلع أو غرب، وكذا عند من قال: النجم الزهرة، وكانت تُعبد، وقيل: المقدار من القرآن إذا نزل، كما ورد في الأثر: «إنَّ القرآن نزل نجومًا»، وهو رواية عن ابن عبَّاس أيضا، أو النجم النبات بلا ساق، وهويُّه يبسه، وقيل: النجم محمَّد ﷺ ، وهويُّه نزوله ليلة المعراج.

﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ**﴾ محمَّد ﷺ عن طريق الحقِّ، فهو على الصواب كمن على طريق حسنٍ في الأرض ﴿**وَمَا غَوَىٰ**﴾ ما اعتقد باطلاً.

[قلت:] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ﴾ (سورة الضحى: ٧) ، خاليًا عن الوحي لا خارجًا عن الدين عاصيًا، فلا منافاة بين الآيتين.

١-أورده **ابن عراق** في كتاب تنزيه الشريعة: ج١، ص١١٠، **والهندي** في الكنز: ج٧، ص٨٣٩، رقم٢١٦١٤، مع زيادة لفظ: «على كلِّ بلد» في آخره. من حديث أبي هريرة.

٢-أورده **ابن عبد البرِّ** في كتاب التمهيد: ج٢، ص١٩٣. **والطحاوي** في مشكل الآثار، ج٣، ص٩٢. من حديث أبي هريرة.

٣-ممَّا يضعِّف هذه الأحاديث وأمثاله ما شاع عند الأقدمين ــ وهو غير صحيح ــ أنَّ للكواكب تأثيرا على ما في الأرض.

والغيُّ اعتقادٌ فاسدٌ، وقيل: «مَا غَوَى»: ما جهل، وقيل: الضلال أن لا يجد السَّالك إلى مقصده طريقًا أصْلاً، والغواية أن لا يكون له طريق مستقيم إليه.

والخطاب لقريش. و«أُقْسِمُ» مقدَّرٌ للاستقبال، و«إذَا» للاستقبال خارجة عن الشرطيَّة متعلِّقة بـ«أقسم» الذي ناب عنه «وَالنَّجْمِ»، كأنَّه قيل: إذا هوى أقسمتُ به ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ من عند نفسه بل بما منَّ الله تعالى به من القرآن وغيره. و«عَنْ» بمعنى الباء، لأنَّه يقال: نطق بكذا، من نيابة حرف عن حرف عند الكوفيِّين، وقال البصريُّون: «عن» على أصلها لتضمُّن «يَنطِقُ» معنى ما يتعدَّى بـ«عَنْ» مثل: يصدر، وهكذا في جميع المواضع.

(نحو) الكوفيُّون يقولون: حرف بمعنى آخر، والبصريُّون يؤوِّلون المتعلِّق بما يناسب أصل معنى الحرف، واختار بعض المحقِّقين المتأخِّرين قولَهم، وأظُنُّ ابن هشام اختار قول الكوفيِّين.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي صاحبكم ﷺ ﴿إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي إلاَّ ذو وَحْي يوحَى، أو الضمير لمَا جاء به ﷺ من القرآن وغيره، وينطق به، فهو بعض قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ (سورة الجاثية: ٢٩) . و«وَحْيٌ» بمعنى مَوحى، وعلى كلِّ حالٍ «يُوحَى» نعت مؤكِّد نافٍ للتجوُّز.

(أصول الدين) ويستدلُّ بالآية على أنَّه ﷺ لا يجتهد هكذا، كلُّ ما ينطق به وحي، وما كان عن اجتهاد ليس بوحي، فليس مِمَّا ينطق به، على أنَّ «هُوَ» ضمير له ﷺ ، أو لمَا ينطق به.

وإن قيل: الضمير للقرآن المدلول عليه بالمقام، وبالنجم على ما مرَّ من تفسيره بقطعة من القرآن لم يتمَّ هذا الاستدلال، ويجاب أيضًا بمنع المقدِّمة

الثانية، ـــ وهي قولنا: وما كان عن اجتهاد ليس بوحي ـــ فإنَّه إذا جاز له الاجتهاد كان اجتهاده وحيًا، لأنَّه أُوحي إليه أن يجتهد، وكأنَّه قال له الله تعالى: «ما حكمت به من اجتهادك فهو حكمي» فما ينطق بهوى، ولا يخلو ﷺ عن اجتهاد.

﴿عَلَّمَهُ, شَدِيدُ الْقُوَى﴾ الهاء عائدة إلى الوحي، أو القرآن، والمفعول الأوَّل محذوف، أي: علَّمه إِيَّاهُ، أي: الرسول، والجملة نعت لـــ«وحيا». أو الهاء للرسول والمفعول الثاني محذوف، أي: علَّمه الوحي أو القرآن أو إيَّاه، أي: أحدهما، والوحي أعمُّ من القرآن، والجملة مستأنفة أو خبر ثانٍ.

(قصص) و«شَدِيدُ القُوَى» جبريل عليه السلام، قيل: ومن قوَّته زاده الله تعالى عبادة أنَّه اقتلع قرى قوم لوط السَّبع من تحت الأرض السابعة، ورفعها إلى السماء على جناحه، حتَّى سمع أهل السماوات صوت الديكة وقَلَبها، ويقال أيضًا: بريشة واحدة. وكيف يسمع أهل السماء صوت الديك وغلظها خمسمائة عام ؟ ويجاب بأنَّ الله عز وجل قادر على إسماعهم، أو كان أهل السماء أو بعضهم حينئذ تحت السماء.

وصاح على ثمود فماتوا. وينزل من تحت العرش إلى الأرض على الأنبياء أو يصعد في أسرع من طرفة عين، ويقال: أسرع من حركة ضياء الشمس

ومثل ذلك: ما قيل: إنَّ الشمس تطلع في مغربها في لحظة إلى العرش وتسجد وتستأذن في الطلوع، فيؤذن لها فترجع في لحظة.

و«القُوَى» جمع قُوَّة، كغرفة وغرف، أصله: "قوو" بفتح الواو الأولى قلبت الثانية ألفًا، لتحرُّكها بعد فتحة وكُتبت بصورة الياء لمجانسة الفواصل، والأصل أن تكتب بصورة الالف، لأنَّها آخرُ ثلاثيٌّ عن واو.

﴿**ذُو مِرَّةٍ**﴾ صاحب استحكام العقل، فذلك وصف له باستحكام العقل بعد وصفه بِقُوَّة بدنه وفعله، ولا بأس بأن توصف الملائكة بالعقول، وهو الصحيح، والمانع يُفَسِّرُ ذلك بالكناية عن ظهور الآثار البديعة.

وعن ابن عبَّاس: ذو شدَّة في أمر الله تعالى، كقول الشاعر نابغة ذبيان:

وهنا قويٌّ ذي مرة حازم ....

وعنه: ذو منظر حسن. وعنه من طريق السدِّيِّ: ذو حكمة. وقيل: ذو خَلْق طويل حسن. وعن مجاهد: ذو خلق حسن، ولا يخفى أنَّ الحكمة خلق حسن. وفي الحديث: «**لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ**»[1]، أي: ذي قوَّة عقل وتدبير سويِّ البدن، قادر على الكسب، وفسِّر في الحديث أيضًا بقوَّة البدن.

والمِرَّة تَدُلُّ على زيادة القُوَّة، لأنَّها في الأصل تدلُّ على المرَّة بعد المرَّة، كما يقال أمررت الحبْل، أي: أحكمت فتله.

﴿**فَاسْتَوَىٰ**﴾ اعتدل جبريل على صورته، [قيل:] في ستِّمائة جناح، كلُّ جناح يسدُّ الأفق. والعطف على محذوف، كأنَّه قيل: هل رآه ؟ فقيل: رآه فاستوى، وذلك أنَّ الله ﷻ أقدر رسوله ﷺ على رؤية جبريل عليه السلام، مع استوائه على صورته، أو رآه على غير صورته فرجع إلى صورته وذهب.

وقيل: العطف على ﴿عَلَّمَهُ...﴾ بمعنى علَّمه فارتفع إلى السماء، فالاستواء بمعنى الارتفاع. والهاء للترتيب بلا سَبَبِـيَّة في ذلك كلِّه. والكلام في ذلك كلِّه منتظم حسن.

١-رواه **الربيع** في كتاب الزكاة (٦١) كتاب من تكره له الصدقة والمسألة، رقم ٣٥٦. **والترمذي** في كتاب الزكاة (٢٣) باب ما جاء في من لا تحلُّ له الصدقة، رقم٦٥٢. من حديث ابن عمر.

وقيل: العطف على ﴿عَلَّمَهُ...﴾ بطريق التفسير، فإنَّه إلى قوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيان لكيفيَّة التعليم، وفيه أنَّ كَيفيَّة التعليم غير منحصرة في قوله: ﴿فَاسْتَوَى...﴾. وذكر بعض أنَّ الفاء سَبَبِـيَّة، لأنَّ تشكُّله بشكله يتسبَّب عن قوَّته وقدرته على الخوارق، والظاهر أنَّه قادر عليها ولو كان على صورة البشر أو أقلّ. وقيل: ضمير «استوى» للنبيء ﷺ .

﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الاَعْلَىٰ﴾ الضمير لجبريل المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾. والباء بمعنى «في». و«الأفق»: الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر، وأصله الناحية، والمراد مطلع الشمس من المشرق.

(نحو) والجملة حال من المستتر في «اسْتَوَى» العائد إلى جبريل، وقيل: ضمير «اسْتَوَى» عائد إلى النبيء ﷺ ، ولفظ «هُوَ» عائد إلى جبريل، والجملة حال أيضًا من المستتر. وقيل: لفظ «هُوَ» معطوف على المستتر العائد للنبيء ﷺ عطفًا على المرفوع المتَّصل بلا فصل، وهو مذهب الكوفيِّين، فيكون «بالأُفُقِ» حالاً من «هُوَ»، أو متعلِّق بـــ«اسْتَوَى».

(نحو) ويجوز عود «هُوَ» إلى النبيء ﷺ معطوفًا، على المستتر في «اسْتَوَى» العائد إلى جبريل عليه السلام ، فيتعلَّق الباء بـــ«اسْتَوَى» أو بمحذوف حال من المستتر العائد لجبريل.

(سيرة) كان جبريل عليه السلام يأتي في صورة الآدميِّ إلى رسول الله ﷺ ، وإلى الأنبياء قبله، وسأله أن يأتيه على صورته فأراه نفسه على صورته مرَّتين، الأولى في الأرض أتاه من المشرق وهو الأفق الأعلى، وهو ﷺ في حراء فَسَدَّ الأفق، فغشي عليه ﷺ ، فرجع على صورة الآدميِّ فضمَّه إلى نفسه ومسح التراب عن وجهه، والثانية في السماء عند السدرة المنتهى و لم يره على صورته من الأنبياء إلاَّ رسول الله ﷺ .

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ قرب جبريل ذو المرَّة إلى النبيء ﷺ للوحي، وهو على صورته التي خلق عليها كما في البخاري ومسلم[1]، وأنَّه سدَّ الأفق وأنَّه له ستُّمائة جناح، وكذا في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنَ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ تعلّق في الهواء ساكنًا كمن سكن على الأرض لا كالطائر لا يجد المكث في الهواء إلاّ بحركة، وذلك كتدلّي الثمرة وتدلّي رجليْ مَنْ على سرير، والدوالي المتعلّقة كعناقيد العنب، وقنوان النخلة قبل القطع، أو بعده على أن تعلّق على وتد أو حبل، وذلك المعلّق من التمر على وتد أو حبل أحبُّ التمر إليه ﷺ، ومن ذلك دلو الماء، وكلُّ ذلك من التعلُّق، ويجوز أن تكون الآية من معنى التنزُّل.

﴿فَكَانَ﴾ ذو المرَّة جبريل، أو كان النبيء ﷺ، والأوَّل أولى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ ذا قاب قوسين، أو كان قربه مقدار قرب قاب قوسين، فحذفت الإضافة، كما يقال: قرب جبريل من رسول الله ﷺ قدر قاب قوسين، يقال: قرب النبيء ﷺ من جبريل عليه السلام قدر قاب قوسين، إلاّ أنَّ إسناد القرب إلى المتحرِّك أولى، وهو جبريل.

(لغة) و«قاب قوسين» ما بين وتر القوس ومقبضها، ويقال: ما بين مقبضها وطرفها المنعطف، ولكلِّ قوس قابان، وكانوا يلصقون قوسًا بأخرى، فكان قاباهما كواحد، فيترعونهما ويرمون بكلِّ واحدة سهمًا فيعقدون المحالفة بذلك، وقيل: القاب المقدار، أي: فكان ذا مقدار قوسين.

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **البخاريُّ** في كتاب بدء الخلق (٧) باب إذا قال أحدكم آمين... رقم٣٢٣٢. من حديث ابن مسعود. كما رواه **مسلم** في كتاب الإيمان باب في ذكر سدرة المنتهى رقم١٧٤. ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥٤) باب ومن سورة النجم، رقم ٣٢٨٠. من حديث ابن عبَّاس.

وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والذراع في كلام العرب، والمراد قوس القتال، وعن ابن عبَّاس وأبي رزين العقيلي والثعلبي: إنَّ القوسين ذراع يقاس به الأطوال. ويجوز عود ضمير «كَانَ» إلى القرب أو البعد.

﴿أَوَ اَدْنَىٰ﴾ أقرب من ذلك، وأو للتنويع، أي: تارة قاب قوسين وتارة أدنى، ويجوز أن تكون لتشكيك الناظر ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبد الله ﷻ، وهو محمَّد ﷺ ردَّ الضمير إلى الله ولم يذكر لظهور المراد، ولأنَّه لا عبد في الحقيقة إلاَّ لله ﷻ، ولا سيما عبد هو النبيء ﷺ، كما ردَّ الضمير إلى الأرض بدون ذكرها لظهور المراد في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ (سورة فاطر: ٤٥)، وإلى القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (سورة القدر: ١)، وإلى الأرض مع بعد ذكرها في قوله ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سورة الرحمن: ٢٦).

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ كالصلوات الخمس، بعد أن كُنَّ بالوحي خمسين، أي: ما أوحاه جبريل، وإبهام الموحَى تفخيمٌ، كقوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ (سورة النجم: ٥٤)، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (سورة طه: ٧٨).

أو أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى، كما تقول: فعل زيد ما فعل، أو أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه الله إلى جبريل، أي: لم يغيِّره، أو أوحى الله إلى عبده ما أوحاه الله، وهذا إبهامُ تفخيمٍ أيضا.

وعن سعيد بن جبير: أوحى الله إليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَئَاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾ (سورة الضحى: ٧)، إلى قوله في السورة بعد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (سورة الشرح: ٤)، وقيل: أوحى إليه أنَّ الجنَّة محرَّمة على الأنبياء حتَّى تدخلها، وعلى الأمم حتَّى تدخلها أمَّتك.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ما كذب فؤاد عبدنا محمَّد ﷺ ما رأى ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي: لم يقل فؤاده: لم أعرفه، مع أنَّه قد رآه ببصره، ولو قال ذلك لكان كاذبا، فقال الله ﷻ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾، أي: ما قال كذبا، كذا قيل، ويردُّه أنَّه متعدٍّ، فالصواب أنَّ المعنى: **ما راب الفؤاد ما رأى من صورة جبريل ببصره**، وذلك تحقيق للقرآن أنَّه من الله ﷻ لا كهانة ولا سحر ولا غير ذلك من الباطل.

قال مسروق لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا: هل رأى محَمَّد ﷺ ربَّه؟ قالت: لا، قلت: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَىٰ فَتَدَلَّىٰ﴾ قالت: «ذلك جبريل رآه رسول الله ﷺ على صورته»، وكذا قال ابن مسعود، وقالت لمسروق: «قد قفَّ شعري ممَّا قلت، أين أنت من ثلاث؟ من حدَّثكهن فقد كذب: من حدَّثك أنَّ محَمَّدًا رأى ربَّه فقد كذب ــ ثمَّ قرأت: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الاَبْصَارُ وَهَوَ يُدْرِكُ الاَبْصَارَ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣) ــ ومن حدَّثك أنَّ محَمَّدًا يعلم ما في غد فقد كذب ــ ثمَّ قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (سورة لقمان: ٣٤) ــ ومن حدَّثك أنَّ محَمَّدًا كتم أمرا فقد كذب ــ ثمَّ قرأت: ﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (سورة المائدة: ٦٧) ــ وَلَكِنَّهُ رأى جبريل في صورته مرَّتين» رواه البخاري ومسلم[1]، وكذا قال ابن مسعود وابن عبَّاس.

وروى قومنا أحاديث كاذبة موضوعة أنَّه رأى ربَّه **فأخطأوا، وأخطأوا**

١-رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٣٣٨) باب تفسير سورة «والنجم» رقم٤٥٧٤. ورواه **الربيع** في مسنده (٥) باب في السنَّة في التعظيم لله ﷻ، ج٣، ص٣٠٩. رقم٨٢٤. من حديث عائشة.

أيضا بتفسير الآية بها.

والحاصل أنّ لبعض الناس ربًّا متجسِّما كما تقول اليهود بالتجسيم، وأنّ لهم ربًّا يتدلّى، كما للنصارى ربًّا يأكل ويشرب ويُجزّأ وهو عيسى، تعالى الله عَمَّا يقول هؤلاء كلُّهم، وقال أبو ذرٌّ: سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربَّك؟ فقال: «**كيف أراه؟!**»[1].

﴿**أَفَتُمَارُونَهُ,**﴾ تجادلونه بالشكِّ والتشكيك، والتقديرُ: أتكذّبونه فتمارونه بعد هذه الآيات؟ ﴿**عَلَىٰ مَا يَرَىٰ**﴾ ببصره من صورة جبريل الطَّيْلاً ، ويحقّقه مرَّة بعد أخرى، والمقام لذلك، لا كما قيل: أفتمارونه في الإسراء، ورؤية بيت المقدس، ووصوله، وسؤالكم عن صفته، وعن العير التي في الطريق، وما قبل وما بعد ذلك؟ كقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً اخْرَىٰ﴾ والمضارع للتجدُّد وتتريل الماضي مترلة الحاضر المشاهد.

﴿**وَلَقَدْ رَءاهُ**﴾ رأى ببصره جبريل على صورته المهولة التي خلق عليها ﴿**نَزْلَةً اخْرَىٰ**﴾ وقت نزول آخر، فـ«نَزْلَةً» مصدر للوحدة نائب عن الزمان كجئت طلوع الشمس، أي: وقت طلوعها، ولم يقل: مرَّة أخرى مع أنّ المعنى كذلك ليبيِّن أنّ هذه الرؤية الأخرى بالترول والدنوِّ مثل الأولى لا مجرَّد رؤية، ولو من بعيد أو بلا نزول، والمرَّة الأخرى ولو كان لها إشعار بذلك ومناسبة لكن الترلة الأخرى أدلّ.

وأجاز بعض أن يكون «نَزْلَةً» مفعولا مطلقا لـ«رأى»، أي: رآه رؤية أخرى، وهو باطل إذ ليس الترول بمعنى الرؤية، ولا نائبا عنها بحذف

١-رواه **الربيع** في مسنده (١٨) باب في النظر أيضا، رقم٨٥٦. من حديث ابن عبَّاس. ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥٤) باب ومن سورة النجم، رقم٣٢٨٢. من حديث أبي ذرٍّ.

منعوت أو مضاف، ولا بغير ذلك، اللهمَّ إلاّ أن يدَّعى أنّ النزول مسبِّب للرؤية فعبَّر عنها به، وأولى من هذا **أنَّه مفعول مطلق لحال محذوفة، أي: لقد رآه نازلا نزلة أخرى.**

﴿عِندَ﴾ متعلّق بــ«رأى»، لأنّ رؤيته وقت ليلة الإسراء في حضرة السدرة، ويجوز تعليقه بمحذوف حال من الهاء أو من المستتر **﴿سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾** شجرة النبق، وأضيفت للمنتهى إضافة الحالّ للمحلّ، كحيوان الدار، أو المحلّ للحالّ الذي هو الانتهاء، لأنَّه ينتهي إليها علم كلّ عالم، نبيء أو غيره، ولا يعلمون ما وراءها، وتنتهي إليها أعمال الخلق على أيدي الملائكة، ولا يجاوزونها، وينتهي إليها ما ينزل من فوقها، ويأخذه من تحتها، وما يصعد من تحتها ويأخذه من فوقها، وتنتهي إليها أرواح الشهداء، أو أرواح المؤمنين مطلقا، ولأنَّها آخر الجنَّة، فإذا دخلتها أرواح هؤلاء لم تجاوزها لأنَّه لا جنَّة بعدها، وقيل: أرواح غير الشهداء تنتهي عند أبواب الجنَّة، ولأنّ من رفع إليها فقد انتهى في الكرم والشرف.

(صرف) وهو مصدر ميميٌّ، أي: سدرة الانتهاء، أو اسم مكان ميميٌّ، أي: سدرة موضع الانتهاء، وزعم بعض أنَّه اسم مفعول على الحذف والإيصال، والأصل: عند المنتهى إليه، وهو الله ﷻ ، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (سورة النجم: ٤٢) ، فحذف «إلى» ونصب الهاء على نزع الجارّ، فكان كالمفعول به الصريح، فناب عن الفاعل واستتر.

[قلت:] وفيه اختراع اسم لله تعالى، وفي جوازه خلاف، وفيه الحذف والنصب على حذف الجارّ، وهو خلاف الأصل.

ولا مانع من أن تكون تلك الشجرة من خشب، وأوراقه كشجر الدنيا بلا سقي ولا تراب، أو بهما، أو نحو ذهب وفضَّة، بلا سقي ولا تراب، أو بهما،

كما روي أنّه ﷺ رأى على كلّ ورقة ملكًا يسبّح الله ﷻ ، وأنّ الملائكة أرادوا النظر إليه ﷺ فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إليه ﷺ ، ويغشاها كلّ ساعة نور يخلقه الله ﷻ .

﴿**مَا يَغْشَىٰ**﴾ إبهامٌ وتفخيمٌ لأمرٍ لا تسعه دائرة البيان، قال ابن مسعود: يغشاها فراش من ذهب، وقيل: يغشاها ملائكة أمثال الغربان، وقيل: أمثال الطيور، وعنه ﷺ : «**رأيت على كلّ ورقة منها ملكًا قائمًا يسبّح الله تعالى**»[1]. وقيل: يغشاها نور يخلقه الله تعالى.

﴿**مَا زَاغَ**﴾ ما مال ﴿**الْبَصَرُ**﴾ بصره ﷺ عمّا رآه ﴿**وَمَا طَغَىٰ**﴾ ما تجاوزه، بل أثبته مستيْقنًا، وما أخطأ. ويجوز أن يكون المراد أعمَّ من ذلك، أي: ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها إلى ما لم يؤمر برؤيته.

﴿**لَقَدْ رَأَىٰ**﴾ ليلة الإسراء ﴿**مِنَ ءايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ «مِنْ» للتبعيض متعلّق بمحذوف حال من «الْكُبْرَىٰ»، و«الْكُبْرَىٰ» مفعول به لـ«رَأَىٰ» على حذف الموصوف، أي: لقد رأى بعينيه الآيات الكبرى من آيات ربِّه. وعن ابن مسعود: «الْكُبْرَىٰ» واحدة، هي رؤية جبريل على صورته، فيكون مفعولاً به لـ«رَأَىٰ»، والتفسير بالآيات الكبرى أولى.

و«ال» للحقيقة، وهذا أولى من جعله مفعولاً به مضافا لـ«آيات»، إذ لا دليل على اسميَّة «مِنْ» التبعيضيَّة و«الْكُبْرَىٰ» نعتًا لـ«آيات». وأولى من جعل «الْكُبْرَىٰ» نعتًا لـ«آيات» والمفعول محذوف، أي: شيئًا ثابتًا من آيات ربِّه. وأولى من جعل «آيات» مفعولاً به على زيادة «مِنْ» في الإثبات والتعريف، والمقام للتعظيم. فالوجه الأوَّل أولى، ثمَّ هذا من حيث المعنى، لأنَّ المناسب

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: مج٩، ص٥١، وقال: أخرجه عبد بن حميد عن سلمة بن الأكوع.

للتعظيم الذكر، إلاّ أنّه لا مانع من أنّه حذف للتفخيم، أي: رأى من آيات ربّه الكبرى ما رأى.

ومن ذلك أنّه رأى رفرفًا من الجنّة أخضر سدَّ الأفق، ورأى جبريل في صورته المهولة التي خلق عليها، وغير ذلك ممَّا يذكر في أخبار الإسراء.

(أصول الدين) [قلت:] وبينما الإنسان يوحّد الله ﷻ ويتزّهه عن صفات الخلق رجع على عقبيه وأثبت الشبه، ونقض قوله، وقال: إنّه ﷺ رأى ربّه ليلة الإسراء، وإنّه يراه المؤمنون يوم القيامة في الجنّة، وإنّه يجيء إلى المحشر في هيئة سَـيِّـئَة فيقول له أهل المحشر: نعوذ بالله منك لست ربّنا، ثمّ يجيء في هيئة حسنة فيقولون: أنت ربُّنا، وفسَّر الآية بأنّه ﷺ رآه ليلة الإسراء ! .

قالت عائشة: أنّا أوّل من سأل رسول الله ﷺ هل رأيت ربّك ؟ قال: إنّما رأيت جبريل، وقرأت مستدلّةً على نفي رؤيته: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣) ، وقالت: «مَن قال إنّ محمدًا رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية» وقالت: الضمائر في «دَنَى» و«تَدَلَّى» و«قَابَ قَوْسَيْنِ» و«اسْتَوَى» و«هُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى» وهاء «رَءَاهُ» لجبريل. ومن قال [الضمائر] لله جلّ وعلا فقد أخطأ.

وزعم بعض أنّ «اسْتَوَى» و«هُوَ بِالأُفُقِ» لله ﷻ على معنى العظمة، ولا يحسن ما قيل عن الحسن: إنّ «شديد القوى» هو الله، وجمع القُوَّة للتعظيم، وإنّ «ذُو مرَّة» هو الله ﷻ ، وإنّ المرَّة هو الحكمة، وما ذكر تلميذ السيوطي[1] أنّه قال ﷺ : «رأيت ربّي» موضوع.

١-يعني به العلقميّ محمَّد بن عبد الرحمن بن علي: فقيه شافعيٌّ مفسّر ومحدّث، من أهل مصر، ولد سنة ٨٧٩هـ، درس بالجامع الأزهر، من آثاره: قبس النيرين حاشية على الجلالين، تُوُفِّيَ سنة ٩٦٩هـ. معجم المُفَسِّرِينَ، ج٢، ص٥٤٩.

[قلت:] ومن قال: رأى ربَّه بقلبه أخطأ أيضًا، لأنَّ الرؤية به إدراك حسيٌّ، والإدراك الحسِّيُّ هو المحذور، وحديث: «رأيته بفؤادي» موضوع، أو معناه أيقنت بوجوده، وقالوا: إنَّه قال: «رأيته بفؤادي مرَّتين»، أي: أيقنت به، وهو خطأ، فإنَّه مؤمن بالله دائمًا لا مرَّتين فقط.

[قلت:] وإن كان المراد أنَّه رأى جبريل مرَّتين، بمعنى أيقن به، فأخطأ أيضًا، لأنَّه أيقن به دائمًا لا مرَّتين فقط، رآه على صورته التي عليها مرَّتين، أو على غير صورته.

[قلت:] وحجج إثبات الرؤية والتأويل إليها، وحجج خلق الفاعل فعله، وحجج المجبرة واهية متكلَّفات كما هو شأن العاجز، شبيهة بتعمُّد العناد، بل روي عن أحمد بن حنبل أنَّه إذا سئل عن الرؤية قال: «رآه رآه رآه»، حتَّى ينقطع نَفَسُه عنادًا وعجزًا، وذلك ليلة الإسراء، أو قال: «يراه يراه يراه»، وذلك في الجنَّة.

﴿أَفَرَآيْتُمُ اُللَّتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ اَلثَّالِثَةَ اَلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ اُلذَّكَرُ وَلَهُ اُلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اَللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا اَلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى اَلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ اُلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
اِلْأَخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا اِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اَللَّهُ لِمَن
يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

محاججة المشركين والردُّ على أباطيلهم

﴿أَفَرَآيْتُمُ﴾ أجهلتهم أعظم الجهل مع صحَّة عقولكم؟ أو أتستمرُّون على ما أنتم عليه بعد الحجَّة، فرأيتم هذه الأصنام الثلاثة مع حقارتها جدًّا،

ومع عظم شأن الله ﷻ بنات لله ﷻ ؟ بدليل: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾، وقيل: أفرأيتم هؤلاء الثلاث مع حقارتها وعجزها شركاء لله مع عظم شأنه وقدرته؟ أو المعنى: أخبروني أَلَهَا شيء من القدرة التي لله ﷻ على الخلق والرزق وكلِّ نفع أو ضرٍّ؟ ويقدَّر: «قل لهم أفرأيتم» أو «رأيتموها تنفعكم إن عبدتموها وتضرُّكم إن تركتموها»؟. والهمزة للإنكار والتوبيخ، والخطاب لعبَّادها.

والرؤية بصريَّة أو علميَّة أو ظنِّـيَّة أو إخباريَّة كما رأيت ﴿اللاَّتَ﴾ هي صنم لثقيف بالطائف، وكانت قريش تعبدها قال قائلهم:

وفَرَّت ثقيف إلى لاَتِها بمنقلب الخائب الخاســـر

وَقيلَ: كان بالكعبة، وقيل: بنخلة عند سوق عكاظ، تعبده قريش، ويجمع بأنَّه كان في موضع من تلك المواضع وحمل إلى المواضع الأخرى، أو تعدَّد.

(صـرف) وألفه عن ياء، وتاؤه أصل، أو عن واو من اللوت، وهو اللطخ، وقيل: عوض عن لام الكلمة، وأصله: "لوية"[1] لأنَّهم يعكفون أو يطوفون عليه، ويلوون للعبادة، وقلبت الواو ألفا لتحرُّكها بعد فتح، فهو كأخت وبنت.

ويحتمل أن يكون مخفَّف "لاتّ" (بالشدِّ) كما قرئ بالشدِّ، اسم فاعل "لتّ"، أي: عجن، كان رجل يلتُّ السويق على حجر للحُجَّاج ولا يشرب منه أحد إلاَّ سمن، ولَمَّا مات عبدوا ذلك الحجر إعظاما له، وقيل: عكفوا على قبره وعبدوه، كما في البخاري عن ابن عبَّاس[2].

١-في النسخة ب تعليق من مصحِّحها: «قوله: "لوية" الأوْلى أصله: لوْي، بلا تاء لأنَّه لا يجمع بين العوض والمعوَّض عنه».

٢-البخاري: كِتَاب تفسير القرآن، {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى}، رقم ٤٥٧٨، عن ابن عبَّاس.

[وعن مجاهد: صخرة بالطائف يصنع رجل عليها حيسا لمن يَمُرُّ، وَلَمَّا مات عبدوه عَلَى تلك الصخرة، وَقِيلَ: قال لهم عمرو بن لحي: لم يمت إلاَّ أنـه داخل الصخرة، فعبدها، وبنوا عليها بيتا، وَقِيلَ: كان رجل من ثقيف يقال له: صرمة بن غنم يضع السمن عَلَى صخرة، فَتَلَتُّ العرب به أسوقتهم، وَلَمَّا مات حوَّلتها ثقيف إِلَى منازلهم][1].

ويناسب ما ذكرت من التخفيف عن الشدِّ ما روي أنَّ رجلا من ثقيف يلتُّ السويق بالزيت للمارِّ، وَلَمَّا مات عبدوا قبره. وقيل: اللات عامر بن الظرب.

﴿وَالْعُزَّىٰ﴾ مؤنَّث الأعزِّ، صنم لغطفان، وهي سمرة بنخلة وضعها لهم سعد بن ظالم الغطفاني، وقيل: ثلاث سمرات.

(سيرة) لَمَّا فتح ﷺ مَكَّة بعث خالد بن الوليد فقطَّعهنَّ، وهدم بيتا كان عليها، فأتى فقال ﷺ : «ارجع لم تفعل شيئا»، فرجع فَلَمَّا رأته السدنة مضوا، وقالوا: يا عزى يا عزى!، فأتاها فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، وتدعو بالويل، ووضعت يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتَّى قتلها، فأتى فأخبره فقال ﷺ : «الآن قتلتها، تلك العزَّى، لن تعبد أبدا»، وقيل: قال له: «ارجع»، فرجع فقطَّع أصلها، ولما قطعه خرجت تلك الشيطانة تقول ما ذكر.

وقيل قال عمرو لقومه: لأهل مكة الصفا والمروة وإله يعبدونه، وأرى أن أصنع لكم مثل ما لهم، فقالوا: نعم، فأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة، ووضع كلاًّ في موضع، فقال: الحجران الصفا والمروة لكم، وجمع ثلاثة أحجار

١- ما بين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

فقال: هذا ربُّكم، وقد أسند الحجارة إلى شجرة، فعبدوا الحجارة وطافوا بين حجر الصفا وحجر المروة، فأمر ﷺ بقطع الشجرة وإزالة الأحجار والحجرين.

وقيل: العزَّى بيت بالطائف لثقيف، وكان خالد يقول حين يقطعها:

يا عزَّ كفرانك لا سبحانك إنِّي رأيت الله قد أهانك.

وكانت بالطائف، وقيل: بالكعبة، كما قال أبو سفيان: «لنا العزَّى ولا عزَّى لكم»، ويجمع بالنقل أو بالتعدُّد، كما مرَّ.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾ صخرة لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مَكَّة، وعن ابن عبَّاس: لثقيف، وعن قتادة: للأنصار بقديد، وهو قول عائشة، وقالت: كانت الأنصار تهلُّ لها، وقيل: بيت بالمشلل يعبدها بنو كعب، وقيل: بالكعبة ثلاثة أخرجت وعبدت، وقيل: اللات والعزَّى ومناة، ويجمع بالنقل أو بالتعدُّد.

(صرف) والأصل "مَنَيَة" قلبت الياء ألفا لتحرُّكها بعد فتح، سمِّيت لأنَّها تُمنَى عندها دماء النسائك في الجَاهلِيَّة، والميم أصل، ويحتمل أنَّ أصله "مناءة" من النوء (بالهمز بعد ألف)، فالميم زائد، وألفه عن واو خفِّف بحذف الهمز، وكانوا يستمطرون عليها الأنواء تبرُّكا، كما قرأ ابن كثير: «مناءة» (بالمدِّ)، أو من "مَنَى" بمعنى قدَّر، يزعمون أنَّها تقدِّر الأشياء كما يقدِّرها الله عز وجل.

﴿الثَّالِثَةَ الاُخْرَىٰ﴾ نعتان لـ«مَنَاةَ» للتأكيد، فإنَّها ثالثة في الآية مغايرة للعزَّى واللات، وقيل: «الثَّالثَةَ» نعت تأكيد و«الاُخْرَى» نعت مؤسِّس، بمعنى متأخِّرة الرتبة، ويردُّه أنَّه ليس من معاني الأخرى الذمُّ ولا المدح، اللهمَّ إلاَّ باعتبار المفهوم الأصليِّ مع الدلالة على ذمِّ الأولين، لأنَّ ذلك اللفظ يستدعي المشاركة، فلو قيل: جاء رجل قريشيٌّ ثمَّ آخر، علم أنَّ الآخر قريشيٌّ أيضا.

وكانوا يزعمون أنّها أفضل الثلاثة، فأكذبهم الله عزّ وجلّ بأنّها ذات خسّة مثلهما أو أخسّ، وذلك أنّ اللات بصورة آدميٍّ، والعزّى بصورة نبات، ومناة بصورة صخرة، والآدميّ أشرف من النبات، والنبات أشرف من الصخرة، لأنّها جماد.

وزعم بعض أنّ «الأُخْرَى» نعت لـ«الْعُزَّى» أُخِّر للفاصلة، لأنّ الثانية يقال لها: أخرى، والثاني يقال له: الآخر، و«الثَّالِثَةَ» نعت «مَنَاةَ».

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ﴾ جنس الأولاد ﴿وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾ جنس الأولاد الإناث؟ يزعمون أنّ هؤلاء الأصنام والملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، وكذا غيرهنّ من الأصنام. والجملة الأولى مستأنفة، أو منزّلة منزلة المفعول به الثاني للرؤية، كأنّه قيل: أرأيتم هؤلاء الأصنام أصناما له؟ ومقتضى الظاهر قيل: ألكم الذكر وله هنّ؟ ولكن ذكرهنّ بلفظ الأنثى للفاصلة، ليصرِّح بالتوبيخ لهم على اختيار الذكور لأنفسهم، متعرِّضا للتوبيخ على نسبة الولد إليه تعالى مطلقا.

﴿تِلْكَ﴾ القسمة بجعل الذكور لهم والإناث له ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ جائرة في المرتبة الثانية بعد الجور بنسبة الولادة إليه مطلقا سبحانه وتعالى. وفسِّر «ضِيزَى» بناقصة، وبعوجاء، وبمخالفة، وبغير معتدلة، وذلك كلُّه واحد.

(صرف) وهو صفة مشبّهة مفرد، وياؤه عن واو، وَقِيلَ: أَصليّة، والأصل ضمُّ ما قبلها، كحُبلى، كُسِرَ لِئَلاّ تقلب كما في بِيض جمع بيضاء، وعِينٌ جمع عيناء، فإنّ الأصل ضمُّ ما قبل الياء، كحُمْر وخُضْر وسُود وصُفر، ولم نقل: كسره أصلٌ، لأنّ "فِعْلَى" بالكسر في الصفة نادر لا يحمل القرآن عليه، كمشية حيكى، ورجل كيصى، وامرأة عزهى وسعلى. وأيضا يمكن أصل حيكى وما بعده الضمُّ كسر لِئَلاّ تقلب واوا، بل المعروف عزهاة وسعلاة. أو «ضِيزَى» مصدر، كذِكْرَى، وَصَفَ به مبالغةً، كرجل عَدْل.

﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الأصنام، باعتبار نسبة الأُلُوهِيَّة إليها ﴿إِلاَّ أَسْمَآءٌ﴾ ليس

فيها من معنى الأُلوهيَّة شيء ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بالهوى الباطل، والجملة نعت للأسماء، و«ها» للأسماء.

(لغة) والتسمية بالنسبة إلى الاسم جعله اسما للمسمَّى، وإلى المسمَّى جعله مسمًّى للاسم، والتسمية ذكر الاسم، والمراد هنا الأوَّل، لتحقيق أنَّ تسمية تلك الأصنام آلهة أمر باطل لم يصادفها، إذ لا حظَّ لها في الأُلوهيَّة، قال الله ﷻ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً﴾ (سورة يوسف: ٤٠)، كمن سمَّى النار ماءً، فهنَّ مسمَّيات بما ليس فيها.

وقيل: قوله: ﴿هِيَ﴾ للأسماء الثلاثة التي أطلقوها على تلك الأصنام لاستحقاقها مفهومات تلك الأسماء عندهم، وردَّ بأنَّه ليس في سلب مفهوماتها ـ من العزَّة والعكوف ولتِّ السويق ونحو ذلك ممَّا مرَّ في اللات، والتقرُّب والتقدير ونحوه مما مرَّ في مناة ـ مزيدُ فائدة، وإنَّما الفائدة في سلب الأُلوهيَّة عنها.

﴿مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجَّة مصدِّقة لهم ﴿اِنْ يَّـتَّبِعُونَ﴾ في تلك التسمية والعمل بمقتضاها ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ التوهُّم الباطل في نفس الأمر، ولو كان عندهم ترجيحا ﴿وَمَا تَهْوَى﴾ تشتهي ﴿الاَنفُسُ﴾ أنفسهم الأمَّارة بالسوء، أي: وما تهواه أنفسهم من الإشراك، وما دونه من المعاصي.

ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّة، و«ال» عوض عن الضمير المضاف إليه، أو للجنس، فإنَّ النفس مطلقا تميل إلى ما تستلذُّه طاعة أو مباحا، أو معصية، وإنَّما تُردُّ عن المعاصي بالعقل.

(بلاغة) ومقتضى الظاهر: «تتَّبعون» (بالمثنَّاة) للخطاب، وإنَّما كان بالغيبة لأنَّ تعداد قبائحهم بلغ إلى أن يعرض عنهم وتذكر لغيرهم، وقد قرأ ابن عبَّاس وابن مسعود بالخطاب.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّـهِمُ الْهُدَىٰٓ﴾ اللام للابتداء لشبه الجملة المبدوءة بـ«قَدْ» بالجملة الاسميَّة في التحقيق مع عدم بدئها بالفعل، ألا ترى أنَّها تقرن بفاء الجواب كالاسميَّة ؟. أو هي لام تأكيد مطلقا. والعطف على ﴿إِنْ يَّـتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ عطف قصَّة على أخرى، وأولى من ذلك أن تكون حالا من واو «يَتَّبِعُونَ». وإن جعلنا اللام للقسم المحذوف لم يَصِحَّ أن تكون الجملة وحدها حالا، لأنَّها جواب القسم، ولا مع القسم، لأنَّ القسم إنشاء فيكون هو وجوابه معطوفين على «يَتَّبِعُونَ» عطف إنشاء على إخبار، وقصَّة على أخرى.

و«الهدى» رسول الله ﷺ ، كما هو البيِّنة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَاتِيَهِمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (سورة البيِّنة: ١) ، وذلك مبالغة، وإنَّما أريد بالمبالغة في حقِّ الله تعالى التأكيد، أو يقدَّر بالهادي أو بذو الهدى. أو الهدى القرآن.

﴿أَمْ لِلاِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰٓ﴾ بل أللإنسان ؟ وهذا الاستفهام الذي تضمَّنه «أم» للإنكار، و«ال» في «الإنسان» للحقيقة، فيدخل الكافر بالأولى، والمراد ليس لمطلق الإنسان بل لبعض دون بعض، فليس لِلْكُفَّارِ ما تمنَّوه من شفاعة معبوداتهم، ودخول الجنَّة على فرض صحَّة البعث، ومن نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم، ومن التغلُّب على المؤمنين بأنفسهم، أو تغلُّب الكُفَّار عليهم.

أو المراد عموم السلب، بمعنى: لا شيء لأحد مَّا من الأشياء يتصرَّف فيه مستقلاًّ عن الله ﷻ ، فدخلت الكفرة وأحوالهم بالأولى، ويضعف ما قيل: إنَّ المراد بالإنسان الكُفَّار على الاستغراق، أو الجنس، أي: ليس لهم ما يتمنَّونه من الشفاعة وما ذكر معها.

﴿فَلِلَّهِ﴾ لا لغيره، خلقا وملكا وتصرُّفا، والفاء للتعليل ﴿الاَخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ يعطي منهما ما يشاء من شاء، أو له الآخرة والأولى، إن شاء عاقب الكافر في الأولى والآخرة، وإن شاء عاقبه في الآخرة.

(بلاغة) وقدَّم «الآخرة» لأنَّها أهمُّ أطماع المؤمنين، وللفاصلة، وأمَّا الكُفَّار فليس أهمُّ أطماعهم الآخرة، لأنَّهم ينكرونها، وإنَّما يطمعون في الجنَّة على فرض البعث، نعم **تشير الآية إلى أنَّه لا شيء لهم فيها، وهو المقصود بالذات** في الآية، فقدِّمت لأنَّ الأهمَّ نفي نفعها عنهم.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ «كَمْ» تكثيريَّة، و«مِنْ» للبيان، أي: كثيرا جدًّا، كلٌّ واحد منهم ملك لا يشفعون شفاعة مًّا، أو لا يدفعون ضرًّا مًّا، فـ«شَيْئًا» مفعول به، أو مفعول مطلق، فالمراد نفي الشفاعة عن الملائكة لا ثبوتها وعدم نفعها، كقوله:

«لا ترى الضبَّ ينجحر»

أي: في أرض لا ضبَّ فيها فضلا عن أن يكون له جحر فيها. وقوله:

«على لاحب لا يهتدى بمناره»

أي: لا منار فيه. و«من مَّلَكٍ» نعت، و«فِي السَّمَاوَاتِ» نعت ثان، أو نعت لـ«مَلَكٍ»، وجملة «لاَ تُغْنِي» خبر المبتدأ وهو «كَمْ». وإذا لم تغن شفاعة الملائكة فأولى أن لا تغني شفاعة المعبودات غير الله ﷻ. وضمير الجمع باعتبار معنى «كَمْ».

﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ أَنْ يَّاذَنَ اللهُ﴾ لهم في أن يشفعوا **﴿لِمَنْ يَّشَآءُ﴾** أن يشفعوا له **﴿وَيَرْضَى﴾** أي: يرضاه ويراه أهلا للشفاعة من الموحِّدين العاملين، لا للمشركين والفساق.

أو المراد: إلاَّ من بعد أن يأذن الله ﷻ لمن يشاء من الملائكة أن يكون شفيعا ويرضاه للشفاعة، وظاهر هذا أنَّ من الملائكة من لا يرضاه الله ﷻ شفيعا، وكلُّهم أولياؤه، ولله أن يفعل ما يشاء، ويعتبر ما شاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله

﴿إِنَّ الذينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ بالحياة الأخرى، أو الدار الآخرة، أو النشأة الآخرة، أو هو اسم لذلك بلا تقدير موصوف، أو لما فيها من العقاب على الكفر وسائر المعاصي.

﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ﴾ أي: يسمُّون كلَّ واحد منهم، ولهذا المعنى قال: **﴿تَسْمِيَةَ الأُنثَى﴾** بالإفراد للفاصلة وللتلويح بأنَّ لكلِّ فرد منهم هذا اللفظ، لفظ أنثى ولفظ بنت، فلم يقل: تسميات الإناث، على أنَّه لو قيل هذا لكان من تقسيم الجمع على الجمع، وذلك يكون حيث لا لبس في الإفراد، نحو: كسانا الأمير حلَّة، أي: كلَّ واحد منَّا، لأنَّ الحلَّة الواحدة لا يُكساها متعدِّد. وإن شئت فتسمية مصدرٍ يصلح للكثير.

وأل في «الأُنثَى» للجنس العدديِّ، وكأنَّه قيل: الإناث، أو للحقيقة، فإنَّ اسم الأنثى الواحدة ــ وهو بنت ــ يصلح لهنَّ كلِّهنَّ.

والموصول وصلته كالاسم المشتقِّ في تعليق الحكم بمضمون المشتقِّ يؤذن بعلِّـيَّة مع المشتقِّ، فتسميتهم الملائكة باسم الأنثى ــ وهو بنت ــ ناشئ عن كفرهم بالآخرة، فإنَّه لا يجترئ على تلك التسمية من آمن بها، واستعمل عقله أو سمعه للزواجر، فإنَّ القديم لا يتَّصف بصفة الحادث، والملائكة متزِّهون عن النقص بالأنوثة أو غيرها.

﴿وَمَا لَهُم بِهِ﴾ بالله ﷻ ، لا علم لهم علما حقيقيًّا، ولو كانوا يذكرون الله ﷻ ، لذلك وصفوه بالولادة. أو الهاء عائدة إلى التسمية، وذكّر لأنّ التسمية قول، أو للتأويل بالمذكور، أي: لا علم لهم بأنّ الملائكة إناث. والجملة حال من واو «يُسَمُّونَ»، وَيَدُلُّ على رجوع الهاء إلى التسمية قراءة أُبيٍّ: «وَمَا لَهُم بِهَا»، إلاّ أنّها تحتمل الرجوع إلى الملائكة، أي: ما لهم علم بحقيقة الملائكة وشأنها. والباء متعلّق بقوله: **﴿مِنْ عِلْمٍ﴾**، ولو كان مصدرا، لأنّ المقام ليس على معنى حرف المصدر والفعل، وللتوسُّع في الظروف. و«علم» مبتدأ خبره «لَهُمْ»، أو فاعل «لَهُمْ». و«مِنْ» صلة لتأكيد العموم، وللنصِّ به.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ التوهُّم الباطل، ولو كان عندهم راجحا أو مجزوما به **﴿وَإِنَّ الظَّنَّ﴾** جنس الظنِّ، فيدخل ظنُّهم بالأولى، وليس المراد ظنُّهم المذكور، ولذلك أظهر، أو ليكون الكلام كالمثل العجيب.

﴿لاَيُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ لا يدفع شيئًا من الحقِّ، أو لا يغني أحدًا إغناء مَّا عن الحقِّ.

(أصول الدين) والحقُّ في الاعتقادات يلزم فيه الجزم الذي لا يقبل التشكيك، أو مع دليل أيضًا، وإنَّما يكفي الظنُّ في العمليَّات. [قلت:] وأقوال العلماء في الفروع ظنِّيَّاتٌ، ويجوز تقليد غير المجتهد فيها، ويجوز للمجتهد حكايتها لمن يعمل بها، وإن ضاق الوقت على المجتهد جاز له العمل بقول مجتهد، ويكفي في الاعتقاديَّات الجزم الذي لا يقبل الشكَّ، ولو بلا دليل على التحقيق، وإلاَّ كان أكثر أهل التوحيد مشركين.

(أصول الدين) وكان ﷺ يكتفي من الناس بالظاهر، ويقال: «عليكم بتوحيد الأعراب». ولا يقرب أن نظنَّ أنَّ الصحابة كلَّهم أدركوا بالأدلَّة، بل

نظنٌّ أنَّ أكثرهم اكتفوا بالجزم الذي لا يقبل التشكيك، ثمَّ رأيت السنوسي[١] ختم البحث بمثل ما قلت، ولو كان من يأخذ من لسانه ﷺ أقوى.

وسنوسة قبيلة عند طرابلس المغرب الأدنى.

وأمَّا قول عمر بن الخطَّاب وابنه عبد الله: «احذروا هذا الرأي عن الدين، فإنَّه منَّا ظنٌّ وتكلُّف، بخلاف رسول الله ﷺ، فإنَّ الله يريه» فإنَّما أرادا به التخويف عن الخطأ، بدليل أنَّهما قد استعملا رأيهما في مسائل باجتهاد، وليس التحذير منه إبطالاً للعمل به. وقيل: الحقُّ في الآية: الله ﷻ .

﴿فَأَعْرِضْ﴾ لا تُبالغ في الحرص على إيمانهم، أو لا تجازِهم على إساءتهم، واصْبر ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: أعْرِضْ عنهم، بردِّ الضمير إليهم، ولكن أظهر ليصفهم بالتولِّي وإرادة الدنيا فقط. قيل: وفي مثل هذا في جميع القرآن قد يقال: يجوز أن يضمر ويأتي بالوصف على طريق الحال مثلاً، مثل: فأعرض عنهم متولِّين عن ذكرنا، ومقتصرين على الحياة الدنيا، فنقول: لم نرد أنَّه لا سَبيل إلى ذلك إلاَّ الإظهار، بل نقول: إنَّه طريق في ذلك.

والذكر: القرآن، يفيد سامعَهُ مواعظَ، وأحكامَ الشرع، والإخبارَ والترهيبَ والترغيبَ. والتولِّي عنه تركُ الأخذ به، وتركُ الاعتناء به. وقيل: الذكر قول: "لا إله إلاَّ الله" وقول: "سبحان الله" ونحو ذلك من الأذكار، واستحضار أنَّ الله ناهٍ عن المعصية، وآمر بالطاعة، ومعاقب ومثيب.

١-السنوسي محمَّد بن يوسف بن عمر بن شعيب الحسني: عالم تلمسان في عصره، له تصانيف كثيرة، منها: شرح صحيح البخاري لم يتمَّه، وتفسير سورة ص وما بعدها، عقيدة في التوحيد. ولد سنة ٨٣٢ وتُوُفِّيَ سنة ٨٩٥هـ. الزركلي: الأعلام، ج٧، ص١٥٤.

ويقال: عجب الملائكة ممَّن ذُكر عنده "لا إله إلاّ الله" ولم يذكره، وممن ذكر عنده رسول الله ﷺ ولم يصلّ عليه، وممن مرَّ على أخيه ولم يسلّم عليه. وقيل: الذكر الرسول ﷺ تولّوا عن الإيمان به وبما جاء به. وقيل: الذكر الإيمان.

﴿وَلَمْ يُرِدِ الاَّ الْحَيَاةَ الدُّنيَا﴾ اقتصر همُّه على الحياة ولذّاتها وجاهها ومالها وما يحب منها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من التولّي عن ذكرنا، والاقتصار على الحياة الدنيا. وهذا أولى من كون الإشارة لأمر الحياة الدنيا، ومن كونها للظنّ الذي يتّبعونه، ومن كونها للقول بأنّ الملائكة بنات لله ﷻ ، والأخيران أشدُّ ضعفًا، وما قبل الأخير أشدُّ ضعفًا [منهما] إذ فيه جعل الظنِّ علمًا. ويجوز أن تكون الإشارة إلى ذلك كلّه.

﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: موضع بلوغهم منه لا علم لهم فوقه، فـ«مَبْلَغُ» اسم مكان و«مِنَ الْعِلْمِ» نعته، و«مِنْ» للتبعيض، وَسَمَّى ذلك علما بالنظر إلى دعواهم الفاسدة، أو العلم مطلق الاعتقاد استعمالاً للمقيَّد في المطلق، أو استعارة تصريحيَّة. وضمير الجمع مراعاة لمعنى «مَنْ» بعد الإفراد مراعاةً للفظها.

وعلّل قوله: «أَعْرِضْ» تعليلا جمليًّا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِه﴾ من أوّل تكليفه، وأصرَّ، أو بعد إسلامه بأن ارتدَّ. والهاء لـ«ربّك»، ويجوز عوده إلى «مَنْ»، بمعنى أنّه ضلّ عن الدِّين الذي وجب أن يتّخذه سبيلاً وينسب إليه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ ودام من أوّل تكليفه، أو بعد ضلال، وهكذا قضى ربُّك بالضلال والهدى فلا تبالغ في الحرص على الهدى، ولعلّك باخعٌ نفسك عليه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)﴾

جزاء المحسنين وأوصافهم

﴿وَلِلَّهِ﴾وحده لا مع غيره، ولا لغيره، وهكذا تقول في مثل هذا من القرآن وغيره، والإظهار في مقام الإضمار لزيادة بيان القدرة، بذكر أكمل الأسماء ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾ من أجسام وأفعال وسائر أعراض، وشمل ذلك أبعاضهنَّ، والضلال والاهتداء.

﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلّق بما تَعَلَّقَ به «لله»، على حدِّ ما مرَّ مرارًا، بمعنى أنَّهم في ملكه لا يفوته عقابهم، أو بمحذوف، تقديره خلق ما فيهما ليجزي، أو بـــ«ضَلَّ» أو «اهتَدَى». واللام للعاقبة، أو متعلّق بـــ«كلّف» محذوفًا، أي: كلّف الناس ليجزي، فيكون للتعليل.

(رسم) وهنا أذكر نكتة من فضائل خطِّ المغاربة مطلقًا على خطِّ المشارقة التي لا ينكرها إلاَّ معاند، وهي أنَّ الياء المتحرِّكة تنبسط إلى قدَّام بالْتواء، كياء يجزي بعد الزاي، دلالة على تحرُّكها، والساكنة سكونًا ميتا أو حيًّا تجري إلى وراء دلالة على عدم تحرُّكها كياء فے، وأمَّا في القرآن فظاهر كالشمس كما تراهم يكتبون الميم فوق النون الساكنة قبل الباء تقرأ ميمًا، وكما تراهم يكتبونه كما في الإمام، وما لم يكتب فيه يكتبونه بالأحمر أو الأصفر وهكذا...

﴿الذِينَ أَسَآءُواْ﴾ بالإشراك وما دونه ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ الباء سَبَبِــيَّة، أي: ليجزيهم بالنار بسبب ما عملوه، أو بسبب عملهم من الإشراك وما دونه، ولا صغائر لِلْكُفَّارِ، لأنَّهم أصرُّوا. أو غير سَبَبِـــيَّة، فالمعنى: بجزاء ما عملوا من العقاب، أو «مَا عَمِلُوا» بمعنى العقاب تسمية للمسبَّب بلفظ السبب.

﴿وَيَجْزِيَ الذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالتوحيد وما يستتبعه ﴿بِالْحُسْنَى﴾ بالجنَّة، فهو اسم للجنَّة، أو صفة، أي: الدار الحسنى، أو الباء سَبَبِيَّة، أي: لأعمالهم الحسنة، **فلك يا محمَّد وأتباعه الحسنى، ولأعدائك السُوأى**، اللهمَّ اجعلنا من أهل الحسنى.

إنَّ جاها قد عمَّ كلَّ البرايا ... جلَّ عن أن يضيق عن أمثالي
يا رسول الإله إنِّي عبيد ... بك قد لُذْتُ من عظيم فعالي
فأغثني بنظرة هي حسبي ... في مرامي وسائر الأحوال
وأصلِّي عليك ما أمَّك الركـ ... ـبُ ولبَّى من شاسعات الجبال
وعلى الآل والصحابة طرًّا ... من رقَوْا أشرف الذُّرى للمعالي

﴿الذِينَ﴾ نعت للذين قبله، لقيامه مقام ما ينعت، أو بدل له ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ المضارع للتجدُّد، لا يزالون يجتنبونه ﴿كَبَآئِرَ﴾ كمطلق الزنى ﴿الاِثْمِ﴾ إضافة خاصٍّ لعامٍّ هو الإثم ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ وهو كبائر، لأنَّ الفاحشة ما اشتَدَّ قبحه من الكبائر، كالزنى بحليلة الجار، أو بحليلة الساكن معه في الدار، أو بالمحرمة، أو بحائض أو نفساء.

وقيل: الفواحش والكبائر مترادفتان، وذُكِرَا معًا نظرًا إلى تغاير مفهوميهما، فمفهوم الفحش القبح، ومفهوم الكبيرة استعظام الذنب، وكلُّ فاحشة كبيرة، وكلُّ كبيرة فاحشة.

﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ الذنب الصغير. والاستثناء منقطع، لأنَّ لفظ الكبائر والفواحش لا يشمله، وعند سيبويه أنَّ «إلاَّ» وما بعدها نعت لـ«كَبَائِرَ» و«الْفَوَاحِش»، و لم يشترط كما اشترط ابن الحاجب لذلك أن يكون المنعوت جمعًا منكَّرًا غير محصور، قلنا: لا داعي إلى النعت في الآية.

وأصله: ما قلّ من الشيء، كما يقال لـمَّة الشعر، لأنّها دون الوفرة، إلاّ أنّه كلٌّ ما نظنُّه صغيرة لا ندري لعلّه كبيرة أخفاها لئلاّ يجترأ عليها، لأنّها تغفر باجتناب الكبائر وبالوضوء وبالصلاة، وبرمضان وبصلاة الجمعة.

(أصول الدين) وظاهر القرآن والأحاديث والأخبار ما ذكر، لا كما قيل: كلٌّ ذنبٍ كبيرٌ، وإنّ الصِّغَرَ والكِبَرَ بالنِّسْبَة. ولنا أن نقول مع ذلك إجلالاً له تعالى: ليس فيما يُعصَى اللهُ به صغيرٌ. وذكر بعض أنّ الصغائر تعرف. وعن أبي سعيد الخدريِّ: إنَّها مثل النظرة والغمزة والقبلة. قلت: هي كبائر، ألا ترى أنّهنَّ ينقضن الوضوء والصوم ؟ وأنّه يكحَّل عين الناظر بالنار ؟ .

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيء ﷺ : «**إنّ الله تعالى كتب عن ابن آدم حظّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللِّسان النطق، والنفس تتمنّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك كلّه أو يكذِّبه**»[1] فسمَّى كلَّ ذلك زنًى، إلاّ أنّ زنًى أكبر من زنى، أو الأكبر يكون بالفرج.

وفي مسلم: «**كتب على ابن آدم نصيبُه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطَا، والقلب يهوى ويتمنَّى، ويصدِّق ذلك الفرج أو يكذِّبه**»[2]. وعن بعض أنّه الهَمُّ بالذنب بلا فعل له، وقد قيل: إنّه

١-رواه **البخاري** في كتاب الاستئذان (١٢) باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم ٥٨٨٩. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **مسلم** في كتاب القدر (٥) باب قدر على ابن آدم حظّه من الزنا وغيره، رقم٢١ (...) رقم٢٠ (٢٦٥٧). من حديث أبي هريرة.

يكتب عليه الاهتمام إذا اشتَدَّ، ولا يكتب أنَّه فعل، ولا يكتب عليه إذا خطر في قلبه و لم يدم عليه. وعن ابن عبَّاس: كلٌّ ما نهى الله عنه أو عصي به فهو كبير، ومعناه اعتبار عظمة الله سبحانه لا نفي الصغيرة.

وأخطأ من قال: اللمس والمفاخذة صغيرتان، لأنَّهما زنى، وغير حفظٍ للفرج وللعورة، فيكف يكونان صغيرتين ؟! .

(أصول الدين) [قلت:] وليست الكبائر محصورة في القرآن، ولا في السنَّة، ولا في الإجماع، بل تعرف بالقلب السليم، وكم كبيرة لا توجب الحدَّ و لم يذكر فيها لعن ولا وعيد، وكيف يحصر ما لا مطمع في ضبطه ؟!. قال ابن عبَّاس لمن قال سبع: «هنَّ إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، لكن لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار».

ولا يقال: الكبيرة كلُّ ذنب يؤذن بقلَّة الاكتراث بالدِّين، فكم صغيرة حسنة تؤذن بها.

وقيل: اللمم في الآية ما فعل في الجَاهليَّة من إشراك وما دونه، فالاستثناء متَّصل، وليس كذلك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ إذ كان يغفر الصغائر لمن لم يصرَّ ويغفر الكبائر لمن لم يصرَّ فلا ييأس الذين أساءوا.

(أصول الدين) ومن فعل كبيرة و لم يعتقد أن يعود إليها، ولا أن لا يتوب منها، وقد كان يستغفر في الجملة كفاه ذلك في قول، وتغفر أيضًا بالمصائب في قول. وقيل: تغفر بأداء الفرائض، ولا بدَّ من أداء حقِّ المخلوق فيها، ولو مِمَّا يلزم للفقراء، كالكفَّارة. وعن عمر وابن عبَّاس: لا كبيرة في الإسلام، أي: يتوب المسلم فيغفر له، بخلاف المشرك، فلا تنجِّيه توبته من الذنوب ما دام مشركًا.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بأحوالكم. و«أَعْلَمُ» خارج عن التفضيل، بمعنى عالم،

لأنَّ غيره تعالى لا علم له وقت إنشاء الخلق من الأرض، ولا بأحوالهم وقت كونهم في البطون، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِذَ اَنشَأَكُم مِّنَ الاَرْضِ وَإِذَ اَنتُمُ, أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ وقد يقال: هو [أي «أَعْلَمُ»] باق على التفضيل، باعتبار أنَّ للملائكة بعض علم في ذلك، وقد يقال: إنَّ المتبادر أنَّ المراد أنَّ الناس لا يعلمون، وليس المراد أنِّي أعلم من الملائكة.

وعلى كلِّ حال ليس الحصر مرادا، فإنَّه كما هو عالم وقت الإنشاء ووقت الكون في البطون، عالم في غير ذلك، وعِلْمُه واحدٌ، ولا إشكال البتَّة إذا جعلنا «إِذْ» مفعولا به لـــ«اذْكُرْ»، لكنَّه وجه ضعيف في الآية.

ومعنى الإنشاء من الأرض إنشاؤهم مِمَّن خلق منها، وهو آدم، كما تقول: الثمار من الأرض إذ تولَد مِمَّا هو من الأرض. أو يقدَّر مضاف، أي: أنشأ أباكم، أو أنشأكم من نطف تولَّدت من الأرض. و«أَجِنَّة» جمع جنين. والمراد: الإخبار بأنَّه أعلم بما في ظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وظلمة الرحم.

والتلويح إلى قدرته على خلق الأطوار والعلم بها فكيف يخفى عليه كبائركم، وفواحشكم، ولممكم؟ وأعظم من ذلك علمه بما في القلب من التكييفات.

﴿**فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ**﴾ إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من الذنوب، أو بزكاة العمل وزيادة الخير، واشكروه على فضله ومغفرته تعالى، أو المعنى: لا يزكِّ بعضكم بعضًا، أو كلُّ ذلك.

(فقه) والنهي في الآية يشمل ما هو رياء أو إعجاب أو غرض دنيويٌّ، أو على سبيل القطع والأمن من مكر الله.

وقيل: نزل قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُم...﴾ إلى: ﴿...بِمَنِ اِتَّقَى﴾ في قول اليهود في الصبيِّ إذا مات: إنَّه صديق لله، فقال رسول الله ﷺ : «كذبوا، ما من

نسمة إلاّ وهي شقيَّة أو سعيدة»، ونزل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...﴾، وهذا قبل أن يعلم عليه السلام أنّ أطفال أهل النار في الجنَّة.

وجازت التسمية بالاسم الحسن، كالحسن والحسين وسعيد، وكان لعمر بنت اسمها عاصية، فسمَّاها ﷺ جميلة، وغيَّر ﷺ برَّة بنت أبي سلمة وبرَّة بنت جحش إلى زينب، وقرأ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ...﴾ وذلك كراهة لا تحريم. وعنه ﷺ : «**لئن عشتُ لأنهينَّ عن التسمية بنافع وأفلح**»، أي: نهي تحريم.

﴿**هُوَ أَعْلَمُ**﴾ من غيره ﴿**بِمَنِ اتَّقَى**﴾ حذَر الإشراك وما دونه من المعاصي، وقيل: اتَّقى شيئًا من المعاصي، فإنّه عز وجل يثيبه على اتّقائه. وقيل: نزلت في مؤمنين قائلين: صلاتنا وصومنا وحجُّنا، نهاهم أن يعجبوا أو أن يراءوا.

[قلت:] أمَّا فرَحًا بالطاعة أو دعاء إليها فجائز، وقد صحّ أنّ المسرَّة بالطاعة طاعة وذكرها شكر.

﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ
﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ
الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ
الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ
﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ
﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾

توبيخ بعض كبار المشركين لإعراضهم عن اتباع الحقّ والتذكير بما في الصحف الأولى وبالأمم السابقة

﴿أَفَرَآيْتَ الذِي تَوَلَّىٰ﴾ عن قبول الحقِّ والعمل به والثبوت عليه ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً﴾ مالا قليلا، أو إعطاء قليلا ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ قطع الإعطاء، كمن يحفر ثمَّ أكدى، أي: وصل كدية.

(بلاغة) شبَّه قطع الإعطاء لداع بقطع الحفر لكدية وصلها الحافر، وعجز عنها، وأشار إلى ذلك بملائمه وهو «أَكْدَى». أو شبَّه الوصول إلى حدِّ قطع الإعطاء بوصول الحافر إلى الكدية كذلك، فقطع الإعطاء من جنس الإكداء، واشتقَّ من الإكداء ـ بمعنى قطع الإعطاء ـ «أَكْدَى» بمعنى قطع على التبعيَّة.

(سبب النزول) سمع الوليد بن المغيرة قراءة رسول الله ﷺ ووعظه، فطمع فيه رسول الله ﷺ ، وتبع رسول الله ﷺ في بعض الدين، وعوتب فقال: أخاف عذاب الله ﷻ ، فقال له مشرك: «اثبت على دينك أتحمَّل عنك كلَّ ما في الآخرة عليك، على أن تعطيني كذا من المال»، فأعطى بعضا ثمَّ أمسك شحًّا، فذكر الله سبحانه قصَّته وصفًا لها وإخبارا، لا نهيا عن قطع الإعطاء في المعصية، فإنَّ الشرع يأمر بقطعه.

وكذا على ما قيل نزلت في النضر بن الحارث أعطى خمس قلائص لمهاجر فقير ليرتدَّ فارتدَّ وقد ضمن عنه إثمه، وما قيل: نزلت في العاصي بن وائل السهمي الموافق لرسول الله ﷺ في بعض الأمور، وقد أعطى بعض ماله لرسول الله ﷺ في سبيل الله.

ويجوز أن يراد في هذه الرواية بالإعطاء الإذعان إلى بعض الدين، ويناسبه ما روي أنَّ الآية في أبي جهل إذ أقرَّ قال: والله ما يأمر محمَّد إلاَّ بمكارم الأخلاق، فسمَّى إقراره إعطاء، وعدم إسلامه إكداء، وعن ابن عبَّاس: **الآية فيمن أسلم وارتدَّ**. وقيل: نزلت الآية في الإمام عثمان، إذ جهَّز الجيش من ماله وصرف ماله في وجوه الأجر، ثمَّ أمسك لَمَّا خوِّف بالفقر.

[قلت:] وأمَّا ما قيل: إنَّ عبد الله بن سعيد بن أبي سرح قال له: يوشك لإسرافك في العطاء أن تتكفَّف، فقال: أطلب رضى الله تعالى وغفران ذنوبي، فقال: اعطني ناقتك برحلها أتحمَّل ذنوبك، فأعطاه، **فلا يصحُّ لبعد ذلك عن أضعف الصحابة فضلا عنه**، إلاَّ أنَّه بعد ستٍّ من خلافته لعب بالدين ومال الله ﷻ .

وقوله تعالى بعد: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلاِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ يناسب تلك الأقوال كُلَّهَا، إلاَّ قول من قال: نزلت في أبي جهل، وكذا يلائمها غير قول أبي جهل.

﴿أَعِندَهُ, عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ أله علم بالأمور الغائبة عنه، فهو بسبب علمه بها يعتقد أَنَّ تَحَمُّلَه الذنوب عن صاحبها يَقْبَلُهُ الله ﷻ ، ولا سيما مع أنَّه غير مقبول عنده، وعلى فرض قبوله لا مخبر له به، وقيل: يرى أنَّ القرآن باطل على فرض بطلانه من أدراه ببطلانه؟ وقيل: أأنزل عليه قرآن فيه أنَّ ما فعله حقٌّ؟.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ بل ألم ينبَّأ ؟ أي: بل ألم يخبر؟ **﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾** صُحُفه هي عَشْرٌ قبل التوراة، وقيل: المراد التوراة، والأَوْلى أنَّ المراد الكلُّ.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ صُحُفُه عَشْرٌ، وقدِّم موسى عليه السلام مع أنَّه متأخِّر زمانا لأنَّ صحفه أشهر من صحف إبراهيم عند المخاطبين **﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾** أصله التخفيف

وشدِّد للمبالغة، أي: هو واف ــ بترك ما أمر بتركه وفعل ما أمر بفعله ــ وفاء عظيما، يدلُّ له قراءة أبي أمامة وسعيد بن جبير وزيد بن عليٍّ وغيرهم بالتخفيف.

أو التشديد للتعدية، فالمفعول محذوف، أي: أكمل وأوفر ما لزمه وصيَّره وافيا بما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾ (سورة البقرة: ١٢٤)، وبسهام الإسلام العشر التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ...﴾ (سورة التوبة: ١١١)، والتي في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ...﴾ (سورة الأحزاب: ٣٥)، والستّ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ (سورة المؤمنون: ١)، والأربع في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ...﴾ (سورة المعارج: ٢٦)، وأربع ركعات في كلّ يوم أوَّل النهار.

ففي الترمذيِّ عن أبي الدرداء وأبي ذرٍّ عن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى: «**يا ابن آدم، اركع لي أربع ركعات من أوَّل النهار أكفك آخره**». وقوله كلَّ يوم: «سُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ...». وتبليغ هذه العشرة ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ وخمس سنن في الرأس وخمس في الجسد، والصبر على ذبح ابنه وعلى الإلقاء في النار.

أو وَفَّى بإبطال ما كان بينه وبين نوح عليهما السلام من أخذ الوليِّ بالآخر، وأحد الزوجين بالآخر، والسيِّد بالمملوك، والمملوك به، وبالعمِّ والخال والعكس.

والسنن التي في الرأس: المضمضة، والاستنشاق، وقصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، وفرق شعر الرأس، وكذا نتف الإبطين، وقلم الأظفار، والاستطابة، والختان، وحلق العانة، وما وقع له مع الكوكب والقمرين، والهجرة من كوثى إلى الشام، والإمامة، ورفع قواعد البيت، وتطهيره، وغير ذلك... كما روي عن الحسن في الآية: ما أمره الله تعالى بشيء إلاَّ أتى به.

وعن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ : سمَّاه الله «الذي وَفَّى» لقوله كلَّ صباح ومساء «سُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ...»، وإذا صحَّ هذا اقْتُصِر عليه.

ويقال: خصَّ موسى لأنَّه قرَّر إبطال الأخذ بالأب للابن، وبالعكس، ومثل ذلك، وفيه أنَّه يقرِّره أيضا من قبله، كإسحاق ويعقوب ويوسف، إلاَّ أن يقال: بالغ في تقريره أكثر منهم.

﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ألاَّ تذنب نفس قابلة للذنب وممكنة أن تذنب ذنب نفس أخرى، أي: لا تحمله عنها وتعاقب به دونها، كما زعم الذي تحمَّل عن الوليد ذنوبه.

وأمَّا نحو قوله ﷺ : «**من سنَّ سنَّة سيِّئة فعليه وزرها ووز من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1] فالمراد أنَّ عليه ذنب الإضلال الذي أضلَّ به غيره، لا ذنب الضالِّ به، فإنَّهما معاقبان معا.

(نحو) و«أَنْ» مخفَّفة مَصدَرِيَّة، والمصدر بدل من «مَا»، كأنَّه قيل: أم لم ينبَّأ بانتفاء وازرة وزر وازرة أخرى.

وجاء عن ابن عمر وابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ : «**إنَّ الْمَيِّت ليعذَّب ببكاء أهله عليه**»[2] فقيل: هو على ظاهره، وتردُّه الآية ﴿أَلاَّ تَزِرُ

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ تماما، وإنَّما ورد عن الرسول ﷺ بألفاظ أخرى لها نفس المعنى، كما في مسلم وابن ماجه وغيرهما. وهذا الحديث المذكور هو جزء من حديث أوَّله: «من سنَّ سنَّة حسنة...». رواه **ابن حبَّان** في كتاب الزكاة، باب صدقة التطوُّع: ج٥، ص١٣٠، رقم٣٢٩٧. من حديث المنذر بن جرير عن أبيه. **والطبراني** في الأوسط، ج٩، ص٤٣٨، رقم٨٩٤١. من حديث جرير بن عبد الله البجلي، وأوَّله قوله ﷺ : «أيُّها الناس، تصدَّقوا وتقرَّبوا إلى الله...».

٢-رواه **البخاري** في كتاب الجنائز (٣٢) باب قول النبيء ﷺ : يعذَّب الْمَيِّت ببعض بكاء أهله =

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وإنَّما ذلك إذا سنَّ الْمَيِّت لأهله البكاء على الجزع، أو أمرهم بالبكاء عليه بطريق بكاء الجزع، وهكذا أراد ابن عمر وابن عبَّاس برواية الحديث.

وقيل: الحديث في يهوديٍّ مات أنَّه يعذَّب في قبره مع بكاء أهله عليه، وفي لفظ عن عائشة أنَّه ﷺ قال: «**إنَّ أهل الْمَيِّت ليبكون عليه، وإنَّه يعذَّب بجرمه**»[١] وقالت: ابن عمر غلط، وإنَّه لا يكذب هو ولا ابن عبَّاس.

وأمَّا قوله ﷺ: «**افتدوا من التباعة قبل يوم القيامة فإنَّه لا درهم يوم القيامة ولا فلس، إنَّمَا هي حسنات الظالم تعطى المظلوم، فإن لم يستوف فذنوب المظلوم وتوضع عليه**»[٢]، **فلم يَصِحَّ عنه** ﷺ، وإن صحَّ فعلى بمعنى عن، أي: توضع ذنوب المظلوم عن المظلوم، أي: يغفرها الله.

وذلك لأنَّا عرضنا الحديث على الآية فنفاها، فبان أنَّه مؤوَّل أو أنَّه لم يصحَّ عنه ﷺ وعلى آله.

(أصول الدين) وجوَّز الشيخ يوسف بن إبراهيم الورجلانيُّ[٣] حمل حديث وضع ذنوب المظلوم على الظالم على ظاهره، فيأخذ منه المقلِّد أنَّ المسألة ليست من الأصول، ثمَّ إن فنيت حسنات الظالم، أو لم تكن له حسنة، أو كانت

=

عليه، رقم١٢٨٦. **ومسلم** في كتاب الجنائز (٩) باب الميِّت يعذَّب ببكاء أهله، رقم٢٢ (٩٢٨) من حديث ابن عمر.

١-رواه **أحمد** في مسنده، ج٧، ص٨٦، رقم٢٣٧٨١. من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢-أخرج **البخاري** ما يوافقه معنى في كتاب المظالم (١١) باب من كانت له مظلمة عند الرجل... رقم٢٣٧١ من حديث أبي هريرة بلفظ: «من كانت له مظلمة».

٣-تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج١، ص٢٠٤.

له الحسنات وقد سبق إليها مظلوم آخر قبله، أعطاه الله ﷻ من الجنَّة، ودخل الظالم النار.

كما أنَّه إذا أخذ الورثة الدية أو بيت المال أو الفقراء أو عفا الورثة عنها، فللمقتول الثواب من الله ﷻ ، وكذا إن قتل القاتل.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلاِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ إلاَّ ما سعاه، أو إلاَّ سعيه، ويقدَّر مضاف، أي: إلاَّ ثواب ما سعاه، أو ثواب سعيه، أو ما سعاه هو ما له في الجنَّة سمَّاه باسم ملزومه، أو اسم سببه، وهو الفعل المعبَّر عنه بالسعي.

والحصر باعتبار غير هذه الأمَّة، وأمَّا هذه الأمَّة فلها ما سعت وما سُعِيَ لها، كما جاء به الحديث، وهو على عمومه فرضا ونفلا.

[قلت:] تؤدِّي الفرض عَمَّن لزمه، والنفل كقضاء دين عَمَّن هو عليه ولو حيًّا، وتنوي النفل لمن شئت ولو حيًّا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (سورة الطور: ٢١) ، لأنَّها ألحقت بهم لأعمالهم، وعن عائشة رضي الله عنها قال رجل[1] لرسول الله ﷺ : إنَّ أمِّي افتلتت نفسها، وأظنُّها لو تكلَّمت تصدَّقت، فهل لها أجر إن تصدَّقت عليها ؟ قال: نعم[2].

وعن ابن عبَّاس قال رجل: يا رسول الله نذرت أمِّي الحجَّ فماتت، أفأحجُّ عنها ؟ قال: «**نعم، كما تقضي عليها الدين، وحقُّ الله أحقُّ بالقضاء**»[3].

١- اسمه: سعد بن عبادة، واسم أمِّه: عمرة، كما ضبطه ابن حجر في الفتح، ج٣، ص٣٢٣.

٢-رواه **الربيع** في كِتَاب الأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ، [٤٨] بَابُ الْوَصِيَّةِ، رقم ٦٧٨. ورواه **البخاري** في كتاب الجنائز (٩٥) باب موت الفجأة، رقم ١٣٨٨. من حديث عائشة.

٣-وراه **البيهقي** في كتاب الصيام، باب من قال يصوم عنه وليُّه، رقم٣٠١. من حديث ابن =

وقال سعد بن عبادة هل لأمِّي أجر إذا تصدَّقت عليها ؟ فقال ﷺ : نعم. وعنه ﷺ : «**من مات وعليه صوم صام عنه وليُّه**»[١]، وكذا غيره من العبادات، ودعوى نسخ هذا الحديث باطلة لا دليل عليها، وقال ﷺ لولد العاصي بن وائل: «**لو كان العاصي مقرًّا بالتوحيد فصمت أو تصدَّقت عنه نفعه**»[٢].

ولهذه الأحاديث صحَّ أن يقال: الآية جارية على هذه الأمَّة، من نوى لأحد خيرا فهو قائم مقامه، فالمنويُّ له ساعٍ لنفسه مجازًا، جمعا بين الحقيقة والمجاز، أو من عموم المجاز، وهو تحصيل الخير.

وأيضا سَعْيُ الإنسان لنفسه سببٌ لاعتبار سعي غيره له، فسَعْيُ غَيْرِهِ له كسعيه إذا كان سبب قبوله، على الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو عموم المجاز.

وسأل عبد الله بن طاهر[٣] وهو والي خراسان الحسين بن الفضل[٤] عن هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (سورة البقرة: ٢٦١) ، فقال: ليس للإنسان بالعدل إلاَّ ما سعى، وله بالفضل المضاعفة بما شاء الله تعالى، فقبَّل رأسه.

=

عبَّاس، مع اختلاف في اللفظ.

١-رواه **أبو داود** في كتاب الصوم، باب فيمن مات وعليه صيام، رقم٢٤٠٠. وأورده **التبريزي** في كتاب الصوم (٥) باب القضاء، رقم٢٠٣٣. من حديث عائشة.

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وانَّما أورد الألوسي ما يقاربه معنى، وقال: أخرجه أحمَد. الألوسي: روح المعاني، مج٩، ص٦٦.

٣-عبد الله بن طاهر: كان المأمون كثير الاعتماد عليه، تَوَلَّى الشام ومصر وخرسان، تُوُفِّيَ بمرو سنة ٢٣٠هـ. الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٩٣.

٤-تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج١٠، ص٢١٥.

وقيل: «الإنسان» في الآية الكافر، وأمَّا المؤمن فله ما سُعِيَ له. وعن ابن عبَّاس: الآية نُسخت بقوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم...﴾ (سورة الطور: ٢١) ، واعترض بأنَّه لا نسخ في الإخبار.

بل الآية لمن قبلنا، وأمَّا نحن فلنا ما عملنا وما عُمِل لنا. وقيل: اللام بمعنى على، ووجهه أنَّ الآية فيمن قال: افعل كذا، أو أَحمل ذنبك، فقال الله عَجَلّ: لك ذنبك خاصَّة لا ذنب غيرك. ومِنْ ذنبِ الإنسانِ إضلالُهُ غيرَه، وهو غير متبادر، وأيضا الخطاب لمن أعطى قليلا وأكدى.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّما يتصوَّر للإنسان أن يقول: لي كذا، من سعيه وما لم يكن من سعيه، بل بزيادة فضل الله تعالى، وهبة غيره له ثواب عمل عمله له، فليس مِمَّا يقول: هو لي، يقول هبة وتفضُّل.

[قلت:] والحقُّ أنَّ ما يوهب من النفل من صلاة أو مال أو قراءة وغير ذلك لميِّت أو حيٍّ يصحُّ له كما صَحَّ بالمكاشفة والرؤيا والإخبار، ولو نواه له أوَّل العمل، والأولى أن يؤخِّر الهبة إلى أن يتمَّ، ولا يضرُّه الخطور بباله.

(فقه) وعن الشافعي ومالك أنَّ العمل البدنيَّ المحض كالصلاة والصوم والقراءة لا يَصلُ إليه، ويصل نحو الصدقة والحجِّ، وقال جماعة من أصحاب الشافعيِّ: تصل، واشترط بعض نية الهبة من أوَّل، وعكس بعض، فقال: لا يهب العمل لمن يشاء إلاَّ بعد تمامه ولو قصده في قلبه من أوَّل، وليس ذلك منافيًا لقوله: لوجه الله تعالى صالح عملي، لأنَّ المراد دعاء الله أن يقبله عنه ويعطيه فلانًا. وتصل العبادات كلُّها الْمَيِّت، وعن الشافعيِّ: لا يصل الْمَيِّت ثوابُ القراءة، وكذا سائر التطوُّعات. رفعت امرأة صبيًّا وقالت: يا رسول الله ألهذا حجٌّ؟ قال: «**نعم ولك أجر**»[1] في مسلم.

١- رواه **مسلم** في كِتاب الحجِّ، باب صِحَّة حجِّ الصبيِّ وأجر من حجَّ به، رقم ١٣٣٦، وأورده =

[قلت:] والعبادات من الطفل تصحُّ كالصلاة والصوم والحجِّ والقراءة، وله ثوابها لا لأبيه أو غيره، إلاَّ أجر التعليم له فيها، والأمرِ له بها، ولا تجزي عن فرض إذا لزمه بعد البلوغ، ولو أعطى زكاة ماله لأجزت إن عقل ونوى، وقال أبو حنيفة: لا ثواب له، ويَرُدُّه الحديث.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ, سَوْفَ يُرَىٰ﴾ يعرض عليه يوم القيامة ويعلمه بعد أن نسيه، أو يراه بعينيه مكتوبًا، ويراه أهل المحشر أيضًا، تشريفًا للمحسن، وتوبيخًا للمسيء، يعلمه أهل المحشر، أو يرونه بأعينهم مقبوضًا باليمنى مضيئًا، أو باليسرى مظلمًا.

﴿ثُمَّ يُجْزَيٰهُ﴾ تعدَّى إلى اثنين بحذف الجارِّ، أي: يجزيه الله به، أو ضمِّن معنى: يعطاه، فلا تقدَّر الباء ﴿الْجَزَآءَ الاَوْفَىٰ﴾ مفعول مطلق ونعته نوعيٌّ، أو مفعول ثالث، ولو لم يكن من باب: أَعْلَمَ وَأَرَى، فإنَّ الثاني على حذف الباء، على أنَّ «الْجَزَاءَ الاَوْفَى» ما يثاب به أو يعاقب.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره، ولا مع غيره ﴿الْمُنتَهَىٰ﴾ الانتهاء يوم القيامة بالحساب، كأنَّه قيل: إلى حساب ربِّك، أو إلى جزائه بالجنَّة أو النار.

ألتجئ إليك بما هو الاسم الأعظم عندك اللهمَّ في أهوال الدنيا والآخرة.

قالوا غدًا نأتي ديار الحمى ويترل الركب بمغناهم
فقلت: لي ذنب فما حيلتي؟ بأي وجه أتلقَّاهم؟
قالوا: أليس العفو من شأنهم لاسيما عمَّن ترجَّاهم

=

ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب ذكر حجِّ الصبيان قبل البلوغ... رقم٣٤٩. من حديث ابن عبَّاس.

(أصول الدين) وقيل: المعنى لا تزال الأفكار تتكيَّف الأشياء، وإذا أرادت تكييفه تعالى عجزت، قال ﷺ : «**إذا ذكر الربُّ فانتهوا**». وقال ﷺ : «**تفكَّروا في الخلق ولا تتفكَّروا في الخالق فتهلكوا، فإنَّكم لن تقدروا قدره**»[1]، أي: لا تعرفون قدره بالكُنْه، وجاء في الأخبار: «تعرف الله بجهلك إيَّاهُ، وعَرَفَ اللهَ مَن جَهِلَه»، أي: يعرف أنَّه موجود ولا يعرف تكييفه، وأيضًا إذا تفكَّرت في الخلق علمت أنَّ لهم موجِدًا هو الله ﷻ ، فتنتهي ولا تزيد.

وقيل: [معنى الآية] منه المنة وإليه انتهاء الآمال، وما تقدَّم **أوَّلاً هو الصحيح**، ففي الآية تسلية له ﷺ بجزاء قومه يوم القيامة وتهديدهم، وقيل: الخطاب عامٌّ على سبيل البدليَّة.

وقد مدح الله من يتفكَّر في خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ...﴾ إلى قوله: ﴿...رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ (سورة آل عمران: ١٩٠ ــ ١٩١) ، ذلك كلُّه صحيح، لَكِنَّ تفسير الآية به لا يظهر، لأنَّ المقام ليس له بل للجزاء.

وفي الآية الإخبار عن المصدر بظرف، لو تأخَّر لتبادر تعلُّقه بذلك المصدر، وهو دليل على أنَّه خبر "لاَ" في مثل قوله تعالى: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم﴾ (سورة يوسف: ٩٢) ، و﴿لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ (سورة التوبة: ١١٨) ، فاسم لا مفرد.

﴿**وَأَنَّهُ هُوَ**﴾ فقط ﴿**أَضْحَكَ**﴾ أفرح من فرح ﴿**وَأَبْكَى**﴾ أحزن من

١- رواه **الربيع** في مسنده (٧) باب النهي عن الفكرة في الله ﷻ ، رقم ٨٢٧ موقوفا. وأورده **الهندي** في الكنز: ج٣، ص١٠٦، رقم٥٧٠٥ و٥٧٠٦. وقال: رواه أبو الشيخ عن ابن عبَّاس وأبي ذرٍّ.

حزن، أو أضحك الناس وأبكاهم، فعبَّر بالمسبَّب عن السبب، وكذا إذا قلنا: «أَضْحَكَ» أعطى ما يضحك، و«أَبْكَى» أعطى ما يحزن، وذلك كلُّه خلق الله تعالى، وذلك على العموم.

لا ما قيل: المراد خلق ما يسرٌّ وما يحزن من الأعمال، والمفعول محذوف كما رأيت، أو لا مفعول له، أي: خلق الضحك والبكاء، وقيل: «أَضْحَكَ» أهل الجنَّة في الجنَّة، و«أَبْكَى» أهل النار في النار، وبه قال مجاهد.

وقيل: أضحك المؤمنين في العقبى بالمواهب، وأبكاهم في الدنيا بالنوائب. وقيل: أضحك الأرض بالإنبات، وأبكى السماء بالإمطار، ولا دليل على أنَّه المراد في الآية، ولا يتبادر.

وقدَّم «أَضْحَكَ» لكثرة ما يضحك، وللفاصلة، والفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء. وفي الترمذيِّ عن جابر بن سمرة: جالست النبيء ﷺ أكثر من مائة مرَّة، وكان أصحابُه يتذاكرون الشعر وأمر الجَاهليَّة، وربَّما تبسَّم معهم إذا ضحكوا، قال ابن عمر: كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ﴾ فقط ﴿أَمَاتَ﴾ من رأيتم أو علمتم أو أُخبِرتم أنَّه مَيـــتٌ، أو لم تخبروا به ﴿وَأَحْيَا﴾ من رأيتم أنَّه حيي، أو علمتم أنَّه حيٌّ، أو أخبرتم أو لم تخبروا، أَوْ لا مفعولَ، أي: خلق الحياة أو الموت. قال بعض على طباق الآيتين:

ولدتك أمُّك يا ابن آدم باكيـــــا والناس حولك يضحكون سرورًا
فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

وقيل: أمات في الدنيا وأحيَى للبعث، أو أمات الآباء وأحيَى الأبناء، وقيل:

أمات الكافر بالنكرة في الله تعالى وفي دينه، وأحيى المؤمن بمعرفة الله ودينه.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ من الثقلين وسائر الحيوان الذي يتوالد بالنطفة ﴿مِن نُّطْفَةٍ اذَا تُمْنَىٰ﴾ دفعت في الرحم، يقال من ذلك: منى وأمنى، والآية تحتملهما. أو معنى «تُمْنَى» تقدَّر ذكرًا أو أنثى، يقال: منى لك الماني، أي: قدَّر لك المقدِّر، ومنه قيل: «المنُّ» لمقدار يوزن به ويقدَّر به الموزون.

و لم يقل: إنَّه هو خلق الزوجين، لأنَّه لا يتوهَّم أحد أنَّ غيره خلق الزوجين، و لم يذكر الخنثى المشكل لقلَّته، أو لأنَّه عند الله ذكرٌ أو أنثى، وذلك من عجيب أمر الله ﷻ ، يخلق من النطفة الذكور والإناث والخناثي، والأعضاء المختلفة والألوان والطبائع المتباينة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ الإحياء والبعث والحساب، و«الأُخْرَى» الآخرة، عبَّر به للفاصلة، وليقابل النشأة الأولى، المعبَّر عنها بقوله: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾، وذكر لفظ «عَلَيْهِ» لأنَّ الكُفَّار ينكرون البعث، فأكَّد بأنَّه لا بدَّ منه، كأنَّه واجب عليه، ولا واجب عليه تعالى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ﴾ فقط ﴿أَغْنَىٰ﴾ من قدَّر له الغنى، أو خلق الغنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أقنى من قدَّر له القنية، أو خلقها، وهي المال الشريف، وقيل: الباقي، كالبناء والشجر والحيوان، وذكرُه تخصيصٌ بعد تعميم، ويقال: أقناه: موَّله بأشرف مالٍ أو غيره، فهو عامٌّ ذكر تأكيدًا مع الفاصلة، والأوَّل أولى للتأسيس.

ويقال: «أقناه» بمعنى أرضاه، ويجوز أن يكون بمعنى أفقر، فالهمزة للسلب، كأقرد البعير: أزال قراده، وأشكى فلانًا: أزال شكواه، أي: أزال القنية، وفي هذا الوجه مطابقة لقوله: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ بذكر الخير والشرِّ.

وقيل: «أَغْنَى» الناس بالمال، و«أَقْنَى» الناس: أعطاهم القنية، وهي أصول الأموال، وما يدَّخر بعد الكفاية. وقيل: «أَغْنَى» بالذهب وَالفضَّة والأموال، و«أَقْنَى» بالإبل والبقر والغنم. وقيل: «أَقْنَى» أعطى الخدم. وقيل: «أَغْنَى» رفع عنه الحاجة، و«أَقْنَى» زاد فوق الغنى.

(أصول الدين) ولا يجوز ما قيل: أغنى نفسه وأفقر غيره، فإنَّه لفظ سوء، لأنَّ «أغنى» فعلٌ، والفعل حادث، وغناه تعالى قديم لا أوَّل له.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ﴾ فقط ﴿رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ النجم الذي يقال له بالبربرية «إِسَرْغِ» (بكسر ففتح فإسكان فكسر)، ويقال لها: الشعرى العَبُور (بفتح العين)، لأنَّها عبرت السماء طولاً، وسائر النجوم عبرتها عرضًا، ولأنَّها عبرت المجرَّة فلقيت سُهيلاً في ليلة من الدنيا، والمجرَّة هي طريق التبَّانين تشبه طريق حاملي التبن الساقط بعضه منهم، وهي نجوم صغار مجتمعة متقوِّسة إذا استدبرتها استدبرت معك.

ويقال أيضًا: تسمَّى الشعرى العبور، لأنَّها إذا رأت سهيلاً طالعًا كأنَّها تعبر إليه، ولَمَّا ذهبت إلى سهيل بكت الشعرى الأخرى على أثرها حَتَّى غمصت، فسمِّيت الشعرى الغموص والغميصاء (بصيغة التصغير وبالمدِّ)، لأنَّها بكت حتَّى اجتمع في موق عينها وسخ من دموع. ويقال: بكت من فراق سهيل. ويقال: إنَّهما أختا سهيل، فبكت هذه لفراقه. وقيل: كانت الشعرى العبور زوجًا لسهيل، فانحدر سهيل وصار يمانيًّا فاتَّبعته، وأقامت الغميصاء، وسمِّيت لأنَّها دون الأولى ضياء، وذلك من تخيُّلات العرب الجَاهليَّة[1].

١- تذكَّر أنَّ الشيخ فيما مضى قال: «أذكر أشياء لا أُومن بها ترويجًا على القارئ»، ج٦، ص٤٠٦ ؛ وج١٠، ص٣٧٧.

(فلك) وهي كوكب يضيء خلف الجوزاء، ويُسَمَّى كلب الجبار، ويقال: هما اثنتان، يمانيَّة وشاميَّة، ويقال لأحداهما: العبور والأخرى الغميصاء.

والمراد في الآية الشعرى العبور لضوئها وشهرتها، ولأنَّها التي عبدت العرب من حِمْير وخزاعة، فردَّ الله تعالى عليهم بأنَّها مربوبة لله عَجَّلَ لا ربٌّ. وقيل: أوَّل من عبدها أبو كبشة رجل من خزاعة، أو سيِّد خزاعة ختر بن غالب.

(سيرة) والمشركون يقولون للنبيء ﷺ: ابن أبي كبشة، شبَّهوه به لمخالفة قومه في عبادة الأصنام إلى عبادة الشعرى، كما خالفهم رسول الله ﷺ إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، وكانوا يزعمون أنَّ كلَّ صفة في الإنسان تسري إليه من أحد أصوله، فيقال: نزع إليه عرق كذا، و«عرق الخال نزاع». وقيل: أبو كبشة كنية وهب بن عبد مناف جدِّه ﷺ من قبل أمِّه، وقيل: شبَّهوه به صورة. وقيل: كنية زوج حليمة السعديَّة مرضعته ﷺ ، وقيل: كنية عمٍّ ولدها.

(فلك) وتُسَمَّى العبور كلب الجبَّار، لأنَّها تتبع الجوزاء المسمَّاة بالجبَّار، كما يتبع الكلب الصائد به، قيل: وكما يتبع الصيد. وأمَّا الغميصاء ففي ذراع الأسد المبسوطة.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ أي: القدماء قوم هود، والمتقدِّم يسمَّى أوَّلا ولو لم يكن له ثان، أو المراد الأولى في الهلاك بعد قوم نوح، أو لأنَّ في القبائل عادًا ثانية هي ثمود، أو الثانية بنو لقيم بن هزال كانوا بِمَكَّةَ مع العمالقة، أو الجبَّارون، وقيل: الثانية أولاد الأولى عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح، والأخرى أولاد عاد المذكور، وقيل: الأولى المتقدِّمون بالشرف.

﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أحدا من كُفَّار عاد وثمود **﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾** الكافرين **﴿مِن قَبْلُ﴾** حال من «قَوْم»، أي: حال كونهم قبل عاد وثمود، وذكر «قَبْلُ»

لأنَّ نوحًا آدمُ الثاني، كأنَّه الأب الأوَّل لهم كآدم، وقوم نوح كقابيل ومن معه، وقومه أوَّل الطَّاغين المهلَكين.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: قوم نوح ﴿كَانُوا هُمْ﴾ تأكيد، جاء لفرط شرِّهم، وقيل: الضمائر الثلاثة لعاد وثمود وقوم نوح ﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: قوم نوح أظلم من عاد وثمود وأطغى، وقيل: عاد وثمود. وقوم نوح أظلم من قريش وأطغى، فيكون تسلية له ﷺ .

(قصص) وكان قوم نوح يضربونه حتَّى لا يتحرَّك، دعاهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاما، ويحمل أحدهم ولده ويعطيه العصا ويأمره بضربه، ويتمشَّى الرجل إليه بولده الصغير يدرج به، ويقول له: لا يغرَّنَّك هذا واحذره، كما حذَّرني عنه أبي وأنا مثلك، فيصدِّقه، فيموت الكبير على ذلك وينشأ الصغير عليه.

﴿وَالْمُوتَفِكَةَ﴾ مفعول مقدَّم لقوله: ﴿أَهْوَىٰ﴾ قدِّم للفاصلة، والجملة معطوفة على «أَهْلَكَ»، أو «الْمُوتَفِكَةَ» معطوف على «عَادًا» و«قَوْمَ»، والجملة حال من «الْمُوتَفِكَةَ». والموتفكة مطاوع "مأفوك"، أي: التي قلبها فانقلبت، ومنه الإفك، لأنَّه قلب الحقِّ. و«الموتفكة»: قرى قوم لوط انقلبت بأهلها، رفعها جبريل على جناحه إلى السماء فأهواها، أسقطها مقلوبة.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ غشيها من العذاب ما غشاها، وهو عذاب مهول عظيم. و«مَا» فاعل والشدُّ للمبالغة، أو صيَّر الله عذابا عظيما غاشيا لها، فالفاعل ضمير عائد إلى الله تعالى، والشدُّ للتعدية، و«ما» مفعول أوَّل مؤخَّر.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢ ﴾

الاتّعاظ بالقرآن، والتحذير من أهوال القيامة

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ استفهام إنكار ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي: تمتري، أي: تشكُّ، فالمفاعلة لموافقة المجرَّد، أو للتأكيد. والآلاء: النعم، وهي ما عُدَّ في الآيات قبلُ وغيرُه، وما في ذلك من النقم هو نِعَمٌ للمؤمنين والأنبياءِ ومن يَعتبِر.

وقيل: غلَّب النعم على النقم، ويبحث بأنَّ المقام ليس لأنْ يقال: فبأيِّ النعم النقم تتمارى؟ ويجاب بأنَّه لا مانع له، وقيل: التفاعل باعتبار تعدُّد متعلَّقه، وهو الآلاء المتمارى فيها، ويردُّه أنَّ هذا ليس من معنى التفاعل، فإنَّ معناه أن تفعل شيئا ويقابلك بمثله، إلاَّ أن يقال: شبَّه تعدُّد المتعلّق بتعدُّد الفاعل والمفعول.

والخطاب للنبيء ﷺ بطريق التشديد في المبالغة في التحذير، ويتضمَّن التعريض بغيره. وقيل: الخطاب لغيره بالعموم البدليِّ، وقيل: للوليد بن المغيرة.

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن أو الإخبار عن الأمم، أو الرسول ﷺ ﴿نَذِيرٌ﴾ منذر يصحُّ الإخبار به عن كلِّ واحد مِمَّا ذكر على البدليَّة، ويصحُّ على المجموع، وإن جعلنا «نَذيرٌ» مصدرا كانت الإشارة إلى الأخبار، أي: هذه الأخبار إنذار، أو إلى ما ذكر، أي: ذو إنذار، أو نفس الإنذار مبالغة، مثل أن يقال: الرسول إنذار، أي: ذو إنذار، أو نفس الإنذار.

(بلاغة) ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ من جنس النذر الأولى، وهو جمع نذير، وصفًا، أو مصدرًا، وإنَّما جمع المصدر مع صلاحيته للقليل والكثير للتنبيه على

الأنواع، وأفرد النعت مؤنَّثا لتأويل النذر بالجماعة أو الفرقة، واختار الأولى على الأوائل أو السالفة أو نحو ذلك للفاصلة. قيل: ذكر الزواجر قبلُ مفصَّلة وجمعها بقوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ إذا رددنا الإشارة إلى المجموع على طريق الفذلكة، كأنَّه قيل: فهذه نذر.

﴿أَزِفَتِ﴾ قربت ﴿الآزِفَةُ﴾ الساعة الآزفة، أي: القريبة، وهي يوم القيامة، وصف القريب بالقرب تأكيدا. و«ال» للعهد، لأنَّ قرب يوم القيامة مذكور في القرآن قبل نزول هذه السورة. وقيل: «الآزفة» علم للساعة، فلا يقدَّر منعوت قبله. ويجوز عند البعض أن تكون للجنس، أي: الأمور الآزفة، كبدر، وفتح مَكَّة، والقيامة، ونفخة الفزع، والدجَّال، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها وأهوالها، وكسني القحط في مَكَّة، وأجل الموت.

﴿**لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ**﴾ قبله أو غيره ﴿**كَاشِفَةٌ**﴾ أي: نفس كاشفة، أي: مزيلة إذا وقعت، بل إذا جاءت بقيت. وزعم بعض أنَّ المراد لا يزيل خوفها من القلوب أحد حتَّى تحضر، وبعض أنَّ المراد لو وقعت قبل وقتها لم يَرُدَّهَا إلى وقتها أحد إلاَّ الله تعالى، **ولا دليل على إرادة مضمون القولين.**

وقيل: ليس لها مبيِّن عارف لوقتها، بل يعلم وقتها وحده، كقوله تعالى: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٧) ، في أحد أوجه.

والتاء لتأنيث الموصوف، وزعم بعض أنَّ التقدير: حال كاشفة، والتاء كذلك للتأنيث. وقيل: التاء للمبالغة، أي: إنسان أو أحد يبالغ في كشفها كرجل راوية، أي: كثير الرواية، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ﴾ (سورة فصلت: ٤٦) ، في أوجه بحسب الإمكان كالنسب، أي: ذي كشف، وكعود المبالغة إلى نفي الكشف، وإلاَّ فظاهر هذا القول إثبات أصل الكشف ولا يثبت، اللهمَّ إلاَّ أن يقال: إنَّ كشفها يكون بهذا الإخبار عن أنَّها تقع.

أو المراد بـ«الآزفة» بعضها المخصوص بعلامة، كالدجَّال وعيسى وطلوع الشمس علامات للساعة، وكما يكون علامة لقرب هذه العلامات، فذلك كشف غير مبالغ، وكذا إخباره ﷺ بأنَّها ستكون، وأجاز الزجَّاج أن يكون مصدرا بمعنى الكشف، كالعافية وخائنة الأعين في بعض الأوجه، ومعناه كشف، وهو خلاف الأصل بلا داع إليه.

﴿افَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ استفهام إنكار للياقة، أي: أَتَقْسُو قلوبُكم فتعجبون من هذا الحديث؟ وهو القرآن، وذلك متعلّق بقوله: **﴿تَعْجَبُونَ﴾** إنكارا **﴿وَتَضْحَكُونَ﴾** استهزاء، مع أنَّه أبعد عن الاستهزاء كما بين السماء والأرض وأكثر. **﴿وَلاَ تَبْكُونَ﴾** خوفا ممَّا فيه من الوعيد الدنيويِّ والأخرويِّ، لعلَّهما يقعان بكم لكفركم وتفريطكم، كما أهلك الأمم قبلكم.

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ لاهون أو أَشِرُونَ بَطِرُونَ، أو رافعون رؤوسكم تكبُّرا، أو منشدون، إذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالغناء لِئَلاَّ يسمعوه هم أو غيرهم. وعن مجاهد: غضاب معرضون. والجملة حال من واو «تَبْكُونَ». والنفي منسحب على مضمونها قيد للنفي، والإنكار منسحب أيضا على نفي البكاء ووجود السمود.

وقال المبرِّد: السمود الجمود والخشوع، أي: كيف لا يكون منكم بكاء مع خشوع؟ قال أبو هريرة: لَمَّا نزلت الآية بكى أهل الصفَّة حتَّى جرت دموعهم على خدودهم، فبكى ﷺ معهم، وبكينا ببكائه، فقال ﷺ : **«لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجَــنَّة من أصرَّ على معصية، ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»**[1].

١-أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، ج٤، ص٢٢٧ رقم٧، وقال: رواه البيهقيُّ من حديث أبي هريرة.

ويروى أنَّه لَمَّا نزل: ﴿أَفَمِن هَذَا الْحَدِيث...﴾ لم يضحك ﷺ إلاَّ أن يتبسم، أي: لم يسمع له صوت ضحك، وقبل ذلك سمع له مبدأ الضحك بصوت قليل، لأنَّ الضحك الصريح لم يصدر عنه قطٌّ. ويروى: «لَمَّا نزلت لم يضحك و لم يتبسم حتَّى لحق بالله تعالى»، فلعلَّ المراد التبسُّم العظيم، ليوافق رواية أنَّه يتبسَّم بعد نزولها.

[قلت:] ولا يضحك الإنسان عند قرآءة القرآن لأمر مَّا سدًّا للباب.

﴿فَاسْجُدُواْ للهِ وَاعْبُدُواْ﴾ تفريع بتعظيم القرآن على النهي عن إهانته، أي: أهانه غيركم فعظِّموه أنتم أيُّها المؤمنون، وكأنَّه قيل: إذا لم يستحقَّ الإهانة فاسجدوا أنتم لله تعالى تعظيمًا للقرآن، واعبدوه لإنزاله إِيَّاهُ عليكم بالسجود مطلقا.

(فقه) وقيل: المراد سجود الصلاة الواجبة، وقيل: سجود التلاوة، وحكي عن الجمهور سجود التلاوة في هذه الآية. وروي أنَّه ﷺ سجد وأطال السجود، وكذا سجدها عمر رضي الله عنه في الركعة الثانية من صلاة الفجر إذ قرأ السورة فيها، وقرأها زيد بن ثابت عند النبيء ﷺ فلم يسجد فيها، فنقول: السجود فيها جائز لا واجب.

(سيرة) قال البخاريُّ عن ابن مسعود: إنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ...﴾ فسجدوا وسجد من كان معه، غير أنَّ شيخًا من قريش أخذ كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله بن مسعود: فلقد رأيته بعدُ قتل كافرًا، وكذا روى مسلم وزاد البخاريُّ أنَّ الشيخ أميَّة بن خلف لعنه الله.

(فقه) وفي البخاري عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَالنَّجْمِ...﴾ فسجدوا وسجد معه المسلمون والمشركون والجنِّ والإنس[1]، وفي البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت: «قرأت على رسول الله ﷺ ولم يسجد»[2]، وهذا دليل على عدم وجوب سجود التلاوة، وهو قول بعض أصحابنا والشافعيِّ وأحمد، وكذا قال عمر: إنَّ الله تعالى لم يكتبها علينا إلاَّ أن نشاء، وقال سفيان وأصحاب الرأي بوجوبها.

والله الموفِّق
ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

١-رواه **البخاري** في كتاب سجود القرآن (٦) باب من قرأ السجدة ولم يسجد، رقم ١٠٢٢، و١٠٢٣. و**مسلم** في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٢٠) باب سجود التلاوة، رقم٥٧٧، من حديث زيد بن ثابت.

٢-رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٣٤٣) باب {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} رقم٤٥٨١. من حديث ابن عبَّاس.

تفسير سورة القمر وآياتها ٥٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧﴾

انشقاق القمر ولداد المشركين منه

ليس في هذه السورة ولا في سورة الرحمن ولا في سورة الواقعة لفظ الجلالة «الله» إلاَّ في البسملة مع طولهنَّ.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي جدًّا، كما يَدُلُّ له صيغة افتعل، إذ قال: ﴿اقْتَرَبَت﴾ ولَم يقل: قربت، والباقي بالنسبة للماضي قليل، وقيل: المراد بقربها قبول الأذهان لها، وهي على الجزم، كصيغة الترجِّي في مقام الجزم.

(سيرة) ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ليلة كماله ليلة أربعة عشر نصفين، نصف على الجبل ونصف دونه، ويروى: نصف على جبل أبي قبيس ونصف على قينقاع[1]، وقال: «اشهدوا اشهدوا». ويروى: نصف على الصفا ونصف على المروة، ويروى أنّه شقَّ نصفين حتَّى رأوا حراء بينهما. وروي أنّه سأله الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام، والعاصي بن وائل، والعاصي بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطّلب، وربيعة بن الأسود، والنضر بن

١- كذا في النسخ، ولعلَّ الصواب: «ونصف على الحجون».

الحارث: إن كنت صادقًا فشقّ القمر نصفين نصف على قينقاع ونصف على أبي قبيس، ووعده الله تعالى أن يعطيه ما سألوا، فقال: «أتومنون إن فعلت؟» قالوا: نعم، فكان ما طلبوه كلّه، ورأوه ومسحوا أعينهم وجدَّدوا النظر فرأوه كذلك، ثمّ مسحوا وجدَّدوا النظر فرأوه كذلك.

وهذه الآية عظيمة اقترحوها فوقعت ولم يؤمنوا، ومع ذلك لم يعجّل لهم العقاب كما يعجّل لمن قبلهم إذا وقع ما اقترحوا، فهذه خصوصيّة، أو يعجّل لمن قبلهم إذا كان مقترحهم ممَّا يُسلّمونه كالمائدة، وناقة صالح، وهذا أنسب بقوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الأنعام: ٧) .

(سيرة) وروي أنّه لَمَّا انشقَّ قال المشركون: «هذا سحر ابن أبي كبشة»، فقال رجل: انظروا السُّفّار فلن يقدر أن يَسحر أهلَ الدنيا كلّهم، فجاء السفّار فقالوا: رأيناه انشقّ، ويروى أنّه لَمَّا انشقّ قال ﷺ : «اشهدوا اشهدوا». ويروى أنّه قال: «يا أبا سلمة بن عبد الأسود، والأرقم بن الأرقم، اشهدوا اشهدوا». وذلك قبل الهجرة بنحو خمس سنين. وعن ابن مسعود رضي الله عنه : «كنَّا في منًى مع رسول الله ﷺ فانشقّ القمر». ومراد من قال: إنَّه انشقّ وهو في مكة أنّ الانشقاق قبل الهجرة.

والحديث متواتر[1] فلا يقدح في رواية ابن عبَّاس له وهو مولود بعد الانشقاق، ولا في رواية أنس وهو بالمدينة ليلة انشقاقه، ابن أربع سنين، وكان الانشقاق ليلاً، والناس داخل بيوتهم، وفي غفلة، واليهود والنصارى من شأنهم إنكار معجزات رسول الله ﷺ ، وتحريفها، وأيضًا قد لا يظهر الانشقاق لبعض

١-راجع **البخاري**، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القمر، من رقم٤٥٨٣ إلى ٤٥٨٧، من حديث أنس وغيره.

أهل البلاد كما لا يظهر الخسوف أو الكسوف في بعض البلاد، ويظهر في بعض، وأيضًا لم تطل مدَّة بقائه منشقًّا.

ويروى أنَّه شقَّ مرَّتين: مَرَّة بمَكَّةَ وَمَرَّة بمنى، ويروى مرَّتين: مَرَّة بمَكَّةَ وَمَرَّة بالمدينة، وليس ذلك بشيء. ويروى عن ابن مسعود أنَّه رأى القمر شقَّ شقَّتين مرَّتين، وأجيب بأنَّ معنى «مرَّتين» تأكيد لشقَّتين، أو مرَّتين متعلِّق برأى، أي نظر إليه منشقًّا ثمَّ أعاد النظر في حينه، أو بعد حينه، لَكِنَّ في انشقاقٍ واحدٍ كما مرَّ أنَّ المشركين رأوه منشقًّا، وكرَّروا النظر مع مسح العيون.

وهل بقي منشقًّا حتَّى غاب؟ قيل كذلك، وقيل: انشقَّ وبقي قدر ما يحقِّقونه ثمَّ اجتمع، وزعم بعض أنَّه بقي قدر لحظة ولحظوه، وهو مخالف لِمَا مرَّ أنَّهم جدَّدوا النظر. وعن ابن عبَّاس: بقي نصف على الصفا ونصف على المروة قدر ما بين الظهر والعصر، ولا تصحُّ هذه الرواية، واليهود والنصارى وسائر المشركين لَمَّا سمعوا ورأوا أنكروا، لأنَّه معجزة له ﷺ على عادتهم، و لم يذكروه في التواريخ حتَّى كأنَّه لم يكن.

﴿وَإِنْ يَّرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ عن الإيمان بها، والنكرة في سياق الشرط تعمُّ، كما بعد النفي، فهم يعرضون عن كلِّ آية ما من الآيات بعد انشقاق القمر ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ﴾ هذا الذي تدَّعي أنَّه آية سحر، وهوالقرآن، لأنَّه لا يزال يترل عليهم حتَّى يتمَّ، ولذلك قال: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ دائم. وكذلك إن جعلنا الإشارة إلى جنس ما يقول ﷺ أنَّه آية، وإن كانت الإشارة إلى أمر مخصوص ممَّا يأتي ﷺ به فمعنى استمراره اطِّراد مثله منه، أو يشبه بعضه بعضًا في التخيُّل.

ويجوز أن يكون مطاوع مرَّه يمرُّه بمعنى: أحكمه، كما يقال: مرَّرت الحبل أي أحكمته، فكان اسم فاعل لازماً بمعنى قوي، لأنَّ ثلاثيه متعدٍّ لواحد، ومن فسَّره بمحكم فقد فسَّره بالمعنى. وقال الكسائيُّ والفرَّاء: معناه ذاهب، أي ذهابًا

عظيمًا عن قريب، فالاستفعال للمبالغة، منُّوا أنفسهم بذهابه ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ, وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٢) . وكذا قيل: «مُسْتَمِرٌّ» شديد المرارة ضدَّ الحلاوة، أي: تكرهه عقولهم، مِنْ مَرَّ اللازم بمعنى: ضدَّ حلا، والوجهان الأوَّلان أنسب بحالهم.

[قلت:] ولا يصحُّ أن يقال: «مُسْتَمِرٌّ» ذاهب إلى جهة السماء حتَّى بلغ القمر وأثَّر فيه، لبعده عن ظاهر الآية، ويحتاج إلى تكلُّف، لأنَّ لفظ «آيَةً» عامٌّ، لكونه بعد أداة الشرط، وشقُّ القمرِ خاصٌّ، وشقُّه قد وقع، لا يلائم الشرط.

﴿وَكَذَّبُواْ﴾ برسولنا محمَّد ﷺ وبما جاء به ﴿وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ما تميل إليه أنفسهم الأمَّارة بالسوء، وهو بمعنى مفعول، ويجوز إبقاؤه على المعنى المصدريِّ.

وقيل: كذَّبوا انشقاق القمر، واتَّبعوا أهواءهم، وقالوا: سحر القمر فانشقَّ نصفين، أو سحر أعيننا فأرانا القمر منشقًّا ولم ينشقَّ، ويردُّه أنَّ العطف على «يُعْرِضُ»، أو هو جواب الشرط، والشرط على صورة غير القطع، والشقُّ مقطوع به، وقيل: العطف على «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ» ووجهه ذمُّهم باتِّباع الهوى مع أنَّها قد اقتربت، وفصل بينهما بذكر عنادهم للآيات.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ الجملة حال من واو «اتَّبَعُوا» أو معطوفة على «اتَّبَعُوا» عطف قصَّة على أخرى، عطف اسْمِيَّة على فِعْلِيَّة، والأوَّل أولى.

وحاصله: أنَّهم اتَّبعوا أهواءهم مع أنَّ اتِّباع الهوى لا يزيل المقدور، وكلٌّ من أمره ﷺ وأمرهم قد ثبت في اللوح، وعلمه تعالى على وجه لا يتخلَّف، فذلك يثبت كونه محقًّا رسولا من الله ﷻ ، ينصر في الدنيا والآخرة موفَّقًا، وكونهم مبطلين مخذولين في الدنيا والآخرة، أو ستظهر لكم عاقبة ذلك واقعة

لغاية مؤجَّلة.

وقيل: ﴿كُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ الخير مستقرٌّ بأهله في الجنَّة، والشرُّ مستقرٌّ بأهله في النار، وقيل: يستقرُّ قول المصدِّقين وقول المكذِّبين حين يشاهدون حقيقة الثواب والعقاب، وقيل: لكلٍّ حديث منتهى، وقيل: ما قُدِّر فهو واقع لا بدَّ، وقيل: ليس أمر محمَّد ذاهبا كما تقولون بل ثابت.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ في القرآن وفي الأحاديث الصحاح ﴿مِّنَ الاَنبَآءِ﴾ أخبار الماضين وأخبار ما يأتي، مثل طلوع الشمس من مغربها، وأخبار القيامة، والبعث والموقف، والثواب والعقاب. و«مِنْ» للابتداء متعلِّق بـــ«جَاءَ»، أو للتبعيض متعلِّقة بمحذوف حال من «مَا» في قوله ﷻ :

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وقدِّم الفاصلة، وكذا إن جعلناها للبيان تتعلَّق بمحذوف حال من «مَا»، ولا منافاة بين التبعيض والبيان، لأنَّ البيان يتصوَّر بما هو بعض، كما يقال: كذا هو بعض كذا، ولا يلزم أن يكون ما به البيان كلاًّ.

و﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ يطلق على ما ذكر في القرآن وعلى غيره ما لم يذكر، وتقديم البيان على المبيَّن جائز، لأنَّه في نية التأخير.

(صرف) و«مُزْدَجَرٌ» مصدر ميميٌّ، أو اسم مكان ميميٌّ، وداله عن تاء قلبت لتناسب الزاي.

(لغة) والازدجار: الانتهاء عن القبيح أو المكروه، ولا بدَّ من تقدير مضاف، أي: موجب ازدجار، لأنَّ الازدجار فعل لمن ينتهي، أو موضع موجب الازدجار، فإنَّ اللفظ يتضمَّن معنًى "زاجر"، وذلك إخبار الوعيد، وإن جعلناه مِن "ازدجر" المتعدِّي لم يقدَّر المضاف.

﴿حِكْمَةٌ﴾ بدل من «مَا» بدل كلٍّ لا بدل اشتمال، لأنَّ بدل الاشتمال

مغاير للمبدل، وبينهما ملابسة بغير الجزئيَّة والكلِّيَّة، ولا يكفي في بدل الاشتمال اشتمال «مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ» على الحكمة، لأنَّ هذا الاشتمال لغويٌّ لا اصطلاحيٌّ، وأجيز أنَّه خبر لمحذوف، أي: هذا المذكور من إرسال الرسل، وإيضاح الدليل، والإنذار لمن مضى، وَمِمَّا في الأنباء، ومن اقتراب الساعة، والأصل عدم الحذف.

﴿بَالِغَةٌ﴾ واصلة، غاية في الإحكام والإتقان، لا خلل فيها، وقد يجوز أن يكون المعنى: واصلة إلى قومك.

﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ عطف على الجملة قبلها. و«مَا» نافية، لا تغني عنهم شيئا من العذاب، لأنَّهم لم يؤمنوا، فلم يكف عنهم العذاب، أو استفهاميَّة إنكاريَّة، مفعول مطلق، أي: أيَّ إغناء تغني النذر؟ أو مفعول مقدَّم، أي: أيُّ ضرٌّ تغني النذر؟ أي: تدفع، ولا يجوز أن تكون مبتدأ والرابط محذوف، أي: تغنيه، إذ لا يجوز في الفصيح زيد أكرمت، أي: أكرمته.

[قلت:] والنذر جمع نذير بمعنى منذر، أو جمع نذير بمعنى الإنذار، إلاَّ أنَّ الأصل في المصدر أن لا يجمع ولا يثنَّى، [قلت:] والجواب أنَّه يجمع تنبيها على الأنواع كالإنذار بالآيات المتلوَّة والآيات التكوينيَّة والوعيد، وفي كلٍّ من ذلك أصناف، ولا يجوز أن يكون اسم مصدر، أي: الإنذار، لأنَّه مذكَّر، والفعل مقرون بتاء التأنيث، والتأويل بالنذارة تكلُّفٌ بلا داع.

﴿فَتَوَلَّ﴾ أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ أي: عن جدالهم، أو شدَّة الرغبة في إيمانهم، بسبب القضاء عليهم بأنَّهم لا يتأثَّرون بالنُّذُر، وقيل: التولِّي النهي عن القتال، لَكِنَّ المراد: ابْقَ كما أنت بلا قتال، أو علم الله رغبته في القتال فنهاه عنه، وعلى كلِّ حال **إذا فسِّر بالإعراض عن القتال نُسِخ بآية القتال**، واختاره بعض المتأخِّرين.

﴿يَوْمَ﴾ أذكر يوم، أو انتظر يوم، أو يتعلَّق بـ«تُغْنِي»، أو بـ«مُسْتَقِرٌّ»، أو

بـ«تَوَلَّ»، على أنَّ المعنى: تولَّ عن الشفاعة لهم يوم، وفيه أنَّ الأصل في الأمر بالتولِّي عن الشيء أن يكون المأمور يقصده، وهو ﷺ لا يقصد الشفاعة لهم. أو متعلِّق بـ«تَوَلَّ»، وفيه التقديم مع الفصل الكثير. أو يقدَّر: تولَّ عنهم إلى يوم، وفيه النصب على حذف الجارِّ، وهو **خلاف الأصل بلا داع** إليه.

﴿يَدْعُ﴾ أي: يدعوهم، أو لا مفعول له لعدم تعلُّق المقام به، أي: يوم يكون الدعاء، والأصل: «يدعو» حذف الواو من الخطِّ تبعا للَّفظ، إذ حذفت فيه للساكن، لبيان أنَّ الأصل الأصيل حذف لِمَا لا ينطق به.

﴿الدَّاعِ﴾ بحذف الياء خطًّا وثبوتها لفظا، تخفيفا على الكاتب، وإجراء لـ«ال» مجرى التنوين الذي تحذف له، و«ال» ضدُّ التنوين، والشيء كما يحمل على نظيره يحمل على ضدِّه.

والداعي هو إسرافيل، وهو أولى لشهرته، أو جبريل، وذلك نفخ، أو الله تعالى بمعنى توجُّه إرادته تعالى إلى إحيائه.

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ فظيع تنكره النفوس لشدَّته وعدم معاهدة مثله، وهو هول القيامة، والنفخ في الصور دعاء إليه. أو «نُكُر» بمعنى أنَّهم أنكروه، لأنَّهم أنكروا البعث، ويدلُّ له قراءة زيد بن عليٍّ بن الحسين: «نُكِرَ» (بضمِّ النون وكسر الكاف وفتح الراء)، على أنَّه فعل مبنيٌّ للمفعول.

(لغة) والجمهور على ضمِّها وكسر الراء، وهو وصف صفة مشبَّهة بمعنى فظيع، وهو وزن قليل في الصفات، كروضة أُنُقٍ (بضمِّ الهمزة والنون)، أي: لم يرعها حيوان، ورجل شُكُل (بذلك الوزن): خفيف الحاجة سريع، حسن الصحبة، طيِّب النفس، وسُجُي (بذلك الوزن)، أي: سهل. فقيل: الأصل سكون الوسط والضمُّ تبع للأوَّل، وقيل: الضمُّ أصل والسكون إذا ورد فيهنَّ تخفيف،

وهو الصحيح، لأنَّ الأصل عدم الاتِّباع وعدم ردِّ الخفيف إلى الثقيل بل العكس. كما قرأ ابن كثير بإسكان الكاف، كشُغْل بضمِّ الأوَّل وإسكان الثاني وبضمِّهما.

وأمَّا على معنى ضدِّ الإقرار فهو وصف بمعنى مفعول.

﴿خُشَّعًا﴾ أذلاَّء من شدَّة الهول، وهو حال من واو «يَخرُجُونَ» مثلها في قوله تعالى: ﴿يَخرُجُونَ مِنَ الاَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ إلى قوله: ﴿خَاشِعَةً اَبْصَارَهُمْ﴾ (سورة المعارج: ٤٣ ـــ ٤٤) .

(نحو) ﴿اَبْصَارُهُمْ﴾ فاعل «خُشَّعا»، على أن لا ضمير في «خُشَّعًا»، كذا قيل، ولا يتصوَّر عندي جمع صفة بلا ضمير فيها جمع تكسير، أو جمع سلامة لمذكَّر أو مؤنَّث، اللهمَّ إلاَّ على لغة «يتعاقبون فيكم»، و«أكلوه البراغيث»، على أنَّ الصورة صورة وصف فيه ضمير، مع أنَّه لا ضمير فيه، والأولى ما ذكرت من أنَّ فيه ضميرًا، فـــ«أَبْصَارُ» بدلُ بعضٍ منه.

(نحو) وقيل: حال من هاء «يدعوهم» المقدَّرة، وفيه مخالفة لقوله تعالى: ﴿يَخرُجُونَ مِنَ الاَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ وأنَّ خشوعهم ليس في وقت الدعاء بل عقبه، فيحتاج إلى أنَّ الحال مقدَّرة، والأصل الحال المقارنة. وكذا في جعله مفعولا به لـــ«يَدْعُو»، إنَّما خشوعهم عقب الدعاء وهو أقرب ممَّا قبله، لأنَّه ما فيه إلاَّ استعمال الوصف للاستقبال، أي: فريقا سيخشع أبصارهم. وقيل: حال من هاء «عَنْهُمْ»، ولا يحسن، إذ المعنى حينئذ: تولَّ عن الشفاعة لهم وقت خشوعهم في خروجهم.

(نحو) [واختار بعض أَنـــَّـهُ إذا رُفع الوصفُ ظاهرًا مجموعا وأمكن تكسيره، فتكسيره أولى من إفراده، نحو: مررت برجل قيام غلمانه. وقال الجمهور: الإفراد أولى. وَقِيلَ: إنْ تَبِع جمعًا فالجمع أولى، نحو: مررتُ

برجال قيام غلمانهم، أو مفردا فالإفراد أولى. وقد قرأ الكسائيُّ وأبو عمرو وحمزة: «خاشعًا أبصارهم»، وأُبيٌّ وابن مسعود: «خاشعة أبصارهم». وَأَمَّا جمع السلامة فلا، إِلاَّ عَلَى لغة: «يتعاقبون...»، لشبهه بالفعلِ والحالِ والوصفِ في حكم واحد][1].

﴿يَخرُجُونَ مِنَ الاَجْدَاثِ﴾ القبور **﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾** حال ثانية، ووجه الشبه الكثرة والانتشار، وعدم اللباس، واستصحاب شيء، والعجز والمهانة، وكذا هم كالفراش المبثوث، وقيل: أوَّلاً كالفراش في الضعف وعدم الاهتداء إلى موضع، وثانيا كالجراد.

والجراد قيل: نثره حوت من البحر، كما جاء في حديث عنه ﷺ قال: «**اللهمَّ اهلك صغاره واقتل كباره، وأفسد بيضه واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا، وارزقنا إنَّك سميع الدعاء**»، فقيل: يارسول الله، تدعو على جند من جنود الله بقطع دابره؟ فقال: «إنَّ الجراد نثره حوت من البحر»، أي: إنَّه يوجد من الحوت بعد قطعه، فالسنَّة قتله لأنَّه مفسد.

(قصص) روي أنَّه انقطع على عهد عمر رضي الله عنه ، فاغتمَّ لذلك، فبعث راكبا نحو اليمن وراكبا نحو الشام، وراكبا نحو العراق، فأتاه المبعوث نحو اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يديه، فقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله تعالى ألف أمَّة، ستَّمائة في البحر وأربعا في البرِّ، فأوَّل شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك الجراد تتابعت سائر الأمم في الهلاك، مثل نظام انقطع سلكه». والله أعلم بصحَّة هذا.

١- ما بـين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين أو مسرعين مادِّي أعناقهم، أو مسرعين مع هزٍّ ورهق ومدِّ بصر، أو مديمين النظر، أو خاضعين، أو خافض أعينهم، أو ناظرين إلى السماء ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ دون المؤمنين، فإنَّه يوم سهل لهم، كذا قيل، وفيه أنَّه عَسِرٌ عليهم أيضا، وكأنَّه أريد أنَّ المشركين كلَّهم يعسر عليهم في جميع مواطن الموقف، وأهل التوحيد قد يسهل على بعض مطلقا ويعسر على بعض تارة، ويسهل أخرى، ويعسر على بعض مطلقا، وعلى كلِّ حال صعوبته على المشركين أشدُّ ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ شديد الهول.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾

التذكير بقصص الأمم الخالية المكذِّبة للرسل

-١-

قصَّة نوح عليه السلام

ومن الأنباء الجائية لهم، المشتملة على ما يوجب الازدجار قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذَّبت نوحا، أو لا مفعول له، أي: فعلت التكذيب، وهذا أولى، لأنَّه قد ذكر في قوله: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ ووجه صحَّة تقدير المفعول ما ذكره بعدُ أنَّه زاد في الثاني قوله: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ

﴿وَازْدُجِرَ﴾ أو يراد التكرير، أي: كذّبوا نوحا فكذّبوه، كلّما جاء قرن كذّبوه، فعلى الأوّل يكون الكلام أوّلا مجملا ثمّ فسِّر.

(نحو) ويجوز أن يقدَّر للأوَّل مفعول به غير نوح، أي: كذّبت قوم نوح الرسل، فكذّبوا عبدنا بسبب تكذيبهم الرسل مطلقا، أو المعنى: ابتدأوا التكذيب، وقصدوه وأتمّوه وحقّقوه بتكذيب عبدنا نوح.

وفي وصفه عليه السلام بالعبوديَّة وإضافته إلى الله تعالى بِنُونِ العظمة تفخيم لشأنه، ومزيدُ تقبيحٍ لمن ينكر، مَنْ شأنُهُ ذلك، ويقول: هو مجنون.

و«ازْدُجِرَ» عطف على «مَجْنُونٌ»، كقوله تعالى: ﴿صَآفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (سورة الملك: ١٩) ، أي: ازدجرته الجنُّ، أي: قهرته وذهبت بقلبه، فكان يقول بما تقول من الخطأ، فقوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ من كلام الكفرة، واختير أنّه من كلام الله تعالى عطفا على «قَالُوا»، أي: قالوا: مجنون، وقهروه عن التبليغ بأنواع الأذى من الضرب وقول السوء.

و«ازْدُجِرَ» يكون لازما كما مرَّ في وجهٍ، ومتعدِّيا كما هنا، واختير ما هنا للفاصلة، وليطهِّر الألسنة عن ذكرهم بفعلهم، وفعلهم أقبح من قولهم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ, أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ بأنّي مغلوب من جهة قومي لا طاقة لي بهم، وقيل: المعنى غلبتني نفسي فدعوت عليهم، ويردُّه أنّه خلاف الظاهر، وأنّه مخالف لقوله: ﴿فَانتَصِرْ﴾ أي: انتقم لي منهم، وأنّه ما دعا عليهم إلاّ بعد الإيَّاس منهم، وقيل: انتقِمْ لك منهم إذ كذّبوا رسولك، والأوّل أولى، لأنّه المتبادر.

﴿فَفَتَحْنَآ﴾ بسبب دعائه ﴿أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ كثير منصبٍّ، ولا مجاز في هذا تمثيلي ولا مفرد، فإنّ فتح أبوابَ السماء بآلة الماء أو ملابسة الماء حقيقةٌ، ولم تمطر السماء قبلهم ولا بعدهم إلاّ من

السحاب، ودامت عليهم أربعين يوما، والصحيح أنّهم أقحطوا فكانوا يطلبون الماء سنين فأهلكوا به.

ويقال: «أبواب السماء»: المجرَّة، وأنّها للسماء كالشَّرَجِ للعَيْبَة[1]، والصحيح أنّها نجوم صغار متقاربة.

﴿وَفَجَّرْنَا الاَرْضَ﴾ جعلناها كأنّها كلّها عيونا، وهذا إبهام عقّبه بالتفسير في قوله:

(نحو) ﴿عُيُونًا﴾ فإنّه تمييز محوّل عن المفعول، أي: فجَّرنا عيون الأرض، والتمييز بعد الإبهام أدخل في النفس، لأنّه يردُ على النفس وهي منتظرة له. ومانع تحويل التمييز من المفعول يجعل «عُيُونًا» حالاً، وفيه أنّه جامد. أو مفعولا ثانيا لتضمين «فَجَّرْنَا» معنى صيَّرنا، وفيه أنَّ الأصل عدم التضمين، وأنَّ صيَّرنا الأرض عيونا مجاز، لأنَّ العيون بعض الأرض لا كلُّها.

﴿فَالْتَقَى الْمَآءُ﴾ الشيء لا يلتقي إلاَّ مع غيره، فالمعنى ماء الأرض وماء السماء، كما قرأ الإمام عليٌّ وغيره «الْمَاءَانِ». والتقاء الماء اختلاطه لا المجاورة، لَكِنَّ الأجسام لا تتداخل، فَكُلُّ جزء من ماء السماء أو الأرض ممتاز عند الله.

﴿عَلَىٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ حال قدَّره الله تعالى في الأزل، لا يزيد ولا ينقص، أو حال سُوِّيَ كما كُتب في اللوح المحفوظ وخرج.

(قصص) ويقال: فار ماء الأرض وارتفع حتَّى لاقى ماء السماء، ويقال: علا ماء الأرض سبعة عشر ذراعا، ونزل ماء السماء مكمِّلا أربعين، ويقال: ماء الأرض أكثر وله مقدار، وأنَّ هذا معنى الآية.

١- الشَّرَجُ: عُرَى المصحف، أو الخباء، أو العَيْبَة. والشَّرْجُ أيضًا: الشَّقُّ ومسيل الماء. والعَيْبَةُ: وعاء من أدم. اللسان، ج١ ص٦٣٤، وج٢، ص٣٠٥-٣٠٧، مَادَّة «عيب»، و«شرج».

وقيل: **الأمر المقدور هلاك قوم نوح بالماء**، على عادة القرآن من ذكر الهلاك بعد القصص. و«عَلَى» متعلّق بـ«الْتقَى»، والاستعلاء مجازيٌّ، أو هي للتعليل.

[قلت:] وفي كون الالتقاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ردٌّ على قول المنجِّمين: إنّ الطوفان لاجتماع الكواكب السبعة في برج مائيٍّ غير الزهرة، ولو اجتمعت مع الستَّة فيه لهلك العالم بالماء، قبَّحهم الله عز وجل.

﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ مع من آمن به، واقتصر على ذكره لأنَّه النعمة المكفورة التي وقع الانتقام بالإغراق عليها، أو ذكرهم بقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأوليائنا، وهم من آمن به، يقال: مات عين من عيون الله، أي: وليٌّ من أوليائه.

﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ كناية عن السفينة بصفاها، كقولك: جاء الحيوان الناطق، أو حيٌّ مستوي القامة عريض الأظفار، تريد: الإنسان، وكأنَّه جعل تلك الألفاظ عَلَمًا عليها، ومأصدقه تقدير الموصوف، أي: سفينة ذات ألواح ودسر.

(لغة) واللوح: الخشبة المصنوعة عريضة، والدسر: المسامير، والمفرد دِسَار (بكسر الدال) ككتاب وكُتُب، أو دَسْر (بفتحها وإسكان السين) كَسَقْفٍ وسُقُف، والدَّسْر (بفتح فإسكان): الدفع الشديد، والمسمار يدفع بالدقِّ دفعا شديدا، كما قيل عن الحسن وابن عبَّاس: إنَّها مقادم السفينة، لأنَّها تدفع الماء. ومن كلامهم: قال الحائط للوتد لم تشقُّني؟ فقال: سل الذي يدقُّني. وقيل: الدسر: حبال ليف تشدُّ بها السفينة. ويقال: خيوط تشدُّ بها ألواحها. وعن مجاهد: خشب تعرض في وسطها، وعنه: أضلاعها.

﴿تَجْرِي﴾ على الماء أو بين الماءين على أنَّها مسقَّفة مغلقة **﴿بِأَعْيُنِنَا﴾** بمرأى منَّا، كناية عن الحفظ، وهذا أولى من تفسيره بأوليائنا، أو الأعين عيون الماء

المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾، أي: تجري على ماء الأرض تحت ماء السماء. وقيل: الأعين الملائكة يحفظونها بأمر الله تعالى.

(نحو) ﴿جَزَآءً﴾ مفعول من أجله لمحذوف، أي: فعلنا ذلك جزاء، ومن لم يشترط له اتِّحاد الفاعل أجاز أنَّه مفعول لأجله منصوب بـ«تَجْرِي».

﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جُحد وهو نوح عليه السلام، فإنَّه نعمة مكفورة، أي: غير مشكورة، فإنَّهم كذَّبوه، وهو أفضل النعم، لأنَّه نعمة الإسلام الذي به خير الدنيا والآخرة، أو المراد: كُفِرَ به، فحُذف الجارُّ وانتصب الضمير كالمفعول به الصريح، فناب عن الفاعل، أي: لم يؤمنوا به.

(نحو) و«كَانَ» لتذكير الزمان الماضي الذي كفروا به أو كفروا فيه نعمته، وقد قيل: إنَّها زائدة، وعلى عدم الزيادة ففيه مجيء خبر كان جملة ماضويَّة مثبتة مجرَّدة عن «قد»، كما أجازه البصريُّون.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً﴾ تركناها باقية، ولم نفنها، والضمير السفينة، وقد رأى أوائل هذه الأمَّة خشبها على الجوديِّ، كما روي عن قتادة[1]. و«ءَايَةً» حال، وكذا إذا فسِّر «تَرَكْنَاهَا» بـ: أبقينا خبرها، أو بـ: أبقينا جنسها، وهي سائر السفن بعدها، وهي أوَّل سفينة. أو تَرَكْنَا: جعلنا، فـ«ءَايَةً» مفعول ثان، وقيل: الضمير للفعلة، وهي إنجاء نوح والمؤمنين، وإهلاك الكافرين.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الأصل: "مُذْتَكِر" بذال مهملة مبدلة من معجمة، وتاء أبدلت دالا مهملة أدغمت فيها الدال المهملة، وقرئ بذال معجمة بعدها تاء بلا إبدال ولا إدغام، والمعنى في ذلك: فهل من متَّعظ؟ والاستفهام إنكار

١-انظر تيسير التفسير، ج٦، ص٤٠٦، والحديث المذكور في ذلك الجزء لم تثبت صحَّته بل هو أثر عن قتادة. كما صرَّح به هنا.

ونفي على أبلغ وجه، بحيث الإشعار بأنَّه لا يوجد له مجيب بالإثبات، وكذا الذي بعد هذا. و«مِنْ» صلة. و«مُدَّكِر» مبتدأ، والخبر محذوف، أي: هل فيكم مدَّكر؟.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ استفهام تعجيب بأنَّها على هيئة لا يصفها واصف. والنُّذُر: الإنذار، مصدر مفرد على خلاف القياس، أو جمع نذير بمعنى الإنذار للتنويع.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ سهَّلناه للقراءة لأنَّه بلغة العرب بلغة قريش، فتلاوته سهلة، أو سهَّناه للتذكُّر والفكر لاشتماله على حكم ومواعظ مناسبة للعقل، ولحلاوته في السمع، أو سهَّناه للحفظ بذلك.

روى أنس عن رسول الله ﷺ : «**لولا أنَّ الله تعالى يسَّره لم يقدر أحد أن ينطق به، لأنَّه كلام الله تعالى**»[1]، وكذا روي عن ابن عبَّاس.

[قلت:] وهذا نصٌّ في أنَّ هذه الألفاظ التي نقرأ هي كلام الله، وهي القرآن لا ترجمة عن القرآن، وأنَّه ليس كلاما نفسيًّا، ولا يثبت الكلام النفسيُّ في حقِّ الله سبحانه وتعالى .

أو المعنى: هيَّأناه للحفظ أو للفكر، وكلٌّ مهيَّأ هو ميسَّر، ونقول: سورة أو آية يسيرة لهذه الآية، ولا نقول: خفيفة، كذا روي عن ابن سيرين.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾

١- هذا لم يثبت حديثا، بل أثر عن ابن عبَّاس، كما صرَّح بذلك السيوطي في الدر: ج٦، ص١٤٩. والألوسي في تفسيره، مج٩، ص٨٤.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾

- ٢ -

قصَّة عاد قوم هود عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هود عليه السلام، أو بالنبوءة والوحي كلّه لهود وغيره، أو لَمَّا كذّبوا به صاروا كمن كذّب بالكلّ، والحذف للعلم بالمحذوف، أو للعموم. ذكر الله عز وجل القصص في السورة بلا عطف لبيان طريقة من الطرق، هي أنّ كلّ قصّة تكفي وحدها لمن يتذكّر، و لم يذكر ما به التكذيب للعلم به من غير هذه السورة، وللمسارعة إلى ذكر عقابهم على التكذيب في قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾؟ وذلك توجيه لقلب السامع إلى الإصغاء إلى ما يترتّب على تكذيبهم من العذاب الموجب للازدجار، أو لم يذكر ما به التكذيب مسارعة إلى ذكر أمر هائل غريب هو العذاب بالريح، إذ قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديد الصوت لقوّته، ومرّ كلام في ذلك[1].

وفي إهلاكهم بالريح إهلاك بما هو للحياة، كما أهلك قوم نوح بما هو للحياة وهو الماء، فإنّه لو انقطع الريح البتّة عن حيوان البرّ لمات كما لو ارتفع إلى طبقة لا ريح فيها من جهة العلوّ نحو ثمانين ميلا لاختنق ومات بإذن الله، ولو قطع الله الريح عن الأرض لأنتنت بأهلها و لم يقم نبات و لم يثمر.

ومعنى إرسال الريح إنزاله من جهة العلوّ، وإخراجه من الهواء، فإنّ في الهواء ريحا ساكنة، حتّى إنّه لو كان جسم عظيم من الأجسام مسرعا جدًّا أكثر ممّا نعتاد لجرّ بجريه ما خلفه أو جانبه من الأجسام، كالإنسان والحيوان[2].

١- انظر: ج٦، ص٤٢٢، وغيره.

٢-وهذا كما يقول الطبيعيُّون إذا جاوزت سرعة الريح ٢٠٠ كلم/س تهلك ما تمرُّ عليه، وفي سنة ١٩٩٨ هبَّت رياح حلزونية في ناحية "أَنْتِيسَة" من بني يزقن بلد الشيخ المؤلف فكانت =

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم عليهم، والمراد باليوم مطلق الزمان، أو جنس اليوم، ودليل الوجهين قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ (سورة فصلت: ١٦) ، وقوله ﷻ : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ (سورة الحاقات: ٧) ، وأجيز أنَّ اليوم الوقت الشامل لكلِّ زمان بعدُ، حتَّى يدخل فيه زمان خلودهم.

ويروى مرفوعا وموقوفا: إنَّ اليوم يوم الأربعاء آخر شوَّال، والمراد أنَّ بدء النحس يوم الأربعاء، واستمرَّ نحسه سبع ليال وثمانية أيـــَّام كما قال:

﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: دام نحسه حتَّى تمَّت سبع ليال وثمانية أيـــَّام، على أنَّ «مُسْتَمِرٌّ» نعت «نَحْسٍ»، وإن جعلناه نعت «يَوْمٍ» كما نعت الأَيـــَّام بـــ«نَحْسَاتٍ» في الآية الأخرى فمعنى استمرار اليوم استمرار نحسه بعدُ، على أنَّ اليوم أربعاءٌ إلى أن تمَّت سبع ليال وثمانية أيـــَّام.

ويجوز مطلقا أن يراد باستمرار النحس دوام العذاب بعد موهم إلى أن يبقى أربعون عاما، أو أربعون يوما، قبل البعث، ويعذَّبون أيضا في الموقف وفي النار، وقيل: لا يرتفع العذاب في تلك الأربعين أيضا، ولكن لا يقع البعث إلاَّ عقب أن لا روح حيٌّ ولا جسد حيٌّ.

ويجوز أن يكون الاستمرار انسحاب النحس عليهم حتَّى لم يبق كبير ولا صغير، وأجيز أنَّ «مُسْتَمِرٍ» بمعنى محكم، أو شديد المرارة، المعبَّر بها عن السوء مجازا، كما مرَّ في السورة.

[قلت:] وأحاديث ذمِّ الأربعاء الأخير من الشهر ضعيفة، وقيل: موضوعة، وأقول: لا بأس بأخذ الحذر من يوم الأربعاء آخر الشهر على معنى أنَّه يَضُرُّ بإذن الله ﷻ ، فيدعو المرء ويرغب إلى الله ﷻ .

=

تلوي النخلة الجبَّارة وتقصفها أو تقلعها من أصلها.

﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ الجملة نعت «رِيحًا»، وهو أولى من كونها حالا، إذ الأصل أن لا يجيء الحال من النكرة، ولو كان لها مسوِّغ كنعتها بـ«صَرْصَرًا»، وأولى من كونها مستأنفة، لأنَّ الاستئناف فرع إذا أمكن الاتِّصَال. ومعنى النزع قلعهم عمَّا تمسَّكوا به من صخرة أو حفرة أو بيت أو بعض عن بعض، كما روي أنَّه يمسك بعض بعضا فتقلعهم وتحطِّمهم.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أسافلها الغليظة بالجدوع والعروق بقطع النظر عن سائر الجذوع والفروع، قطعت أو لم تقطع، ووجه الشبه الغلظ وزوال الحياة، وذلك بسقوطها عن مغارسها كما قال:

﴿مُنقَعِرٍ﴾ منقلع ساقط. وقيل: قطعت الريح رؤوسهم، وعليه فوجه الشبه ما ذكر مع قطع الأعلى، فالمراد بـ«أَعْجَاز» جذوعها من أصلها مع قطع غصونها، وفيه أنَّه لا دليل في الآية على قطع الغصون وبقاء سائر الجذع، ولو ناسبه طولهم، ولا على عدم القطع.

وعلى كلِّ حال التمثيل بالسقوط والغلط، وإلاَّ فهم أغلظ من أعجاز النخل وأطول من النخل، نعم منهم من يكون كالنخلة على انتهائه أو لصغر سنِّه.

(نحو) والنخل يذكَّر ويؤنَّث على قياس ما مفرده بالتاء، وذكر هنا للفاصلة، وأنِّث في قوله تعالى: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (سورة الحاقَّة: ٧) للفاصلة. ولا يخفى أنَّ شبه أعجاز النخل بعد النزع لا معه، فالجملة إمَّا حال مقدَّرة، وإمَّا مفعول لمحذوف، أي: فتصيِّرهم كأنَّهم، أو فتجعلهم كأنَّهم، واختير الأوَّل، ولو قدِّر: تتركهم، لكانت الجملة حالا مقارنة، إذا لم نعمل نترك عمل علم[1].

١- كذا في النُّسخ، تأمَّل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كالأوّل، وليس تكريرا، بل تهويل للعذاب والنذر، وتعجيب من أمرهما، وقيل: ما تقدّم للدنيا وهذا للآخرة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٢٤
أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ
٢٦ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ
شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ٢٨ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠ إِنَّا
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢﴾

- ٣ -

قصّة ثمود قوم صالح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ بالمنذرين وهم الرسل، أو بالإنذار أو بالإنذارات على حدِّ ما مرَّ، والمكذِّب برسول أو بإنذاره مكذِّب لجميع الرسل، أو بإنذارهم كلِّهم، لأنَّ أصلهم واحد، وهو التوحيد وتوابعه، ورسولهم واحد وهو صالح عليه السلام، وتكذيبه تكذيب للكلّ، ولعلّهم أيضا كذّبوا بكلّ الرسل صراحا، والظاهر أنَّ المراد إنذاره، للإفراد بقوله:

(نحو) ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ منصوب على الاشتغال، أي: أنتّبع بشرا واحدا. و«مِنَّا» متعلّق بمحذوف نعت، أي: أبشرًا ثابتا منَّا، أي: من جنسنا، و«وَاحِدًا» نعت ثان، إلاَّ أنّك قد علمت أنَّ واحدا من الرسل كالكلّ. ويجوز أن يكون من ضمير الاستقرار في «مِنَّا».

ومعنى «واحدا» أنّه لا أتباع له على دينه الذي يدعونا إليه، وهذا قبل أن يكون له أتباع، أو كانوا قليلا فعدُّوهم كالعدم. أو المراد: واحدا من آحادهم لا من أشرافهم، وكَذَبُوا، فإنّه أشرفهم، إلاّ أن يريدوا شرف كثرة المال.

(بلاغة) وأخَّره ــ مع أنّه صفة صريحة أشبه بالفعل، و«منّا» غير صريح في ذلك، بل نائب عن ثبت، أو عن ثابت ــ للتنبيه على أنّ كلّ واحد من كونه منهم وكونه واحدًا استقلّ بمنعهم عن الإيمان. ولو قدم «واحدا» لم يفد ذلك، كذا قيل، قلت: يفيد ذلك قُدِّم أو أُخِّر، وإنّما قدَّم «منَّا» ليدلّ دلالة بتقديمه على أنّ الجنسيَّة أشدُّ في منع الإيمان عندهم من الانفراد. قيل: ذكر بعض أنّ أبا عمرو الداني[1] قرأ برفع «بشر» و«واحد»، وإنّما ذَكَرَه لأنّه إمام عظيم أندلسيٌّ أيَّد به قراءة من قرأ بالرفع، قلت: لم يذكره لأنّه قرأ بذلك بل ذكره عطفا على من حكى الرفع عن أبي السمال[2].

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إذا اتَّــبَعناه وهو بشر منَّا واحد ﴿لَّفِي ضَلَالٍ﴾ عظيم عن الصواب والرشاد، وصائرون في سفه ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون قال:

كَأَنَّ بها سعرا إذا العيس هزَّها ذميلٌ وإرخاء من السير متعب.

أي تشتدُّ في السير كأنّها مجنونة، وهو مفرد. ويجوز أن يكون جمعا لسعير وهي النار، أي: إنَّا إذًا لفي ضلال ونيران، واختاره بعض المحقّقين، أي: شيء مهلك كالنار الكثيرة المتعدِّدة، ولو كان واحد وهو الإيمان.

أو اعتبروا أنّ كلّ جزء من الإيمان والنطق به نار، أو الإيمان نار وكلٌّ واحد من توابعه نار، أو كان صالح عليه السلام يقول لهم: الإيمان حقٌّ وخلافه دركات النار، فعكسوا كلامه.

١- تَقَدَّمَ التعريف به في ج٤، ص٣٢٠.

٢- راجع تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي، ج٨، ص١٧٩.

﴿ا۬لْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ الموحى [به] الذي يزعم أنَّه ذكر، ولفظ «أُلْقِيَ» إشعار بأنَّه ألقي عليه ما يأمرنا به معاجلة ومجازفة بلا تدبُّر ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ دوننا، مع أنَّا أحقُّ به لو كان حقًّا، لأنَّ لنا أتباعا وشرفا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ اَشِرٌ﴾ أفسدته النعمة و لم يقم بحقِّها، وضعها في غير موضعها مسرفا بها.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ يوم نزول العذاب في الدنيا، كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ﴾ أو يوم القيامة، والمراد الزمان، وعبَّر به للتقريب، فالسين للتأكيد، ومطلق الاستقبال ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الاَشِرُ﴾ يعلمون أنَّهم الكذَّابون الأشرون.

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ﴾ شروع في ذكر الوعيد، ومعنى إرسال الناقة إخراجها من الصخرة كما طلبوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: امتحانا لهم، أو خذلانا لهم، أو إيقاعا في الهلاك، والنصب على التعليل ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ انتظرهم ترى أنَّهم لا يهتدون إلى ما ينجِّيهم ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ عالج الصبر على أذاهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَآءَ﴾ المعهود ماء بئرهم ﴿قِسْمَةُۢ﴾ أي: مقسوم بينهم، أو ذو قسمة، أوشأن الماء قسمة، فالتأويل إمَّا أوَّلا أو آخرا، وأنت خبير أنَّ الأخير أولى بالتغيير، والأوَّل أَخَذَ حيِّزه فيردُّ إليه الأخير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الهاء للناقة ولقوم صالح، والتذكير تغليبٌ للعقلاء، أو نزِّلت منزلة الإنسان، لأنَّ الله ﷻ خلق لها تمييزا قَوِيًّا، وكذا صقبها، أو يقدَّر: بينهم وبينها.

﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ حصَّة من الماء ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره صاحبه، تحضر شربها لا تغيب عنه، ويحضرون شربهم، ومن اللغة: حضر عن ذلك تحوَّل عنه، من الأضداد، فيجوز حمل الآية عليه، أي: يتحوَّل عنه غير صاحبه، ويضعف أن يقال: يحضر عنه غير صاحبه، أي: يمنع.

فحضور صاحبه مسبِّب لمنع غير صاحبه، فعبَّر بالسبب عن المسبب، أو بالملزوم عن [illegible] في نوبتكم، واللبن في نوبتها تحلبونها.

﴿فَنَادَوْا۟﴾ أي: أرسلناها، فكانوا يحضرون الماء يوم نوبتهم للسقي، ويحضرونه يوم نوبتها لحلب اللبن، وملُّوا ذلك وعزموا على عقرها، فنادوا ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ لعقرها قدار بن سالف أحيمر ثمود، وكان أجرأهم على السوء.

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ قصد العقر مع عظم شأن العقر غير مكترث به، أو تناول السيف ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: فعقرها، ونسب العقر إليهم في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ (سورة هود: ٦٥) ، لرضاهم به، أو بدأ صاحبهم العقر فزادوا، أو أتى معظم العقر وزادوا.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ على فعلتهم هذه؟ فلا تكرير، وهكذا في مثل ذلك كلٌّ واحد مترتِّب على ما يليه، وذكر ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاحها جبريل صبح الأحد، في طرف منازلهم ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ كالحطب اليابس المتفتِّت، الذي كمن جعل لغنمه حظيرة من النبات مستديرة لغنمه، أو غيرها من الحيوان في الشتاء أو غيره لئلاَّ تهرب أو تنفر. والحَظْرُ المنعُ وذلك البناءُ من النبات يمنعها عن الذهاب، وتفتُّـــته ليبسه أو قِدَم زمانه، أو تفتُّـــته بمعنى انقطاعه عن شجرته، والحظيرة ذلك البناء، كما يقال: هشيم الحظيرة، يقال: هشيم المحتظر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هذا باعتبار ما هنا فلا تكرار.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ
﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَالِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟

بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ
﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ □

— ٤ —

جزاء المكذِّبين من قوم لوط عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ مَلَكًا يرميهم بالحصباء، أو ريحًا يرميهم بها، والريح يذكّر ويؤنّث فلا نحتاج إلى أن نقول: ذكر «حاصبًا» و لم يؤنّث لأنّه اسم للريح. وقيل: «حاصبًا» ما رماهم الله به من الحجارة، وإسناد الحصب إليها من صورة الإسناد إلى الآلة في هذا القول، وفي تفسيره بالريح، أو خلق الله تعالى العقل للريح أو الحجارة فرمتهم بأنفسها، فالإسناد حقيق.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ من آمن به، ويقال: بناته، ويقال: ابنتيه **﴿نَّجَّيْنَاهُم﴾** من الحاصب **﴿بِسَحَرٍ﴾** في سحر، متعلّق بـ«نَجَّيْنَا»، أو الباء للملابسة متعلّقة بمحذوف حال من الهاء، أي: ملابسين للسحر بالدخول فيه، وهو الثلث الأخير، أو السدس الأخير، أو الوقت الأخير من الليل، أو المخالط لضوء الفجر.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعامًا، بالنصب على التعليل لـ«نَجَّيْنَا»، أو مفعول مطلق لتضمُّن التنجية الإنعام، أو لتضمُّن الإنعام التنجية، أو يقدَّر: أنعمنا نعمة، أي: إنعامًا، **﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾** مثل ذلك المذكور من التنجية أو النعمة نجزي بالطاعة من غير قوم لوط، أو من شكر، والمراد به آل لوط، فالتشبيه باعتبار مفهوم وصف ذلك ووقوعه خارجًا.

﴿وَلَقَدَ انذَرَهُم﴾ لوطٌ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخْذَتَنَا الشديدة بالعذاب أو هي نفس العذاب ﴿فَتَمَارَوْاْ﴾ كذّبوا، ومرَّ الكلام على مثله ﴿بِالنُّذُرِ﴾ في النذر، أو ضمِّنَ تَمارى معنى كذَّب، فعدَّاه بالباء، والتماري تفاعلٌ للمبالغة، كأنَّه يعالج كلٌّ واحد أن يكون أشدَّ شكًّا، مع أنَّ الشكَّ ليس اختياريًّا، أو المراد لازم الشكِّ وهو المخالفة والسعي في نقض ما يقول لوط ﷺ، وهذا معنى اختياريٌّ، والتفاعل كذلك ليس على حقيقته على الظاهر، فإنَّ الظاهر أنَّ كلاًّ يفعل من السوء بحسب ما يخطر بباله، لا كلٌّ يعالج أن يفوق الآخر في المخالفة.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ﴾ عالجوا صرفه ﴿عَن ضَيْفِهِ﴾ عن منع ضيفه منهم، وطلبوا الفجور، والمراود بعضهم فقط لكن رضي الباقون، ودلَّهم على الضيف من دلَّ، وأمر من أمر ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ صيَّرنا مواضع أعينهم كالجبهة، هذا هو الظاهر، أو أعميناهم، وعلى الوجهين لم يقدوا على طريق الخروج، فقادهم لوط حتَّى خرجوا، قيل: فعَلَ الطَّمسَ بهم جبريلُ بجناحه ليلة عالجوا الباب فدخلوا.

وإسناد الطمس إلى الله تعالى حقيقة باعتبار التأثير، وهو المراد في الآية، ولا حاجة إلى دعوى أنَّ الطمس المسح على أعينهم، فيكون الإسناد إلى الله تعالى مجازًا لعلاقة أنَّه الآمر، أو أنَّه المؤثِّر. أو الطمس: جَعْلُ أعينهم لا ترى الملائكة مع بقاء الملائكة على صورة البشر، ومع بقاء أعينهم غير عمي، وروي هذا عن ابن عبَّاس.

فالطمس مجازٌ، إذْ حقيقته جعلها كالجبهة، والإسناد حقيقة. وكذا إذا جعلنا الطمس بمعنى إخفاء الملائكة بردِّهم إلى حالهم من الخفاء، مع بقاء أبصار القوم بلا عمًى. ويدلُّ على تصييرها كالجبهة أو إعمائهم قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وأمَّا إخفاء الملائكة عنهم بردِّهم إلى حالهم أو مع بقائهم على صور البشر فلا عذاب لهم فيه، إلاَّ أن يتكلَّف أنَّ انتفاء إدراك مرادهم تعذيب لهم بإغاظتهم.

ومعنى ذَوْقِ النذر ذوقُ أثر النذر، وهو ما ترتَّب على مخالفتهم النذر، فالطمس عذاب وأثر للنذر، والفاء عطفت محذوفًا ناصبًا للجملة بعدها، أي: فطمسنا أعينهم فقلنا: ذوقوا عذابي، والقائل جبريل، وإسناد القول إلى الله عَزَّوَجَلَّ مجازٌ، أو لا قول هناك بل دلالة حالهم من الطمس وتوجُّهُ الإرادة إليه، فيكون مجازًا وتمثيلاً.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ أتاهم ﴿بُكْرَةً﴾ أوَّل النهار أوَّل شروق الشمس، فالبكرة أخصُّ من الصباح، فذكْرُها بعد ذكر التصبيح تخصيصٌ بعد إجمال ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ متَّصِلٌ حتَّى يدخل النار، أو عذاب لا يدفع عنهم، أو عذاب يبلغ الغاية في الدنيا لا يوجد مثله في الدنيا.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ هذا مثل ما مرَّ في تقدير القول، أو أنَّه قول الحال على التمثيل، والمراد في هذا الموضع وغيره التشديد، فإنَّ الإيلام يقع بالسمع كما يقع بمباشرة، وكما يقع التلذُّذ بالسمع، قال قائل:

والأذن تعشق قبل العين أحيانًا(١).

وقال آخر:

ألاَ فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر(٢).

وكما يغتاض بكلام السوء ويتلذُّذ بكلام الخير والصوت الحسن.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ مرَّ مثله، ويكفي أن يقال: كررَّ للتَّأكيد، أو إنَّ المراد بكلٍّ واحد ما تلاه قبله من القرآن والتذكير به.

١- البيت لبشار بن برد وصدره: «يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقة».

٢ -البيت لأبي نواس وتمامه: «ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر».

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

-٥-

قصّة آل فرعون

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ حقيقة الإنذار وجنسه، أو الإنذارات، أو المنذرون الذين هم موسى وهارون، ومن أعانهم من المؤمنين، أو الأنبياء السابقون قبلهما، لأنَّ الدعوة واحدة، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ آيات الأنبياء كلِّها، وهذا لإبقاء العموم على ظاهره أولى من أن يقال: المراد آيات موسى التسع، ووجه التعبير بالتسع أنَّهنَّ المعهودة على عهد فرعون.

ودخل فرعون في الكلام بالأولى، لأنّه رأس قومه في الكفر، وإمامُهم فيه، وكأنّه قيل: ما فعل آل فرعون إذ جاءهم النذر؟ فقال: «كذّبوا». ولَمَّا أشعر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ بالعقاب ــ على نسق ما مرَّ في السورة مِنْ ذِكْر هذه العبارة في العذاب ــ صار محلاً لأنَّ يقال: فماذا وقع بهم؟

فأجاب بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ بعد ذكر موجبه الذي هو تكذيبهم بالآيات كلّها. وواو «كَذَّبُوا» وهاء «أَخَذْنَاهُم» لآل فرعون لقرب ذكرهم، وليجري على نسق ما قبله من ذكر كلّ قوم بما لاق بهم.

وزعم بعضهم أنَّ الضميرين لهؤلاء الأقربين، وهم آل فرعون ولمن ذكر قبل، مع بُعد، وأنَّ الكلام تمَّ في قوله: ﴿ٱلنُّذُرُ﴾، وهو خلاف الظاهر، وإنَّما تمَّ في قوله: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

والفاء تفريع وتسبُّب. والعزيز: الذي لا يغلبه غيره. والمقتدر: الذي لا يعجزه شيء، والمراد بالعزيز المقتدر الله تعالى، فالنصب على المفعوليَّة المطلقة

المجرَّدة عن التشبيه، إذ ليس المراد تشبيه أخذه بأخذ أحد عزيزٍ مقتدر، بل أراد أخذ نفسه، كأنَّه قيل: فأخذناهم أخْذُنا المعظَّم المعهُود إلاّ أنَّه نكَّر للتعظيم بالعزَّة والاقتدار، وهو افتعال من القدرة للمبالغة.

وهنا تمَّ الكلام على الأمم، فصرَف الكلام إلى كُفَّار هذه الأمَّة فقال:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ
وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ
مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

توبيخ المشركين من كفار قريش
وبيان جزاء المجرمين والمتقين

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ معشر العرب، أو يا أهل مَكَّة، ويلتحق بهم غيرهم، والخطاب إمَّا للمؤمنين أو مع غيرهم، فيشكل عليه أنَّه يلزم أن يكون الاستفهام الإنكاريُّ في الآية متوجِّهًا إلى المؤمنين، مع أنَّه لا عتاب عليهم، وأيضًا لا يناسبه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ فإنَّه لا يدَّعي المؤمنون أنَّ لهم براءة في الزبر، ويجاب بأنَّ اللفظ خطاب عليهم لأجل كُفَّارهم، والمراد به إسماعُ كُفَّارهم، ويقدَّر مضاف، أي: أم لكفَّاركم براءة في الزبر. وإمَّا لِلْكُفَّارِ بأن

يخاطب كلٌّ كافر بباقي الكُفَّار، أو جرَّد منهم لشدَّة كفرهم كفَّارًا آخرين، و لم يقل: أنتم، للنصِّ على كفرهم.

﴿خَيْرٌ﴾ بالمال والعدد والعدَّة وَقُوَّة الأبدان وطول عمر ﴿مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وآل فرعون، لا بل أولئكم خير، وقد أصابهم الهلاك بكفرهم، فكيف لا تخافون أن يصيبكم بكفركم؟. وقيل: يجوز ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ بلين الشكيمة في الكفر، وفيه نظر، لأنَّا لا نسلِّم أنَّ كفَّار العرب أو أهل مكَّة أَشَدُّ كفرًا، بل الأمم السابقة أَشَدُّ كفرًا.

﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ﴾ بل ألكم براءة ؟ أي: لكفَّاركم براءة من العقاب على كفركم ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ الكتب السَّمَاوِيَّة، واختار بعض أنَّ هذا الخطاب لِلْكُفَّارِ بالذات، والأوَّل للمؤمنين، أو مع غيرهم، وفيه تلوين الخطاب، وهو خلاف الظاهر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون؟ وهذا على طريق الالتفات إلى الكُفَّار خَاصَّةً بالغيبة بعد الخطاب لهم، أو مع غيرهم، لإسقاطهم عن رتبة الخطاب لشدَّة قبائحهم ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعة ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ أمرنا مجتمع لا يرام ولا يضام، أو منتصر من الأعداء، أو منتقم منهم، أو ممتنع لا يغلبُ، أو ينصر بعضنا بعضًا، أو منتصرون على جنود الله تعالى. وأفرد «مُنتَصِرٌ» رعايةً لِلَفظ «جَمِيعٌ».

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ الجميع المذكور، وهو ردٌّ لقولهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. قال البخاريُّ عن ابن عبَّاس: قال رسول الله ﷺ وهو في قبَّة، أي: خيمة يوم بدر: «**اللهمَّ إنِّي أنشدك عهدَك ووعدَك، اللهمَّ إن هلكت هذه العصبة لم تعبد بعد هذا اليوم أبدًا**»[1] فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك

١- رواه **البخاري**، كتاب الجهاد (٨٨) باب ما قيل في درع النبيء ﷺ والقميص في الحرب، رقم٢٧٠٨، من حديث ابن عبَّاس.

يا رسول الله، فقد ألححت على ربِّك، فخرج وهو في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يجعلون أدبارهم تالية للأعداء المسلمين فرارًا منهم، والإفراد للجنس، كما قرئ: «وَيُوَلُّونَ الأَدْبَارَ»، أو الإفراد لرعاية أنَّ كلَّ واحد يولِّي دبره، كقولك: أَلْبَسَنَا الأميرُ قميصًا، أي: كلٌّ واحد منَّا، والإفراد في الوجهين يناسب الفاصلة، وكذا إن قلنا: أفرد للإشارة إلى أنَّهم كدبر واحد في الهزيمة لا يبقى واحد.

والآية إخبار بالغيب، وهي حجَّة بالغة، هزموا يوم بدر، والآية مكِّية، وما فرض القتال إلاَّ في المدينة، وهو أمر خفيٌّ، كما قال عمر ﷺ يوم نزلت: «أيُّ جمع يهزم؟ وَلَمَّا كان يوم بدر عَلمتُ أنَّه جمع الكُفَّار، إذ رأيت رسول الله ﷺ يوم بدر يثب في درعه، يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾». والمراد: سيهزمهم الله، كما قرئ: «سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ» بالبناء للفاعل ونصب الجمع، وكما قرئ: «سَنَهْزِمُ» بالنون والبناء للفاعل ونصب الجمع، أو المراد سيهزمهم رسول الله ﷺ ، كما قرئ بالتاء والبناء للفاعل ونصب الجمع، خطابًا له ﷺ .

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ إضرابُ انتقال، أي: ليس هذا أَشَدَّ عذابهم، بل لهم عذاب أشدُّ منه، وهو عذاب يوم القيامة، أو ليس هذا تمام عذابهم، بل بعده عذاب يوم القيامة، وهو المراد بالساعة. والموعد زمان الوعد، والمراد موعد عذابهم الأشدِّ. ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ نفسها فكيف عذابها، وعذاب النار بعدها ﴿أَدْهَىٰ﴾ أمر منكر لا يهتدي إلى الخلاص منه، ومقتضى الظاهر أن يقال: وهي أدهى ولكن أظهر تهويلاً لشأنها ﴿وَأَمَرُّ﴾ أشدُّ مرارة، والمرارة استعارة للصعوبة، وهذا أولى من تفسيره بأقوى، من قولك: أمررت الشيء أو الحبل، بمعنى: أحكمته.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ من كلِّ أمَّة، أو إنَّكم يا كفَّار مكَّة، أو كُفَّار العرب، ويلتحق بهم غيرهم، وأظهر ليصفهم بالإجرام، وعلى الأوَّل تدخل كُفَّار هذه الأمَّة بالأولى، لأنَّ الكلام نزل في شأنهم.

﴿فِي ضَلاَلٍ﴾ في هلاك، عبَّر به عن الهلاك، لأنَّ الضلال في الدِّين سببه وملزومه، أو في بُعْدٍ عن الحقِّ في الدنيا ونار توقد يوم القيامة عليهم.

﴿وَسُعُرٍ﴾ نيران تُوقَدُ، وذلك لأنَّ الكلام قيل في العذاب، ولقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ ولا سيما إن علَّقنا «يَوْمَ» بما تعلَّق به «فِي ضَلاَلٍ»، وقد علَّقه بعض بمحذوف، أي: يعذَّبون يوم يسحبون، أو يهانون يوم يسحبون، أو بالقول المقدر الناصب لجملة «ذُوقُواْ...»، أي: يقال لهم يوم يسحبون في النار على وجوههم: «ذُوقُواْ...».

قيل: يجوز تعليقه بـ«ذُوقُوا» على معنى ذوقوا أيُّها المكذِّبون لرسول الله ﷺ يوم يسحب المجرمون من الأمم السابقة فأنتم تساوونهم في العذاب، كما ساويتموهم في الكفر في الدنيا، وهو ضعيف، لأنَّ حاصله أنَّه يقال لهم في الدنيا: ذوقوا يوم القيامة.

﴿مَسَّ سَقَرَ﴾: ألم عذابها، وهو مجاز، لأنَّ مسَّها سبب الألم، وملزومه، والذوق في مثل ذلك شائع، كما يقال: وجد مسَّ الحمَّى، وذاق طعم الضرب. أو شبَّه «سَقَر» بحيوان ورمز إليه بلازمه وهو المسُّ، أو شبَّه اتِّصالها بهم بالمسِّ. و«سَقَر»: نار الآخرة، ويطلق أيضًا على طبقة مخصوصة منها، وذلك من سقرته النار: غيَّرته.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب على الاشتغال ، فهو بفعل الخبر، أي: إنَّا خلقنا كلَّ شيء ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ فهذه الجملة المحذوفة خبر إنَّ. ﴿بِقَدَرٍ﴾ متعلِّق بـ«خلق»

المذكور لا المحذوف، فـ«خَلَقْنَاهُ» المذكور مؤكّد للمحذوف، ولم ينسحب التوكيد على «بِقَدَرٍ» ولو قدّر مثله للمحذوف لانسحب عليه التوكيد، إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر خلقناه بقدر، لكن لا حاجة إلى تقديره، ولا دليل.

ونصب «كُلّ» دليل على تقدير الناصب فقط، ولو علّقنا «بِقَدَرٍ» المذكور لا بـ«خَلَقَ» المحذوف لم يحصل التأكيد أيضًا، إلاّ على تقدير مثله لـ«خَلَقَ» المذكور، ولو رفع «كلّ» كما هو قراءة شاذّة لكان خبره قوله: ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهو المعنى المراد.

فيحتمل أن يكون قوله: «خَلَقْنَاهُ» نعتًا لـ«شَيْءٍ»، ويقدَّر خبر «كُلّ» فيكون المعنى: كلّ شيء متّصف بأنّه مخلوق لنا بقدر، فربَّما توّهم أنّ ثمّ شيئًا غير مخلوق لله تعالى فلا يبطل إلاّ بخارج، وهو سائر الآيات والدلائل التي نصبت أنّه لا خالق سواه، فالنصب أولى، لأنّه لا احتمال معه.

ومعنى «بِقَدَرٍ» بتقدير، أي: بإحكام واستيفاء لا مهملاً، فذلك كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٢٠) ، أو المعنى: بمقدار مخصوص، أو المعنى أنّه مكتوب في اللوح قبل خلقه. والآية ردٌّ على من نفى القدر عن الله ﷻ .

(سبب النزول) خاصم قريش رسول الله ﷺ في القدر فنزل: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ... بِقَدَرٍ﴾ رواه أبو هريرة، وهو يقتضي أنّ «يَوْمَ» منصوب بـ«اذكر». وقال ﷺ : «**صنفان من أمّتي ليس لهما في الإسلام نصيب، المرجئة والقدريّة**» نزل فيهما: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ... بِقَدَرٍ﴾ رواه ابن عبّاس.

وكان ابن عبّاس يبغض القدرية جدًّا ويقول: لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا، ثمّ قال: الزنى بقدر، والسرقة بقدر، وشرب الخمر بقدر. قال مجاهد:

قلت لابن عبَّاس: ما تقول فيمن يكذِّب بالقدر؟ قال: أجمع بيني وبينه، قلت: ما تصنع به قال: أخنقه حتَّى يموت. وعنه ﷺ : «**لكلِّ أمَّةٍ مجوس، ومجوس أمَّتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»[1].

أو كلُّ شيء له مقداره الذي قضاه الله له. وعن ابن عبَّاس: كلُّ شيء بقدر، حتَّى وضعك يدك على خدِّك. قال عمر: قال رسول الله ﷺ : «**إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أمر مناديًا فينادي نداء يسمعه الأوَّلون والآخرون، أين خصماء الله؟ فتقوم القَدَريَّة، فيأمر بهم إلى النار، يقول الله: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**»[2]، سمَّاهم خصماء الرحمن لأنَّهم ينفون قدرة الله على أفعالهم، فقالوا: إنَّهم خلقوا أفعالهم و لم يخلقها الله، وقالوا: لا يقدر أن يخلق المعصية ويعذِّب عليها فاعلها، ولا يعلمها حتَّى تقع.

وأمَّا من قال لا يعلم شيئًا حتَّى يقع معصية أو غيرها فقد انقطعوا.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق كلّها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء**»[3] وذلك كتابة في اللوح المحفوظ، وإلاَّ فلا أوَّل لعمله لأنَّه صفة أَزَلِيَّة. ومن القَدَرِيَّة المعتزلة.

١-رواه **أبو داود** في كتاب السنة باب في القدر رقم٤٦٩١ مع زيادة في آخره، **والهندي** في الكنز: ج١، ص١١٨، رقم٥٥٤، و٥٥٥. من حديث ابن عمر.

٢- لم نقف على تخريجه.

٣-رواه **مسلم** في كتاب القدر (٢) باب حجاج آدم وموسى عليه السلام ، رقم ١٦ (٢٦٥٣). **والتبريزي** في كتاب الإيمان (٣) باب الإيمان بالقدر، رقم٧٩. من حديث ابن عمر.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ الأمر واحدُ الأمور، أي: ما شأننا إلاَّ فعلة واحدة لا تختلف ولا تتردَّد، وهي الإيجاد بلا علاج ولا صعوبة، أو الأمر ضدُّ النهي، وهو قوله: «كن» إذا أراد شيئا، أي: توجُّهُ إرادته إليه، وذلك على العموم في قيام الساعة وغيرها ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ في السرعة إذا حضر وقته، وقيل: المراد قيام الساعة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ﴾ (سورة النمل: ٧٧) ، والصحيح الأوَّل.

﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ من مُّدَّكِرٍ﴾ الأمم السابقة الكافرة، سَمَّاهُم شيعة لكفَّار هذه الأمَّة لأنَّهم قوَّوا كفَّار هذه الأمَّة بتقديمهم في الكفر، وكأنَّهم أنصار لكفَّار هذه الأمَّة.

أو سَمَّى كُفَّار هذه الأُمَّة أشياعًا لهم، أي: من شايعتموهم، أي: تابعتموهم في الكفر، أو المتابعون، كلٌّ واحد شيعة للآخر. وذلك استعارة، لأنَّهم لم يجمعهم زمان واحد وأمر واحد يعين بعضًا فيه صراحًا.

وقيل: «أَشْيَاعَكُمْ» كُفَّار بدر، وأنَّ الآية مَدَنِيَّة، والمخاطبون والقتلى ببدر كلُّهم أشياع بعض لبعض، وقيل: الأشياع بمعنى الأتباع حقيقة.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الشرك ومادونه ﴿فَعَلُوهُ﴾ هذه الجملة نعت شيء، والفعل يشمل الترك كترك الطاعة ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ خبر «كُلّ»، أي: ثابت في الزبر، أو يقدَّر الخبر كونٌ خاصٌّ محذوف جوازا، أي: مكتوب في صحف الملائكة. وقيل: الزبر اللوح المحفوظ، وهو ضعيف، لأنَّ اللوح المحفوظ ليس صحفًا متعدِّدة، وتوجيهه مع الضعف أنَّه سُمِّيَ زبرًا لأنَّه مشتمل على ما في الصحف، أو كلٌّ مقدار منه صحيفة.

ومعنى الآية أنَّ الله تعالى لم يغفل عَمَّا فعلوا، بل كتبه فيجازيهم به، بل هو عالم بأعمالهم بلا أوَّل وبلا ملك وبلا صحيفة وبلا لوح.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ فِعْلٍ صغير ﴿وَكَبِيرٍ﴾ فعل كبير، وهما من أفعالهم المحرَّمة ذكره تأكيدًا لما قبله بتفصيله، وقيل: كلُّ صغير وكبير إلى يوم القيامة ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مكتوب كتابة عظيمة في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة.

﴿انَّ الْمُتَّقِينَ﴾ للشرك وما دونه من المعاصي، ودخل في ذلك العاصي التائب ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ عظيمة ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار عظيمة، استعمل المفرد المجرَّد من «ال» والإضافة في الإيجاب، بمعنى الجمع للفاصلة. ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى السعة، يصلح للكثير وهي سعة المساكن والأرزاق.

وعن محمَّد بن كعب[1]: النَّهَر: النور والضياء، شبَّه الضياء المنتشر بالماء المتدفِّق من منبعه، على الاستعارة. أو النَّهَر: النهار، فإنَّ الجنَّة دائما كضوء الضحى بلا شمس، وليس حقيقة بل مجاز، لأنَّ النهار ما كان بشمس بعد ليل، ويدلُّ للأوَّل قراءة «نَهْرٍ» (بإسكان الهاء) و«نُهُرٍ» (بضمَّتين).

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ خبر ثان، وهو اسم مكان والمعنى: مكان مرضي، استعمل الصدق في لازمه وهو الرضى، لأنَّ الصدق محبوب مرضيٌّ، كأنَّه قيل: في مقعد الرضى. أو الصدق استعارة للرضى بجامع الحبِّ، أو المراد صدق المبشِّر به، وهو الله تعالى ورسوله ﷺ.

وأضيف للصدق لأنَّه ينال بالصدق في النية والقول والعمل، والإضافة تصحُّ لأدنى ملابسة. وعن جعفر الصادق: مدح المكان بالصدق لأنَّه لا يقعد فيه إلاَّ أهل الصدق. وأفرد المقعد لإرادة الجنس، وإضافته للمصدر فهو في معنى الجمع، كما قرأ عثمان البتي[2]: «فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ» (بصيغة الجمع). ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٦، ص١٨١.

٢- هو عثمان بن مسلم البتي البصري أبو عمرو، ويقال: ابن سلمان. صدوق وثقة، وثّقه ابن =

خبر ثالث، والمليك من أوزان المبالغة، كفَعُول (بفتح الفاء)، وفَعَّال (بالفتح والشدّ). ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ عظيم القدرة.

قال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد وإنِّي أرى أنِّي أصبحت، فإذا عليَّ ليل طويل، وليس فيه أحد غيري، فنمت فسمعت حركة خلفي، ففزعت، فقال: «أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق أو لا تفزع، وقل: اللَّهُمَّ إنَّك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون، ثمّ سل ما بدا لك»، قال: فما سألت الله تعالى شيئا إلاّ استجاب لي.

وأنا أقول: «اللَّهُمَّ إنَّك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون هب لي بفضلك ما أنت به عليم، من مقاصدي كلّها، ولا يخفى عنك شيء».

وصلّ اللهمّ وسلّم على سيّدنا محمّد وآله وصحبه
ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

=

حبَّان والدارقطني، عابوا عليه الإفتاء بالرأي. تُوُفِّيَ سنة ١٤٣هـ. ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج٢، ص١٧.

تفسير سورة الرحمن وآياتها ٧٨

وهكذا تذكر السورة مضافة للرحمن، و[قيل:] يحرم تسميتها بالرحمن بلا ذكر سورة، لأنَّ لفظ الرحمن مختصٌّ بالله تعالى لا يسمَّى به غيره.

(سبب النزول) ويقال: لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَنِ﴾ (سورة الرقان: ٦٠) قال كُفَّار مَكَّة: ما الرحمن؟ لا نعرف الرحمن إلاَّ رحمن اليمامة، فنزلت السورة، بمعنى أنَّ الرحمن الذي أنكرتموه هو الذي علَّم القرآن. وقيل: لَمَّا قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (سورة النحل: ١٠٣) ، نزلت السورة، أي القرآن من الله ﷻ لا من تعليم البشر.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

النعم الإلهية الدنيوية والأُخرويّة

-١-

نعمة القرآن والآيات الكونية والتنديد بمن يكفر بها

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾ تعليمه أفضل النعم لاشتماله على التوحيد الذي هو الأصل، وعلى الأحكام الشَّرعيَّة، والكتب المتقدِّمة، والوعظ

والتذكير بأخبار الأمم. وإسناد التعليم إلى الرحمن إشعار بأنّ **القرآن من آثار الرحمة الواسعة.**

(نحو) ولم يُعَدَّ التعليم إلى مفعول أوّل لعدم تعلّق المقام به، لأنّه للامتنان بالتعليم، لا لذكر من يعلّمه القرآن، ولو ذكر لقيل: الرحمن علّم الإنسان القرآن، أي صيَّر الإنسان عالما القرآن، كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الاِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق: ٥) ، والإنسان يتَّصف بالعلم، فهو فاعل في المعنى، فهو المفعول الأوَّل كما هو القاعدة في باب أعطى، ولا مانع من تقديره كما ذكره في: ﴿عَلَّمَ الاِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهو الإنسان وقدَّره بعض: علَّم محمَّدًا القرآن، وهو حسن، **والأوَّل أولى لعمومه** ولذكره في الآية الأخرى.

وقيل: علَّمه الملائكةَ المقرَّبين، وإسرافيل وجبريل، ولا نسلِّم أنَّه علَّمهم القرآن ولو كتبه إسرافيل من اللوح وأتى به جبريل عليه السلام شيئا فشيئا إلى النبيء ﷺ ، لأنَّهم لا يظهر أنَّه يحفظونه ويدرسونه بل خُصَّ به الثقلان، وقد ذُكِر أنَّهم حريصون عليه و لم يُؤْتَوْهُ.

والمراد تعليم ألفاظه لأجل معانيها، والتعبُّد بقراءتها، وهذا أولى من قول بعض: المراد تعليم معانيه، وقيل: المعنى يسَّر القرآن للحفظ والتلاوة، مع أنَّه أفضل وحي وأعلى الكتب والحاكم عليها.

والسورة لذكر تعدُّد النعم، فقدَّم تعليم القرآن، لأنَّ المكلَّف يعلّمه ويحفظه ويعمل به، وعقَّب ذكر الإنسان بذكر تعليم البيان ليميِّزه عن سائر الحيوان.

﴿خَلَقَ الاِنسَانَ﴾ جنس الإنسان، وخلقه هو أوَّل النعم عليه، إلاَّ أنَّه قدَّم ذكر أفضل النعم على ذكره **وهو تعليم القرآن، الذي هو الغاية من خلقه، إذ به كماله،** والغاية متقدِّمة على الشيء قصدا ولو تأخَّرت عنه خارجا. والمراد

بخلق الإنسان خلق بدنه وما فيه من القوى، والشكل. وقيل: الإنسان آدم، وقيل: محمَّد ﷺ .

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الإفصاح عمَّا في قلبه وفهم ما يُلقى إليه، وعن الضحَّاك: البيان: الخير والشرُّ، وقيل: علَّم كلَّ قوم لغتهم، وعن ابن جريج: الهدى والضلال.

[قلت:] ولا يتبادر أنَّ الخير والشرَّ أو الهدى والضلال بيان بل هي أشياء بيَّنها الله، فيحتاج إلى دعوى أنَّها بمعنى مفعول، والقول بأنَّ المراد به الكتابة أولى منه، إذ ورد أنَّ «القلم أحد اللسانين»، **وما ذكرته أولى.**

ومن قال: «الإنسان» آدم قال: «البيان» علم الدنيا والآخرة، أو الأسماء كلُّها، أو اللغات الكثيرة، أو الاسم الأعظم، ومن قال: «الإنسان» محمَّد ﷺ قال: «البيان» التبليغ للناس، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ (سورة النحل: ٤٤) ، أو تفسير المبهم أو المجمل، أو أخبار الأوَّلين والآخرين والأحكام والوعظ.

(نحو) وقوله: ﴿خَلَقَ الانسَانَ﴾ خبر ثان و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ خبر ثالث. **﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** مبتدءان **﴿بِحُسْبَانٍ﴾** فضلة متعلِّقة بكون خاصٍّ محذوف مخبر به. وهكذا قل إذا حذف الكون الخاصُّ المخبر به، أي يجريان بحسبان، أو جاريان بحسبان، أو يقدَّر المضاف أوَّلا، أي: جَرْيُ الشمس والقمر ثابت أو يثبت بحسبان، فيكون الخبر كونا عامًّا واجب الحذف ناب عنه «بحُسْبَان»، فيكون «بحُسْبَان» عمدة استتر فيه الضمير، وقبل تقدير المضاف الأصل: الشمس والقمر ثابتان أو يثبتان بحسبان. والجملة خبر رابع والرابط محذوف، أي: بحسبان له. والجملة بعدها خبر خامس بواسطة العطف، والتقدير: والنجم والشجر يسجدان له.

(لغة) والحسبان مصدر كغفران، أي: بحسبان مقدَّر في بروجهما ومنازلهما. أو الباء بمعنى في، والحسبان: الفلك المستدير، وحسبان الرحى استدارتها، وما تقدَّم أولى. وقيل: الحسبان: ما تدور به الرحى شبَّه به الفلك، والشمس والقمر يجريان بحساب، ومنازل لا يتعدَّيانها. وقيل: المراد حساب الأوقات والآجال، ويدلُّ على الجريان في الآية قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (سورة يس: ٣٨) ، وهو الظاهر، ولا يلتفت إلى زعم من زعم أنَّ المتحرِّك هو الأرض.

ولم يعطف هؤلاء الجمل بالواو على ما قبل ليفيد أنَّ مضمون كلٍّ واحدة نعمة مستقلَّة توجب الشكر، وليُبكِتَ مَن أنكرها، ويُنَبِّهَ من غفل عنها، ولولا الشمس والقمر والليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب ما يريد.

﴿وَالنَّجْمُ﴾ النبات الذي لا ساق له، من معنى نجم الشيء، أي: ظهر ﴿وَالشَّجَرُ﴾ النبات الذي له ساق كالبرِّ والشعير والنخل، تُركَ جريده كلُّه أو نزع أسافله كما هو المعتاد، ولو لم ينزع لضعف ولم يطل هذا الطول الذي نراه، وساقه ما يلي الأرض ﴿يَسْجُدَانِ﴾ سجود النجم والشجر انقيادهما للنبت والنموِّ والإثمار وسقوط أوراق في شأن ما تسقط، وسائر أحوالهما انقيادا شبيهًا بسجود العاقل لله تعالى.

واشتقَّ من السجود ــ بمعنى الانقياد المذكور ــ «يسجد» بمعنى ينقاد على طريق التبعيَّة، والشبه صوريٌّ، إذ لا فعل للنبات، ويناسب تفسير النجم بذلك موافقته للشجر، وفيه تورية، لأنَّ مقارنته للشمس والقمر تناسب نجم السماء.

أو النجم: نجم السماء، وسجوده غروبه، وسجود الشجر استدارة ظلِّه. وعن مجاهد: سجود السماء والشجر انقيادهما لما أراد الله بهما، وفي تفسير النجم بنجم السماء موافقةٌ لما ذكر قبله من الشمس والقمر.

وعطف هذه الجملة للتقابل بينها وبين ما قبلها، لأنّ النجم والشجر في الأرض، والشمس والقمر في السماء.

﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ رفعًا حسـّـيًّا، كانت على الأرض ورفعها إلى حيث هي، وفتقها سبعًا، أو رفعًا معنويًّا كذلك، لكن بمعنى خلقها في موضعها المرتفع، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ لأنّ وضعها خلقها في موضعها لا وضع من عالٍ، ويجوز أن يراد رفعٌ رتبيٌّ معنويٌّ، لأنّ السماء منشأ أحكامه ونزول وحيه وكتبه وملائكته، ويجوز أن يراد الرتبيُّ والحسيُّ، جمعًا بين الحقيقة والمجاز، أو عموم المجاز. ونصب «السماء» على الاشتغال. والجملة المقدَّرة خبر سادس.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ﴾ شرع العدل من معنى قولهم: وضعت الشيء، أي: أثبته، والزيادة والنقص والمساواة في الحسِّ تتبيَّن بالميزان الحسيِّ، فشبَّه به العدل، فهو ميزان معنويٌّ، فـ«الميزان» بمعنى العدل استعارة أصلة تصريحيَّة، وذلك بأن يعطى كلّ ذي حقٍّ حقَّه، قال ﷺ : «**بالعدل قامت السماوات والأرض**»[1]، أي: بقيتا على حالهما.

وقيل: المراد بقاء ما فيهما من الأحياء، إذ لولا العدل لهلك ما فيها، وأما أهل السماوات فذكرهم مبالغة إذ لا يقع فيهم ما يحتاج للحكم بالعدل بينهم.

أو أراد بالعدل في الحديث وضع الأشياء في مواضعها بالحكمة، وعن ابن عبَّاس: المراد في الآية ما تعرف به المقادير وَزْنًا أو كيلاً أو ذرعًا أو نحو ذلك، كلَّفهم به ليتوصَّلوا به إلى حقوق الله تعالى وحقوق العباد، ولفظ «الميزان» حقيقة في كلِّ ما يعرف به المقدار من تلك الأشياء ونحوها.

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

وقيل: المراد الميزان المعروف، وأنَّه حقيقة فيه فقط، ويرجِّح هذا والذي قبله قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ﴾ ويجوز أن يراد بالميزان العدلُ والميزانُ الحسِّيُّ، جمعًا بين الحقيقة والمجاز وأن يراد عموم المجاز، واللام مقدَّرة، أي: لئلاَّ تطغوا، أي: كراهة أن تطغوا، فـ«لاَ» نافية و«أَنْ» مَصدَرِيَّة، والعامل «وَضَعَ» و«الْمِيزَانِ» في موضع الضمير.

والمعنى: لأجل أن تحافظوا على شأنه، لا تنقصوا منه ولا تزيدوا عليه، ومن شاء الزيادة من ماله فبعد تحقيق كمال الوزن، ومن شاء النقص من حقِّه فبعد تحصيل حقِّه، وجاز قبلُ لكن لا يصوغ الميزان ناقصًا، أو الوزن بمعنى الموزون. ويجوز أن تكون «أن» مفسِّرة و«لاَ» ناهية، لتقدُّم ما فيه معنى القول دون حروفه وهو «وَضَعَ» بمعنى شرع، والشرع وحيٌ، والوحي قول، وهو أولى لسلامته من تفسيره بوضع الظاهر موضع المضمر، إذ لا معنى لـ«وَضَعَ الْمِيزَانَ لِئَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ»، إلاَّ بالتأويل الذي ذكرت، ولسلامته من تفسير «الْمِيزَانِ» بالموزون.

وأيضًا يناسب كون «لاَ» ناهية قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ﴾ ففيه عطف الأمر والنهي على النهي، عطف إنشاء على إنشاء. وإذا جعلنا «أَنْ» مَصدَرِيَّة و«لاَ» نافية كان العطف عطف إنشاء على إخبار. ويدلُّ على أنَّ «لاَ» ناهية قراءة: «لاَ تَطْغَوْا» بإسقاط أن مع حذف نون تطغون. وذكر بعض أنَّ التأويل بالمصدر في جعلها مَصدَرِيَّة وجعل «لاَ» نافية مسوِّغ لعطف الإنشاء على الخبر مُوجب لتأويل الإنشاء بالمصدر، لعطفه على المؤوَّل بالمصدر، فيكون مجرَّدا عن الإنشاء، وهو مبنيٌّ على جواز الإنشاء بالمصدر، لعطفه على المؤوَّل بالمصدر، فيكون مجرَّدا عن

الإنشاء، وهو مبنيٌّ على جواز الإنشاء بالمصدر وجواز دخول حرف المصدر على الإنشاء، وقد علمت بطلانه.

ومعنى إقامة الوزن بالقسط تقويم الوزن بالعدل، وهو انتفاء البخس في الكيل والوزن كما قال مجاهد: أقيموا لسان الميزان إذا أردتم الأخذ أو الإعطاء، أو أقيموا بالشرع أقوالكم وأفعالكم، أو ذلك كلُّه. وقيل: الإقامة باليد، والقسط بالقلب، والوزن هنا بالمعنى المصدريِّ.

ومعنى خسر الميزان: نقص آلة الوزن بصوغها ناقصة، أو بعدم إكمال الوزن. ويجوز أن يكون [«الْمِيزَانَ»] مصدرا، وأن يكون بمعنى موزون.

ولا يخفى ما في تكرير مادة الوزن في المواضع من التأكيد والحثّ على ترك البخس. و«الْمِيزَانَ» مفعول به. والمعنى: لا تجعلوا أنفسكم خاسرةً الميزانَ، بنصب الميزان في عبارتي هذه بخاسرة، لأنّ "خَسِرَ" الثلاثيَّ متعدٍّ بنفسه لواحد، كقوله تعالى: ﴿خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) ، و﴿خَسِرَ الدُّنيَا وَالاَخِرَةَ﴾ (سورة الحج: ١١) ، وكقراءة فتح التاء وكسر السِّين، وقراءة فتحها وضمِّ السين، وقراءة فتحهما.

(نحو) إلاّ أنّ تعدِّيه في الآية إلى الميزان لا يخلو من ملاحظة معنى حرف السبب، أي: بسبب الميزان بأن لا تراعوا ما ينبغي فيه، ويجوز أن يكون المعنى لا تكونوا مِمَّن خفّت موازينه يوم القيامة، وقيل: المعنى: لا تخسروا موزون الميزان، بتقدير مضاف.

﴿وَالاَرْضَ وَضَعَهَا لِلاَنَامِ﴾ أي: خلقها متسفِّلة حيث هي الآن، ولم يضعها من علوٍّ، فذلك كقوله: وسِّع الخاتم، أي: صغه من أوَّل واسعًا، ووسَّع الدار، أي: ابنها واسعة، أو ليس المراد بوضعها ذلك بل إثباتها،

تقول وضعت للهرِّ في أعلى الحائط وفي صحن الدار، ووضعت الكتاب في موضع كذا.

وعن ابن عبَّاس: خلق الله تعالى الماء، ثمَّ خلق الأرض من زبَدِه، والأنام الإنس والجنُّ عند الحسن، والحيوان كلُّه في رواية عن ابن عبَّاس، وبنو آدم في رواية عنه، ووجهه أنَّهم أشدُّ انتفاعًا وتصرُّفًا فيها، واللام للنفع، والخطاب بهم أحقُّ.

﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾ مستأنف لبيان بعض منافعها التي للأنام ﴿**وَالنَّخْلُ**﴾ خصَّها بالذكر لأنَّها أفضل الشجر ﴿**ذَاتُ الاَكْمَامِ**﴾ جمع كِمٍّ (بكسر الكاف وقد تضمُّ)، وهو وعاء التمر المسمى طلعًا، أو كلُّ ساتر منها، مثل: الليف والطلع والسعف. وإضافة «ذَات» بمعنى صاحبة وذي بمعنى صاحب محضة، ولذلك نعت بهما المعرفة لإضافتهما لمعرفة.

﴿**وَالْحَبُّ**﴾ كالبُرِّ والشعير والذُّرَة والسلت ﴿**ذُو الْعَصْفِ**﴾ الورق الذي لذلك الحبِّ مطلقًا، وقيَّده بعضهم باليابس، وفي يابسه ادِّخار لبعض الحيوان، وهو مأكول لها في حال خضرته أيضًا، وذلك امتنان عليهم بمأكولهم ومأكول حيوانهم، وفسَّره ابن عباس بالتبن، وعن الضحَّاك أنَّه النخالة.

﴿**وَالرَّيْحَانُ**﴾ النبات الطَّـيِّب الرائحة، وعن الحسن: الذي نقول له "القَمَّام"، وقيل: «الرَّيْحَانُ» الرزقُ، سُمِّيَ لأنَّه يُرتاح إليه، كما قيل: العصف التبن والريحان ثمرته، وعن ابن عبَّاس: كلُّ ريحان في القرآن الرِّزق، ونسب للأكثر، وفيه ضعف.

(صـرف) وأصل الريحان: الروحان، قلبت الواو ياءً تخفيفًا، وفرقًا بينه وبين الروحان بمعنى ما له روح، وقيل: أصله رَيْوَحَان بوزن فَيْعَلَان (بفتح الراء

وإسكان الياء) قلبت الواو ياءً لاجتماعهما مع ياء ساكنة، وأدغمت الياء في الياء، ثمّ خفّف بحذف الياء الثانية التي هي عين الكلمة، التي أصلها واو، كما خُفِّف ميِّت وهيِّن بالشدِّ إلى السكون.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الفاء لترتيب التوبيخ على كفران ما ذكر من النعم وصنوف الأنعام

(بلاغة) **وكلُّ ما ذكر مثل هذه الجملة فترتيب على ما اتَّصَلَ به،** مثل: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ [في السورة السابقة] كلّما ذكر فباعتبار ما اتَّصَلَ به، فلا تكرير في ذلك، ولو كان تكريرا لكان بلا فاء، بل مجرَّدا، أو بالواو لا بالفاء المبنيَّة على ما قبلها، وذلك كقولك لعبدك: ألا تطيعني وقد ألبستك؟ ألا تطيعني وقد زوَّجتك؟ ألا تطيعني وقد خفّفت عنك الخدمة؟ ألا ألا ؟... وقولِك لمن أنعمت عليه مرارًا وكَفَرَ النعمةَ: ألم تكن فقيرا فأغنيتك، أتنكر ذلك؟ ألم تكن عريانا فكسوتك، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا ؟... وهذا كثير في كلام العرب والعجم مُطَّرِدًا لا ينكره إلاّ جاهل معاند.

ونقول: لو لم يذكر هذا التكرير إلاّ في القرآن لكان معجزًا إذ لا يجد الإنسان ثقلاً في تكريره على نفسه، بل كلُّ واحد طريٌّ جديد، كأنّه منفرد، كما يجد القارئ جدَّة تعجُّب ونشاط كلّما قرأ قصَّة الخضر وموسى في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾ (سورة الكهف: ٧١) ، كأنّه أوَّل ما سمعها.

وجاء التكرار أيضًا في الشعر، قال مهلهل في رثاء أخيه:

على أن ليس عدلا من كلـــيب إذا ما ضيمَ جيران المجيـــر
على أن ليس عدلا من كلـــيب إذا رجَف العضاهُ من الدبور
على أن ليس عدلا من كلـــيب إذا خرجت مخبأة الخــدور

على أن ليس عدلا من كلـــيب إذا مـــا أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلا من كلـــيب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كلـــيب غداة تأثُّل الأمر الكبـــير
على أن ليس عدلا من كلـــيب إذا ما جار جأش المستجـــير

وللعرب قصائد على هذا النمط من التكرير.

ومنه قول بعض المولدين مِمَّن لو احتُجَّ به لجاز: «أبا الفضل إنِّي لم أقم»[1].

وذكر «رب» لمزيد التوبيخ، فإنَّ معناه: مَالكٌ مربٌّ منعمٌ، ومن هو كذلك لا يليق به أن يُكفر ويُعصى مع وضوح دلائله، كأنَّها ناطقة، حتَّى إنَّ الكفر بها كتكذيب من تكلَّم، لما عبَّر بالتكذيب.

والخطاب للثقلين، كما أنَّهما المراد بـــ«الأنام»، أو الداخلان فيه كما مرَّ وكما صرَّح به في قوله ﷻ : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾.

وقيل: الخطاب للذكر والأنثى من بني آدم، وهو بعيد.

وقيل: للواحد على العموم البدليِّ الصلوحي من خطاب الواحد بخطاب الاثنين، كما هو قول في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ (سورة ق: ٢٤) ، على عادة العرب في سفر ثلاثة يخاطب منهم الواحد الاثنين، وهو أبعد من الذي قبله.

(سيرة) قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن على أصحابه ولم يجيبوه، فقال: «الجنُّ أفضل منكم، فإنِّي كلَّما قرأت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من آلائك نكذِّب» رواه جابر بن عبد الله.

١-في نسخة "ب" نماذج شعرية من ديوان أبي العتاهية استعمل تكرار جمل في أوَّل كلِّ بيت، راجعها إن شئت في ديوانه.

ولفظ ابن عمر من رواية الطبريِّ والبزار والدارقطنيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: «ما لي أسمع الجنَّ أحسن جوابًا منكم، ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلاَّ قالوا لا بشيء من نعمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد ولك الشكر». ومثله للترمذي.

ذكر الله ﷻ ثماني مرَّات في عجائب خلق الله تعالى ومبدأ الخلق ومعادهم، وسبعًا في ذكر النار وشدَّتها عدد أبواب النار، وثمانًا في وصف الجنَّتين وأهلهما على عدد أبواب الجنَّة، وثمانًا في الجنَّتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثماني الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنَّة، وأغلقت عنه أبواب النار، أعاذنا الله منها، والجملة إحدى وثلاثون آية.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾

-٢-

ذكر أحوال بعض النعم من عجائب خلق الله

﴿خَلَقَ الانسَانَ﴾ آدم ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ هذا البيان لأصل خلقة بني آدم، فبنو آدم خلقوا من صلصال كالفخَّار بواسطة أبيهم، فما بالهم يفتخرون ولا يشكرون النعمة، وقد قيل: «الإنسان» بنو آدم لخلق أصلهم من ذلك، والجمهور على الأوَّل، لأنَّه المخلوق حقيقة من صلصان كالفخَّار بلا واسطة.

(لغة) والصلصال الطين المتيبِّس وهو مأخوذ من الصلصلة، وهي تردُّد الصوت من الشيء اليابس، وقيل: الطين المنتن، من قولهم: «صلَّ اللحم»، أي: تغيَّرت رائحته، ويَرُدُّه قوله تعالى: ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ وهو ما أحرق من الطين حتَّى تحجَّر، فإنَّه ليس فيه رائحة اللحم المنتن، وفي آية أخرى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ (سورة آل عمران: ٥٩) ، وفي أخرى: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (سورة الحجر: ٢٨) ، فذلك كلُّه واقع. أَصْلُه تراب جعل طينًا، ثمَّ حمأ مسنونًا، ثمَّ صلصالا كالفخَّار. وأصْلُ الصاد الثانية لامٌ أدغمت فيها اللام الأولى. ولفظ الآية يلوِّح أنَّ الإنسان متصوّر بصورة من يكثر التفاخر.

﴿وَخَلَقَ الْجَآنَّ﴾ أبا الجنِّ، وهو إبليس عند الحسن، فهو مخلوق من النار بنفسه، كما هو ظاهر قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ (سورة ص: ٧٦) ، لا بواسطة، كما أنَّ آدم خلق من التراب بنفسه لا بواسطة.

وقال مجاهد: هو أبو الجنِّ، وإبليس من ذرِّيــَّته فهو مخلوق من النار بالواسطة، كما أنَّ بني آدم خلقوا من التراب بالواسطة. [قيل:] كانوا مطيعين في الأرض ويطلعون إلى السماء ليلقوا الملائكة، ثمَّ عصوا فقاتلتهم الملائكة.

وقيل: «الجان»: الجنُّ كلُّهم، خلق أوَّلهم من النار وتوالدوا منه، فهم منها بالواسطة سواء قلنا إنَّ ذلك الأب غير إبليس أو إبليس.

﴿مِن مَّارِجٍ﴾ لهبٍ مختلط بدخان أسود، أو بخضرة وصفرة وحمرة، كما روي عن مجاهد، كما يقال: مرجت العهود. وقيل عن ابن عباس: لهب خالص لا دخان فيه، فهو من الأضداد ﴿مِّن نَّارٍ﴾ نعت «مَارِجٍ». و«مِنْ» للتبعيض، أي: بعض مطلق النار، أو للبيان، أي: هو نار مخصوصة. وزعمت طائفة أنَّ الجنَّ نفوس مجرَّدة عن الْمَادَّة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه من خلقه لكم، وتضاعيف خلقكم، وسوابغ النعم فيه، من قُوَّة بدن وعقل، وتحسين الشكل ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ بإثبات ألف «تُكَذِّبَان» في بعض نسخ المغاربة، وبحذفها في بعضٍ على القاعدة، وكذا في جميع السورة.

﴿رَبُّ﴾ هو ربُّ، وقيل: مبتدأ خبره: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ»، والصحيح الأوَّل ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾ مشرق الشمس صيفًا ومشرقها شتاءً ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ مغربها صيفًا ومغربها شتاءً، وذلك مذهب الجمهور وابن عبَّاس.

وقال مجاهد وعكرمة: المشرقان مشرق الشتاء ومشرق الصيف، والمغربان مغرب الشتاء ومغرب الصيف. وقيل: المشرقان مشرق الشمس والقمر، والمغربان مغربهما. وعن ابن عبَّاس: المشرقان مشرق الفجر ومشرق الشفق من جهة القبلة، ويقرب منه ما قيل: هما مطلع الفجر ومطلع الشمس، والمغربان مغرب الشمس ومغرب الشفق.

(صرف) والمشرق والمغرب في هذه السورة كلّها اسما مكان، ويجوز أنَّهما اسما زمان، وأنَّهما مصدران.

(جغرافيا) [قلت:] وناسب أن أذْكُر هنا أنَّ المغرب الأدنى ما ردَّ القيروان أو تونس إلى طرابلس وتونس، والأوسط ما رَدَّت إحداهما إلى ما فوق أعمال تلمسان، والأقصى ما فوق ذلك، قيل: سُمِّيَ أقصى لأنَّه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة في صدر الإسلام، قيل: وحدُّ الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط، ومن جهة المشرق وادي ملوية مع جبال تازا، ومن جهة الشمال البحر الرومي، ومن جهة الجنوب جبل درنه، قاله ابن خلدون.

ومن الأوسط الجزائر، جزائر بني مَزْغَـنَّة، دخلتها فرنسة سنة ستٍّ وأربعين ومائتين وألف، وفي تقسيم فرنجة فرنسة وسائر الإفرنج أنَّ المغرب الأقصى عمالة فاس، وعمالة مراكش وعمالة سوس، وعمالة درعة، وعمالة

تفيلالت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه من الضوء ومنافعها، ومن الظلمة لتسكنوا وتستريحوا بالنوم، ومن الحرِّ والبرد المحتاج إليهما، ومن اعتدال الهواء ومنافع ذلك في الثمار، وغير ذلك، وتجدُّد الفصول والحساب وغير ذلك ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلطهما، أو أرسلهما، كقولك: مرج زيد الدَّابة في المرعى، بمعنى أرسلها، وهما البحر المالح والعذب، وقيل: بحر الروم وبحر الهند، وقيل: أرسل بحري فارس والروم، **والأوَّل هو الصحيح** ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ (سورة الفرقان: ٥٣) ، وقيل: البحران ماء السماء والبحر المالح.

﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاوران ويتماسُّ سطوحهما. وروي أنَّ بحر النيل كالفضَّة البيضاء في البحر المالح يجري فيه، حتَّى يصل البرَّ. ويقال: إنَّ ذلك بحر الروم وبحر فارس يلتقيان في المحيط، لأنَّهما خليجان يتشعَّبان منه، كما روي عن قتادة، واختلاطهما في مبدإ تشعُّبهما منه، وقيل: في مصبِّهما فيه.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله، كما علمت أنَّ بحر النيل يجري في البحر المالح[1]، أو حاجز من الأرض كما علمت في بحر الروم وبحر فارس كما قال قتادة: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغي أحدهما على الآخر، فيفيض عليه وعلى ما بينهما من الأرض، أو لا يفسد البحر المالح البحر العذب الذي هو كالنيل. وعن الحسن: لا يبغيان عليكم فيغرقانكم. وقيل: لا يطلُبانِ حالاً غير الحال التي خلقا عليها على العموم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ من عدم اختلاطهما وإغراق ما بينهما من الأرض، ومن السفر في كلٍّ منهما على حدة، ومن عدم إبطال المالح حلاوة العذب، ومن

١- وذلك لاختلاف الثقل النوعي للماء في كلٍّ منهما.

الاصطياد في كلٍّ منهما لما فيه من سمك وجواهر ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

(لغة) ﴿يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ الدرُّ الصغار، بوزن الجؤجؤ للصدر. والبؤبؤ (بالموحَّدة): الأصل والظريف، ورأس المكحلة، وإنسان العين، ووسط الشيء. واليؤيؤ (بالمثناة التحتيَّة): لطائر كالباشق. والضؤضؤ: الأصل للطائر مطلقًا. والنؤنؤ (بالنون): لمكثر تقليب الحدقة، والعاجز الجبان. والشؤشؤ لدعاء الحمار إلى الماء، ولزجر الغنم، والحمار للمشي، أو لدعاء الغنم للأكل أو الشرب.

﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ الكبار، كما أنَّ اللؤلؤ صغارُه عند عليٍّ ومجاهد وابن عبَّاس وعنه عكس ذلك، وعن ابن مسعود: «المرجان» الخرز الأحمر، فـ«اللؤلؤ» الدرُّ الصغار والكبار. وقد قيل: إنَّهما يخرجان من بحر النيل، إلاَّ أنَّ الأجود أو الأكثر يكون من المالح.

ويقال: **إنَّما يخرج اللؤلؤ والمرجان من المالح** فالمراد بقوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ المجموع، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (سورة نوح: ١٦) ، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف: ٣١) ، وكأنَّه قيل: من أحدهما، وهذا واقع في نفس الأمر.

ولا أرى أن يقدَّر مضاف، فإنَّ المعنى ليس على تقديره بل الامتنان بالمجموع. وقيل: إنَّما يخرجان من ملتقى البحرين، ويردُّه المشاهدة فإنَّهما يخرجان من المالح مطلقًا. وقيل: لَمَّا التقيا صارا كواحد فالخارج من أحدهما كأنَّه خارج من الآخر.

وقدَّر بعضهم المضاف، أي: من أحدهما. وقيل: يخرج من الملح لكن بتوسُّط ماء السماء كاللقاح له، فصحَّ أنَّه منهما، كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى. وقيل: يكون اللؤلؤ والمرجان بماء النيسان تلقَّفه الحوت فيكون

الحوت صدفًا يتضمَّنها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ من التَّجْر بهما، والتزيُّن بهما. [قيل:] وإزالةِ الخفقان، ونتن ريح الأنف والفمِ، وضعف الكبد والكلى والحصى، وحرقة البول، والسدد، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواس، والجنون، والتوحُّش، والجذام، والبرص، والبهق، والآثار في البدن مطلقًا بالطلي، وغير ذلك من المنافع.

والخرز الأحمر [قيل:] يفرح ويزيل فساد الشهوة، ولو تعليقًا، ونفث الدم والطحال شربًا، والدمعة والبياض والجرب كحلا، وغير ذلك ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ لا لغيره، وكلُّ شيء له وخصَّ «الجواري» بأنَّها له لأنَّ الناس صنعوها، وكونها مصنوعةً لهم لا يمنع أنَّها له، لأنَّه هو الذي خلق خشبها وغيرَها وفِعْلَهم، وخلق له أثرا، إذ لا مؤثِّر غيره تعالى، وهو خالق منفعتها ومجراها في البحر.

والياء محذوفة بعد الراء لفظًا وخطًّا. و«الجواري»: السفن حقيقة لغويَّة لا مجاز، مأخوذ من المشي على الأرجل، ولو كان أصله وصفًا.

﴿الْمُنشَآتُ﴾ المرفوعات الشُّرُع، يقال: أنشأت الشيء، أي: رفعته، أو المبعوثات المجراة بالقلاع، ويضعف قول بعض: المرفوعات على الماء، ولكن فيه حكمة التنبيه على قدرة الله تعالى في إبقاء شيء ثقيل على الماء بلا رسوب، وخلق ذلك بالتجويف. وأراهم صنعه، ولو شاء لخلقه بغير التجويف، والمتبادر أنَّ المعنى: المصنوعات، لأنَّ السفن تصنع في طرف البحر، وضعَّف بعضهم القول بهذا. وقيل: المعنى المحدثات المخلوقات المسخَّرات.

﴿فِي الْبَحْرِ﴾ متعلِّقٌ بـ«الْمُنشَآت» أو حال، ﴿كَالاَعْلَامِ﴾ حال، جمعُ عَلَمٍ، وهو الجبل المطلُّ على ما يَتَّصِلُ بالماء، وإلى جهة السماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

ربِّكُمَا﴾ من إقداركم على صنعها، وخلق ما تصنعونها به، وركوبها، والحمل عليها، وإجرائها ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

قدرة الله تعالى على تسيير الكون وإفنائه

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض كما يعلم من المقام، ولو بدون استحضار قوله تعالى: ﴿والأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾. و«مَنْ» لعموم العاقل وغيره تغليبًا للعاقل، أو هي للعاقل للناس والجنّ.

﴿فَانٍ﴾ زائل الحياة، وأمّا الأبدان فليست كلُّها تفنى، لأنّ منها ما يبقى. **وفي ذلك زجر عن أن يفوتك بعض من عمرك في غير طاعة، ولو قليلاً.**

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ الإضافة للبيان، أي: ذات هو ربُّك سبحانه، كاستعمال الجزء في الكلّ على التجوُّز الإرساليّ الأصليّ، تعالى الله عن الأجزاء وعن الكلّ، وقيل: أصله الجهة، واستعماله في الذات كناية.

وقيل: الوجه القصد، بمعنى المقصود، أي: ويبقى ما يقصد به ربُّك من الأعمال الصالحة. وحكمتُه أنّ الأجسام تفنى ويبقى ما أثّرتْ من الأعمال للجزاء. ويُبحث بأنّ الأجسام أيضًا تبعث، فكيف يخصُّ البقاء بالأعمال؟ وأنّ فيه تفسيرًا بالمصدر، وتفسير المصدر باسم مفعول، وكون الإضافة للملابسة لا للفاعل، كقولك: مقسوم زيد، تريد منابه من القسمة.

وقيل: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ الجهة التي أمرنا الله بالتوجُّه إليها، وهي العمل الصالح، وفيه أنّ الأجسام تبقى أيضًا بالبعث، ولا يخفى ضعف القولين هذين إلاّ أنّ الثاني

فيه قرب، وفي القولين نظر، لأنَّهما لا يفيان بكلِّ من عليها لاشتماله على من أشرك أو فسق. وقيل: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ الجهة التي يليها الحقُّ، ويتولاَّها بتفضُّله بها على من يشاء، وذلك باق في كلِّ وقت.

والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكلِّ من يصلح له على العموم البدلي.

﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ أي: العظمة التي يعظِّمه الموحِّدون بها، أو هو بمعنى الإجلال، إذ يتزّهه عن صفات الخلق من يعرفه، أو المراد: من هو جليل في ذاته من المخلوقات، فإنّ الله مالكه، فيقال: ما أجلَّك! وما أعظَمكَ!. أو أهلٌ لأنْ يقال هو ،جليل فمعناه جليل، أو المعنى: ذو إجلال للموحِّدين، أي: تعظيم لهم منه تعالى، وفسَّره بعض بالاستغناء التامِّ.

﴿وَالاِكْرَامِ﴾ يكرم خلقه، أي: ينعم عليهم كلِّهم، أو يكرم المؤمنين بالإسلام والجنَّة، وفسَّره بعض بالفضل التامِّ، وكلٌّ محتاج حقير.

و«ذُو» نعت لـــ«وَجْهُ»، وقرأ أُبَيٌّ: «ذِي» نعتًا لـــ«رَبِّ».

وفي الحديث: «**ألظوا بياذا الجلال والاكرام**»[١]. وعنه ﷺ أنَّه مرَّ برجل يُصلِّي ويقول: «يا ذا الجلال والإكرام» فقال: «**قد استُجيبَ لك**». قال أنس: كنت مع رسول الله ﷺ ورجل يُصَلِّي، ثمَّ دعا فقال: «اللهمَّ إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمد لا إله إلاَّ أنت المنان بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والاكرام، يا حيُّ يا قيوم»، فقال ﷺ : « **أتدرون بما دعا ؟** » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[٢].

١- رواه **الترمذي** كتاب الدعوات عن رسول الله، رقم ٣٥٢٤، من حديث أنس بن مالك.

٢- أورده **المنذري** في الترغيب، ج٢، ص٤٨٥، كتاب الدعاء، باب كلمات يستفتح بها، رقم٤، =

(رسم) وقاعدة المغاربة حذف ألف الجلال في الخطّ، لأنّها متّصلة باللام في كلمة فوق ثلاثة أحرف، وحذف ألف «تُكَذِّبَانِ» في الخطّ لأنّها ألف التثنية، وفي نسخ ثبوتها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من كونه ذا إكرامٍ، وكونه يجلّ الموحِّدين على وجه مِمَّا مرَّ، وكونه جليلا لا يغلبه أحد، فإنَّ هذا عزٌّ لأوليائه يعزُّهم، وكون الأحياء يفنون والأعمال تبقى للجزاء، فإنَّ فناءهم مفتاح للبقاء الدائم، وللجنَّة ونعيمها الدائم، لأنّهم يدخلونها بعد الموت.

وأيضًا الإخبار بالفناء تلويحٌ إلى أن لا يرغب المؤمن في الدنيا ولا يعصي فيها، بل يرغب في الطاعة. والإثابة عليها إكرام ونعمة متنوِّعة، فأشير إليها بالإكرام، وإلى العقاب بذكر الجلال، وفيه أنّه لا تلويح في الآلاء إلى العقاب، إلاّ أن يُتكلّف أنَّ الزجر عن المعصية بذكر الفناء نعمة.

﴿يَسْئَلُهُ,﴾ كلّ حاجَة دينيَّة أو بدنيَّة ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ مِنَ العقلاء الملائكة والإنس والجنِّ، ومَنْ يلهمه الله سبحانه السؤال من غيرهم. ويجوز أنّ المراد بالسؤال ما يشمل السؤال بلسان الحال، وأمّا السؤال بالقلب وحده فلا إشكال فيه، وهو ملتحق بالسؤال باللسان مع القلب.

وكلّ موجودٍ يحتاج في بقائه إلى مُبقٍ، وهو الله ﷻ وعُلاَهُ، والملائكة يسألونه للمؤمنين، وزيادة القُوَّة على العبادة. وعن أبي صالح: يسأله الملائكة الرحمة، أي: الرضى عنهم وعن المؤمنين، ويسأله من في الأرض المغفرة والرِّزق، وفسَّر الآية بالعقلاء فقط.

وعن ابن عبَّاس: أهل السماوات يسألونه المغفرة، وأهل الأرض يسألونه

=

من حديث أنس بن مالك. وقال: رواه أحمد.

الرزق والمغفرة. وقيل: **كلٌّ أحد يسأله ما يحتاج إليه من دنيا أو أخرى.** وعن ابن جريج: يسأله الملائكة الرزق لأهل الأرض والمغفرة، وأهلُ الأرض يسألونهما.

[قلت:] وأنا متعجِّبٌ من أين التخصيص؟ إلاّ إن أريد التمثيل، والصواب **التعميم في كلّ حاجة**، ودخل فيها سؤال دَفْعِ المضارِّ، بل شملت الآية حتّى سؤال المعاصي، وهو مُحرَّم، بمعنى **أنّكم تحتاجون إلى الله تعالى في كلّ شيء.**

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ كلّ وقت ولو دقّ كلحظة، متعلّق بـ«في شَأْنٍ» ولو كان عامًّا معنويًّا للتوسُّع في الظروف بالتقدُّم، أو متعلّق بما تعلّق به «في شَأْنٍ» **﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾** أي: على شأن، أي: أمر من الأمور، كإعطاء ما سألوا، وإنشاء أجسام وجواهر، وسائر أعراض وأحوال وأشكال، وإفناء ذلك.

ومن شأنه أن يحيي ويميت، ويرزق ويُعِزّ ويُذِلّ، ويشفي مريضًا، ويسقم صحيحًا، ويفكّ عانيا، ويفرِّج عن مكروب، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبًا، وغير ذلك إلى ما لا يحصيه إلاّ الله عزّ وجلّ مِمّا يقع.

وعن سفيان بن عيينة: الدهر عند الله يومان: أحدهما مدّة أيّام الدنيا، والآخر يوم القيامة، وشأن الدنيا: التكليفُ بالأمرِ والنهيِ، والإحياءُ والإماتةُ، والإعطاءُ والمنعُ، وشأن يوم القيامة: الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

وقال الحسن بن الفضل: «الشأن سَوْقُ المقادير إلى المواقيت»، أي: وجود الأمور والأشياء في أوقاتها. وفي البخاري وابن ماجه عن ابي الدرداء عن رسول الله ﷺ في هذه الآيات: «**من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرِّج كربًا، ويرفع قومًا ويضع آخرين**»[1] وزاد البزار من رواية ابي الدرداء «**ويجيب داعيًا**».

١-رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٥٥) باب تفسير سورة الرحمن بدون رقم، و**ابن ماجه** في المقدّمة (١٣) باب فيما أنكرت الجهميّة، رقم٢٠١. من حديث أبي الدرداء.

والحديث إمَّا تمثيل وإمَّا بيان لما أريد في الآية، وغيرُه مستفاد من الآي الأخر والأحاديث الأخر، ومن التمثيل ما قيل: كلَّ يوم ثلاث عساكر: عسكر من الأصلاب إلى الأرحام، وعسكر من الأرحام إلى خارجها، وعسكر من الدنيا إلى القبور. ولا يخفى أنَّ شأن الدنيا الإيجاد والإعدام، وشأن الآخرة الجزاء، وفيها أيضًا إيجاد اللذَّات والآلام، وإيجاد المأكول والمشروب وإفناؤهما، وإفناء الحيوانات.

[قلت:] ولا مانع من شمول الآية الآخرة، فبعد الأزل لا ينقطع الإيجاد والإعدام، والزمان سيَّال يخلقه الله تعالى شيئا فشيئا، فهو حادث لا ينقطع ولو عند موت الخلق كلِّهم، فهو داخل في الآية، فمن شأنه خلقُه الأزمان.

وفي الآية ردٌّ على اليهود إذ قالوا: إنَّ الله تعالى لا يخلق يوم السبت شيئًا وقد قيل: نزلت الآية في قولهم ذلك، وحديث : «**إنَّ القلم جفَّ بما يكون**»[1] معناه القضاء لا الإيجاد والإعدام خارجًا.

(قصص) ويروى أنَّ مَلِكًا سأل وزيره عن الآية، وأمهله لغدٍ وحزن لذلك، فقال عبد له: أخبرني بما أحزنك، فأخبره، فقال: أنا أفسِّرها للملك، فَأَعلَمَهُ، فقال: أيُّها الملك شأنه أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الْمَيِّت ويخرج الْمَيِّت من الحيِّ، ويشفي سقيمًا ويسقم سليمًا، ويبتلي معافى ويعافي مبتلى، ويعزُّ ذليلاً ويذلُّ عزيزًا، ويفقر غنيًّا ويغني فقيرًا، فقال الملك: أحسنت، وخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي هذا من شأن الله ﷻ .

١-رواه **البخاري** في كتاب النكاح (٨) باب ما يكره من التبتُّل والخصاء، رقم٤٧٨٨. من حديث أبي هريرة، وأوَّل الحديث قوله: «يا رسول الله إنِّي رجل شابٌّ...».

وقال عبد الله بن طاهر للحسين بن الفضل: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (سورة المائدة: ٣١) ، والندم توبة ؟ وما معنى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد جفَّ القلم ؟ وما معنى: ﴿وأن لَّيْسَ لِلانسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣٩) ، والحسنة بعشر وأكثر ؟ فقال: ليس الندم توبة في تلك الأمَّة، أو ندم على حمل هابيل مقتولاً، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلانسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ لغير هذه الأُمَّة، ولهذه الأمَّة ما سعت وما سُعِي لها، وأضعاف الحسنة، و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ إنجاز ما قضى، فقبَّل عبد الله بن طاهر رأسه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا﴾ من إعطاء ما سألتم، وخلق مقدِّماته ﴿تُكَذِّبَانِ﴾. وأنت خبير بأنَّ «ءَالآءِ» جمع إِلَى كرِضًى. وأنَّ «بأيِّ» متعلّق بـ«تُكَذِّبُ» في جميع السورة.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾

الجزاء والثواب على الأعمال في الآخرة

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ﴾ هذه الآية أشدُّ عليَّ كما شدَّ على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ (سورة هود: ١١٢) ، وأهوالُ القيامة، لأنَّها جاءت على شكل من له مملوك أنعم عليه ولم يشكر، فقال: سأترك الأشغال كلَّها وأعاملك بما تَستحقُّ !.

(بلاغة) والله ﷻ لا يشغله شيء عن شيء، لكن قَضَى الأشياء مرتَّبة، ولكن كَنَّى عن التوفر في الانتقام بحيث لا شيء يعارضه عن تمام الانتقام كمن ترك المهامَّ إلى مُهِمٍّ واحد، وذلك استعارة تمثيليَّة.

ويجوز أن تكون مفردة، بأن استعمل «سَنَفْرُغُ» في أن نأخذ في جزائكم، فقط، فتكون تبعيَّة، بأن يشبِّه الأخذ في الجزاء فقط بالتفرُّغ إلى الشيء وحده، ويشتقَّ منه «نَفْرُغُ» بمعنى نأخذ فيه وحده، وعندي لا استعارة أَصلِيَّة في مثل هذا كنطق الحال، وإنَّما التبع في التشبيه فقط، لا في استعارة متقدِّمة.

والآية **وعيد تهديد على المعصية للمجموع**، ويصدق خارجا بمن أصرَّ، لا تهديد لمن أصرَّ وحده كما قيل، لأنَّ الثقلين يعمُّ، اللهمَّ إلاَّ أن يراد سنميز لكم بالجزاء العاصي من المطيع.

وقيل: معنى «سَنَفْرُغُ» سنقصد، كما نادى إبليس في بيعة العقبة الثانية أو الثالثة، على أنَّ العقبة ثلاث «ألا إنَّ محمدًا والصُّبات[1] قد جمعوا لكم» فقال ﷺ : «هذا أزَبُّ العقبة لأتفرغنَّ لك يا خبيث»، أي: لأقصدنَّ إبطال أمرك.

وَسُمِّيَ الإنس والجنُّ ثقلين لشرف قدرهما مطلقًا بنحو الرأي والصنائع، بالنسبة إلى الحيوان، بل إذا كان المؤمن أفضل من الملائكة ـ لمخالفته ما يهوى، والصبر عليها ـ يكون الجنِّيُّ المؤمن كذلك أفضل منهم لوجود العلَّة، قال ﷺ : «**إنِّي تركت فيكم ثقلين: كتاب الله تعالى وعِتْرَتِي**»[2]، أي: شيئين عظيمين.

وقيل: سُمِّيا ثقلين لثقلهما بالتكليف، وقال الحسن: لثقلهما بالذنوب،

١- الصُّبات جمع صُبة (بالضمِّ). من معانيها: جماعة من الناس.

٢- أورده **الهيثمي** في المجمع: ج١، ص١٧٠. (م.أ.ح.ن)

وقيل: لثقلهما على الأرض، وقيل: هما على الأرض كعدلي الدَّابَّة، وغيرهما كالعلاوة، وحذف ألف «أَيُّهَا» في الخطِّ تبعًا للّفظ إثباتًا لباب تبع الخط للفظ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا﴾ من النعم التي تضمَّنها الإخبار باستقبال التفرُّغ لكم، فإنَّه زاجر عن المعاصي إلى الطاعة الموجبة للنجاة، والفوز بنعم الآخرة، ونعم الدنيا التي تختصُّ بالمؤمن، وإن شئت فقل في جميع السورة: بأيِّ آلاء ربِّكم العَامَّة التي منها كذا ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالانسِ﴾ هما الثقلان، لكن فصلهما لأنَّ من الإنس من يدَّعي القُوَّة، ولشهرة الجنِّ بالأفعال الشَّاقة، ومع ذلك لا يقدر أحد منهما أن يفوت ما كتب عليه من العذاب، كما قال الله ﷻ :

﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمُ, أَن تَنفُذُواْ﴾ تخرجوا، كما تنفذ جسمًا وتخرج من ثقبه شيئًا ﴿مِنَ اَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ جوانبها هاربين من قضائه ﴿فَانفُذُواْ﴾ أمرُ تعجيز عن استطاعة النفوذ، وزاد تقريرًا بقوله ﷻ : ﴿لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ قوَّة قاهرة ولا توجد لأحد، فأنتم عاجزون عن النفوذ.

ومن هذا الباب ما روي «أنَّ الملائكة تحدق بأهل الموقف، فأينما هربوا وجدوا الملائكة تردُّهم».

والآية في أهل الموقف لا سيما يوم القيامة، فالمراد لا جهَةَ تَهْرُبُون إليها، أو من موضع أطرافها إذا كانت أو توجد السماوات في ذلك اليوم.

وقيل: الآية بمعنى أنَّه تنفتح السماء آخر الزمان، فتنزل الملائكة تحدق بالإنس والجنِّ. وقيل: إن استطعتم الفرار من الموت ففرُّوا. وقيل: إن استطعتم الفرار من القضاء. وقيل: يحاط يوم القيامة بالملائكة ولسان من نار عليهم، فيقال: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمُ, أَن تَنفُذُواْ...﴾.

وقيل: إن قدرتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض لتعلموا ما فيهما فانفذوا ولا تقدرون على ذلك إلاّ بأفكاركم، فقد تدركون بها بعضًا، وذكر الأقطار لأنّها بلا ثقب، وقد عجزوا عن الطلوع إلى السماء وثقبها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ من نعمه التي هي التحذير والمساهلة والعفو مع القدرة الكاملة، أو من الاطّلاع بأفكاركم إذا فسّرنا السلطان به ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُرْسَلُ﴾ يصبُّ ﴿عَلَيْكُمَا﴾ ثنّى مراعاة للفظ الثقلين إذْ هُوَ تثنية، كما جمع باعتبار أفرادهما قبل ذلك. وقرأ زيد بن عليٍّ: «إن استطعتما» بالتثنية مراعاة للّفظ ﴿شُوَاظٌ﴾ لهب خالص، كما عند ابن عبّاس رضي الله عنهما، أو اللهب المختلط بالدخان، أو النار والدخان معًا، أو اللهب الأحمر المنقطع كما قال مجاهد، أو اللهب الأخضر، أو الدخان الخارج من اللهب كما قال الضحّاك.

﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ دخان اللّهب معه أو النحاس المذاب، روايتان عن ابن عبّاس رضي لله عنهما، أو اللهب بلا دخان الشبيه بالنحاس، وقيل: يرسل هذا تارة وذاك أخرى ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا تمتنعان أو لا ينصر بعضكم بعضًا، قال الضحّاك: الآية في شأن نار تحشر الناس والحيوانات حتّى القردة والخنازير من المغرب إلى الموقف، تبيت حيث باتوا وتقيل حيث قالوا، وذلك إخبار بعجز الجنِّ والإنس.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ من نعم التهديد الزاجر عن أنواع المهالك إلى أنواع المفازات ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

أحوال المجرمين يوم القيامة بعد قيام الساعة

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ جوابها محذوف يقدَّر بعد قوله: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ للتهويل، أي: كان ما لا تسعه دائرة الكلام، أو رأيتما أمرًا هائلاً، أو الجواب قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذ...﴾. و«السماء» سماء الدنيا، والسماوات الستُّ تزال بلا انشقاق، وقيل: انشقاقها عبارة عن خرابها، وقيل: تنشقُّ لنزول الملائكة، وقيل: **عبارة عن شدَّة الهول** ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ تشبيه بليغ كأنَّها نفس النورة التي تنبت ولها رائحة، ووجه الشبه اتِّفاق اللون في الحمرة عند قتادة، وذلك بحرارة النار، وعن ابن عبَّاس: كأنَّها نفس الفِرْس الوردي[1]، أي: الشبيه بتلك النورة في الحمرة، وفيه أنَّ التشبيه بالأصل وهو تلك النورة أولى من التشبيه بما شبَّه به، نعم قال الكلبيُّ والفرَّاء: الفرس الورد هو الذي يصفرُّ ربيعًا ويحمرُّ شتاءً، ويغْبرُّ في شدَّة البرد فيحسن تشبيه السماء به لجامع ذلك التلوُّن، وقيل: المراد وردة صفراء.

﴿كَالدِّهَانِ﴾ خبر ثان لـ«كَانَتْ» لا نعت لـ«وَرْدَةً»، إذ لا شبه بين الورد والدِّهان، وهو درديُّ الزيت، [والجامع التموُّج والاضطراب] إلاَّ إن فرضنا أنَّ الورد يذوب فنقول: تذاب السماء بحرِّ نار جهنَّم، فوجه الشبه الذوبان وقيل: اللّمعان.

١- الفِرْسُ (بكسر وإسكان) ضرب من النبات، قيل: وهو القصقاص، وشبَّه السماء بالوردة بجامع كثرة الشقوق كأوراق الوردة.

وقيل: الدِّهان: أنواع الدهن المختلفة، بعض أحمر وبعض أصفر وبعض غيرهما. وهو جمع دهن، كقرط وقراط، أو مفرد كحزام و إدام، وعن ابن عباس: الدهان الجلد الأحمر، فهو مفرد، وقيل: جمع وقيل: لون السماء حمرة، والخضرة التي نرى للبعد، وفيه أنَّ قوله ﷻ : ﴿فكَانَتْ وَرْدَةً﴾ يدلُّ على حدوث اللَّون فيها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه التي تضمَّنها الزجر عن المعصية، الدَّاعي إلى نعم لا تحصى، المنجِّي من شرور لا تستقصى، وقد كان عدلاً أنْ يأخذكم بأوَّل معصية بعد الزَّجر و لم يفعل ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذا انشقَّت السماء، أي: تنشقُّ، متعلَّق بـ«يُسْئَلُ» بعده، وإذا جعل هذا وما بعده من الجملة جوابَ «إِذَا» ففيه تأكيد، لأنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ مغنٍ ﴿لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ﴾ ما هو؟ ولا كم هو؟ ولا لماذا ؟ سؤال استفهام حقيق ليعلموه من جهتهم، لأنَّ الله تعالى عالم به، فهو يجازي عليه لا يفوته، ولأنَّه كتب، ولأنَّه يعرف المجرمون بسيماهم، بل يَسْأل سؤال توبيخ أو تقرير، وهكذا كلَّما نفي السؤال فهو الاستفهام الحقيق، وإذا ثبت فهو استفهام توبيخ أو تقرير، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٢) ، ثمَّ اطَّلعت أنَّ ذلك مذهب ابن عبَّاس.

وقيل: لا يُسألون سؤال رحمة، وقيل: لا يُسأل غير المجرم عن ذنب المجرم، وقيل: يسألون في موطن من مواطن يوم القيامة، ولا يسألون في موطن آخر، وتنطق جوارحهم فيه، وقيل: نُفِيَ السؤال عند الخروج، وأُثبِتَ عند الحساب، وقيل: نفي السؤال عن الذَّنب وأثبت السؤال عن الباعث على الذنب.

وضمير «ذَنبِه» للإنس، لأنَّ قوله: ﴿إِنسٌ﴾ في نية التقديم، لأنَّه نائب فاعل، وإفراد الضمير لأنَّ الإنس يطلق على الفرد كما هنا وعلى الجماعة.

﴿إنسٌ﴾ آدميٌّ ﴿وَلاَ جَآنٌّ﴾ منسوب إلى الجنِّ، والتقدير: ولا جانٌّ عن ذنبه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا﴾ النعم التي تضمَّنها الإخبار بأنَّه لا يُسأل مذنبٌ عن ذنبه لعلم الله تعالى به، ويعرفون بسيماهم فيجازَوْنَ، وكم بَيَّنَ الأَخبارَ بذلك ليتحرَّزوا ! [1] ﴿تُكَذِّبَان﴾.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ هذا كلام مستأنف لا تعليل لقوله ﷻ : ﴿لاَ يُسْئَلُ﴾، لأنَّه لم يقل: لا يسأل إنس ولا جانٌّ هل هو مذنب؟ إلاَّ أن يُدَّعى أنَّ المعنى لا يسأل إنسٌ ولا جانٌّ في شأن ذنبه الذي يتوقَّع ثبوته. و«الْمُجْرِمُونَ» على العموم هكذا، وإن أريد به بعض من الإنس وبعض من الجنِّ العظام الذنوب أو المصرُّون، فمن وضع الظاهر موضع المضمر، ليوصفوا بالإجرام، فقد دخل في قوله ﷻ : ﴿لاَ يُسْئَلُ...﴾ المؤمن الموفي فإنَّه يُسأل ويُغفَر له.

وسِيمَا المجرمين: سوادُ الوجوه، وزرقة العيون، وما يعلوهم من الكآبة، وأثر الحزن والعمى والبكم والصمم. والسعيد الأعمى في الدنيا يبعث بصيرًا، والشقيُّ الأعمى في الدنيا يبعث أعمى، ثمَّ يجعل بصيرًا، فيقرأ كتابه ثمَّ يعمى. وفاعل المعرفة الملائكة، وكذا الأخذ في قوله: ﴿فَيُوخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالاَقْدَامِ﴾ أي: تعرفهم الملائكة بسيماهم، أي: علامتهم، فيأخذونهم إلى النار بنواصيهم وأقدامهم.

و«بِالنَّوَاصِي» نائب الفاعل، والناصية مقدَّم الرأس ولو بلا شعر فيه، والباء للآلة، كضربته بالسَّوط. وليس تأويل الأخذ بالسحب مخرجًا له عن الآلة كما تُوهِمُ إلى التعدية، بل لو قيل: يسحب بناصيته لتبادرت الآلة. و«ال» عوض عن الضمير، كما رأيت، أو يقدَّر الضمير، أي: بالنواصي منهم والأقدام منهم، أو

١-أي كَمْ مرَّة أخبر بذلك لعلَّهم يحترزون.

تجعل «ال» للعهد فلا تقدير، فإنَّك تعرف بذكر النواصي والأقدام بعد ذكر المجرمين أنَّها نواصي المجرمين وأقدامهم.

[قلت:] ولا بدَّ من استشعار أحد هذه الأوجه في التفسير، وليس التفسير مستغنيًا عن ذلك، ولو لم يوجد ما يستحقُّ الضمير الرابط.

وَكَيفيَّة الأخذ: أن يجمع الملك بين قدمي المجرم وناصيته من وراء ظهره ويكسر ظهره ويلقيه في النار. وقيل: تجعل رؤوسهم على ركبهم، ونواصيهم على أصابع أرجلهم مربوطة.

وروي أنَّ الله خلق ملائكة جهنَّم قبل جهنَّم بألف عام، ولا يزالون يزدادون قُوَّة حتَّى يأخذوا بالنواصي والأقدام. وقيل: يؤخذ بعض بالناصية وبعض بالقَدَم. وقيل: يؤخذ الواحد بالناصية تارة وبالقدم أخرى.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ النعم التي يتضمَّنها الإخبار بمعرفة المجرمين بالسيما، والأخذ بالنواصي والأقدام، من الازدجار عمَّا يوجب ذلك، ويقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ التِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ قيل: أو مقول لحال محذوفة صاحبها هاء «لهم» أو «منهم» المقدَّر هكذا: بالنواصي والأقدام لهم أو منهم مقولاً: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ...﴾. أو مقول لقول مستأنف جواب سؤال، لأنَّ الأخذ بالنواصي والأقدام يشعر بأنَّ معه قولا، كأنَّه قيل: ماذا يقال لهم؟ فقال: يقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ...﴾.

والمضارع لإفادة استمرار تكذيبهم بجهنَّم في الدنيا، فلذلك لم يقل كذَّب بها المجرمون وأظهر، ولم يقل: يكذِّبون، ليصفهم بالإجرام الموجب للنار.

﴿يَطُوفُونَ﴾ يتردَّدون ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ تارة يكونون فيها، وتارة في الحميم، وهو ماء حارٌّ يغلي منذ خلق الله جهنَّم يغمسون فيه، وقيل: صديد أهل

النار الحارُّ، وعن الحسن نحاس مذاب كالماء حارٌّ، وعلى كلِّ حال يغمسون في الحميم فتخلع أعضاؤهم فيخلقها الله ﷻ، وقيل: ينصبُّ عليهم، وقيل: يسقونه إذا طلبوا الماء، وقيل: إذا استغاثوا من النار صبَّ عليهم، أو غمسوا فيه، وعن كعب الأحبار: يساقون إلى واد فيه دم وقيح أهل النار بالأغلال ويغمسون فيه ويخرجون وقد أحدث الله ﷻ لهم قُوَّة ويردُّون إلى النار.

﴿ءَانٍ﴾ بالغٍ إناه، أي: غايته في الحرارة. وقيل: حاضر، وهو كقاض.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ نعمه التي تضمَّنها الإخبار بجهنَّم، والحميم الآني فيتزجروا. والآيات من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ إلى هنا لا نعمة **فيها بل زواجر، لكنَّها وعظ نافع لمن يزدجر، فهي نعم فساغ ذكر الآلاء.**

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

أنواع نعم الله على المتقين في الآخرة

-١-

وصف جنات المقربين

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موضع قيامه وهو المحشر، أو زمان قيامه، أو نفس قيامه، وقيامه في ذلك كلِّه قيامه على كلِّ نفس بالجزاء على أعمالها، أو

قيامه عليهم في حياتهم بالمراقبة والحفظ لأحوالهم، كما قال ﷻ : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (سورة الرعد: ٣٣) ، فالقيام فعله.

ويجوز أن يكون قيام الخلق له، أي: القيام الذي يقومه الخلق له ﷻ ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة المطفّفين: ٦) ، فالقيام فعل الخلق في المحشر ينتظرون ما يحلّ بهم.

وقيل: المعنى: ولمن خاف مقامه عند ربِّه، أو موضع قيامه عنده، أو زمان قيامه عند ربِّه، والعنديَّة بمعنى حضور حسابه تعالى. أو المراد: خاف الله، وزاد تعالى: «مَقَامَ» إعظامًا له ﷻ ،كما تقول للسطان: أعزَّ الله مقامك. وعلى كلِّ حال يهتمُّ بالمعصية فيذكر العذاب عليها فيتركها.

﴿جَنَّتَانِ﴾ عرض كلِّ واحدة منها مائة عام، كما رواه عياض بن غنم[1]، إحداهما منزله وموضع زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه. أو إحداهما داخل منزله والأخرى خارجه. أو جنَّتان ينتقل من إحداهما للأخرى، لتتوفَّر لذّته، في مقابلة تردُّد أهل النار بين الحميم والنار.

أو إحداهما لأعمال قلبه والأخرى لأعمال بدنه، أو إحداهما لطاعته والأخرى لتركه المعصية، أو إحداهما لخوفه والأخرى لتركه المعصية، أو إحداهما لعبادته والأخرى بفضل الله ﷻ ، أو جنَّة للتوحيد والأخرى للعمل، أو جنَّة عدن وجنَّة نعيم.

وللجنِّيِّ جنَّتان كالآدميِّ، وهو داخل في الآية، فليس كما قيل: إحداهما للخائف الجنِّيِّ والأخرى للخائف الإنسيِّ، من حيث إنَّ الخطاب للإنس والجنِّ.

١-عياض بن غنم بن زهير الفهري: من شجعان الصحابة وفرسانهم، أسلم قبل الحديبيَّة، ونزل الشام، وفتح الجزيرة في بلاد ما بين النهرين في أيـــام عمر، وكان يقال له: "زاد الراكب" لكرمه. تُوُفِّيَ في الشام أو في المدينة سنة ٢٠هـــ. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٩٩.

(قصص) وقد روي أنَّ شابًا ملازما للعبادة في المسجد كلَّمته جارية في خلوته فيه، فمالت نفسه فغشي عليه، فحمله عمُّه لداره، وأفاق وقال: ياعمُّ أقرئ السلام عمر، واسأله: ما لمن خاف مقام ربِّه ؟ وشهق شهقةً أخرى فمات، فجاء عمر فقال: «لك جنَّتان لك جنَّتان»، ففسَّر الآية بأنَّهما للواحد، لا للجنِّيِّ إحداهما وللإنسيِّ الأخرى.

وروي أنَّ أبا بكر ﷺ تفكَّر في أهوال يوم القيامة فقال: «ياليتني كنت نبتة فأكلتني بهيمة، أو لم أولد» فترل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المترل، ألاَ إنَّ سلعة الله غالية، ألاَ إنَّ سلعة الله الجنَّة**»[1] والإدْلاج السير أوَّل الليل، وذلك عبارة عن الاجتهاد في الطاعة.

(أصول الدين) قال أبو ذرٍّ: سمعت رسول الله ﷺ يقصُّ على المنبر ويقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: وإن زنى وإن سرق وكلَّما أعاد عدت، فقال في الثالثة: «على رغم أنف أبي ذرٍّ» وهو **حديث حقٌّ لمن تاب**، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ وهل ترى من لم يتب خائفًا مقام ربِّه ؟ والخوف المذكور الخوف الزاجر لصاحبه عن المعاصي، وعن الإصرار. [قلت:] **ولا يكون خائفًا من لم يكن للذنوب مخالفًا**.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا﴾ نِعَم التوفيق إلى خوف المقام ونِعَم الجنَّتين **﴿تُكَذِّبَانِ﴾**.

١-أورده المنذريُّ في الترغيب في الخوف وفضله، ج٤، ص٢٦١، رقم١٠. من حديث أبي هريرة. وقال: رواه الترمذيُّ وقال: حديث حسن.

﴿ذَوَاتَآ﴾ صاحبتا، نعت «جنَّتان». تثنية "ذات" بمعنى صاحبة.

(صرف) فإنَّ "ذات" يثَّى على "ذاتا" بلفظه، وهو القياس، كما يثَّى على ذوا ويجمع ذو على ذوو، ويثنى أيضًا على ذواتا، بردِّه إلى أصله، لأنَّ التثنية تردُّ الشيء إلى أصله، نحو: رَمَى ورَمَيَا، ودَعَا ودَعَوَا، وتقول: العَصَا والعَصَوَان، والفَتَى والفَتَيَان، والأخ والأَخَوَان، وقد لا تُردُّ نحو يَدَان، والأصل: يَدَيَان. وقالوا: أصل ذات ذوات، حذفت الواو للتخفيف وللفرق بين الواحد والجمع. وبسطه في النحو.

(صرف) ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فنٍّ بمعنى نوع، أي: ذواتا أنواع من الأشجار والثمار، أو جمع فنن، وهو الغصن اللَّيِّن الدقيق، روايتان عن ابن عبَّاس، الأولى أرجح معنى، والثانية أرجح أيضًا لفظًا، لأنَّ جمع " فَعَلٍ " بتحريك العين بفتح أو كسر أو ضمٍّ، مع أيِّ حركة حرَّكت الفاء على " أفعال" أكثر مع جمع " فَعْل" (بإسكان العين) على " أفعال".

وعلى التفسير بالأغصان يكون اختيار ذكرها عن ذكر الأوراق والقصب والثمار، لاشتمالها على ذلك كلِّه، وعلى الظلال مع اختصار، وقيل: «أَفْنَان» ظلال، وهو تفسير باللازم والمعنى. وكذا قول بعض: ذواتا فضلٍ وسعةٍ على ما سواهما. وعن عطاء: غصون في كلِّ غصن فنون من الفاكهة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الأفنان ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وما يكون في الآخرة متحقِّق، منزَّل منزلة الحاضر، ولا يعتبر إنكار منكره.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ الجملة نعت لـــ«جنَّتان»، أي: في كلِّ واحدة منهما عينان من الماء الزلال، إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل عند الحسن، أو إحداهما ﴿مِن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ، وأخرى ﴿مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ (سورة محمَّد: ١٥) . وعن ابن عبَّاس: عينان مثل الدنيا أضعافًا مضاعفة.

﴿تَجْرِيَانِ﴾ على استمرار من جبل مسك إلى أسفل، و إلى أعلى بحسب إرادة السعداء. وعن ابن عبَّاس: تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنَّة، قاله ابن عبَّاس، أو إحداهما تجري بماء التسنيم، والأخرى بالسلسبيل، أو إحداهما ﴿مِن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ، والأخرى ﴿مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم العينين وجريانهما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ يتعلَّق بمحذوف حال من ضمير الاستقرار ﴿زَوْجَانِ﴾ صنفان: أبيض وأحمر، أو أخضر وأصفر، أو معروف في الدنيا وغريب غير معروف فيها، أو رطب ويابس لا ينقص حلاوته عن الرطب. وعن ابن عبَّاس: ما في الدنيا ثمرة حلوة أو حامضة أو مرَّة إلاَّ وهي في الجنَّة، حتَّى الحنظل إلاَّ أنَّه يحلو حامضها ومرُّها. والجملة نعت لـــ«جنَّتان». ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه التي هنَّ كلُّ فاكهة وأنَّ كلاًّ منها زوجان ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال محذوف العامل والصاحب، أي: يتنعَّمون فيهما متَّكئين، أو يستوطنون الجنَّة أو يدخلونها متَّكئين، أي: مقدِّرين الاتِّكاء، أو مفعول لمحذوف، أي: تراهم متَّكئين، وقيل: حال من «مَنْ» في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ وفيه أنَّ معنى قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ إخبار بالوعد بالجنَّتين، وهذا الوعد لا يتقيَّد بالاتِّكاء، وهذا الجمع مراعاة للمعنى بعد الإفراد، مراعاة للفظ.

والاتِّكاء من صفات المتنعِّم الصحيح الجسم الفارغ عن الهمِّ. والمراد: متَّكئين فيها، أو متَّكئين في منازلهم، قدَّم هنا «مُتَّكِئِينَ» لتقدُّم ذكر الخوف، فناسب ذكر ما يشعر بزواله وهو الاتِّكاء، فإنَّه من شأن الآمنين.

﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا﴾ ما يلي الأرض منها ﴿مِنِ اسْتَبْرَقٍ﴾ حرير غليظ، فكيف ظواهرها، ولا بدَّ أن يكون أفضل، فقيل: هي من سندس، وقيل: من نور جامد، وقيل: من نور يتلألأ.

وعن ابن عبَّاس: من باب قوله ﷻ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (سورة السجدة: ١٧) ، ويحتمل أنَّه ليس المراد مراعاة اعتبار الظواهر بذكر البواطن، بل المراد التعظيم بأنَّ أرضها لنظافتها وشرفها يليها الإستبرق. وعن الحسن وقتادة: البطائن هي الظواهر، بمعنى أنَّ ما يلي الأرض وما لا يليها سواء.

﴿وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ما يُجنَى من ثمارهما، أي: ما من شأنه أن يجنى، أو ما يراد أن يجنى، أي: يؤخذ. «دَانٍ» أي: قريب إلى أيديهم وأفواههم، ولو اضطجعوا متى أريدت تدلَّت، لا يعطِّل عنها بعدٌ ولا شوك، ولا خشونة لشجرها.

والجَنَى إمَّا اسم للثِّمار، أو صفة بمعنى مفعول، وما بمعنى مفعول لا يقال فيه: إنَّه صفة مشبَّهة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ من الاتِّكاء على تلك الفرش وقرب جَنَى الجنَّتين ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجنَّات والجمع باعتبار أنَّ لكلِّ خائف جنَّتين، أو لكلِّ خائف من الإنس جنَّة ولكلِّ خائف من الجنِّ جنَّة، فهؤلاء جنَّات، وهذا يغني عن قول الفرَّاء: إنَّ الضمير للجنَّتين، وإنَّه كثيرًا ما يعبَّر عن اثنين بما للجمع. وقيل: الضمير للقصور والبيوت المدلول عليها بالمقام لذكر الجنَّتين. وقيل: الضمير للجنَّتين باعتبار ما فيهما من البيوت والقصور.

وأولى من ذلك كلِّه ردُّ الضمير للفرش، فتكون جملة «فِيهِنَّ» نعتا ثانيا لـ«فُرُشٍ»، والأوَّل جملة «بَطَآئِنُهَا مِنِ اسْتَبْرَقٍ»، ولا يشكل بـ«فِي»، لأنَّ الفراش ظرف لمن عليه، ولو كان لا ينخفض بمن عليه، فكيف إن كان لنعومته ينخفض به ؟ كما يشاهد في فرش الملوك والمتنعِّمين، فلا يعترض بأنَّه لو كان

ذلك لقال: عليهنَّ لا «فيهنَّ»، ولو سلّمنا لقلنا: شبَّه الاستعلاء عليها بتمكُّن المظروف في الظرف. وحكمة الظرفيَّة التلويحُ بنعومة الفرش، حتَّى إنَّهنَّ في الفرش منخفضات.

وذكر الفرش إشارة إلى أنّهنَّ لايجاوزن الفرش غالبًا. وقيل: «فِي» بمعنى مع، والضمير للجنَّتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى.

﴿قَاصِرَٰتُ الطَّرْفِ﴾ آدميَّات وجنِّيَّات وحور، والطرف: العين، والمراد الجنس، فيشمل العيون، وأصله مصدر بمعنى النظر. والمعنى: يحبسن عيونهنَّ عن النظر إلى غير أزواجهنَّ من الرِّجال، كما رواه ابن مردويه مرفوعًا إليه ﷺ .

فـ«الطرف» عيونُهنَّ، تقول الواحدة لزوجها: «وَعزَّة ربِّي ما رأيت في الجنَّة أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي». ويجوز أن يكون المعنى: يحبسن من نظر إليهنَّ أن ينظر بعينيه إلى غيرهنَّ لحسنهنَّ، فالطرف عيون النّاظرين لو كان ينظر الرِّجال إليهنَّ، أو الناظرون أزواجهنَّ.

ويجوز إبقاء «الطَّرْفِ» على المعنى المصدريِّ، بمعنى: يحبسن نظرهنَّ عن غير أزواجهنَّ، أو يحبسن نظر من نظر إليهنَّ عن أن ينظر إلى غيرهنَّ، أو المراد: مدحهنَّ بقصر النظر عن المكان البعيد.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ الطَّمث خروج الدم، كما يقال للحيض: طمث، ويقال لوطء الأبكار طمث لخروج الدَّم به، ثمّ أطلق على الجماع مطلقًا، كما هنا، فإنّ نساء الجنَّة ولو كنَّ أبكارًا كلّما جومعن ردَّ الله بكارتهنَّ، لكن لا دم ولا ألم بجماعهنَّ. والهاء لقاصرات الطرف لأنّ المراد بهنَّ الزوجات في الجنَّة.

﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ﴾ يزيِّن الله نساء الدنيا بأفضل ممَّا للحور، ويجعلهنَّ أبكارًا ولو متن على غير بكارة، فنساء كلِّ سعيد في الجنَّة لم يمسَّهنَّ قبله فيها

إنس ولا جانٌّ، سواء الآدميَّات والجنِّــيَّات والحور، ويناسب ذلك التعبير بالطمث الذي هو وطء البكر.

والهاء للأزواج المدلول عليهنَّ بالمقام، وذِكْرِ ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وذكر ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ و﴿مُتَّكِئِينَ﴾، أو راجع إلى ﴿مَنْ خَافَ﴾.

وللمؤمن أزواجه السعيدات كلُّهنَّ اللاَّتي لم يطلِّقهنَّ، وقيل: واحدة، وقيل: اثنتان، والصحيح الأوَّل وكذا الجنِّيُّ نساؤه الجنِّــيَّات السعيدات، أو اثنتان أو واحدة. ويزاد للإنس والجنِّ من الحور العين ما شاء الله ﷻ مطلقًا، أو للجنِّ حور يخلقهنَّ الله تعالى على شكلهم، ولا يعطى إنسيٌّ جنِّــيَّة، ولا جنِّيٌّ إنسيَّة.

وإن شاء الله تعالى أعطى الرجل مطلَّقته قيل ولو ثلاثًا، أو بائنًا، لأنَّ أحكام الآخرة غير أحكام هذه، ولا يعطيه مَحرمته، ولا يجمع له محرمتين.

و«قَبْلَهُمْ» متعلِّق بــ«يَطْمِث»، لا نعتٌ لــ«إنس»، إلاَّ إن روعي القَبليَّة بالطمث لا بتقدُّم زمان الخلق. وقيل: المراد في الآية الحور العين، وقيل: من مات من الإناث أبكارًا.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ من قاصرات الطَّرف اللاَّتي لم يمسَّهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ هذه الجملة وجملة «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ...» نعتان لــ«قَاصِرَاتُ» ولو أضيف لمعرفة، لأنَّ إضافته لَفْظِيَّة، وأيضًا المراد الجنس. ووجه الشبه صفاء الياقوت وبياض المرجان، وهو اللؤلؤ، أو صفاء الياقوت وحمرة المرجان، وعلى أنَّ المراد به المرجان المعروف الأحمر.

وقيل: إنَّه صغار الدرِّ، وأنَّهنَّ مثله في صفاء البشرة، وهنَّ أشدُّ صفاء من الكبار، وكالياقوت في الحمرة، ولا مانع من أن يراد بالمرجان كبار الدرِّ كما

قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (سورة الصافات: ٤٩) ، والبيضة من المرجان كبيرة. وعنه ﷺ : «**ينظر إلى وجهها في خدِّها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب، ويكون عليها سبعون ثوبًا ينفذها البصر إلى مخِّ ساقها من وراء ذلك**»[١].

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**أوَّلُ زمرة يدخلون الجَــنَّة وجوههم كالبدر، ومن بعدهم كالكوكب الدرِّيِّ**»[٢]. وفي البخاري: «**وقلوبهم كقلب رجل واحد لا يَمْتَخِطُونَ ولا يتغوَّطون، يسبِّحون الله بكرة وعشيًّا**»[٣]، وفي ذلك تلذُّذ ولا تكليف في الجنَّة ولا في النار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه التي هي كونهنَّ كالياقوت والمرجان، والتلذُّذ بها على هذا الوصف **﴿تُكَذِّبَانِ﴾**.

﴿هَلْ جَزَآءُ الاحْسَانِ﴾ بالتوحيد والعمل الصالح الذي يستتبعه التوحيد **﴿إِلاَّ الاحْسَانُ﴾** بالجنَّة وما فيها من الفرش وقاصرات الطرف وغير ذلك، وهذا العموم مراد في قوله ﷺ في هذه الآية بعد ما قرأها: «**هل تدرون ما قال ربُّكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**يقول: هل جزاء من أنعمت عليه**

١-أورده **الحاكم** في كتاب التفسير (٥٥) تفسير سورة الرحمن، رقم ٣٧٧٤ (٩١١) **والدارمي** في كتاب الرقائق (١٠٨) باب في صفة الحور العين، رقم: ٢٨٣٢. مع اختلاف في اللفظ. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم ٣١٤٩، من حديث أبي هريرة.

٣-رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٨) باب ما جاء في صفة الجَــنَّة وأنَّها مخلوقة، رقم ٣٢٤٦، مع زيادة في آخره، **ومسلم** في كتاب الجَــنَّة وصفة نعيمها (٦) باب أوَّل زمرة تدخل الجنَّة رقم ١٤ (٢٨٣٧)، مع اختلاف في اللفظ وزيادة. من حديث أبي هريرة.

بالتوحيد إلاَّ الجنَّة ؟ فإنَّ الله تعالى لا يمدح الفاسق بتوحيده»[١] رواه الترمذيُّ عن أنس وابن النجَّار[٢] عن علي.

وقرأ ابن أبي إسحاق: «هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الحِسَانُ» بمعنى قاصرات الطَّرف. وفي حديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[٣]. ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا**﴾ نعم مجازاة الإحسان بالإحسان ﴿**تُكَذِّبَانِ**﴾.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

-٢-

وصف آخر لجنَّات أصحاب اليمين

﴿**وَمِن دُونِهِمَا**﴾ في الفضل ﴿**جَنَّتَانِ**﴾ أخريان، السابقتان أفضل منهما، السابقتان للسابقين، وهاتان لأصحاب اليمين عند الأكثر. وعن الحسن:

١- أورده القرطبي في تفسيره ج١٧ ص١٨٣ من حديث علي.
٢- لعلَّه ابن النجار محمَّد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي أبو البقاء فقيه حنبليٌّ مصريٌّ له كتاب «منتهى الإرادات» في فقه الحنابلة، تُوُفِّيَ سنة ٩٧٢هـ. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٦.
٣- تَقَدَّمَ تخريجه في ج٤، ص١٣٤.

السابقتان للسابقين، وهاتان للتابعين، وهو رواية عن أبي موسى الأشعريِّ موقوفة. وروي عنه مرفوعًا: السابقتان هما وآنيتهما من ذهب للمقرَّبين، وهاتان من فضَّة وكذلك آنيتهما لأصحاب اليمين والتابعين. وذكر بعض العلماء بلا سند أنَّ السابقتين للخائفين وهاتان لذرِّيــتهم الذين ألحقوا بهم، وفيه أنَّ المناسب أن لا ينفرد الذرِّيــة عن آبائهم، لأنَّها أطفال تقرُّ أعينهم بهم.

وقال الطحاوي[1]: هاتان أفضل عن السابقتين، لأنَّ الوصف بالادهام، ووصف العينين بالنضخ وإثبات الفاكهة والنخل والرمَّان والخيرات الحسان، والحور المقصورات أفضلُ من الوصف بجريان العينين، وكون الفاكهة زوجين إلى آخر صفات السابقتين العَامَّة، فإنَّ تنوين فاكهة للعموم، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ (سورة التكوير: ١٤) ، وهو كقوله: ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾، وقال: هما من ياقوت وزبرجد والياقوت والزبرجد أفضل من الذهب والفضَّة، إلاَّ أنَّهما لم يذكرا في الآية.

ويدلُّ لهذا القول حديث البخاريِّ ومسلم عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ: «**جنَّتان من فضَّة آنيتهما وما فيهما، وجنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما**»[2] فأخَّر اللتين من الذهب، فعرفنا أنَّهما اللتان المتأخِّرتان في الآية، فمعنى ﴿مِن دُونِهِمَا﴾: أمامهما. ويبعد أن يقال في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ﴾: إنَّه مقابل لــ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ من حيث إنَّ الياقوت والمرجان ممَّا يصان ويحبس. ﴿**فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

١- هو أحمد بن محمَّد بن سلامة الأزدي الطحاوي نسبة إلى طحا بصعيد مصر ولد بها سنة ٢٣٩هـــ، فقيه انتهت إليه رئاسة الْحَنَفِيَّة بمصر، له كتاب «شرح معاني الآثار» وكتاب «مشكل الآثار في الحديث». تُوُفِّيَ سنة ٣٢١هـــ. الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٠٦.

٢- سيأتي تخريجه عند تفسير قوله تعالى: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ نعت لـ«جنَّتان»، أي: شديدتا الخضرة، حتَّى كأنَّهما سوداوان، والدهمة السواد. وصيغة الافعيلاَل من الدهمة للمبالغة، فالادهيمام مصدر، واسم الفاعل: مدهامٌّ (بشدِّ الميم) أصل المدغمة الكسر.

وسأل أبو أَيُّوب الأنصاريُّ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ فقال: خضراوان، أي: شديدتا الخضرة من الريِّ، فهما من نبات كنبات الأرض في الدنيا، ولا يبعد ذلك، لكن يكون لطيفًا ليِّنًا جدًّا. ويجوز أن يكون الشجر من الذهب ونحوه جعله الله بحيث يثمر، وينمو بالماء. ويجوز أن يكون من ذهب ونحوه خلقه الله تعالى على صفة الشجر الشديد الخضرة المثمر بلا سقي.

وقيل: الجنَّتان المدهامَّتان نبات ورياحين، والسابقتان أشجار بأفنان وثمار وظلال، فهما أفضل، وفيه أنَّا لا نسلِّمُ أنَّ الأخيرتين نبات ورياحين، بل أشجار أيضًا مثمرة وظلال، فإنَّه كما يوصف النبات بالخضرة الشديدة يوصف الشجر بها، بل الشجر أولى بالوصف بها، وهو أشدُّ شهرة بها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نِعَمِ ادْهِمَامِ الجنَّتين ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوَّارتان بالماء، والنضخ دون الجري، على أنَّ السابقتين أفضل، كذا قيل، والظاهر أنَّ الفوران الشديد فيه جري وزيادة قُوَّة، وحسن منظر بتناثره قطرات إلى جوانب.

وعن البراء بن عازب من رواية ابن أبي حاتم: «العينان اللَّتان تجريان خير من اللَّتين تنضخان»، وكأنَّه اعتبر أنَّ الفوران يكون على ضعف شيئًا فشيئًا. وعن أنس: «نضَّاختان بالمسك والعنبر على دور الجنَّة، كما ينضخ المطر على دور الدنيا» وعن مجاهد: نضَّاختان بكلِّ خير، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نِعَمِ النضخ

﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي: وثمر نخل، وعطفهما على «فَاكِهَةٌ» عطفُ خاصٍّ على عامٍّ لمزيَّتهما، ويجوز أن لا يقدَّر: «وثمر نخل» فيقدَّر: «وشجر رمَّان»، ويجوز أن يبقى على ظاهره وهو المأكول.

والنخل على ظاهره لما في النخل من المنافع غير ثماره، كما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ سعف نخل الجنَّة كسوة لأهلها، ومنها مقطعاتهم وحللهم». وقيل: لما كان التمر والرمان لم يخلصا في الدنيا للتفكُّه، لأنَّ التمر طعام وفاكهة، والرُّمَّان فاكهة ودواء، عُدًّا جنسًا آخر فعطفا على الفاكهة، وكلُّ ما في الجَــنَّة تفكُّه وتلذُّذ.

(فقه) وقد قيل: الحالف على الفاكهة لا يحنث، ولا يبرُّ بالرطب والرمَّان، وقيل: يحنث ويبرُّ، مثل أن يحلف لا يأكل فاكهة فيأكل أحدهما، ففي حنثه القولان، أو يحلف أن يأكلها فأكل إحداهما، ففي برِّه القولان.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نخل الجنَّة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة أهل الجنَّة ومقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال، أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس فيها عجم.

ويروى: كلَّما نزعت ثمرة عقبتها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعًا، ومثل هذا لا يقال من الرأي، فما هو في نفس الأمر إلاَّ حديث.

وروى أبو سعيد الخدريُّ عنه ﷺ : «**نظرت إلى الجنَّة ــ أي ليلة الإسراء ــ فإذا الرمَّانة من رمَّانها كالبعير المقتب**»[1]. وفي حديثه مرفوعا:

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٦، ص١٦٦. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد.
=

«أصوله فضَّة وجذوعه فضَّة، وسعفه حلل وحمله رطب»[1]. وفي رواية: **«ثمارها كالقلال، أو الدلاء أَشَدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد»**[2] وهذا مغاير لما مرَّ عن ابن عباس من الزمرد والذهب، فيجاب بأنَّ بعضا كما قال ابن عبَّاس وبعضًا كما قال أبو سعيد.

(بلاغة) وفي النخل والرمَّان تقابل، فإنَّ النخل حلو حارٌّ، وفاكهة وغذاء، وتوجد في البلاد الحارَّة، وهي في غاية الطول للأشجار، ومأكوله بارز، وما لا يؤكل كامن وهو النوى. والرمَّان فاكهة ودواء، والرمَّان حامض أو قريب من الحموضة أو حلو، وفي البلاد الباردة، وقد يشارك النخل في البلاد الحارَّة الباردة، ولا طول له كطول النخلة، ومأكوله كامن، وما لا يؤكل بارز وهو القشر، وهذا في الدنيا، ولا نوى لثمار الجَنَّة ولا قشر ولا حموضة، ولا حرَّ في الجنَّة ولا برودة مضرَّة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الفاكهة والنخل والرمَّان **﴿تُكَذِّبَانِ﴾**.

﴿فِيهِنَّ﴾ في هاتين الجنَّتين أو في هؤلاء الجَنَّات كلِّهنَّ، على حدِّ ما مرَّ في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾.

=

والألوسي في تفسيره مج٩، ص١٢٢. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر، من حديث أبي سعيد.

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٦، ص١٦٦. **والألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٢٢، مع زيادة في آخره، وأوَّله قوله: «مثَّل ﷺ عن نخل الجنَّة فقال: أصوله...»، من حديث أبي سعيد.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٦، ص١٦٦. والألوسي في تفسيره، مج٩، ص١٢٢، وأوَّله قوله: «نخل الجنَّة جذوعها زمرد أخضر...»، وقال: أخرجه ابن المبارك وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا وابن المنذر والحاكم وصحَّحه آخرون. من حديث ابن عبَّاس.

(صرف) ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ جمع خَيْرَة (بفتح فإسكان) وهو صفة مشبَّهة، كسهلة، كما يقال: شرَّة، وفيه السلامة من الحذف. أو الجمع: خيِّرة (بفتح الخاء وكسر الياء مشدَّدة) خفِّف بحذف الياء الثانية، كما يخفَّف نحو: ليِّن وهيِّن وميِّت، وهو أيضًا صفة مشبَّهة، ويدلُّ له قراءة أبي عثمان النهدي وبكر بن حبيب بكسر الياء مشدَّدة.

وليس اسم تفضيل أصله أخير، لأنَّ اسم التفضيل يلزم الإفراد والتذكير، إذا لم يضف ولم يقرن بـ«ال» على الأصل. والجملة نعت آخر، وإن رددنا الضمير للجنَّات فمستأنفة.

﴿حِسَانٌ﴾ حسان الخَلْق والخُلق، وعن قتادة: خيرات الأخلاق، حسان الوجوه، كما روته أمُّ سلمة عن رسول الله ﷺ وعنه ﷺ : «**لو اطَّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما**»[1] أراد بين السماء والأرض. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه من الخيرات الحسان ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾ بدل من «خَيْرَاتٌ»، أو نعت آخر لمنعوت «خَيْرَاتٌ»، أي: نساء خيرات حسان حور، وهذا أولى. والمفرد: حوراء، ومادَّة "حَوَرَ" بمعنى البياض، والمعنى: بيض البدن، كما روي عن أمِّ سلمة مرفوعًا بلا ذكر بدن، مع أنَّه مراد، وكما روي عن ابن عبَّاس موقوفًا.

وقيل: شديدات بياض العيون وسوادها، أو ذلك مع استدارتها ورقَّة

١-أورده المنذري في كتاب الترغيب والترهيب باب الترغيب في الجنَّة ونعيمها، فصل في ثيابهم وحللهم، ج٤، ص٥٢٨، رقم٨٣، من حديث كعب . وأوَّل الحديث عنده هو: «لو أنَّ ثوبا من ثياب أهل الجنَّة لبس اليوم لصعق من ينظر إليه...».

جفونها، وبياض ما حول الجفون، أو شديدات بياض العيون وسوادها مع بياض الجسد كلِّه، أو سود العيون كلِّها كالظِّباء.

[قلت:] وإذا صحَّ تفسير عنه ﷺ وقف معه ولم يتجاوز إلاَّ إن كان حديث آخر فيجمع بينهما أو شيء يفهم من الحديث.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: محبوسات خلقةً وطبعًا، ولا يدلُّ على هذا «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ»، نعم يتبادر أنَّه بطبع وخلق. ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ لا تتجاوزها إلاَّ بإذن أزواجهنَّ.

(لغة) والخيام: جمع خيمة، وهي البيت المبنيُّ من عيدان الشجر مطلقًا، أو كل بيت مستدير من العيدان، أو إن كان من ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليه الثمام[1]، ويستظلُّ به، وغير التمام من النبات مثله. وقال ابن الأعرابي: الخيمة بأربعة أعواد تسقف بالثمام. وكلُّ خيام الجَــنَّة من لؤلؤ وزبرجد ودرٌّ تضاف إلى القصور زيادة عليها. وإن كان من شعر أو قطن أو نحوه فهو بيت لا خيمة.

والمراد: يبنى لهنَّ مثل ذلك في الجَــنَّة، من جواهرها كالزمرد والياقوت والمرجان وغير ذلك كاللؤلؤ. وعن أبي الدرداء: «الخيمة من لؤلؤة واحدة لها سبعون بابًا من الدرِّ». وعن ابن عبَّاس: «من لؤلؤة واحدة مجوَّفة أربعة فراسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب».

وعن أبي موسى عنه ﷺ كما في البخاري ومسلم والترمذي: «**الخيمة درَّة مجوَّفة طولها في السماء ستُّونَ ميلاً، في كلِّ زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم**

١- الثمام: نبات ضعيف بلا طول.

الآخرون، يطوف عليهم المؤمن»[1]. وروي: «عرضها ستُّون ميلاً».

قلت: ولا تستوحش أيُّها القارئ من ذلك ومثله، فإنَّ الله ﷻ يقوِّي نظر المؤمن، ويرى ذلك كُلَّه مع تلذُّذه بذلك الوسع.

و«فِي الْخِيَامِ» متعلِّق بـ«مَقْصُورَاتٌ». وقيل: المعنى: مقصورات القلوب والأبصار على أزواجهنَّ، فيكون «فِي الْخِيَامِ» نعتًا آخر، أو حالاً لازمة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا﴾ من نعم الحور وقصرهنَّ في الخيام ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ﴾ كما لم يطمثوهنَّ في الجنَّتين المذكورتين قبلُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا﴾ نِعَمِ انتفاء طمث الإنس والجنِّ لهنَّ قبلهم ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ مثل ما مرَّ ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ المفرد: رفرفة، ككَلِمٍ وكلمة، وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه ــ عند عليٍّ وابن عبَّاس ــ مأخوذ من رفَّ إذا ارتفع. وقد فسَّره بعض بالفِراش المرتفع. وقيل: ما على ظهر الفراش متدلِّيا على الأسرَّة من غالي الثياب. وفسَّره بعض بالبساط، وبعض بالثوب الرقيق من الديباج، وبعض بالثوب الشبيه بالروضة، كما فسَّرها سعيد بن جبير برياض الجنَّة. وكلٌّ ذلك على الإطلاق، والمراد في الآية الخُضْر، كما قال الله ﷻ : ﴿خُضْرٍ﴾ جمع خضراء لا أخضر، لأنَّ المفرد "رفرفة" بالتأنيث، وفي الصحاح: الرفرف ثياب خضر تتَّخذ منه المحابس[2]، وعليه

١-رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٨) باب صفة الجنَّة، وفي كتاب التفسير تفسير سورة الرحمن (دون رقم) **ومسلم** في كتاب الجنَّة (٩) باب في صفة خيام الجنَّة، رقم ٢٨٣٨. **والترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (٣) باب صفة غرف الجنَّة، رقم٢٥٢٨. من حديث عبد الله بن قيس عن أبيه.

٢-المحابس جمع محبس، وهو ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه. القاموس.

فـ«خُضْر» في الآية نعت كاشف كالتأكيد.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فراش نسب إلى عبقر بلد للجنِّ في زعم العرب، ينسبون إليه كلَّ شيء غريب عجيب من فراش وغيره، ونزلت الآية على ذلك، ومن ذلك النسب ما قيل: في شأن عمر ﷺ: «لم أر عبقريًا يفري فريه»، وقائل ذلك هو الإمام عليٌّ بن أبي طالب، ويقال غيره.

وشاع لفظ "عبقري" في ألسُنِ الناس بدون معرفة أنَّه نسبٌ، فصار كأنَّه اسم مختوم بياء مشدَّدة لغير نسب، كما شُهِر في بختي وكرسي فلا يستشعر فيه ضمير، كما يستشعر في المنسوب الباقي على معنى النسب. ولا يخفى أنَّ المراد الجنس لا فراش واحد بدليل نعته بالجمع في قوله: ﴿حِسَانٍ﴾.

وقيل: «عبقري» اسم جمعٍ، أو جمعٌ مفردُهُ عبقريَّة، والمراد عند الجمهور الفرش التي هي الزرابي التي في غاية الجودة، وقيل: الطنافس الرقاق، وقيل: الفرش الموشاة.

وعن مجاهد عن ابن عبَّاس: الديباج الغليظ، وعن الحسن البسط التي فيها صور، فلعلَّ الوشي بالصور في تفسير العبقري بالفرش الموشاة.

و[لَعَلَّ] المراد صور الشجر وغيره مِمَّا لا روح فيه، أو ما فيه روح لكن يصوَّر بلا رأس، وما لا روح فيه إذ لا يمدح الله تعالى ما فيه صورة حيوان تامٍّ، أو صورة رأس مع أنَّه قد حرَّمه.

وعطف العبقريِّ على الرفرف عطف خاصٍّ على عامٍّ، على مذهب الحسن في تفسيرهما. وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ: **«جنان الفردوس أربع: جنَّتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وجنَّتان من فضَّة حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم**

إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنَّات عدن»[١].

(أصول الدين) والحديث نصٌّ في منع رؤية الباري ﷻ بالذات فرؤيته مستحيلة، وظاهر الحديث اشتراك الألوف في الواحدة من هذه الجنان.

ونقول: النساء في هؤلاء الآيات كلِّها من قاصرات الطرف إلى هنا الآدميَّات والجنِّـيَّات والحور المخلوقة في الجنَّة، فالآدميَّات أيضًا حور عين موصوفات بتلك الصفات.

وإن فسِّرت الآيات بالمخلوقات فيها فالأحاديث تلحق بهنَّ غيرهنَّ، وتزيد عليهنَّ، قالت أمُّ سلمة: «يا رسول الله أنساءُ الدنيا أفضل أم الحور العين»؟ فهذا يَدُلُّ على أنَّ المراد بالحور من خُلِقْنَ في الجَـنَّة، فأجابها ﷺ مُقرًّا لها على ذلك بقوله: «**نساء الدنيا أفضل، كفضل الظهارة على البطانة**» قالت: وبم؟ قال: «**بصلاتهنَّ وصيامهنَّ وعبادتهنَّ، ألبس الله وجوههنَّ النور، وأجسادهنَّ الحرير، بيض الوجوه، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهنَّ الدرُّ، وأمشاطهنَّ الذهب، يقلن: ألاَ نحنُ الخالدات فلا نموت أبدًا، ألا ونحن الناعمات فلا نبْأسُ أبدًا، طوبى لمن كُـنَّا له وكان لنا**»[٢]، ودخل بعبادتهنَّ صَوْنهنَّ عن ملاقاة الأجانب ما استطعن.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الاتِّكاء على الرفرف الخضر والعبقريِّ الحسان

١-رواه **البخاري** في كتاب التفسير (١) باب قوله: {وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} رقم٤٨٧٨. **والترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (٣) باب صفة غرف الجنَّة بنحوه، رقم٢٥٢٨. **وابن ماجه** في المقدِّمة (١٣) باب فيما أنكرت الجهميَّة، رقم١٨٦. من حديث عبد الله بن قيس عن أبيه.

٢-أورده **المنذري** في كتاب صفة الجنَّة (١١) باب وصف نساء أهل الجنَّة، رقم ١٠٢. **والطبراني** في الكبير، ج٢٣، ص٣٦٧، رقم٨٧٠. من حديث أمِّ سلمة.

﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿تَبَارَكَ اَسْمُ رَبِّكَ﴾ أسماؤه كلُّها، والإضافة للاستغراق، بمعنى: تنزّه أسماؤه عن الإلحاد فيها بإنكارها، وتفسيرها بما لا يليق.

(أصول الدين) وكذلك تسمية غيره تعالى بإله أو بالرحمن أو بخالق، وعن أن تذكر في الخلاء ونحوه، وعن أن تكتب بمداد نجس، أو في شيء نجس، أو في الأرض، أو يتخطَّاها إنسان أو غيره، ونحو ذلك.

(أصول الدين) وليحذر أن يقال: هي مخلوقة، وإنَّما المخلوق متعلَّقها من الحوادث والتلفُّظ بها، وليحذر أن يقال: هي غيره باعتبار معناها، وإنَّما هي غيره باعتبار التلفظ بها، ومعنى صفات الفعل: القضاء بمضمونها، كخالق بمعنى سيخلق والقادر أن يخلق، والقاضي بلا أوَّل أنَّه سيخلق، **وإذا عُظِّم الاسمُ فالمسمَّى أعظم.**

وقيل: الاسم بمعنى الصفة، لأنَّها علامة على موصوفها، وقيل: اسم زائد، كما تقول: فعلت كذا لوجه فلان، تريد لفلان، كقوله: «ثمَّ اسم السلام عليكما».

أو ﴿تَبَارَكَ اَسْمُ رَبِّكَ﴾ كثرت خيراته، لأنَّه يدعى بها ويجاب الداعي، وهو أنسب بما قصد بالسورة من الامتنان بالنعم.

وختم الله تعالى نعم الدنيا بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اَسْمُ رَبِّكَ ...﴾ إشارة إلى أنَّ الباقي هو الله تعالى. وفي مسلم عن ثوبان كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته ــ أي سلَّم ــ استغفر ثلاثًا، وقال: «**اللهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[1].

١-رواه **مسلم** في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٢٦) باب استحباب الذكر بعد الصلاة، =

وعن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من الصلاة لم يقعد إلاَّ مقدار ما يقول: «اللّهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام» وفيه تفسير الانصراف بالتسليم.

[قلت:] والمراد ـــ والله أعلم ـــ لم يقعد مستقبلا للقبلة إلاَّ ذلك المقدار فيستقبل الناس.

﴿ذِي الْجَلاَلِ وَالاِكْرَامِ﴾ نعت لـــ«رَبِّكَ». وفيما تقدَّم أسند الجلال والإكرام للوجه، وهنا للمُسمَّى تعالى، فيعلم أنَّ المراد بالوجه الله ﷻ .

وفّقنا الله ﷻ وأعاننا.

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه

=

رقم ١٣٦ و١٣٧. والنسائي في كتاب السهو (٨١) باب الاستغفار بعد التسليم، رقم١٣٣٦. والترمذي في كتاب الصلاة (٢٢٤) باب ما يقول إذا سلَّم من الصلاة، رقم٣٠٠. من حديث عائشة وثوبان مولى رسول الله ﷺ .

تفسير سورة الواقعة وآياتها ٩٦

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾

أحقّيّة وقوع يوم القيامة وأحوال الناس فيها

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي حدثت. و«الواقعة» عَلَم بالغلبة للقيامة، أو منقول، وذكر ابن عبَّاس أنّه من أسمائها، وذلك كالآزفة، سُمِّيت بذلك لتحقُّق وقوعها، كأنّها قد وقعت بالفعل وجاز إسناد الوقوع إليها اعتبارًا لمعنى قولك: القيامة، وليس كقولك: جاء الجائي، في عدم الفائدة، وأيضًا قُيِّد بـ«إذَا» فأفاد، ولو قيل: إذا جاء الجائي لجاز. ويجوز إبقاؤه على الوَصْفِيَّة، أي: إذا جاءت التي ستجيء، وأيضًا المراد: إذا جاءت السَّاعةُ المهولة.

وقيل: «الْوَاقِعَةُ» الصيحةُ، وهي النفخة الأخيرة في الصور، وهو راجع إلى القول بأنّها القيامة.

والجواب محذوف للتهويل، أي: إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت، أو هو قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ...﴾ وفيه كثير فصْلٍ، وقيل: مفعول به لـ«اذكر» كـ«إذْ» المسَكّنة. أو الجواب «خَافِضَةٌ» مع محذوف، أي: فهي خافضة.

وقيل: «إِذَا» مبتدأٌ والخبر: «إِذَا رُجَّت»، أي: وقْتُ الوقوع وقتُ الرَجِّ على خروج «إِذَا» عن الشرط، **والصحيح ما مرَّ.**

و«اذَا رُجَّتِ الاَرْضُ رَجًّا» بدلٌ من «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ» بدلَ كلٍّ، لأنَّه إذا اتَّحَدَ المَاصدق لَم يخرج بالوصف عن كونه بَدَلَ كلٍّ، نحو: جاء زيد أخوك الكريم، وغيرُ الوصفِ من القيودِ مثْلُه.

﴿**لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ**﴾ الجملة حال من «الْوَاقِعَةُ» مؤكِّدة للوقوع، أو معترضة. ومعنى «كَاذِبَةٌ» نفسٌ كاذبة، أو قصَّة كاذبة، كلُّ قِصَّة قصَّها الله فيها صادقة، أو قولةٌ كاذبة، والأوَّل أولى، لأنَّ وصف الشخص بالكذب حقيقة، وهو أكثر، ووصف القول به مجاز غير أكثر.

والمعنى: **إنَّه إذا وقعت لم يبق أحد من المنكرين لها منكرا لها كاذبا في إنكاره**، بل يصدِّق بها لمشاهدته لها. وقيل: المعنى إذا وقعت لم يبق كاذب في شأنها ولا في شأن غيرها من إيمان أو كفر أو فعل أو قول، ويُرَدُّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) ، إلاَّ أن يقال: إنَّهم نسوا إشراكهم أو قالوه حيرةً وذهولاً، أو قالوه قصدًا مع علمهم بأنَّه لا يخفى على الله.

واللام للتوقيت، أو على حقيقتها. وقيل: المعنى على خطاب الساعة، أي: لا يقول أحد للساعة: لم تكوني. وقيل: المعنى لا نفس تحدِّث صاحبَها بإطاقتها واحتمال شدَّها، من باب قولك: كذبت نفسه، وكَذَبَتْه (بالتخفيف): إذا منَّته ما لا يطيق.

ويجوز كون «كَاذِبَةٌ» مصدرا كالعافية، أي: ليس للوقعة كذب بل وقعة صادقة لا تطاق، كقولك: حملت على العدوِّ حملةً صادقة أو حملةً لها صدْق، إلاَّ أنَّ مجيء المصدر على وزن فاعل نادر خلاف الأصل، فلا يفسَّر به مع وجود خلافه بلا ضعف.

﴿خَافِضَةٌ﴾ هي خافضة لأناسٍ عصاة، أي: الواقعة خافضة ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأناسٍ أطاعوا، أو تخفض أقوامًا إلى النار وترفع أقوامًا إلى الجَـنَّة، وقيل: تخفض أقوامًا كانوا في الدنيا مُرتفعينَ وترفع أقوامًا كانوا في الدنيا متَّضعين. وذلك تهويل على طريق العادة في الوقائع الشداد من حرب وغيرها من إذلال عزيز، وإعزاز ذليل، كما قالت [بلقيس]: ﴿وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ (سورة النمل: ٣٤) ، وذلك كما قال عمر رضي الله عنه : «خفضت أعداء الله تعالى إلى النار، ورفعت أولياءه إلى الجَـنَّة». أو هذا الذي قاله عمر هو مع رفع الجبال عن مقارِّها إلى الجوِّ، وتسيُّر كالسحاب، وخفض الكواكب بالنثر. أو الآية تهويل لا حقيقة خفض ورفع.

وقدَّم الخفض لأنَّ الكلام في تهديد المنكرين للبعث، ولأنَّ الكُفَّار يدخلون النار قبل دخول المؤمنين الجنَّة ليستشفُوا من أعدائهم، ويزداد غيظ الكُفَّار بمشاهدة المؤمنين دخولهم النار.

﴿اِذَا رُجَّتِ الاَرْضُ رَجًّا﴾ حرِّكت تحريكًا شديدًا ينهدم ما عليها من البناء والجبال، وذلك بأمر الله تعالى بذلك، أو يوحي الله تعالى إليها فتضطرب خوفًا فينكسر ما عليها. وشبَّه تحرُّكها بتحرُّك الصبيِّ في المهد. ولا يصحُّ أن يكون من باب الإعمال، أي: التنازع، لأنَّه لا يعاد الضمير إلى «إِذَا» فيعمل فيه المهمل من «رَافِعَةٌ» أو «خَافِضَةٌ»، بل بدل من «إِذَا وَقَعَتِ».

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ فتِّـتت، صارت كالسويق الملتُوت، يقال: بسَّ السويق لتَّه. أو قُلعَت وسيقت سوقًا، من قولك: بسَّ الغنم ساقها، كما قال الله عز وجل : ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ (سورة النبأ: ٢٠) ، أو ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ (سورة المزمل: ١٤) ، بعد أن كانت شامخة.

﴿فَكَانَتْ﴾ لذلك البسِّ ﴿هَبَآءً﴾ غبارًا عند الجمهور، أو كانت شبه ما يرى في الجوِّ الذي دخلته الشمس من كوَّة، أو شبه ما يطير من النار، وهذان الوجهان عند ابن عبَّاس رضي الله عنهما. ﴿مُّنبَثًّا﴾ متفرِّقًا.

﴿وَكُنتُمْ﴾ صرتم، والخطاب لهذه الأمَّة، وقيل: لها وللأمم السابقة على تغليب الحاضرين بالخطاب، وعليه الجمهور، والصحيح الأوَّل ولو كان الحكم للأمم أيضًا ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أصنافًا.

(لغة) والزوج: الفرد المقترن بالآخر، أو المتعدِّد المقترن بالآخر، أو الفرد المقترن بالمتعدِّد، والمتعدِّد المقترن بالفرد، وذلك كنعل مع أخرى، والذكر مع الأنثى، والمرأة مع بعلها.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ الفاء عاطفة على «كُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً» عطف إنشاء على إخبار، أو في جواب شرط، أي: إذا كنتم أزواجًا أو إن قيل ما هم؟.

(لغة) و«مَا» في الموضعين مبتدأ لما بعدها عند سيبويه، وخبرٌ له عند غيره، والجملة خبر لما قبلها. والاستفهام تعجيب من فخامة السعداء وفظاعة الأشقياء.

ومقتضى الظاهر في الموضعين: ما هم؟ ووضع الظاهر موضع المضمر للتفخيم والتفظيع. و«مَا» للسؤال عن الحقيقة، واستعملت هنا للعارض، تقول: ما زيد؟ أي: ما حاله؟ أعالم أم طبيب؟..

وقدَّر بعضهم القول في الموضعين، أي: يقال فيهم: ما أصحاب؟ والقول المقدَّر غير إنشاء، فالظاهر في موضعه لا في موضع المضمر، على أنَّ المراد الاستفهام بهذا اللفظ، وقد يبحث بأنَّه لا مانع من أن يقال: ما هم؟ بدل قول: «مَآ أَصْحَابُ».

و«الْمَيْمَنَة»: جهة اليمين، و«الْمَشْأَمَةُ»: جهة الشمال، وهو الأوفق بالتفصيل الآتي في الآية، وقيل: «الْمَيْمَنَةُ» اليمن والبركة، و«الْمَشْأَمَةُ» مقابلها، و«أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةُ» أصحاب المنزلة الشريفة، و«أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةُ» أصحاب المنزلة الخسيسة، أو كناية عن معنى تيمُّن العرب وتشاؤمهم بالسانح والبارح.

وقيل: من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يوتى كتابه بشماله. وقيل: من يؤخذ به ذات اليمين إلى الجَــنَّة، ومن يؤخذ به إلى النار ذات الشمال. وعن الحسن: أصحاب اليمن على أنفسهم بطاعتهم، وأصحاب الشؤم على أنفسهم بمعاصيهم.

وقيل: في الجهة اليمنى من آدم حين خرجوا كالدرِّ من صلبه وقال الله سبحانه: «هؤلاء إلى الجَــنَّة ولا أبالي»، وفي الجهة اليسرى حين خرجوا كذلك قال الله سبحانه: «هؤلاء إلى النار ولا أبالي»، وذلك مرويٌّ عن ابن عبّاس.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم القسم الثالث، أخَّر ذكرهم مع أنَّهم أفضل لأنَّ ذكرهم بلفظ السبق كاف في تفضيلهم، وليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم مع طولها بلا فصْل بذكر القسم الأوَّل وهم أصحاب الميمنة، وبالقسم الثاني وهم أصحاب المشأمة.

وَلَمَّا ذكر هول القيامة أوَّلاً تخويفًا ليزداد أصحاب الميمنة طاعة، وليتوب أصحاب المشأمة عن معاصيهم، ذكر السابقين آخرًا ليرغِّب أصحاب الميمنة في اللحوق بهم، وأصحاب المشأمة في اللحوق بأصحاب الميمنة.

ولم يقل: السابقون ما السابقون؟ كما قال في أصحاب الميمنة، لأنَّ السبق أمر مفروغ منه مستقلٌّ بالمدح والتعجيب. و«السَّابِقُونَ» مبتدأٌ خبره

«السَّابِقُونَ» على حدِّ قوله: «أنا أبو النجم وشعري شعري»[1].

والمعنى: هم من عرف شأنهم، وشهر فضلهم بلا حاجة إلى بيان. والسبق الأوَّل إلى العبادة، والثاني إلى جزائها وهو الجَـنَّة، أو رحمته، أو علوُّ المرتبة.

وقيل: الأوَّل السابقون إلى الإيمان والطاعة من غير توان، كما روي عن عكرمة ومقاتل. وقيل: الأنبياء، لأنَّ كلَّ نبيء هو أوَّل من يؤمن بما أنزل عليه أنَّه من الله تعالى حقٌّ، ولأنَّهم مقدَّموا كلِّ أمَّة.

وقيل: المهاجرون الأوَّلون والأنصار، وكلٌّ من المهاجرين الأوَّلين والأنصار صلَّوْا إلى القبلتين، كما قال بعض: هم الذين صلَّوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار.

وشملت الهجرةُ الهجرةَ إلى الحبشة والهجرةَ إلى المدينة، ويناسبه قوله تعالى: ﴿والسَّابِقُونَ الاَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالاَنصَارِ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠) ، كما روي عن ابن سيرين، وروي عن ابن عبَّاس: السابقون إلى الهجرة.

وذكر الإمام عليٌّ أنَّهم السابقون إلى الصلوات الخمس، ويقرب عنه ما روي عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**السابقون الأوَّلون أوَّل من يهجر إلى المسجد وآخر من يخرج منه**»[2]. وروي عن عبادة بن أبي سودة مولى عبادة بن الصامت أنَّهم السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في الجهاد. وقيل: السابقون إلى الجهاد.

وروى ابن مردويه من قومنا عن ابن عبَّاس: هم حزقيل مؤمن آل فرعون،

١- البيت من الشواهد وقد تَقَدَّمَ مرارا.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٦، ص١٧١. **والألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٣٢. وقال: أخرجه أبو نعيم والبيهقيُّ، من حديث ابن عبَّاس.

وحبيب النجَّار المذكور في سورة يس، وعليٌّ بن أبي طالب، وأنت خبير أنّ الإمام عليًّا فسَّره بغير نفسه وبغير حزقيل وحبيب. وعن الضحَّاك: السابقون إلى الجهاد، وعن سعيد بن جبير: السابقون إلى التوبة وأعمال البرِّ، وهذا أعمُّ، ومثله ما روي عن ابن كيسان: أنَّهم المسارعون إلى كلِّ ما دعا الله تعالى إليه.

وعن كعب: هم أهل القرآن المتوَّجون. وذكر أبو حيَّان أنَّه سئل رسول الله ﷺ [عن السابقين] فقال: «**الذين إذا أُعطُوا الحقَّ قبلوه، وإذا سُئلُوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم**»[1].

وقيل: من ابتدر الخير في حداثة سنه إلى أن مات، ومن طالت غفلته ثمَّ راجع التوبة وصالح العمل فهو صاحب اليمين، ومن مات غير تائب فهو صاحب الشمال، والعموم المذكور عن ابن كيسان وسعيد بن جبير أولى، فلعلَّ غيره ممَّا ذُكر من الأقوال تمثيلٌ.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ السابقون، مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿**الْمُقَرَّبُونَ**﴾ من العرش في الظلِّ والأمن والكرامة، أو ذلك كناية عن رفع الدرجة المعبَّر عنها بالقرب من الله سبحانه، وهذا زيادة تفخيم للسابقين.

ولو جعلنا هذه الجملة خبرا للسابقين الأوَّل، والثاني توكيدا لفظيًّا له لجاز، لكن تفوت المقابلة بينه وبين قوله ﷻ : ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ولا تَتِمُّ القسمة، كقولك: أقسام الكلام ثلاثة: اسم وفعل والحرف ما يدلُّ على معنى في غيره.

والمراد بالتقريب جعلهم أهل حظوة وتفضيل على غيرهم، وتقريب درجاتهم إلى العرش، كما أشير إليهم مع قرب ذكرهم بإشارة البعد لذلك.

﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ متعلّق بـ«مُقَرَّبونَ»، أو حال من المستتر فيه، أو خبر

١- أورده **أبو حيَّان** في تفسيره بدون سند، ج٨، ص٢٠٥. و**الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٣٢.

ثان لـ«أُولَئِكَ» لتحصل نكتة الإخبار بما هو لَذّة روحانيَّة وهي التقريب، وبما هو لَذّة جسمانيَّة وهي التنعُّم في الجَنَّة تنعُّمًا محضًا كتنعُّم الندماء، لا كتنعُّم خواصِّ الملك، لأنَّه مكدَّر بالخوف عليهم وعلى الملك، ومكدَّر بتدبُّر ما يصلح.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ
۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ
عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢
كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا
قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦ ﴾

أنواع نعيم السابقين

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الاَوَّلِينَ﴾ خبر لـ«أُولَئِكَ» أو لمحذوف، أي: هم ثُلّة، أو مبتدأ لمحذوف، أي: ومنهم ثُلّة، قيل: أو متبدأ خبره: «عَلَىٰ سُرُرٍ»، وهي الجماعة الكثيرة، ويدلُّ على اعتبار الكثرة مقابلته بقوله ﷻ : **﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الاَخِرِينَ﴾** وقيل: ثُلّة موضوع لمطلق الجماعة، وأريد به هنا الكثيرة، بدليل المقابلة، فإنَّ المراد الجماعة الكثيرة من لدن آدم إلى نبيئنا ﷺ ، والقليل من الآخرين مؤمنو هذه الأمَّة السابقون، والكلام في السابقين.

فلا تنافي الآية قوله ﷺ : «**إنَّ أمَّتي يكثرون سائر الأمم**»، أي: يغلبونهم في الكثرة، لأنَّ المراد: سابق مؤمنيها قليل ـــ بالنسبة إلى سُبَّاق مؤمني الأمم ـــ من عَامَّة مؤمنيها الأتباع، ومؤمنوها الأتباع أكثر من عَامَّة الأمم الأتباع.

وقد يقال: كثرة سُبَّاقِ الأمم باعتبار أنبيائهم، على أنَّهم داخلون في أممهم،

فلا ضير.

و[قيل:] لَمَّا نزل ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ...﴾ شقَّ على الصحابة، فنزلت نصف النهار: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ ونسخت قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾.

قلت: لا يصحُّ هذا، لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ إخبار، والأخبار لا تنسخ، لأنَّ نسخها تكذيب لها، والله صادق. ثمَّ تذكَّرت أيضا أنَّ قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ في أصحاب اليمين، و﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ في السابقين.

وقيل: المراد الصحابة الأوَّلون والصحابة الآخِرون، وقيل: من لقوا الأنبياء، ومن لقي النبيء ﷺ وعلى آله، ولا شكَّ أنَّ من لقيهم أكثر مِمَّن لقيه ﷺ، لكثرة الأنبياء قبل.

وقيل عنه ﷺ: «**الثلثان من أمَّتي**» بمثلَّثتين وضمِّ اللام مخفَّفة، أو بمثلَّثة وشدِّ اللام بعدها مثنَّاة. وروي «**أنَّ أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا أنتم منها ثمانون صفًّا**»[1] كما في الترمذي.

وهذا حدث بعد قوله ﷺ لابن مسعود ومن معه ـ وهم أربعون في قبَّة أو نحو أربعين ـ: «**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجَنَّة؟**» قالوا: نعم، «**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجَنَّة؟**» قالوا: نعم، قال: «**والذي نفس**

١- رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (١٣) باب ما جاء في صفِّ الجنَّة، رقم٢٥٤٦، بنفس المعنى وزيادة لفظ: «وأربعون من سائر الأمم» في آخره. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (٣٤) باب صفة أُمَّة مُحَمَّد ﷺ، رقم٤٢٨٩. من حديث أبي بريدة عن أبيه.

محمَّد بيده إنِّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجَـنَّة»[1].

وعن عائشة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الاَخِرِينَ﴾ من أمَّة كلِّ نبيء، في صدرها ثُلَّة وفي آخرها قليل، والقليل كلاهما من الأنبياء، كانوا في صدر الدنيا كثيرين وفي آخرها قليلين، ويبحث بأنَّ أنبياء بني إسرائيل أكثر، وليسوا في صدر الدنيا، إلاَّ إن أريد بصدرها أنبياء بني إسرائيل، لأنَّهم صدروا ومضوا وكانوا أوَّلاً بالنسبة لما بعد، وأريد بآخرها النبيء ﷺ ومَن بينه وبين عيسى عليه السلام من الأنبياء المختلف فيهم.

وعن أبي بكرة وابن عبَّاس عنه ﷺ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الاَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الاَخِرِينَ﴾: هما جميعًا في هذه الأمَّة، فيكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمُۥ أَزْوَاجًا﴾ لهذه الأمَّة فقط، فسابق أوَّل هذه الأمَّة ثلَّة وسابق سائرها إلى آخرها قليل، وجاء في فرقتي أصحاب اليمين نحو ذلك.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ حال من «الْمُقَرَّبِينَ» أو من الضمير «في جنَّات النعيم» إذا علَّقنا «في» بمحذوف حال أو خبر آخر لـــ«هم» المحذوف المخبر عنه بـــ«ثُلَّةٌ».

(لغة) والوضن: النسج مطلقا، نسج الدرع، ونسج حزام الناقة، وغير ذلك، وقيل: أصله في نسج الدرع واستعير لكلِّ نسج، وقيل: استعير لكلِّ نسج محكم. والمراد في الآية منسوجة بالذهب، أو بقضبان الفضَّة، روايتان عن ابن عبَّاس، وعن عكرمة: مشبكة بالدرِّ والياقوت.

١-رواه **الترمذيُّ** في كتاب صفة الجنَّة (١٣) باب ما جاء في صفِّ الجنَّة، رقم ٢٥٤٧، من حديث ابن مسعود مع زيادة: «إنَّ الجنَّة لا يدخلها إلاَّ نفس مسلمة، ما أنتم في الشرك إلاَّ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر...».

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ حال من ضمير الاستقرار في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ في أوجهه المذكورة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «مُتَّكِئِينَ»، والمراد أنَّه لا يستدبر أحد منهم الآخر لصفاء قلوبهم وحسن العشرة، ورعاية الأدب، وكذا قوله تعالى:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ حال أخرى، أو حال من المستتر في «مُتَقَابِلِينَ» ويجوز أن يكون مستأنفا، واختاره بعض، والمراد: يدور عليهم للخدمة ولدان مبقون على حالهم وشكلهم لا يكبرون، وهذا معنى تخليدهم، وهم أولاد أصحاب النار المشركين والفسَّاق وأطفال يخلقهم الله في الجنَّة.

وفي تسميتهم أولادا مجازٌ صوريٌّ، أي: هم على صورة الولدان، لأنَّهم خلقوا في الجَنَّة بلا ولادة، فذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، أو عموم المجاز. وفي الحديث : «**أولاد الكفَّار خدم أهل الجَنَّة**»[1]. وما ورد من قوله ﷺ لعائشة في طفل مات وقالت :«طوبى لك عصفور من عصافير الجَنَّة»: «**ما يدريك ما يفعل إن بلغ**»، ومن قوله ﷺ : في أطفال المشركين والمنافقين: «**الله أعلم بما يعملون لو كانوا يعملون**»[2] إنَّما هو قبل نزول قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (سورة الطور: ٢١) ، وقبل الوحي بأنَّ أولاد الكُفَّار خدم أهل الجَنَّة، وقبل قوله: «**سألت ربِّي في اللاهين فأعطانيهم**»[3].

فيكون ولد الموحِّد الذي لم يدخل الجنَّة خادمًا لأهل الجَنَّة، وأمَّا ولد المؤمن الداخل للجنَّة فلا يكون خدمًا لأبيه في الجَنَّة ولا لغيره، بل يستقل وتقرُّ به عين أبيه، ومَنْ لا وَلَدَ له وَخَدَمَهُ وَلَدُ غَيْرِه كان ذلك له نقصًا لأبي الخادم.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٨، ص١٤٤.

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

٣- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٨، ص١٤٤.

وقيل: التخليد لبس القرط في الأذن، والخلد القرط.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنّ الأطفال يعودون مطلقًا ترابًا كالبهائم.

(لغة) ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم، ويُسَمَّى قَدَحًا ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق، وهو إناء له خرطوم، وقيل: له خرطوم وعروة، من البريق وهو اللّمعان، وهو وعاء خمر يتَّخذ ممَّا يبرق كالفضَّة والبلّور، ثمّ استعمل فيما له خرطوم وعروة ولو لم يكن له بريق. وزعم بعض أنّ إبريق معرب " آب ريز"، أي: صاب للماء. [قلت:] وأنا بريء من دعوى كلّ تعريب لِمَا قبلته العَرَبِيَّة بلا تعريب.

وفي هذه الأيـــّام سئلت عن اسم البطاطا في العَرَبِيَّة، فأجبت بأنّ هذه الثمرة لم توجد في زمان العَرَبِيَّة الصحيحة.

(تاريخ) بل حدثت من أمريكة المسمَّاة بالدنيا الجديدة منذ أربع مائة قبل وقتنا هذا، وهو ثلاث عشرة مائة وثلاث وعشرون سنة. قيل: وأمريك اسمٌ لنصرانيٍّ طلبها بعد ما كشفها غيره بطول سفر في كفالة امرأة نصرانيَّة أندلسيَّة[1] فسمِّيت باسمه، وانتفع بها أمريك دون الذي كشفها أوَّلاً الذي في كفالة الامرأة الأندلسيَّة.

(فائدة لغوية) ونصارى أندلس يسمُّون تلك الثمرة بطاط، وأهل بريش وهو باريز يسمُّونها تفاح الأرض بلغتهم هكذا، ولعلّها ترفاس، وهي الكمأة بالعَرَبِيَّة، فتكون كمأة تلك الأرض أقوى من كمأة غيرها فتسمَّى تِرفاس بلغتنا، وكمأة بلغة العرب، ولو لم تكن في زمان العربية الصحيحة معلومة.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: كأس مملوءة من خمر جار من العيون، من قولك:

١- لعلّه يشير إلى الملكة البرتغاليَّة التي موَّنت سفن كرستوف كلومبوس سنة ١٤٢٢ م .

ماء معين، أي: جار، ومَعَن: جرى. وخمر الجَــنَّة مخلوقة في عيون لا معصور كخمر الدنيا.

(صرف) ومعن الشيء: ظهر، فهو مَعْنٌ (بإسكان العين) والميم أصل، والياء زائدة، بوزن فعيل، أو «مَعِين»: خمر ترى بالعين، و«مَعِين»: بمعنى مرئيَّة بالعين، لأنَّ اللذَّة في رؤيتها أكثر وأعظم من الشرب بلا رؤية، فالميم زائدة ميم مفعول والياء أصل، وهو فعيل بمعنى مفعول، يقال: عانه: رآه بعينه. والخمر يذكَّر ويؤنَّث. ولا يقال: كأس إلاَّ مع امتلائه.

﴿لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ لا يصابون بصداع الرؤوس من سببها. فــ«عَنْ» للسببيَّة، وإن شئت فباقية على المجاوزة، أي: لا يصدر عنها صداع لهم، والمأصدق واحد.

أو المعنى لا يفرقون ولا ينقطعون عنها، فهم كلَّما شاءوها نالوها، فلا تفارقهم لذَّاتها بهمٍّ أو بحزن أو مرض أو بسوء صنعها أو غير ذلك، كما تقطع خمر الدنيا بعدم وجودها، أو عدم الوصول إليها، أو بالموت، وكما تفارق لذَّتها بنحو الْهَمِّ.

ويدلُّ على التفسير بالمفارقة قراءة مجاهد بفتح الياء وشدِّ الصاد، قَلْبًا لِتَاءِ "يَتَصَدَّعُ" صادًا وإدغامها لها في الصاد، بمعنى: لا يتفرَّقون عنها.

﴿وَلاَ يُنزَفُونَ﴾ على حذف مضاف، أي: لا تنزف عقولهم، لا تزال عقولهم شيئًا فشيئًا بشربها كما يكون ذلك بخمر الدُّنيا، من قوله: نَزَفَ الماءَ: نَزَحَهُ حتَّى فرغ، فهذا نفيٌ لأنْ تضرَّ عقولهم، وقوله: ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ﴾ نفيٌ لأنْ تضرَّ أجسادهم.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ممَّا يختارونه لو خيِّروا ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ «لَحْمِ» و«فَاكِهَةٍ» معطوفان على «أَكْوَابٍ»، فالولدان المخلَّدون

يطوفون عليهم بالأكواب والأباريق، وبالكأس وبالفاكهة، وبلحم طير مِمَّا تميل إليه أنفسهم من أنواع الطير، ومن صورة شَوْي ومطبوخ بلا نار ولا دخان، يشتهي طائرًا فيقع على مائدته كأنَّه مطبوخ، أو مشويٌّ وكأنَّه بعير في العِظَم، فيأكل منه فيقوم حيًّا تامًّا بإذن الله ﷻ كما جاء في الحديث[1].

وحكمة الطواف بالفاكهة مع أنَّ الأشجار تتدلَّى إليهم فينالهم القاعد والمضطجع تعظيمُهم، فيأخذون [من] الشجر، ويأخذون من أيدي الولدان، وذلك تنويع للتلذُّذ، كما يلقى في الطعام مثله إكرامًا لصاحبه.

وأجيز العطف على «جنَّات»، أي: في جنات النعيم، وفي فاكهة ولحم، ومعنى كونهم في فاكهة ولحم أنَّهم راسخون في أكلهما، ومعنى كونهم في جنَّات النعيم: السكنى والثبوت، كقوله: «علفتها تبنًا وماء باردًا».

(بلاغة) وقدَّم الفاكهة لأنَّ اللَّحم من طعام الجائع، ولا جوع في الجَـنَّة، وإنَّما أكلهم تلذُّذ، والتلذُّذ بالفاكهة أكثر، ولأنَّ الفاكهة تحرِّك اشتهاء الأكل، بخلاف اللَّحم فإنَّه يدفع اشتهاء الأكل، ولا جوع في الجَـنَّة، فهم أشدُّ ميْلاً إلى الفاكهة ولكثرتها وعدم غيبتها عنهم، وذلك مِمَّا يلذُّ الأعين، ولا تملُّ نعم الجَـنَّة.

وذكر التخيير في الفاكهة والاشتهاء في اللحم لأنَّ الشبعان يميل إلى الفاكهة، وكثرة أنواع الفاكهة واختلاف طعومها وألوانها وأشكالها.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ عطف على «وِلْدَانٌ»، أي: يطوف عليهم ولدان

١- يشير إلى الحديث الذي أخرجه **ابن أبي الدنيا** عن ميمونة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرجل ليشتهي الطير في الجنَّة فيجيء مثل البختي، حتَّى يقع على خوانه لم يصله دخان ولم تمسَّه نار، فيأكل منه حتَّى يشبع ثمَّ يطير». أورده **الألوسي في** تفسيره، مج٩، ص١٣٦، **والسيوطي في** الدر، ج٦، ص١٧٣. من حديث ميمونة.

مخلَّدون ويطوف عليهم حور عين، وطوافهنَّ في الخيام، فلا ينافي كونهنَّ مقصورات في الخيام، أو من الحور ما ليس بمقصور في الخيام بلا عيب في ذلك ولا نقص.

(نحو) ويجوز أن يكون مبتدأً محذوفَ الخبر، أي: لهم فيها حور عين، أو لهم حور، أو فيها حور، ومعلوم أنَّ ما في الجَـنَّة هو لأهلها. أو معطوف على محذوف، أي: لهم ذلك كلُّه، وحور عين، والحذف خلاف الأصل.

(صرف) ووزن «حُورٌ» و«عِينٌ» فُعْلٌ (بالضمِّ فالإسكان) كحُمْر، إلاَّ أنَّه كسرت العين، لأنَّه لو ضمَّت لقلبت الياء واوًا، والمفرد: حوراء، أي: بيضاء وعيناء، أي: واسعة العين.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ جَمَعَ بين الكاف والمثل للتأكيد، وأولى بالزيادة الكاف لأنَّها حرف، ولو كانت الزيادة بالأخير أنسب. أو «أَمْثَال» بمعنى صفات، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورى: ١١) ، أي: ليس كصفته شيء، أي: صفة في أحد الأوجه. والمعنى: كصفات اللؤلؤ من الحسن والصفاء والبياض.

والكاف متعلِّق بمحذوف نعت لـ«حُورٌ»، أو حال، والصحيح تعليق الكاف، والأصل بعد النكرة النعت لا الحال ﴿الْمَكْنُونِ﴾ المستور عمَّا يوسِّخه من مسِّ الأيدي وغيرها.

﴿جَزَآءً﴾ مفعول مطلق، أي: يجزون جزاءً، أو مفعول لأجله، أي: يفعل ذلك لأجل المجازاة، أي: ليحصل الجزاء ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي يعملونه، أو بأشياء يعملونها أو بعملهم.

(بلاغة) ولم يختم قِصَّة أصحاب اليمين بعد بقوله: ﴿جَزَآءً بِمَا...﴾ كما ختم به قِصَّة السابقين إشارة إلى أنَّ الفضل في حقِّهم متمحِّض، كأنَّ

عملهم بالنسبة إلى عمل السابقين كالعدم، وفيه زيادة مدح للسابقين.

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: لا لغو فيها فضلاً عن أن يسمع، كقولك: لا ترى في أرض فلاة ضبًّا، أي: لا يوجد فيها، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْثِيمًا﴾ اللغو ما لا يُعْتَدُّ به من الكلام، فهو كلغو العصافير وغيرها، والتأثيم: النسبة إلى الإثم، أي: الذنبُ **إجمالاً** كقولك: عصيت أو كفرت، أو أذنبت أو أثمت، أو **تخصيصًا** كقولك: سرقت أو زنيت أو أغتبت أو كذبت.

﴿إِلاَّ قِيلاً﴾ أي: قولاً ﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ استثناء منقطع، لأنَّ التسليم ليس لغوا ولا ثأتيمًا، ويجوز أن يكون متَّصلاً تأكيدًا لنَفْي اللغو والتأثيم، أي: إن كان فيها اللغو أو التأثيم فهو قول: سلامًا سلامًا.

(بلاغة) وقوله: ﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ ليس لغوًا ولا تأثيمًا، فليسا فيها، كقوله :

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب[1].

من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ فرضنا قول: ﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ كذمٌ وليس ذمًّا.

(نحو) و﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ مفعول به لــ«قيلاً»، لجواز أن ينصب القول مفردًا بمعنى الذكر نحو: قلت الله، أي: ذَكَرتُ لفظ الجلالة، وذلك من إعمال المصدر المنوَّن، كقوله تعالى: ﴿أَوِ اطْعَامٌ فِي يَوْمٍ...﴾ (سورة البلد: ١٤) .

(نحو) أو ﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ بدل من «قيلاً»، أو مفعول مطلق لمحذوف، فيكون القيل ناصبًا لجملة، أي: سلَّمنا سلامًا سلَّمنا سلامًا، على طريق الإنشاء، كــ"اشتريت"، إذا قلته لعقد البيع.

١- البيت للنابغة الذبياني. انظر: ديوانه، ص٤٤.

ويجوز أن يعتبر أنّ قول: ﴿سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ في الجنَّة لغوٌ، لأنَّ السلام دعاء بالسلامة، وأهل الجنَّة أغنياء عنه، ولا لغو في الجنَّة، فالاستثناء من «لغو» فقط، ولا يمنع منه الفصل بـ«تَأثِيمًا» لظهور المراد، خلافًا للسعد إذ منع: "ما جاء رجل ولا امرأة إلاّ زيدًا" في الاستثناء الْمُتَّصِل. وقيل: «سلامًا» بمعنى سالم، نعت لـ«قيلاً»، أي: إلاّ قيلاً سلامًا من اللغو والتأثيم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ٤٠﴾

أنواع نعيم أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَابُ الْيمينِ مَآ أَصْحَابُ الْيمينِ﴾ مثل: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَة مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ هم في سدر، أو خبر ثانٍ نظرًا للمعنى، كأنَّه قيل: هم في ملك عظيم في سدر مخضود.

أو ليس هذا على طريقة ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَة مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ بل «أَصْحَابُ» الأوَّل مبتدأ، و«فِي سِدْرٍ» خبرٌ، وما بينهما معترض، أو معمول لنعت محذوف، أي: وأصحاب اليمين ـــ المقول فيهم: "ما أصحاب اليمين" ـــ في سدر. والجملة معطوفة على ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

(بلاغة) والتعبير بـ«الْمَيْمَنَة» هناك وبـ«الْيمِينِ» هنا و«الْمَشْأَمَة» هنالك و«الشِّمَالِ» بعد ذلك تفنُّن. وقال الفخر الرازي: في «الْمَيْمَنَةِ»

و«الشِّمَالِ» دلالة على الموضع، والأزواج الثلاثة يتميَّزون بالموضع، فجيء أوَّلاً بما يدلُّ على الموضع، وثانيًا بأمر يميِّزهم.

(لغة) والسدر شجر النبق، والمخضود المقطوع الشوك.

(سيرة) قال أبو أمامة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنَّ الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ـــ أي: وسؤالاتهم ـــ أقبل أعرابيٌّ يومًا فقال: يا رسول الله، قد ذكر الله تعالى في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرى أنَّ في الجنَّة شجرة تؤذي صاحبها، قال: وما هي؟ قال: السِّدر، فإنَّ له شوكًا، فقال رسول الله ﷺ : «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كلِّ شوكة ثمرة، وإن الثمرة من ثمره تنفتق عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام، ما فيها لون يشبه لونا».

(فقه) ونقول: للسائل أجر السامعين بلا نقص عنهم، إذا كان في سؤاله مُخلصا، فقيل: مطلقًا، وقيل: إن قصد نفعهم، وكذا غير السؤال، مثل أن ينسخ كتابًا لينتفع به و لم ينو أن ينتفع به غيره بل أهمل.

ولعلَّ الأعرابيَّ لم يسمع لفظ «مَخْضُود» أو لم يعرف معناه، أو احتمل عنده معنى آخر مع الأوَّل، أو لم يعرف إلاَّ معنى آخر، كما قيل: مخضود مثني الأغصان، لثقل الحمل، كما روي عن ابن عباس: أنَّه الموقر حملاً، من خضد الغصن، إذا ثناه وهو رطب.

والنبتة أعظم من القلّة، ولا نوى ولا قشر في ثمار الجنَّة. ولا يخفى أنَّ السدر ليس ظرفًا لأهل الجنَّة، فالظرفيَّة مجازيَّة للمبالغة في تمكُّنهم من التنعُّمِ.

﴿وَطَلْحٍ﴾ كطلح شجر الدنيا ممَّا شاء الله ﷻ ، من الذهب أو غيره من الجواهر، وثماره أحلى من العسل، كما قال السدِّيُّ، أو هو شجر من عظام

الشجر، أو شجر أمِّ غيلان له نوَّار كثير طيِّب الرائحة، أو شجر ظلُّه بارد رطب ليس بالموز. وعن عليٍّ وابن عبَّاس وأبي هريرة وأبي سعيد هو الموز. واختار بعض أنَّه شجر مشموم، وردَّ بأنَّ الآية في رغبة المسلمين في الظلِّ والثمار والخصب لا في الروائح. ﴿مَّنضُودٍ﴾ مركَّب بالثمار من أسفله إلى أعلاه لا تبدو له ساق.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ مبسوط لا عن شمس بل كما قبل طلوع الشمس، خلقة من الله أو شيء خلقه الله عن السدر والطلح المذكورين على صورة الظلِّ عن نور الجنَّة، كالظلِّ عن الشمس من غير تضرُّر بنورها، إلاَّ أنَّه زيادة تلذُّذ.

وعن أبي هريرة عنه ﷺ : «**إنَّ في الجنَّة شجرة يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[1]، وهو في البخاري ومسلم وغيرهما، ويحتمل أنَّ المراد عظم الشجرة، بحيث لو كان لها ظلٌّ لكان كذلك المقدار.

ولكن رواية ابن عبَّاس عنه ﷺ : «**الظلُّ الممدود شجرة في الجنَّة على ساق، ظلُّها قدر ما يسير الراكب في كلِّ نواحيها مائة عام، يخرج إليها أهل الجنَّة، أهل الغرف وغيرهم، فيتحدَّثون في ظلِّها، فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحًا من الجـنَّة، فتحرِّك تلك الشجرة بكلِّ لهو في الدنيا**»[2]، وفي كلامه حذف، أي: الظلُّ الممدود ظلُّ شجرة. وفيه أنَّ من أهل

١- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٨) باب صفة الجنَّة، رقم٣٢٥١. من حديث أنس، وفي كتاب التفسير (١) باب قوله: {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ} رقم٤٨٨١. ورواه **مسلم** في كتاب الجنَّة (١) باب إنَّ في الجنَّة شجرة... رقم٢٨٢٦. من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٤٠. **والسيوطي** في الدر، ج٦، ص١٧٤. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه من حيث ابن عبَّاس.

الجنَّة من ليس في غرفة، ومع ذلك يحتمل أنَّ المراد الإخبار بعظمها، وأنَّهم يقعدون في مواضع تحتها، لو كان لها ظلّ لكانت تلك المواضع ظليلة، ويناسب هذا أن لا يقدَّر المضاف الذي ذكرت، فتكون النكتة بيان عظم نفسها.

ويبعد عن التأويل رواية عمرو بن ميمون: «الظلُّ مسيرة سبعين ألف سنة»، فيجاب بأنَّ المراد أنَّ ذلك كلَّه هو قدر الجنَّة كلِّها معبَّر به عن الظلِّ.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يصبُّ لهم من محلِّه إذا شاءوا، ويصلهم في مقدار لمحة، فلهم ماء جارٍ وماء غير جارٍ، وذلك تلذيذ لهم وقيل: مصبوب في الأرض يدخلها ويخرج حيث شاءوا، ولا يتغيَّر بالأرض، لأنَّها مسك وذهب ونحوهما.

[قلت:] كان كثير من المسلمين ولا سيما أهل البادية يتعجَّبون من مياه «وَجٍّ»[1] وسدره وثماره ويتمنَّونها، فنزل: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ...﴾ فيكون أثبت للسَّابقين أقصى ما يكون لأهل المدن، وهو كونهم على سرر تطوف عليهم الخدم بما يشتهون، وأثبت لمن دونهم ــ وهم أصحاب اليمين ــ أقصى ما يرغب فيه البداة وهو الخصب والشجر وكثرة المياه، فبين السابقين وأصحاب اليمين ما بين القرويِّ والبدويِّ.

والآية لاستغراق الأشجار بذكر أطرافها، كرقَّةِ أوراق السدر وعِظَمِ أوراق الطلح على أنَّه الموز، فإنَّه أكبر الشجر ورقًا، كذكرك الصبح والعشيَّة، تريد النهار كلَّه، والغرب والشرق تريد الدنيا كلَّها.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ كثر نوعها وأجناسها وأفرادها، ومنها بطاطه وطماطم وما يحتاج إلى الطبخ، يخلق مطبوخًا، وليس هذا استعمالا لِلْكَلمة في معانيها، لأنَّ المعنى مطلق الكثرة هكذا الصادقة بذلك.

١- اسم موضع بالطائف، وقد يطلق على الطائف أيضا. اللسان.

﴿لاَّ مَقْطُوعَةٍ﴾ بأن يكون لها وقت مخصوص كفاكهة الدنيا، بعضها في الصيف وبعضها في الشتاء مثلاً، وبأن تفقد بالجدب أو بما يصيبها من الآفات.
﴿وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ بجبَّار أو سارق أو غلاء أو قلَّة.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ في موضع عال تتَّضع لوليِّ الله إلى الأرض، فيكون فيها فترتفع به، وإذا أراد النزول منها أو معها انخفضت، حتَّى إذا أراد ارتفعت به أو رفعها، يركَّب فراش على فراش، وهي في ذلك كلِّه على السرر.

وروى أبو سعيد مرفوعًا: «إنَّ ارتفاعها خمسمائة عام»، أي: وتنخفض أو ترتفع في قدر لحظة، وعن الحسن ثمانين سنة.

وقيل: المراد مرفوعة القدر وقيل: **الفرش كناية عن النساء كما يكنَّى عنهنَّ باللِّباس، ورفعهنَّ على الأسرة أو رفع قدْرٍ**. ويدلُّ لإرادة النساء قوله تعالى:

﴿اِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً﴾ بردِّ الهاء إليهنَّ ولا بدَّ، إذْ لا مرجع ظاهر سوى «فُرُشٍ» كنِّي به عنهنَّ، وهذا أولى من ردِّ الضمير إلى الفرش التي يُتَّكَأُ عليها على طريق الاستخدام، بأن يراد به النساء مع عوده لما يتَّكأ عليه، لأنَّ هذا الاستخدام بعيد، وإذا فسَّرنا الفرش بما يتَّكأ عليه ولم نجعل ذلك من باب الاستخدام فإنَّما صحَّ عوده لهنَّ لظهور المعنى بقوله: ﴿أَبْكَارًا﴾، ولو لم يجر لهنَّ ذكر، وكيف وقد جرى ذكر ما يدلُّ عليهنَّ، وهو ما يفرش.

وقدَّر بعض: وفرش مرفوعة ونساء أو وحور عين إنَّا أنشأناهنَّ، أو وفرش مرفوعة لنسائهم إنَّا أنشأناهنَّ. ومعنى إنشائهنَّ خلقهنَّ بمرَّة، لا أطواراً كنساء الدنيا علقة ومضغة...إلخ.

وعنه ﷺ : «**هنَّ نساء الدنيا العجائز الرُّمْص العُمشُ ردَّهنَّ الله على صفات الحور**»[1] رواه الطبريُّ والترمذيُّ عن أنس.

وقيل: المراد ثياب الدنيا وأبكارها، قالت عجوز: يا رسول الله ادع لي الله أن يدخلني الجنَّة، فقال: «**يا أمَّ فلان العجوز لا تدخل الجَـنَّة**» فولَّت تبكي، فقال: «**أخبروها أنَّها لا تدخلها وهي عجوز، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ...﴾**» فنساء الدنيا يجعلهنَّ الله أبكارًا عرُبًا قبل دخول الجنَّة.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ جعلناهنَّ أبكارًا من أوَّل الأمر، لا بعد أن كنَّ غير أبكار، كقولك: وسع البيت، بمعنى ابنه واسعًا من أوَّل، لا بعدَ أن كان ضيِّقًا، وهذا في الحور العين ظاهر، ولا يتمُّ في نساء الدنيا، لأنَّ منهنَّ أبكارًا في الدنيا، فالمراد تعميم أنَّهنَّ أبكَار هكذا نساء الدنيا والحور، أو المعنى ــ كما روي أبو سعيد ــ : أبكارًا كلَّما جامعوهنَّ، ولا ألم لهنَّ في ذلك.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَروب (بفتح العين) بمعنى متحبِّبات إلى أزواجهنَّ، وقيل: غنجات، والغنج من أسباب الحبِّ. وعن زيد بن أسلم[2]: حِسَان الكلام. وعن الحسن: عواشق، وهو مرويٌّ عن ابن عبَّاس ومجاهد، ولا دليل له في قول لبيد ــ كما زعم بعض ــ :

١-أورده المنذري في الترغيب والترهيب، في صفة نساء أهل الجَـنَّة، ج٤، ص٥٣٦، رقم١٠٢، من حديث أمِّ سلمة. في حديث طويل أوَّله قوله: قالت: قلت يا رسول الله، أخبرني عن قول الله ﷻ : {حُورٌ عِينٌ}... وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

٢-زيد بن أسلم العدوي العمري أبو أسامة، فقيه مفسِّر محدِّث، من أهل المدينة المنوَّرة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيـَّام خلافته، له حلقة في المسجد النبويِّ، وله كتاب في التفسير، رواه عنه ابنه عبد الرحمن. تُوُفِّيَ سنة ١٣٦هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٥٦.

وفي الخدور عرب غير فاحشة ريًّا الرَّوادف يعشى دونها البصر.

وعن مجاهد: اللاتي يرغبن في وطء أزواجهنَّ، ويشرن إليه، ويدلُّ له قوله ﷺ : «**خير نسائكم العفيفة الغلمة**»[1] رواه أنس، وفي السند ضعف.

والجمهور على الأوَّل من أنَّها المتحبِّبة، ويرجع إليه القول الذي قبل هذا قول بعض إنَّها المشيرة إلى زوجها بالوطء الممتنعة عن غيره.

﴿**أَتْرَابًا**﴾ على صور من استوى سنُّها وسنُّ زوجها، وزاد الحديث: «**إنَّهما كأبناء الثلاثين سنة أو ثلاث وثلاثين**» كما روى معاذ عن رسول الله ﷺ : «**يدخل أهل الجَــنَّة جُردًا مُردًا مكحَّلين أبناء الثلاثين أو ثلاث وثلاثين**»[2]، وذلك وقت قُوَّة الشباب الكاملة.

(لغة) وأترابا مأخوذ من الترائب، وهي ضلوع الصدر كأنَّهنَّ استوين معهم كضلوع الصدر كذا قيل، وفيه أنَّ عظام الصدر غير مستوية. أو مأخوذ من التراب، كأنَّهنَّ وقعن في التراب معهم في وقت واحد، أي: ولدن.

﴿**لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ متعلِّق بـــ«أَنشَأْنَا» أو بـــ«جَعَلْنَا» وقيل: اللام للتقوية متعلِّقة بـــ«أَتْرَابًا» لتضمُّنه معنى مساويات، وردَّ بأنَّه ليس فيه كبير فائدة، قلت: بل فيه، وهي اللياقة بمساواة السنِّ، ومايلحق في الدنيا على ذلك من إذلال بعض على بعض لذلك لا يوجد في الآخرة.

وقيل: نعت لـــ«أَبْكَارًا» وفيه أنَّه إذا صير إلى النعت فجعله نعتًا لـــ«أَتْرَابًا» دون تأويل أتراب بمساويات أولى، ولعلَّه اختار ذلك لقرب «أَتْرَابًا» للتأويل

١-أورده **ابن عديٍّ** في الكامل، ج٣، ص٢٠٣. من حديث أنس.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (١٢) باب ما جاء في سنِّ أهل الجنَّة، رقم ٢٥٩٥. وأورده **المنذريُّ** في كتاب الترغيب في الجنَّة، ج٤، ص٥٠٠، رقم١٠ من حديث معاذ.

بالوصف قربا ليس في «أَبْكَارًا». ونعت الوصف لا يحسن، بل ينعت موصوفه المحذوف إن حذف والمذكور.

وعلى كلّ حال وضع أصحاب اليمين موضع الضمير لبُعد ذِكْرِه قبله وللتأكيد.

﴿ثُلَّةٌ﴾ من أهل الجنَّة ﴿مِّنَ الاَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ﴾ منهم ﴿مِّنَ الاَخِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر، والمَسوِّغ للنكرة التقسيم. أو خبر لمحذوف، أي: هُم ثُلَّة، فالظرفان نعتان لما يليهما، وقدَّر بعضٌ: هم ثُلَّة، وقدَّر بعض: منهم ثُلَّة. وقيل: مبتدأ لـــ«ثُلَّة» كما يقال: نصف الجند لتميم ونصف للحجازيِّين، بمعنى أنَّ نصفه تميم، ونصفه حجازيُّون، ووجه اللام أنَّه يقال لهم: أنتم نصف، وهو خلاف الأصل وخلاف المتبادر.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

أنواع عذاب أهل الشقاوة في الآخرة

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ﴾ هو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ﴾.

والسموم الريح الحارَّة المؤثِّرة تأثير السمِّ، أو النار النافذة في مسامِّ البدن، التي يخرج منها العرق. والتنوين للتعظيم، وكذا في قوله: ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّ غاية الحرارة، وفي قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ﴾ بوزن يفعول من الحمة، وهي قطعة من الفحم، والمراد الدخان الأسود، سمِّي باسم الفحم لشبهه به في السواد، فهو اسم له. وَسُمِّيَ ظلاًّ تهكُّمًا بهم، ووجه الشبه أنَّ الدخان في الهواء على صورة الظلّ في الأرض، أو مرادف من النار محيط بهم، ويعلوهم كالظلّ، روايتان عن ابن عبَّاس.

أو اسم لجهنَّم لأنَّها سوداء، لهبها أسود لا ضوء له، وكلُّها وكلُّ ما فيها أسود، أو جبل أسود فيها يفزعون إليه فيجدونه أشدَّ.

﴿لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ﴾ «لاَ» ومدخولها اسم نعت لـ«ظِلٍّ»، أي: غير بارد وغير كريم.

(بلاغة) نفى الله ﷻ أن يكون باردًا كسائر الظلّ، وأن يكون كريمًا، أي: نافعًا بإزالة الحرِّ كذلك، فاستعار الكرم للنفع فاشتقَّ منه على طريق التبعيَّة لفظ «كَرِيمٍ» بمعنى نافع، والتحقيق ـ قيل ـ إنَّ الاستعارة التبعيَّة لم تتقدَّمها استعارة أصليَّة بل تقدَّمها قصد تشبيه فقط. وفي نفي البرد والكرم عن الظلّ الذي لهم إشارةٌ إلى إثباتها لأعدائهم المؤمنين، وذلك زيادة في غيظهم وتحسُّرهم.

وقيل: كريم مرضيٌّ في برده، وفيه أنَّه لا وجه لنفي كون برده مرضيًّا بعد نفي البرد البتَّة من أصله. وأجيز أن يكون نفيًا لكرامة من يستريح إليه، ونُسِبَ إلى الظلّ مجازًا، كأنَّه قيل: ولا كريم أهلُه بل مُهانون، والطبيعة تقبل المجلس الرديء لكرامة تلحق به، ولا تقبل المجلس الحسن مع إهانة تلحق به.

ويجوز أن يكون ذلك نعتًا لـ«يَحْمُومٍ»، فيفيد نفي الكرم عن اليحموم والبَردِ العامِّ، وعن الظلِّ المخصوص منه إذ كان بعضه مع بقاء ما تقدَّم من نكتة نفي البرد والكرم عن الظلّ، أشار إليه الإمام أبو حيَّان.

[قلت:] وَرَدَ عليَّ تفسيرٌ قبل هذه السورة بمقْدَار قليل لبغداديٍّ[1]، يُكثر فيه الردَّ على أبي حيَّان، ولي همَّة في الجواب عنه، لَكِنْ لي أشغال صرفتني.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل جمليٌّ، أي: عذّبوا بذلك لأنَّهم كانوا قد جعلهم الله تَرِفِين، أي: تابعين لهواهم، وذلك خذْلانٌ من الله تعالى، ولهم اختيار ولا إجبار لهم، أو لأنَّهم كانوا قد جعلهم الله تعالى مُتَكَبِّرِينَ عن الحقِّ، أو لأنَّهم كانوا قد أبطرهم الله، أي: جعلهم بطرين بالنعمة، أو أبطرهم النعمة.

ويبحث بأنَّه ليس كلُّ أهل النار مكثرة لهم النعم في الدينا، والجواب بأنَّ ذلك حكم على المجموع لا كُلِّـيَّة ضعيف، ويبعد بحسب الظاهر أن يراد كلُّ أحد منعَّمًا عليه بنعمة البدن الصحيح والعقل والحياة ولو مع قلّة المال. ولا يستشكل بمن ليس كذلك لقلَّة المرضى وأصحاب الآفات بالنسبة لهم.

﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ﴾ يمتنعون أشدَّ امتناعٍ من التوبة، ويدومون على ذلك ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذنب المطلق، ولو صغيرة أصرَّ عليها فكيف الكبائر؟ وكيف والشرك منها؟ وصحَّ أنَّه لا صغيرة مع الإصرار. وقيل: الحنث اسم للذنب الكبير، وعليه فوصفه بـ«الْعَظِيمِ» تأكيدٌ.

فعن الشعبيِّ: الحنث الكبائر، وعنه: اليمين الغاموس، وعن قتادة والضحاك: الشرك. وقيل: هو قولُهم: والله لا يبعث الله من يموت، كما قال الله ﷻ :

١- لعلّه هو تفسير روح المعاني لمحمود الألوسي البغدادي.

﴿وَاَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَّمُوتُ﴾ (سورة النحل: ٣٨) ، ويؤيِّده شهرته في مخالفة اليمين.

فقوله ﷻ : ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث الْعَظِيمِ﴾ وَصْفُهُم بالثبات على القسم الكاذب. وقوله: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ وصْفُهم بالاستمرار على إنكار البعث، فلا تكرار، وأيضًا قوله: ﴿وكَانُواْ يُصِرُّونَ...﴾ غير نصٌّ في ذلك بل محتمِلٌ، فبُيِّنَ بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾.

أو المعنى: كان بعض أجزائنا ترابًا محقَّقا بإذن الله ﷻ وشبيها به، وهو ما عدا العظام، والبعض الآخر العظام النخرة، كما في الآية الأخرى [النازعات آية١١].

وقدَّم التراب لبعد حياته عندهم بالبعث، ولو استبعدُوا أيضًا حياة العظام، كما قال الله ﷻ : ﴿قَالَ مَنْ يُّحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ (سورةيس: ٧٨ — ٧٩) .

وجواب «إذا» محذوف، أي: بُعِثْنَا أو نُبْعَث، أو يقدَّر أَنُبْعَثُ إذا متنا ؟ ، ودلَّ على المحذوف قوله ﷻ : ﴿ءِانَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ولا يتعلَّق بـــ«مَبْعُوثُونَ» لأنَّ معمول خبر «إنّ» لا يتقدَّم عليها، ولصدريَّة الاستفهام.

وليس الكون ترابًا وعظاما قيدا في إنكار البعث، فإنَّهم أنكروه ولو لم يَصِرِ الموتى ترابًا وعظامًا، بل هو احتجاج واستعباد لبعض الصور، كأنَّهم قالوا لرسول الله ﷺ : إن ادَّعيت البعث للموتى فكيف تصنع بمن لم يبق على حاله بل صار ترابًا وعظامًا ؟ .

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا الاَوَّلُونَ﴾ عطف بالواو على المستتر في «مَبْعُوثُونَ» للفصل بهمزة الاستفهام القَوِيَّة في الصدارة، حتَّى تقدَّمت على العاطف،

وبنون رفع المضارع لقوّتها حتَّى تأخَّرت عن الفاعل المرفوع به، ولو ضعفت الهمزة من حيث إنَّها تأكيد للأولى لا تأسيس، وضعفت النون من حيث إنَّها كحركة.

ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، أي: مبعوثون، وفيه تكلُّف الحذف مع الغنى عنه، لكن فيه الغنى عن الفصل بما ضعف. وعلى كلّ حال ذكروا الآباء لأنَّهم أبعد عن البعث عندهم لطول عهدهم.

﴿قُلِ﴾ ردًّا عليهم بالحقِّ **﴿اِنَّ الاَوَّلِينَ﴾** من آدم **﴿وَالاَخِرِينَ﴾** إلى يوم القيامة من الأمم، نصفٌ أوَّل ونصف أخير، أو المراد الأطراف فيدخل الوسط كما اعتيد ذلك. وقدَّم الأوَّلين لأنَّهم متقدِّمون في الوجود، ولأنَّ إنكار بعثهم أَقربُ عندهم مِن بَعْثِهم ومِن بَعْثِ مَنْ قَرُبَ منهم.

﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ في الموقف بعد البعث، أو المراد بالجمع البعث والذهاب بهم إلى الموقف.

﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ﴾ الميقات: مِفْعال، من الوقت بمعنى الحدِّ، فإنَّ ما حدَّ به الشيء ميقات له، زمانًا أو مكانًا، كمواقيت الحجِّ للمواضع التي لا يجاوزها الإنسان إلاَّ محرمًا.

والميقات في الآية الزمان مضاف إلى «يَوْمٍ» إضافة بيان، أي: إلى ميقات هو يوم القيامة، وهو حدٌّ لآخرِ الدنيا وأوَّلِ الآخرة. و«إِلَى» بمعنى في. ويجوز أن يكون الجمع في القبور، بمعنى أنَّه يجمعهم اسم المقبورين، فتكون «إِلَى» ظاهرُها لِلْغاية متعلِّقة بـ«مَجْمُوعُونَ» أو بحال محذوف جوازًا، أي: منتهين إلى ميقات يوم **﴿مَّعْلُومٍ﴾** عند الله معيَّن لا يعلمه على التعيين إلاَّ الله تعالى، أو معلوم في كتب الله والعلماء والمؤمنين بلا تعيين.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ الخطاب لأهل مكّة وغيرهم ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن دين الله تعالى. «ثمَّ» للتراخي الرتبي، لأنَّ الأكل من شجر الزقُّوم أشدُّ من البعث، أو للتراخي الزماني، وإنَّ واسمها وخبرها جملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ...﴾.

أمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم: ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ...﴾ وأن يقول لهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث، أو المراد المكذّبون بالبعث وغيره من أمر الدين.

﴿لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ﴾ «مِنْ» للابتداء ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ «مِنْ» للبيان متعلّق بمحذوف نعت لـ«شَجَرٍ»، وأجيز أن تكون «مِنْ» الأولى للتّبعيض مفعولاً لـ«آكِلُونَ» على أنّها اسم مضاف، أو بمحذوف نعت لمفعول محذوف، أي: شيئًا ثابتًا من شجر، أي: ثابتا بعض شجر.

وَلَمَّا لم يوجد في اللفظ مفعول به واضح جعل بعضٌ «مِنْ» زائدة، أي: لآكلون شجرًا هو زقّوم، والمشهور أنَّ «مِنْ» لا تزاد في الإثبات. أو «مِن زَقُّومٍ» بدل من قوله: ﴿مِن شَجَرٍ﴾، فـ«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض.

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ من الشجر أو من الزقّوم، والأوّل أولى.

(صـرف) وما مفرده بالتاء ــ ككلم وكلمة ــ يذكّر ويؤنّث، فأنّث هنا، وذكّر في قوله: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ لا باعتبار المعنى تارة واعتبار اللفظ، أو ردٍّ هذا إلى الزقّوم، وفيه أنّه من تفكيك الضمائر، كما لو أعيد إلى الأكل، وهو خلاف الأصل، مع أنّه لا حاجة إليه، ومع أنَّ الشرب على المأكول لا على الأكل.

(صـرف) وقال قوم: ما كان جمعا بإسقاط التاء تذكيره باعتبار لفظه، وتأنيثه باعتبار معناه، ويلزم عليه هنا اعتبار اللفظ بعد المعنى، والكثير عكسه، والتذكير باعتبار أنّه زقّوم أو مأكول خلاف الأصل.

﴿الْبُطُونَ﴾ يرسل الله عليهم الجوع الشديد حتَّى يفزعوا إلى أكل شجر الزقُّوم البعيد غاية عن الأكل، حتَّى يملؤوا البطون منها، ولا يخفى أنَّ ملء البطون غير مستقلٍّ عن الأكل المذكور قبله، فالمراد بقوله: «آكِلُونَ» شارعون في الأكل، والترتيب الاتِّصالي يكفي فيه القرب إذ لم يكن بين الشروع والملأ إلاَّ ما يتَّصل به الملأ على التدريج، أو الفاء للترتيب الذكري، أو يقدَّر: فهم مالئون منها البطون.

﴿فَشَارِبُونَ﴾ عقب الملْءِ ﴿عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ الماء الحارُّ غاية الحرارة يلقى عليهم العطش حتَّى يفزعوا إلى شربه لشدَّة الزقُّوم في بطونهم.

﴿فَشَارِبُونَ﴾ منه ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ لا يخفى أنَّ شرب الهيم لا يستقلُّ عن الأكل المذكور قبله، فالترتيب ذكريٌّ أو يقدَّر: فهم شاربون شرب الهيم.

(صرف) و«الهيم» جمع أَهْـيَم، بوزن فُعْلٍ (بضمٍّ فإسكان)، كما هو قياس "أفعل" في اللون والعيب، قلبت الضمَّة كسرة لتبقى الياء.

(لغة) وهو داء في الإبل يشتدُّ به حبُّ شربها للماء، فلا تزال تشرب حتَّى تموت أو تسقم. والمراد: **فشاربون شربا كشرب الإبل الهيم**. وقيل: الهيم الأرض ذات الرمل التي لا ترتوي بالماء.

﴿هَذَا﴾ أي: ما ذكر من أنواع العذاب ﴿نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ما يقدَّم لهم عاجلا كما يعجَّل للضيف ما تيسَّر من الخير ثمَّ يحتفل له منه، فما بالك بما يصابون به؟ والجملة استعارة تهكُّميَّة وفذلكة لما قبلها، وهي مستأنفة من كلام الله ﷻ و لم تدخل في القول. و«الدين» الجزاء.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ
۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي

﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ
أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

أدلَّة الألوهيَّة، وإثبات القدرة على البعث والجزاء

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ خطاب للكفرة. وخَلَقْنَا السماوات والأرضَ وكلَّ شيء ﴿فَلَوْلَا﴾ تحضيض ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعث فإنَّا قادرون عليه، كما قدرنا على خلق الأشياء، وكيف تقولون «أئنا لمبعوثون»؟.

ويدلُّ على أنَّ التصديق تصديق البعث أنَّ الكلام في البعث إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، ويدلُّ له أيضا ذكره بعد ذلك أنَّه خلق المنيِّ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ, أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾، أي: يبعثكم كما خلقكم من منيٍّ، وأنشأكم النشأة الأولى، وأنبت الحرث.

وقيل: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بأنِّي خلقتكم وخلقت كلَّ شيء وخلقت السماوات والأرض، وجعل إقرارهم بخلقه السماوات والأرض وبخلقه إيَّاهُم في البطون كلا إقرار، إذ لم يُتبعوا ذلك بالتوحيد وسائر الشريعة، وفيه أنَّه لم يذكر في الآية خلق السماوات والأرض الذي أقرُّوا به، بل ذكر خلقهم وهم لم ينكروه، واستلحاق خلق السماوات والأرض في الآية تكلُّف من بعض الْمُفَسِّرِينَ.

﴿أَفَرَآيْتُم﴾ أتذكَّرتم فرأيتم ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تقذفونه من المنيِّ في الأرحام ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ,﴾ تصوِّرونه بشرا، وتنفخون فيه الروح؟ وقيل: آنتم

تخلقون نفس المنيِّ من الدم؟. والجملة مفعول ثان معلّق عنه بالاستفهام، وإن جعلنا الرؤية بصريَّة فالجملة مستأنفة.

﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ المصوِّرون للمنيِّ بشرا ؟ أو خلقنا المنيَّ؟. و«أم» متَّصلة كما هو ظاهر، وأجيز أن تكون منقطعة بمعنى بل الإبطاليَّة، وزعم بعض أنَّها بمعنى بل وهمزة التقرير.

(نحو) و«أَنتُمْ» مبتدأ، فالجملة اسْمِيَّة كالجملة المعطوفة بعدها عليه، ولو جعلناه فاعلا لمحذوف ــ أي: أتخلقونه؟ فحذف غير الواو، وجعل بدله ضمير منفصل ــ لتخالفت الجملتان فِعْلِيَّة واسميَّة، والأصل التوافق وعدم الحذف، ولا نسلِّم أنَّه إذا أمكنت الفِعلِيَّة بعد الهمزة لم يعدل عنها.

(فقه) ويحسن للقارئ والمستمع أن يقولا عند قراءة ﴿أَفَرَآيْــتُمْ...﴾ بل أنت يا رَبِّ. قال حجر المرويُّ: بتُّ عند عليٍّ فسمعته يصلِّي، كلَّما قرأ ﴿أَفَرَآيْتُمْ﴾ قال ثلاثا: أنت يَا رَبِّ، وهذا في النفل جائز، وقيل: لا، والقولان أيضا عند غيرنا، وأجيز ولو في الفرض وَيَدُلُّ له الحديث[1]، وإنَّما اختلف فيه لأنَّه ليس من القرآن.

(فقه) ويباح آخرَ تَحيَّةِ التسليمِ سائرُ الأذكار بِالعَرَبِيَّة، ولو من صلاة الفرض، ويجوز الجهر بها، لأنَّها ليست من التحيَّات، والتحيَّات تمَّت في قوله: «عبده ورسوله». ويجوز بلى بعد ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة التين: ٨) ، فينبغي لنا أن ننوي «بَلَى» التي في القرآن.

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٥٠، وقال: أخرجه عبد الرزَّاق وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ قضينا به بينكم، أو جعلناه على قدر متخالف بعض يموت صغيرا وبعض متوسِّطا وبعض كبيرًا، أو بعض بقتل وبعض بمرض وبعض بغير ذلك، وفي أماكن وأوقات بحسب الحكمة في ذلك كلّه.

وقيل: الخطاب لبني آدم والملائكة، أي: خالفنا بينكم وبينهم، هم يموتون يوم القيامة وأنتم تموتون في الدنيا بعض بعد بعض. أو «قَدَّرْنَا» بمعنى قضينا بين الملائكة وبين بني آدم، وَلَكِنَّ تفسير الخطاب بما يشمل الملائكة لا يظهر.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ مغلوبين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ نذهب صفاتكم، والمثل بمعنى الصفة واردٌ، أو نذهبكم بمرَّة واحدة ونأتي بأشباهكم من الخلق.

(بلاغة) والسبق مستعار للغلبة استعارة تصريحيَّة، إذ شبَّه فعل أحد ما لم يرد غيره فعله بالسبق إلى مكان لجامع المخالفة، أو مجاز مرسل لعلاقة اللزوم إذ لزمت الغلبة على شيء من السبق إليه، وقيل: السبق بمعنى الغلبة حقيقة إذا كان بـ«عَلَى» كما هنا.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من صور الخلق، وقال بعض: ننشئكم في حواصل طير سود كأنَّها الخطاطيف تكون في برهوت، وهو واد في اليمن.

وقيل: في وقت لا يعلمونه ولا يعلمون كَيفيَّة الإنشاء كما علموا الإنشاء الأوَّل من جهة التناسل، **وفي ذلك تحريض على الإيمان والعمل قبل ذلك الوقت.**

وقدَّر بعضهم: «مِنْ صُوَرِ الخلق والأطوار التي لا تعهدونها». وقدَّر الحسن: «فيما لا تعلمونه واقعا فيكم من الردِّ قردة وخنازير»، واختار هذا اعتبارا لكون الآية تهديدًا.

وقيل: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، وقيل: لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت، أو يبدِّل وقته، والمراد تمثيل حال من سلم من الموت، أو تبدَّل وقت موته بحال من طلبه طالب و لم يدركه.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ حال من المستتر في «مَسْبُوقِينَ»، أي: قادرين أو عازمين على تبديل أمثالكم، وقيل: متعلّق بـ«قَدَّرْنَا» وعلّة له.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الاُولَىٰ﴾ من نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة...إلخ. وقيل: نميت طائفة ونخلق أخرى. وقيل: فطرة آدم عليه السلام من التراب، ولا ينكرها أحد فيما قيل.

﴿فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أنّ من قدر على ذلك قادر على إحياء الموتى؟ أبدلت التاء ذالا وأدغمت في الذال، والآية **دليل لإثبات القياس**، وكذلك أمثالها في القرآن، ولا سيما مع ذكر التذكُّر كما هنا إذا قَدرَ على الصعب فأولى أن يقدر على السهل، وهذا لبادئ الرأي **وَأَمَّا عند الله فالأشياء عند الله تعالى سواء.**

[قلت:] ومن قال: إنّ بعض الأشياء أسهل من بعض على الله عزّ وجلّ فقد أشرك لأنّه نسبه إلى العجز.

﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ أتذكّرتم فرأيتم **﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾** ما تُلقون في الأرض من البذور **﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ, أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾** تنبتونه وتنمُّونه وتثمرونه؟.

قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : «**لا يقولنّ أحدكم: زرعت ولكن ليقل حرثت**» ثمّ قال أبو هريرة: ألم تعلموا أنّ الله تعالى يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ...﴾ الآية، رواه الطبريُّ وغيره.

[قلت:] ويستحبُّ للزارع أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقرأ الآية، ويقول: «الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ، اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّد، وارزقنا

ثمره وجنِّبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين» قاله القرطبيُّ بلفظه وقد ظفرت بنسخة من تفسيره بخطِّ اليد المشرقي.

وفيه دليل على أنَّ النهي في الحديث عن أن يُسَمَّى غير الله زارعا ليس تحريما لمن عرف المراد الشرعيَّ، وقد استعمل هذا الدعاء لدفع آفات الزرع كلِّها وإنتاجه، فانتفعْ به، ولا يقال لما في القرآن أو الحديث: جرَّبته أو جرَّبه أحدٌ ونحو ذلك.

(بلاغة) ذكر الله ﷻ المأكول أوَّلا لأنَّه الغذاء، وأتبعه المشروب لأنَّ به الاستمراء والانهضام، وبه يدخل العروق، كما قيل: إنَّ الماء مركب للطعام، ثمَّ ذكر النار لأنَّ بها إصلاح الطعام، وذكر من الطعام الحبَّ لأنَّه الأصل العامُّ، وهو قبل التمر، ومن المشروب الماء لأنَّه الأصل ولا يغني عنه سائر المشروب، والماء تبع للطعام، وذكر النار لأنَّ بها إصلاح أكثر الأغذية.

﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ جَعْلَهُ حطيما، أو لو نشاء أن لا تنتفعوا بثماره ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ محطوما، أي: مكسورا مفتوتا لتيبيسه بعد إنباته، وبعدما طمعتم في غلَّته، أو قبل طمعكم، أو جعله تبنا لا ثمار فيه، فهو من شأنه أن يحطم ولا يحترم.

﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتفكَّهون، تطلبون الفاكهة من غير ذلك الحرث، أو تتعجَّبون من سوء الحال التي شاهدتم بعد حسن ما شاهدتم، كما روي عن ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة. أو تزيلون الفكاهة عن أنفسكم ــ وهي المسرَّة ــ كَتَحَوَّبَ وتحرَّجَ: أزال الحوب والحرج.

والتفسير بالندم على تعبهم فيه والإنفاق فيه أو على العصيان في شأنه الموجب لتلفه أو بالحزن، أو بالتلهُّف على الفوت أو على التلاوم تفسير بالمعنى واللازم لا باللغة. والتفكُّه أيضا التنقُّل بالكلام، فهم يتصرَّفون في الكلام على إفساده ندما.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ منصوب بحال من الواو محذوفة، أي: قائلين إِنَّا لمغرمون، والأصل في الحال غير الجملة.

وتجدُّد القول يفيده التجدُّد في «تَفكَّهُونَ»، أو يقدَّر جملة صريحة بالتجدُّد، أي: تقولون: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ»، والأوَّل أولى، أو الجملة محكيَّة بـ«تَفَكَّهُونَ» لتضمُّنه معنى القول.

والإغرام: التعذيب والإضرار بهلاك ما طمعوا أن يكون رزقا لهم، أو بذهاب البذر بلا عوض عنه فضلا عن الفائدة، أو بالمعاصي. أو الإغرام: إلزام الغرامة بنقص الرزق.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون من ذلك الزرع، لا بخت لنا فيه، أو لا بخت لنا مطلقا، لا من ذلك ولا من غيره. والإضراب انتقاليٌّ مطلقا.

﴿أَفَرَآيْـتُمُ﴾ مثل ما مرَّ ﴿الْمَآءَ الذِي تَشْرَبُونَ﴾ عذبا فراتا. ومنافع الماء كثيرة جدًّا لا يستغنى عنها، حتَّى النار تحتاج إليه، لأنَّ الحطب به والنار بالحطب، ولولا الماء لم توجد النار في شجر القدح. وخصَّ الشرب لشدَّة الاحتياج إليه وتكرُّره، وهو أهمُّ المقاصد العاجلة.

﴿ءَآنتُمْ أَنزَلْـتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ السحاب، والواحدة مزنة. وقيل: السحاب الأبيض، قيل: وماؤه أعذب، والصحيح العموم في الآية ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ له منها؟ لشربكم وسائر مصالحكم.

﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ جَعْلَهُ أجاجًا، أو عدم الانتفاع به الانتفاع الكامل بل لنحو غسل ﴿جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ملحا لا يشرب البتَّة، أو إلاَّ كدًّا، من الأجيج وهو تلهُّب النار، أو من الأجاج وهو كلُّ ما يلذغُ الفم، ولا يمكن شربه لملوحة أو مرورة أو حرارة، وهذا أعمُّ، وهو أولى، إلاَّ أنَّ الأنسب في مقابلة الماء المشروب العذب تفسيره بالملح، وتليه المرورة.

(نحو) وحذفت اللام من جواب «لَوْ» هنا لدليل ذكرها قبل، والحذف لدليل مطّرد إلاّ لمانع، ولو لم يكن دليل لم تقدَّر، لأنّها غير لازمة، ولو حذفت من الأوَّل وقرن بها الثاني لجاز، فَلِمَ لَمْ يكن، أو لِمَ لَمْ تذكر فيهما معا، أو تحذف فيهما ؟

والجواب: إنّها ذكرت في الطعام لأنّه مقدَّم على الشراب عادة لنفسه ولضيفه، وأمره أشدُّ، والطعام مركب للماء، والماء راكبه، وهو معين على هضمه، وهو أصل للماء، والماء لإدخاله في العروق، فالتهديد بقطعه أشدُّ، فأكّد التهديد بلام الجواب لأنّها للتأكيد، [وفيه أنـــّهُ يفيد: لَقوَّينَا ملوحته، فيلزم تَقَدُّم ملوحته، وليس تقدُّمها مرادا. وقد يقال: إنَّهُ من باب: "وسِّع الدار". وَأَيْضًا جعل الماء العذب ملحًا أسهل بأن يُلقى فيه الملح، أو يُلقى فيه ماء ملحٌ قدرَ ما يُغَـــيِّرُه، ويجريه عَلَى الأَرض الملحة فيملح][1] والمعنى: تصيير العذب ملحا، والماء الملح أكثر فلذلك لم يحتج الكلام في جعل العذب ملحا إلى زيادة توكيد، وأمَّا جعل الزرع حطاما فخارج عن المعتاد، فإذا وقع فعن سخط فأكّد باللام لتقرير إيجاده.

﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ تحضيض على شكر النعم كلّها، وهذا أعمُّ، والعموم أولى، فيدخل فيه الماء العذب أوَّلا وبالذات.

وقيل: المراد تشكرون نعمة الماء العذب، ويناسبه حديث أبي جعفر أنّه كان رسول الله ﷺ إذا شرب الماء قال: «**الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا**» فشكر الله تعالى على الماء العذب، وذكر الملح معه على وجه النفي، كما في الآية، قلنا: حاصله أنّه شكره على بعض ما في الآية لحضوره حادثا.

١-ما بـــين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحونها من الزناد ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ فيه جميع ما مرَّ في ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾. وشجرها المرخ والعفار[1]، وإنشاؤها خلقها، وفي كلِّ شجرة نار إلاَّ أنَّها في العفار والمرخ أكثر وأسرع خروجا، مع أنَّا لا نقدر على استخراجها من الشجرة الضعيفة. وبإضافة الشجرة بالإفراد إلى ضمير النار علمنا أنَّ المراد شجرة مخصوصة، وهي المرخ والعفار جعلتا واحدة لأنَّ النار منهما ولأنَّ إحداهما كأنثى وأخرى كذكر.

وعبَّر بالإنشاء عن الخلق لأنَّه ينبئ عن ابتداع صنع غريب، نار تخرج من ماء، وكذا خالفتا سائر الشجر بكثرة نارهما وسرعتهما، ومن ذلك تعبيره تعالى بالإنشاء في نفخ الروح، إذ قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٤) .

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ لنار جهنَّم، إذ جعلناهم معاملين لها كثيرة بين أيديهم، لطعامهم وتسخينهم لأبدانهم ومائهم ومداواتهم ليتذكَّروا بها عقاب الآخرة، وكأنَّها جزء من جهنَّم حاضر.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنَّم**» قال أبو هريرة: يا رسول الله نارنا هذه تكفي، فقال: «**فإنَّها زادت عليها بتسعة وستِّين جزءا كلٌّ واحد كناركم هذه**»[2].

١-الْمَرخ بالفتح شجر سريع الوري يقدح به، ومنه المثل: في كلِّ شجرة نار واستمجد المرخ والعفار، أي فضل. والعفار (بالفتح) شجر كذلك يتَّخذ منه الزناد يسرع في الوري.

٢-رواه **البخاري** في كتاب صفة الجنَّة (١٢) باب شدَّة حرِّ نار جهنَّم، رقم ٢٨٤٣. **والترمذي** في كتاب صفة جهنَّم (٧) باب ما جاء في أنَّ ناركم جزء من سبعين جزء... رقم٢٥٢٨.
=

والتذكرة: التذكير ضدُّ الإنساء، من الذِّكر ضدّ النسيان، أو تذكرة للبعث، كما قدرنا على إخراج النار من الشجر الأخضر بالماء المضادِّ لها كذلك قدرنا على إحياء الموتى، والجمهور على الأوَّل وهو قول ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة.

(لغة) ﴿وَمَتَاعًا﴾ تمتيعا ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ الذين يترلون القواء لسكنهم فيه أو للسفر وهو القفر، يقال: أقوى بمعنى دخل القواء، كأيمن بمعنى دخل اليمن، وأصحر بمعنى دخل الصحراء، ومنه في الزمان: أصبح وأمسى: دخل الصباح ودخل المساء. وأمَّا تفسيره بالدخول في البرد فتفسير باللازم، فإنّ البرد لازم لمن في القفر في وقته.

وعن ابن عبَّاس والحسن وقتادة: المقوون المسافرون، ويحتمل التفسير باللازم كذلك، وكم لفظ أدخلوا في اللغة والتفسير بمعنى اللازم وأوهموا أنَّه موضوع في اللغة لذلك. وخصَّ المسافر والنازل في الصحراء لأنّهم أشدُّ احتياجا إلى النار والزناد لإصلاح الطعام وإرشاد الضالّ، وطرد السباع، ومن في المترل أو قريبا منه غير مضطرٍّ إلى نار الشجر.

(لغة) وقيل: «المقوين» الفقراء يستضيئون بها في الظلمة، ويصطلون من البرد، يقال: أقوى فلان افتقر. وقيل: الجائعون، يقال: أقوى: خلا بطنه من الطعام، وأقْوَتْ مزواده وأقوى ذلك المكان، أي: خلا، فهم يحتاجون إليها لطبخ ما يأكلون، ويردُّه أنَّه لا ينحصر أكل الجائع فيما يطبخ.

وقيل: «المقوين» المستمتعون بها في حضر وسفر، في غنى أو فقر في مترل أو صحراء لطبخ واصطلاء وغير ذلك، وما قيل من أنّ الأغنياء يتنعَّمون بها ولا يعدُّونها متاعا لا يصحُّ، لأنّ من يتنعَّم بشيء فهو في حقّه متاع، ولو لم يسمِّه

=

من حديث أبي هريرة مع اختلاف في اللفظ.

متاعا والتسمية لا تشترط.

(لغة) ولا يقال: أقوى بمعنى افتقر أو جاع لخلوِّه من المال أو الطعام، وأقوى بمعنى قوي على ما يريد، من الأضداد لأنـَّا نقول: لا يقابَل الخلوُّ من المال أو الطعام بِقُوَّة الرجل على ما يريد، وإنَّما يكون من الأضداد لو كان أقوى بمعنى خلا من كذا، وأقوى بمعنى عمَّ به.

(بلاغة) وأخَّر متاع المقوين لأنَّ أمر الآخرة أهمُّ، ومنه التذكرة بالنار. وقدَّم الماء على النار لأنَّه أصلها، والحاجة إليه أشدُّ وأكثر. وقدَّم خلق الإنسان من منيٍّ لأنَّه نعمة متقدِّمة على الثلاث بعده. وأعقبه بما يعيش به من الحَبِّ وأعقب الحبَّ بالماء لأنَّه يعجن به ويطبخ فيه، وأعقبه بالنار لأنَّها تطيِّبه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ زد التسبيح، أو دم عليه، وإلاَّ فهو مسبِّح، فلا يلزم تحصيل الحاصل. والمراد: تنزيه الله تعالى عن صفات الخلق وصفات النقص. ومفعول «سَبِّحْ» محذوف، أي: سبِّح الله باسم ربِّك، أي: بذكر اسم ربِّك، فحذف المضاف أو الاسم بمعنى الذكر.

(أصول الدين) وإطلاق الاسم للشيء ذكر للشيء، وذلك مثل أن نقول: الله جليل، الله قديم، الله عالم، وأسماؤه كلُّها مدح وتنزيه عن ضدِّها.

وقيل: المفعول به اسمٌ، على أنَّ الباء زائد، فالمعنى: نزِّه الألفاظ التي هي أسماؤه على كلِّ سوءة كما تنزِّهه تعالى عَمَّا لا يليق. كما أنَّه يجوز أن يكون العظيم نعتا لاسم بمعنى اللفظ أو لربٍّ.

(أصول الدين) وكما تقول: الله عظيم تقول أسماؤه عظيمة، وتنزيه الاسم تنزيه للمسمَّى من باب أولى، فتنزيهه كناية عن تنزيه المسمَّى، وذلك كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الاَعْلَى﴾ (سورة الأعلى: ١) .

[قيل:] رأى عمر ﷺ مصحفا صغيرا بيد رجل، فقال: من كتبه؟ فقال: أنا، فضربه بالدرَّة وقال: «عظِّموا القرآن». وعن إبراهيم النخعي: يكره أن يكتب القرآن في الشيء الصغير، وعن عليٌّ أنَّ النبيء ﷺ نهى أن يقال: مسيجد أو مصيحف بالتصغير. وكتب رجل القرآن مصحفا مثل اصبع فضربه ملك من الملوك مائة ضربة لتصغيره المصحف، وأعطاه مائة دينار لحذقه.

وإضافة «اسْمِ» للجنس، أو للاستغراق، أو لا مفعول لـــ«سَبِّح»، أي: أوقع التسبيح مستمرًّا، أو زد على ما أنت عليه.

(أصول الدين) قلت: ومن سمَّى غير الله باسمه تعالى على جهة التعظيم أشرك، كما لو قال مشرك: إِنَّا لا نعتقد أنَّ الصنم إله لكن نلفَّظ به فهو مشرك أيضا بهذه التسمية.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِى
كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ٨٣
وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ٨٩
وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ
٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ
ٱلْعَظِيمِ ٩٦﴾

إثبات النبوءة وصدق القرآن، وتوبيخ المشركين على اعتقادهم

﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ «لاَ» زائدة مثل: ﴿لِيَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (سورة الحديد: ٢٩) ، أو ألف «لاَ» زائدة إشباعا كقراءة هشام: ﴿فَاجْعَلَ افْئِدَةً﴾ (سورة إبراهيم: ٣٧) ، بإشباع الهمزة، وقولهم: أعوذ بالله من العقراب، وَيَدُلُّ له قراءة قالون: «لأُقْسِمُ» بإسقاط الألف، وقدَّر بعض في القراءتين المبتدأ، أي: فلا أقسم، أو فلا أنا أُقسم، قراءة قالون وقراءة الجمهور على أنَّ الألف فيها زائد، أو هي ألف «أنا» الذي بعد النون على أنَّ اللام للابتداء، ويبحث بأنَّها تأكيد، وحذف المبتدأ مناف للتأكيد.

وقيل: لا نافية لمحذوف، أي: لا يصحُّ ما يقولون من أنَّه ساحر أو مجنون أو شاعر. أو ناهية، أي: لا تقولوا ذلك، وما بعدها مستأنف. وقيل: لا نافية، أي: لا أقسم لظهور الأمر. وقيل: «لاَ» هنا مثلها في قولك: لا تسأل عمَّا جرى، تريد تعظيم الأمر لا النهي عن السؤال.

﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بسقوطاها، وهي غروباها، وهو جمع موقع بمعنى وقوع، أو بأماكن غروباها، أو زمانات غروباها، أو زمان سقوطها، وهو يوم القيامة، أو نفس سقوطها يوم القيامة، وهو قول الحسن، أو نفس وقوعها على مسترِقي السمع. وقيل: المراد مواقع الأنواء.

وعن ابن عبَّاس: نجوم القرآن، ومواقعها: أوْقات نزولها، أو نفس نزولها، وفي الحديث : «**نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ على يد إسرافيل، ووضع في بيت العِزَّة البيت المعمور، ثمَّ كان يترل منه نجومًا على يد جبريل**»[1]

١-أورده **الحاكم** في كتاب التفسير (٥٦) تفسير سورة الواقعة، رقم٣٧٨١. من حديث ابن عبَّاس، مع اختلاف في اللفظ.

فالنجوم الجمل التي تنزل جملة منه بعد أخرى، ويدلّ على أنّ النجوم القرآن ذكر القرآن بعد.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وجواب «لَوْ» متروك، أو يقدَّر: أي لعظّمتموه، أو لعلمتم موجبه. و«لَوْ» وما بعدها معترض بين المنعوت والنعت، والمجموع معترض بين القسم وجوابه، وهو قوله ﷻ:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ وكرم القرآن حسنه في جنسه، من كتب الله ﷻ، ونفعه دنيا وأخرى. أو شبِّه بذي الجود على الاستعارة. أو كرمه أعمُّ من كثرة البذل والإحسان والاتّصاف بما يحمد. قيل: وكرمه في هذا حقيقة.

ومن كرمه: الدلالة على الهدى والدِّين، وانتفاعُ الفقيه به، والحكيم والطبيب والأديب، والذكيِّ والبليد، والصغير والكبير، وبقاؤه طريًّا لا يهون ولا يُمَلُّ بكثرة الرَّدِّ، أعني التردُّد فيه بالقرآءة، كما جاء الحديث بذلك.

وقيل: المراد كرمه على الله ﷻ، قال بعض: هو راجع إلى القول الأوّل لأنّ كرمه على الله تعالى هو حسنه، وليس كذلك، فإنّ معنى كونه كريما على الله أنّه شريف القدر عنده، كالشيء الذي فضله ذاتيٌّ، وهذا غير عنوان كونه حسنا.

وليس قول القائل كريم على الله تقديرا لمحذوف حتّى يقال فيه تقدير بلا حاجة، لأنّ ذلك بيان للمراد بلا تقدير، والهاء في «إنّه» عائد إلى القرآن المدلول عليه بمواقع النجوم، لكن بعنوان كونه كريمًا، والمراد هنا الإخبار بأنّه مقروء على رسول الله ﷺ من الله، لا إنشاءٌ منه، أو من غيره من الناس.

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ محفوظ مستور عن أن يراه غير الملائكة المقرَّبين، وعن أن يزيد فيه أحدٌ شيئًا أو ينقص منه، وهو اللوح المحفوظ. أو «مَكْنُونٍ»: محفوظ من الزيادة والنقص، أو التبديل أو التغيير مطلقا.

[قلت:] والمراد هو مصحف عثمان وسائر المصاحف إلى يوم القيامة، وفي ذلك إخبار بالغيب، لأنّ المصاحف لم توجد في زمان رسول الله ﷺ .

أو مكنون بمعنى شريف، ومن شأن ما هو شريف أن يستر وَيحافظ عليه. وعن عكرمة: الكتاب المكنون التوراة والإنجيل، بمعنى أنّهما متضمّنان لذكره وتصديقه، وأنّه مذكور فيهما، وفيه أنّ الكتاب في الآية نكرة في الإثبات فلا تشمل كتابين، فالأَوْلى أن يقتصر على التوراة، اللّهمّ إلاّ أن تراد حقيقة الكتاب، إلاّ أنّه يبقى أن يقال على قول عكرمة: كيف قال مكنون؟ فلعلّ معناه شريف لِمَا مَرَّ أَنَّ مِن لازِمِ ما هو شريف أن يكون مستورًا محافظا عليه. وليس كما زَعم بعض أَنَّ الكتاب المكنون قلب المؤمن.

والمحافظة عليه في جميع الأقوال معتبرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ﴾ (سورةالحجر: ٩) .

﴿لاَّ يَمَسُّهُۥ﴾ بالبدن ﴿إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ الجملة نعت «كتَاب»، وهو اللوح المحفوظ، و«الْمُطَهَّرُونَ»: الملائكة وتطهيرهم خلق الله إِيَّاهُم طاهرين، لا تطهير بعد وجود دنس، فذلك كــ«وسَّعت الدار»، أي: بنيتها واسعة.

وطهارتهم: تنزُّههم عن النفس الأمَّارة بالسوء، وعن كدر الطبع ودنسه، وقيل: عن كدر الأجسام، ومسُّه كناية عن الاطِّلاَع عليه وعلى ما فيه. و«لاَ» نافية، وذلك مرويٌّ عن ابن عبَّاس وأنس. أو الجملة نعت قرآن، والهاء له و«لاَ» نافية، والكتاب المكنون: اللوح المحفوظ.

(فقه) والمطهَّرون من ليس مشركًا ولا أقلف بالغا غير معذور، ولا حائض ولا نفساء ولا جنبا، والمسُّ: تناول القرآن بما أمكن من قراءة ومسٍّ نسخته، ولو من فوق الجلد أو الغلاف الآخر، ولو تعدَّد إذا وصل الغمز إليه، من إطلاق المقيد على المطلق.

وقيل: الهاء للقرآن، والمطهَّرون: الملائكة، لكن المراد لا يمسُّه عند الله إلاَّ ملائكته، وأَمَّا عندكم فيمسُّه مشرك وغيره، وذلك إخبار بالغيب ستكون منه نسخ، وَيَدُلُّ لذلك قوله ﷻ: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ... كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (سورة عبس: ١١ ــ ١٦) .

(فقه) وقد نهى ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ، ولا يخفى أنّ المراد في هذا الحديث أوراقه ودفّتاه، وأجاز حمَّاد وأبو حنيفة مسَّ المصحف وغلافه للجنب والمحدث، وقد قال ﷺ: «**لا يمسُّ القرآن إلاَّ طاهر**»[1].

وقيل: عن الفرَّاء: المعنى لا يجد طعمه إلاَّ من آمن به، وعن الشيخ محمَّد الباقر من أهل البيت: المطهَّرون الآدميُّون المطهَّرون من الأحداث الكبار والصغار، فلا يقرأه أو يَمَسُّه إلاَّ من هو على حال تَصِحُّ الصلاة معه، وهو متبادر من حديث ابن عمر في الطبراني: «**لا يَمَسُّ القرآن إلاَّ الطاهر**»، وقوله لعمرو بن حزم: «**لا تَمَسَّ القرآن إلاَّ على طهر**».

(فقه) وقيل: «الْمُطَهَّرُونَ» من الشرك، فيمسُّه الموحِّد الجنب، والحائض والنفساء، ويقرأونه، وهو رواية عن ابن عبَّاس، وذلك في الإيضاح[2] قول في الحائض والنفساء.

(فقه) وإذا قلنا: السرُّ تحريك اللسان فلهما وللجنب قراءتُه بلا تحريك، وإذا قلنا السرُّ: إسماع الأذن فلهم قراءته بالتحريك بلا إسماع. وفي قول بعض: لهم قراءة أقلّ من آية، ولمعلِّمة الصبيان أن تلقِّن لهم نصف آية، وتسكت

١-رواه **البيهقي** في كتاب الحيض (٢) باب الحائض تقضي الصوم... رقم١٤٧٥. **والتبريزي** في كتاب الطهارة (٦) باب مخاطبة الجنب وما يباح له، رقم٤٦٥. من حديث عمرو بن حزم.

٢-عامر بن علي الشَّمَّاخِي: الإيضاح، ج١، ص٢٦١.

ثُمَّ تعلَّم نصفا.

وعن عليٍّ أنَّ النبيء ﷺ كان يقرأ القرآن بعدما خرج من الخلاء ولا يحجزه إلاَّ الجنابة.

وقيل: «لاَ» ناهية للناس، والفعل مجزوم بسكون مقدَّر منع من ظهوره التقاء الساكنين، **والأَوْلى أنَّها نافية في معنى النهي، وهو أبلغ من النهي الصريح**، لأنه بصورة نهي من قد امتثل. وأيضا كأنه قيل: حكم الشرع أنَّه لا يَمَسُّه إلاَّ مطهَّر. وأيضا الأصل في الضمَّة أنَّها إعراب. وأيضا قرأ ابن مسعود: «مَا يَمَسُّه» بما النافية، فدلَّ على أنَّ «لاَ» نافية.

ومن الأدب للقرآن أن لا يقلِّب أوراقه بإصبع فيها بزاق، وقال بعض قومنا: يكفر بذلك، وليس كذلك، لأَنــَّهُ ليس إهانة له، فليترك ذلك وَلاَ بُدَّ.

والظاهر أنَّ المراد الملائكة للفظ «الْمُطَهَّرِين» بتخفيف الطاء وشدِّ الهاء، والله خلقهم طاهرين، ولو أريد الناس لكان الأظهر أن تشدَّ الطاء كالهاء ليكون فعلا منهم، وقد قرأ سلمان بشدِّهما، فأصله المتطهِّرون بالتاء دون قلب وإدغام كما قرأ بعض.

(نحو) **﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾** نعت آخر لـ«قُرْءَانٌ»، بمعنى منزل، وَيَدُلُّ على أنَّه هنا بمعنى مفعول لم يجعل اسما خارجا عن المَصدَرِيَّة قراءة بعض: «تَنزِيلاً» بالنصب على المفعوليَّة المطلقة لمحذوف، أي: نزِّل تنزيلاً. وَمِمَّا تغلَّبت فيه الاسميَّة عليه قولهم: جاء في التنزيل، ونطق التنزيل بكذا. وقد يبقى على المَصدَرِيَّة، فينعت به مبالغةً، ويدلُّ على بقائه على المَصدَرِيَّة أو معنى مفعول تعليق «مِنْ» به.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيث أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: أتعرضون فبهذا الحديث أنتم مدهنون؟ فعطف الاِسمِيَّة على الفعلِيَّة كما رأيت، أو قدِّر: أأنتم معرضون فبهذا

الحديث أنتم مدهنون؟ فتعطف اسْمِيَّة على اسْمِيَّة.

والإدْهَان الإلانة، والأصل إدْهان جسمٍ كجلدٍ ليلين أو يصلح، فاستعير للإلانة المَعَنوِيَّة، والجامع التسهيل، فتجوَّز به إلى معنى التهاون، والمتهاون بالشيء لا يتصلَّب فيه.

وتفسير الزجَّاج بمكذوبون تفسير باللازم. والخطاب للمشركين صراحًا.

وعن مجاهد: منافقون، وهو تفسير بالمعنى الواقع، يظهرون التصديق، وإذا خلوا إلى إخوانهم قالوا: إنَّا معكم، والخطاب للمنافقين. و«الْحَدِيث»: القرآن المذكور، أو قولهم: «أَيذَا مِتْنَا»، أي: أَبِقَوْلكم: أيذَا مِتْنا تلاينون أصحابكم؟ ولا يقدَّر شيء، أو يقدَّربعده: أم أنتم جازمون بقولكم هذا ؟ والصحيح الأوَّل، لأن سبب النزول أَنَّـهُم يقولون: أمطرنا بنوء كذا.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقولون: مطرنا بنوء كذا وبنجم كذا، فـ«رِزْقَكُمْ» بمعنى شكركم، تعبير بالمسبَّب عن السبب، أو باللازم عن الملزوم، أو يقدر مضاف، أي: شكر رزقكم، وذلك مجاز.

ويجوز أن يكون حقيقة على لغة أزد شنوءة، يسمُّون الرزق شكرا، يقولون: أَطْعَمَ فلان فلانا ألفا وما رزقه، أي: ما شكره.

وقرأ عليٌّ في صلاة الفجر: «وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُم...» إذ قرأ فيها بسورة الواقعة وَلَمَّا فرغ من الصلاة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ كذلك، وقد علمتُ أنه يقول قائل، أي: يستنكر ذلك، [قلت:] فلو كانت تفسيرا لم يقرأ به في الصلاة، وقد استشهد أيضا بالحديث كما سمعت.

ومعنى الآية: جعلتم التكذيب مكان الشكر حَـتَّى كأنَّه عينه. وفي حديث الربيع بن حبيب: «أصبح من عبادي مؤمن وكافر، من قال: أمطرنا بفضل الله

فهو مؤمن بي وكافر بالنجم، ومن قال: أمطرنا بنوء كذا فكافر بي ومؤمن بالنجم»[١]، ومثله في البخاريِّ ومسلم، إلاَّ أنَّهُ زاد مسلم قوله: «فنزلت الآية: ﴿فلاَ أُقْسِمُ... تُكَذِّبُونَ﴾».

(سيرة) وفي حديث ابن أبي حاتم: لَمَّا نزلوا في غزوة تبوك الحجر، أمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من ماء بئره ماءً، لأنَّهَا لقوم ظلموا فأهلكهم الله ﷻ، وارتحلوا ثمَّ نزلوا ولا ماء، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فصلَّى ركعتين ودعا، فأمطروا، فقال رجل من الأنصار يتَّهمونه بالنفاق: إنَّما مطرنا بنوء كذا، فنزل ما نزل.

(سبب النزول) وعن ابن عبَّاس مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا**» فنزلت الآية: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ... تُكَذِّبُونَ﴾[٢].

وذلك كفر شرك إذ قالوا الكوكب مؤثِّر حقيقة، موجدٌ للمطر، ويدلُّ له أنَّهُ قوبل به الإيمان، ومقابلته بالشكر في بعض الأحاديث يناسب أنَّه كفر نعمة، ولا يحسن هذا، إلاَّ إن أراد نسبة المطر إلى النجم غافلا عن قطعه عن الله، وقد قيل: يكره مثل هذا كراهةً لا كفرا، وفي رواية: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبيَّة في أثر سماء كانت من الليل، فلما سلَّم أقبل علينا فقال: «هل تدرون ما قال ربُّكم في هذه الليلة ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «قال: ما

١-تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٤، ص٣٩٤.

٢-رواه **مسلم** في كتاب الإيمان (٣٢) باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء رقم ١٢٧. **والطبراني** في الكبير، ج١٢، ص١٥٣، رقم١٢٨٨٢، من حديث ابن عبَّاس.

أنعمتُ على عبادي نعمة إلاَّ أصبح فريق منهم بها كافرين، فآمن من آمن بي وحمدني على سُقياي، فذلك الذي آمن بي وكفر بالنجم، وأمَّا من قال مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي»[1].

[قلت:] ولا بأس على من قال: مطرنا بفضل الله والنوءُ ميقاتٌ وعلامة له، كما روي أنَّ عمر استسقى بالمصلّى، ثمّ نادى العبَّاس: كم بقي من نوء الثريَّا ؟ فقال: إنَّ العلماء يزعمون أنَّها تعترض في الأفق سبعًا بعد وقوعها، فوالله ما مضت تلك السبع حتَّى أغيث الناس، وإنَّما أراد الوقت الذي أجرى الله تعالى أن ينزل فيه المطر.

وقيل: المعنى تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنَّكم تكذِّبون به، وعن الحسن ما يناسبه: «بئس القوم ما أخذوا من القرآن إلاَّ التكذيب به». ويقال أيضًا: «رزقكم» هو المطر، والتكذيب نسبته إلى النجم أو النوء، فهذا تكذيب بكونه من الله عَجَّلَّ .

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ مُـتَّصِل بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُم...﴾ فإنَّه خلَقهم وملكهم، فهم تحت ملكه، ذواتُهم ومعاشُهم من طعام وشراب وسائر أحوال، وحياة وموت.

و«لَوْلَآ» تحضيضٌ لإظهار عجزهم. و«الْحُلْقُومَ»: مجرى النفس لا مجرى الطعام، لأنَّ الروح يخرج منه لا من مجرى الطعام، والأولى أنَّ المراد أعلى الحلق هنا، وذلك حين قرب خروجها، ويجوز أن يراد: بلغت أوَّل الحلق، وضمير «بَلَغَتِ» للروح، وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها من المقام. فقيل: هي جسم لطيف سار في البدن سريان الماء في العود، حين ينفسه يَتَّصِفُ بالدخول

١- أورده **عبد الرزَّاق** في مصنَّفه، كتاب العلم، باب الاستسقاء بالأنواء والمسح، رقم ٢١٠٠٣، من حديث زيد بن خالد الجهني.

والخروج، وغيرهما من صفات الأجسام.

وجواب «إِذَا» هو قوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾، وهذا الرجع هو المحضَّض عليه بـــ«لَوْلاَ» الأولى، و«لَوْلاَ» الثانية تأكيد لها، و«لَوْلاَ» الأولى وما معناها دليل على جواب ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بل مغنٍ عن جوابه.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ مؤكّد لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مبيِّن له. وقدَّم قوله: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ على ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ بطريق الاهتمام، أي: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين، صادقين في زعمكم أن لا بعث وأنّ المطر بالنجم والنوء، وغير ذلك من الاعتقاد الباطل.

وكأنّه قيل: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مربوبين ـــ كما تقتضيه أقوالكم وأفعالكم واعتقادكم ـــ فما لكم لا تردُّون الروح إلى البدن إذا بلغت الحلقوم بقدرتكم؟ أو بعلاج طبيعة ؟.

وذكر أبو البقاء أنّ «تَرْجِعُونَهَا» هو متعلّق التحضيض بـــ«لَوْلاَ» الأولى، مغنٍ عمَّا تستحقُّه الثانية من ذلك، وأنّه قيل بالعكس. وقيل: «إِن كُنتُمْ» شرط داخل على شرط، فالثاني مقدَّم في التقدير، أي: إن كنتم صادقين إن كنتم غير مربوبين فارجعوا الأرواح إلى الأبدان كما كانت قبل.

و«حِينَئِذٍ» حين إذ بلغته، بردِّ ضمير «بَلَغَت» إلى الروح، وردِّ الهاء المقدَّرة إلى الحلقوم، ولا تقل: التقدير: حين إذا بلغت الروح الحلقوم، إذ لا دليل لهذا الإظهار مع تقدُّم الإضمار في «بَلَغَت»، وتقدُّم ما ترجع إليه الهاء وهو الحلقوم.

والمراد بـــ«تَنظُرُونَ» تشاهدون ما يقاسي من الغمرات، ولا يجوز التفسير بأنتم تنظرون حالكم، على أنّ حاله هي حالكم بعدُ، لأنّكم تموتون كما يموت،

إذ لا دليل على ذلك.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ الهاء للمحتضر المعلوم من المقام، ومعنى أقربيَّة الله تعالى إليه العلم، وهو إطلاق للسبب على المسبَّب، أو للملزوم على اللازم، فإنَّه يلزم من القرب إلى الشيء العلم بأحواله، ويتسبَّب للعلم بها.

وقيل: المراد ملائكتنا أقرب إليه. وقيل: المراد بالقرب العلم والقدرة، إذ علم تعالى كنه ما هو فيه من الشدَّة وأسبابها، وما تعلمون من ذلك إلاَّ قليلا، والله قادر على دفعها دونكم، ويردُّه أنَّه لا قدرة لهم على دفعها البتَّة، مع أنَّ «أَقْرَب» للتفضيل. ولا يقال: لعلَّه اعتبر هذا القائل ما قد يعالجون ممَّا يحصل به دفع بعض الشدَّة، إلاَّ أنَّ المقام لدفع الموت البتَّة. والخطاب في الآيات للمشركين.

﴿وَلَكِن﴾ استدراك من قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ ﴿لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ لا تدركون أنَّنا أقرب إليه منكم لجهلكم بشأننا، أو لا تبصرون بعيونكم ملائكتنا الذين يباشرونه، فيكون الاستدراك على هذا من قوله تعالى: ﴿تَنظُرُونَ﴾ ويجوز أن يكون البصر قلبيًّا والاستدراك من «تَنظُرُونَ»، أو من أنَّه تعالى أقرب.

﴿فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير مربوبين لله ﷻ، وهو اسم مفعول دانه يدينه، أي: قهره وساسه، وهو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ وقيل: إنَّه من دان يدين بمعنى جازى يجازي، وإنَّه متعلِّق بقوله : ﴿أَئِذَا مِتْنَا...﴾ من إنكار البعث، ويردُّه أنَّه ليس المقام لذكر الجزاء، وأنَّ كونهم مجازين لا تعلُّق له بردِّ الروح إلى البدن.

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: الروح إلى محالِّها من البدن ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قيل: إن كنتم صادقين في أنَّه غير خالق للناس، وفيه أنَّا لا نسلِّم أنَّهم ينفون أن يكون الله ﷻ خالقًا، بل يعترفون به، ألا ترى أنَّه تعالى احتجَّ عليهم في البعث بخلقه إيَّاهم؟. وقيل: إن كنتم صادقين في كفركم وتعطيلكم للبعث، وفي نسبة المطر

إلى النوء والنجم، ونفي ذلك عن الله ﷻ .

﴿فَأَمَّآ﴾ الفاء عاطفة على محذوف، أي: يتوفَّى الإنسان فأمَّا ﴿إِن كَانَ﴾ المتوفَّى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ مرَّ بيان المقرَّبين وبيان أصحاب اليمين ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ جواب «إِنْ» وهي وشرطها جواب «أَمَّا»، وذلك أنَّ «إِنْ» وشرطها ممَّا بعد فاء الجواب قدِّمت لتفصل بين «أَمَّا» وفاء الجواب. و«إِنْ» وشرطُها وجوابُها جوابُ «أمَّا»، فالفاء في جواب «أَمَّا»، والتقدير: فجزاؤه رَوْحٌ، أو فله روح.

(نحو) وعن سيبويه: ما بعد الفاء جواب «أَمَّا»، وجواب «إِنْ» محذوف، وقال به الفارسيُّ، وله قول بالعكس. وقال الأخفش: ما بعد الفاء جواب لهما، والخلاف في كلِّ شرطين اجتمعا.

والرَّوْحُ: الرحمة على الاستعارة، لأنَّها كالحياة للمرحوم، أو لأنَّها سبب للحياة الدائمة وملزوم لها، على المجاز المرسل الأصليِّ، كما فسَّر الروح بالرحمة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ (سورة يوسف: ٨٧) .

والريحان: الرزق، وعليه ابن عبَّاس، أو الاستراحة. وعن الحسن: الريحان المعروف. وعن الطبريِّ: ريحانة لكلِّ مقرَّب تخرج فيها روحه. وعن أبي سعيد: يشمُّ كلُّ مقرَّب غصنين يؤتى بهما من الجنَّة فتخرج روحه. وقيل: كلٌّ من الروح والريحان في الآخرة.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ اَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنَ اَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: فتقول الملائكة له: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَاثِيمًا الاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾. و«مِنْ» للابتداء يجيئه منهم السلام، أو يقدَّر فتقول الملائكة له: سلام لك أنت من أصحاب اليمين، فيكون السلام من الله تعالى، وتكون «مِنْ» للتبعيض. وهذا في الجنَّة، أو عند الموت، وهو أولى

كالذي قبله.

ويجوز أن يكون المعنى: فيقول الملائكة لك سلامة مِمَّا تكره في أصحاب اليمين لم يصبهم سوء، هم في خير فطب نفسًا. وقيل: المعنى لا تجازى بسيِّئة وتثاب على كلِّ حسنة.

والخطاب في ذلك على العموم البدليِّ لمن يصلح له، وقيل: لرسول الله ﷺ تسلية له وإخبارًا بأنَّه قُبلت شفاعته فيهم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لله ورسوله ﴿الضَّآلِّينَ﴾ عن الدِّين أصحاب المشأمة، وهذا ذَمٌّ لهم بذكر ما استحقُّوا به النار، وهو التكذيب وسائر ضلالهم، وفي ذلك مدح له ﷺ إذ أخزي من كذَّبه في نبوءته ورسالته.

وذلك عند الموت على المختار، وأجيز أن يكون في النار. ويقدَّر على كلِّ حال في الجواب القول كما مرَّ، فتقول الملائكة في الآخرة أو عند الموت: لك نزل من حميم، أو جزاؤك نزل. ويجوز أن لا يقدَّر القول، بل يقدَّر: فجزاؤه نُزُلٌ، أو فَله نُزُلٌ، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يقدَّم إليهم عند الموت بعض جنس ما لهم في الآخرة، كما يقدَّم للضيف بعض كرامة بحسب ما وجد عاجلاً، والإكثار والإعظام بعد ذلك، وإن كان ذلك في الآخرة فلأنَّ عذابهم يزداد، حتَّى إنَّ الحاضر منه كشيء يذاق. والحميم ماء حارٌّ جدًّا يسقونه بعد أكل الزقُّوم على حدِّ ما مرَّ.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إدخال نار تتوقَّد، أو إقامة فيها على مقاساة عذابها بأصنافه، أو ذلك في القبر، وعن ابن عبَّاس: لا يخرج الكافر من قبره حتَّى يشرب كأسا من حميم.

﴿اِنَّ هَذَا﴾ أي: جميع ما في السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ العلم المتيقَّن البعيد عن اللبس. والإضافة للبيان، أي: حقٌّ هو اليقين، أو إضافة صفة لموصوف، أي:

اليقين الحقُّ، أو المراد عين اليقين، أي: الخبر اليقين، أو يقين اليقين، كما تقول: هذا صواب الصواب، تريد أنّه غاية الصواب.

﴿فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عطف إنشاء على إخبار، أو إذا علمت ذلك فسبِّح باسم ربِّك العظيم، أي: نزِّهْهُ عمَّا تقول الكُفَّار في مخالفته.

قال أبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الجهني: لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ : «**اجعلوها في ركوعكم**» وَلَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال ﷺ : «**اجعلوها في سجودكم**»[١]، وفي مسلم عن أبي ذرٌّ قال لي رسول الله ﷺ : «**ألا أخبرك بأحبِّ الكلام إلى الله تعالى؟**» قال: «**سبحان الله وبحمده**»[٢].

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[٣].

وفي الترمذيِّ عن جابر عن النبيء ﷺ : «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنَّة**»[٤]. وعن حذيفة: صلَّيت مع النبيء ﷺ فكان

١-رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم:٨٦٩. **والحاكم** في كتاب التفسير (٥٦) تفسير سورة الواقعة، رقم٣٧٨٣. من حديث عقبة بن عامر الجهني.

٢-رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء (٢٢) باب فضل سبحان الله وبحمده رقم٨٥. من حديث أبي ذرٌّ.

٣-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٦٠) باب رقم٣٤٦٧، من حديث أبي هريرة.

٤-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٦٠) باب رقم ٣٤٦٤ و٣٤٦٥. كما أورده **المنذري** في الترغيب في التسبيح والتكبير، ج٢، ص٤٢٢، رقم٦، من حديث جابر.

يقول في ركوعه: «**سبحان رَبــّـي العظيم**»، وفي سجوده: «**سبحان رَبــّـي الأعلى**»، وما أتى على آية رحمة إلاّ وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلاّ وقف وتعوَّذ.

وروي أنّ عثمان دخل على ابن مسعود في مرض موته فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربِّي، قال: أفلا ندعو الطبيب، قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا نأمر بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: ندفعه إلى بناتك، قال: لا حاجة لهنَّ فيه، قد أمرتهنَّ أن يقرأن سورة الواقعة، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبدًا**»[1].

والله الموفق المستعان

سبحان ربّي العظيم، سبحان ربّي الأعلى

وصلّى الله على سيّدنا محمّد آله وصحبه وسلّم

١-أورده المنذري في الترغيب والترهيب، في أذكار تقال بالليل والنهار... ج٢، ص٤٤٨، رقم٩، وقال: ذكره رزين في جامعه، وذكره أبو القاسم الأصفهاني في كتابه بغير إسناد.

تفسير سورة الحديد وآياتها ٢٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥﴾

المخلوقات كلها تسبّح لله لأنّه الخالق المتصرّف

قال محمَّد بن الحنفيَّة[1]: قال البراء بن عازب لعليٍّ بن أبي طالب: «أسألك بالله إلاَّ ما خصَّصْتني بأفضل ما خصَّك به رسول الله ﷺ ممَّا خصَّه به جبريل، ممَّا بعث به الرحمن ﷻ» قال: «يا براء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أوَّل الحديد عشر آيات، وآخر الحشر، ثمَّ قل: يا من هو هكذا، وليس شيء هكذا غيره، أسألك أن تفعل لي كذا وكذا، فوالله يا براء لو دعوت عليَّ لخسف بي».

﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ «مَا» واقعة على ما فيها من العقلاء وغيرها من الحيوانات والجمادات وأجزاء السماوات والأرض،

١- تَقَدَّمَ التعريف به في ج١٢، ص٨.

والتسبيح بمعنى الخضوع في الكلّ، أو بمعنى **النطق بالتنزيه في الكلّ**، بأن يخلق الله لما لا نطق له نطقًا لا يسمع.

وقد أثبتت الصوفيَّة للجمادات النفوس الناطقة، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه﴾ (سورة الإسراء: ٤٤) ، أو تسبيح الحيوان بالنطق، والجماد بقصد يخلقه له فيه، أو بالخضوع له بأن يتصرَّف فيها بما يشاء، فيكون جمعًا بين الحقيقة والمجاز، أو من عموم المجاز باعتبار الخضوع أو التعظيم، والكلّ راجع إلى تنزيه الله عمَّا لا يجوز في حقّه، اعتقادا وقولاً وعملاً.

(صرف) ويقال: سَبَحَ في الأرض زيدٌ أو في الماء (بالتخفيف) بمعنى ذهب فيها وأبْعَدَ، وشُدِّدَ للمبالغة، وقيل: للتعدية بمعنى الحمل على قول: «لا إله إلاَّ الله»، وهو خلاف المتبادر.

وقيل: «مَا» للعقلاء هنا خَاصَّةً، كما استعملت للعالم سبحانه وحده في قولهم: «سبحان ما سبَّح الرَّعد بحمده»، والعموم أولى، وعلى كلّ حال هي عامَّة بلا تقدير لفظ آخر في قوله: ﴿وَالاَرْضِ﴾ هكذا: وما في الأرض.

(صرف) والتسبيح متعدٍّ، فاللام للتأكيد، كنصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت لهُ، أو للتعليل على أنّ الفعل منزّل منزلة اللازم، لا يعتبر له تعلّق بالمفعول، فيكون المعنى إيقاع التسبيح لأجل الله عز وجل ، أو إيقاع التسبيح لله عز وجل ، كما تقول: فعلت لزيد كذا، بمعنى النفع له، تعالى الله عز وجل .

(بلاغة) وكان في بعض السور «سَبَّحَ» وفي بعضها «يُسَبِّحُ» إيذانًا بأنّ الله أهل لأن يسبِّحه خلقه في الماضي والحال والمستقبل، وخلقه حقيق أن يُسبِّحوه كذلك، والمضارع للاستمرار، أو الماضي باعتبار ما مضى إلى وقت النزول، والمضارع من حين النزول على الاستمرار، فعمَّ.

وأيضًا كان بعضٌ بالأمر وبعض بالمعنى المصدريِّ وهو «سُبْحَانَ»، ففي أوَّل سورة الإسراء التسبيح باسم المصدر، وفي أوَّل سورة الأعلى بفعل الأمر، وفي أوَّل بعض بالماضي، وفي بعضه بالمضارع، فقد استوعب التسبيحُ هذه الجهات كلَّها من الكلمة، كما **أنَّ الخلق من حين إخراجه من العدم يسبِّح الله قولاً وفعلاً واعتقادًا وطوعًا وكرهًا.**

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُردُّ ما أراد أو قال أو فعل **﴿الْحَكِيمُ﴾** لا يفعل إلاَّ ما هو صواب.

﴿لَهُۥ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ إيجادًا وإعدامًا وإبقاءً بكلِّ ما أراد من التَّصرُّف **﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** استــئنافٌ، ولا غرض للفعلين في المفعول به، فهما لازمان في الآية، أي: يفعل الإحياء والإماتة.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجسام والأعراض والجواهر **﴿قَدِيرٌ﴾** عظيم القدرة يُوجدُه ويتصرَّف فيه بما أراد.

(أصـول الديـن) **﴿هُوَ الاَوَّلُ﴾** وحده لم يسبقه شيء ولم يكن معه شيء، بلا أوَّل، فأخطأ من قال: صفاته غيره قديمة معه، ومن قال: لم يزل يخلق الأشياء فيبقي ما يبقي ويفني ما يفني، والزمان حادث، فالله ﷻ متقدِّم عليه.

﴿وَالاَخِرُ﴾ الباقي بعد موت الأحْيَاء، ودوامُ المخلوق غير ممنوع، والممنوع قِدَمه، فبعضُ الأجسام تبقى ولا تتلاشى، وتبعث وتدوم في الجنَّة أو النار. والجنَّة والنار حادثتان، وهما دائمتان مع ما فيهما، وإن شئت فكلٌّ مخلوق ولو في حال استمرار معدومٌ بمعنى الصُّلوح للعدم.

أو «الأَوَّلُ» تبتدئ منه الأسباب بخلقه لها، و«الآخِرُ» بانتهاء المسبَّبات، بمعنى أنَّها لا تكون بدونه، وقيل: «الأَوَّلُ» وجودا و«الآخِرُ» ذِهْنًا بحسب

التعقُّل، من حيث إنّ الصنعة تدلُّ على الصانع، كما يقال: «ما رأيت شيئًا إلاَّ رأيت الله بعده»، وإن شئت فقل: «إلاَّ رأيت الله معه».

(أصول الدين) وذلك أنَّه يُستدلُّ بالموجود على المُوجِد تعالى، وبالصنعة على الصَّانع، ومعنى أنَّ الله موجدٌ أنَّنا نعتقد وجودَهُ وكذا غيرُه، وإن شئت فقل في غيره: مُوجَدٌ (بضمِّ الميم وفتح الجيم)، ولا تناقض في أنَّه أوَّل وآخرُ معًا لاختلاف متعلَّقي الأوَّليَّة والآخريَّة، كما مرَّ هنا.

ومن ذلك أنَّك تعرف وجودَهُ بأفعاله أوَّلاً، وكلُّ معرفة تحصل فهي مِرْقاة إلى معرفته ولا تنتهي إلاَّ إليه، وفسَّر بعضهم الآية بهذا.

[قلت:] وأنا أعوذ بالله ﷻ أن أفسِّر القرآن بما هو تصوُّف وبالأمور البعيدة، ولو كنت قدْ أَذْكر ذلك حكاية.

(أصول الدين) ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بمخلوقاته ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ عن أن يدركه خلقُه بحاسَّة أو عقْلٍ، فلا تناقض بين الظاهريَّة والباطنيَّة لاختلاف متعلَّقيها، والمخالِفُ للحوادث لا يُتصوَّر أن تُدركه الحوادثُ، وذلك مخالفةٌ ذاتيَّةٌ لا تختلف بالدنيا والآخرة.

«وَالظَّاهِرُ» معطوف على «الاَوَّل» لا على «الاَخِرِ»، لأنَّ الواو لا تُرتِّب. «وَالْبَاطِنُ» معطوف على «الظَّاهِر» لأنَّه مقابلُه، كما عطف «الاَخِر» على «الاَوَّل» وهو مقابله. ولا وجه لعطفهما معا على «الاَوَّلُ وَالاَخِرُ» معا، ولو كان المعنى على ذلك.

وقيل: المعنى: العالم بالظاهر والباطن، وذلك أنَّ ما بَطُن يحتَجبُ عنه ما ظَهَر، وما ظهر يحتجب عنه ما بطُن، فجمع الله ﷻ ذلك، **فهو باطن عالم بما ظهر، وظاهر عالم بما بطن**، كقوله تعالى: ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ (سورة

النور: ٣٥) ، أي: لا شَرْقِيَّة فقط، ولا غَرْبِيَّة فقط، بل جامعة لفائدة الشَّرْقِيَّة وَالغَربِيَّة.

وقيل: «الظَّاهِرُ» الغالب، وهو استعمال مشهور، يقال: ظهر عليهم، أي: غلبهم. و«الْبَاطِنُ» العالم بما بطن منهم، فتفُوتُ المطابقة معنًى ولو بقيت لفظًا، وفيه أنَّه لا يعرف في اللغة بَطَنَه بمعنى عَلِمَ باطنه، ولو ورد مثلُ: رَكَبَه (بفتح الكاف) بمعنى أصاب ركبته أو أصابَهُ بركبته إذْ هذا مقصور على السماع، فلا يُخرَّجُ عليه القرآن حتَّى يُعلم بوروده.

وجاء الظاهر بمعنى الغالب في قوله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها لَمَّا سألته خادمًا: «**قولي اللهمَّ ربَّ السماوات السبع وربَّ العرش الكريم العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء، منزِّل التوراة والإنجيل والفرقان، فالقَ الحبِّ والنَّوى، أعوذُ بك من شرِّ كلِّ شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأوَّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدكَ شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقْضِ عنَّا الدَّين، وأغْنِنَا من الفقر**»[١].

إلاَّ أنَّه لا مانع من أنَّ «الظَّاهِر» في الحديث بمعنى الغاية في الظهور، إذ كلُّ شيء دليل عليه، و«الباطن» فيه بمعنى أنَّه لا شيء أخفى منك، إذ لا يعلمك غيرُك، وما عَلِمَكَ إلاَّ أنت.

وعبارة بعضٍ: «الأوَّل» القديم، و«الآخر» الرحيم، و«الظاهر» الحكيم، و«الباطن» العليم. وقيل: «الأوَّل» بصفاته وأفعاله بعد فناء الخلق وأفعالهم وصفاتهم.

١-رواه **مسلم** في كتاب الذكر (١٧) باب ما يقول عند النوم، رقم٢٧١٣. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب الدعوات (٦٨) رقم٣٤٨١. من حديث أبي هريرة.

وعن مقاتل[١] بلغنا أنَّ المعنى «الأوَّل» قبلَ كلِّ شيء، و«الآخر» بعد كلِّ شيء، و«الظاهر» فوق كلِّ شيء «والباطن» أقرب من كلِّ شيء يعني القرب بعلمه وقدرته.

وعن أبي هريرة: «والذي نفسي بيده لو أنَّكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبطتم على الله»، أي: لهبطتم على ما هو معلوم للّه، وهو متصرِّف فيه، وعالم به غير مُهْمِلٍ له وقرأ الآية.

وفي الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**بين كلِّ سماء وسماء خمس مائة عام، وبين السماء والأرض خمس مائة عام، والذي نفسي بيده لو تدليتم بحبل إلى الأرض السابعة لهبطتم على الله تعالى**»[٢]، ثمَّ قرأ ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وعن ابن عبَّاس أنَّه اشتكى إليه أبو زميل[٣] الوسوسة، فقال: إذا وجدت شيئًا فقل: ﴿هُوَ الأَوَّلُ...﴾الآية. وعنه ﷺ : «**إذا قال الناس: عَلمْنا أنَّ الله قبل كلِّ شيء فماذا قبل الله؟ فقولوا: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ...﴾**» يعني إذا قالوا: علمنا أنَّ الله قبل هذه الأشياء التي علمناها فماذا قبلها ؟ فقولوا ﴿هُوَ

١-مقاتل بن سليمان البلخي أبو الحسن روى عن مجاهد والضحَّاك وابن بريدة، وروى عنه بَقِيَّة بن مخلد وعبد الرزاق وغيرهما، وهو ضعيف أجمعوا على تركه. تُوُفِّيَ بعد ١٥٠هـ. سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٥٧.

٢-أخرجه **الترمذي** في كتاب التفسير، رقم٣٢٩٨. وأورده الزبيدي في الإتحاف، ج١١، ص٢١٤، من حديث أبي هريرة.

٣-أبو زميل سماك بن الوليد الحنفي اليمامي الكوفي، محدِّث وثَّقه أحمد ويحيى بن معين، روى عن ابن عبَّاس وابن عمر. تُوُفِّيَ بعد المائة الأولى للهجرة. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج١، ص٣٢١.

﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾. وسأل عمر كعبًا فقال: علمه بالأوَّل كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن.

ومن التَّصوُّف قول الجنيد[١]: «الأوَّل» بشرح القلوب، و«الآخر» بغفران الذنوب، و«الظاهر» بكشف الكروب، و«الباطن» بعلم الغيوب.

وقول بعض: «الأوَّل» ببرِّه إذْ عرَّفَكَ تَوْحيدَهُ، و«الآخر» بجوده إذْ عرَّفَكَ طريق التَّوبَةِ، و«الظَّاهر» بتوفيقه إذْ وفَّقَكَ للسُّجُودِ لهُ، و«الباطن» بستره عيوبك.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: مع أنَّه باطن عالم بما ظهر، ومع أنَّه ظاهر عالم بما بطن، فهو عالم بكلِّ شيء، لا كالحادث الباطن لا يعلم بالظاهر، والحادث الظاهر لا يعلم بالباطن، فهذا تحرُّز عن أن يتوهَّم أنَّه لَمَّا كان باطنًا لا يَعلم ظاهرًا، ولَمَّا كان ظاهرًا لا يعلم باطنًا.

﴿هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مقْدَار ستَّة أيـــام ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الترتيب ذكريٌّ أو رتبيٌّ، والعرش الملك كلُّه، أو الجسم العظيم الذي الكرسيُّ كالحلقة فيه، والاستواء على ذلك بمعنى الإحاطة، وضبطه وكونه تحت حكمه.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الاَرْضِ﴾ يدخل فيها من ماء وموتى وكنوز ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من ماء وكنوز ونبات وموتى تبعث.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ﴾ من جهة العلوِّ من ماء وثلج وصواعق وملائكة وكتب وخُيُور وشرور، فالسماء يشمل السبع والهواء ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يدخلها من الأعمال والملائكة، ومرَّت الآية[٢].

١- تَقَدَّمَ التعريف به في ج١٠، ص٢٩٧.

٢- في سورة سبأ رقم ٢، انظر: ج١١، ص٣٦٢.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ هذا مجاز مركَّب غير استعارة تمثيليَّة، إذ لا يشبَّهُ العلم بشيء بالكون معه، بل ذلك كناية عن إحاطة علمه بهم، وعدم خروجهم عن حكمه.

أو المعيَّة مجازٌ مرسل عن العلم، لعلاقة التسبُّب واللزوم، كما قال ابن عبَّاس: «عَالِمٌ بِكُمْ أينما كنتم»، وكما قال سفيان الثوري: «علمه معكم».

(أصول الدين) والحقُّ ما قال أبو حيان من تأويل كلِّ ما يوهم وصف الله تعالى بما لا يجوز لا الإبقاء على ظاهره، كالمعيَّة في الآية بالذات، ولا الوقف ولا القول بلا كيف.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا مثلُ ما قبله، إلاَّ أنَّ هذا كناية عن الإحاطة بأعمالهم، وما قبل: كناية عن الإحاطة بذواتهم.

(بلاغة) وقدَّم الخلق في قوله: ﴿هُوَ الذي خَلَقَ...﴾ عن العلم في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُم﴾ وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ﴾ مع أنَّ الخلق فعل وهو متأخِّر عن الصفة، وهي العلم، لأنَّ المراد الإشارة إلى ما يدور عليه الجزاء من العمل التابع للمعلوم، كذا قيل، وقيل: لأنَّ الخلق دليلُ العلم لأنَّ جودة الصنعة دليلٌ على عِلْمِ الصَّانع، والمدلول متأخِّر عن الدليل، لأنَّه يحصل بالدليل، وأكَّد ذلك بقوله تعالى:

﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ﴾ الإضافة للبيان، أي: مملوكات هي السماوات والأرض، أو إضافة مصدر لمفعوله، ومهَّد به لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وتقديم «لَهُ» و«وَإِلَى اللهِ» لِنَفْيِ أن يكون ذلك لغيره، وأن يكون له مَعَ غيره.

﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾ يدخل كلاًّ منهما في الآخر، فَيَنقُص الداخل ويزداد المدخول عليه فيه ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

أي: بصاحبة الصدور، وهي ما فيها من المكنونات. قيل: أو بنفس الصدور، فيلزم العلم بما فيها بالأَوْلى، إلاّ أنّ استعمال الذات بمعنى نفس الشيء لا يوجد في كلام العرب.

والصدر القلب، تسميةً للحالّ باسم المحلّ، وفيه أنّه لا نسلّم أنّ القلب حالٌّ في الصدر بل خُلقَا معًا، إلاّ أنْ يلاحظ الفهم بالقلب فإنّه متأخِّر، فأولى من ذلك أنّ الصدر ظرفٌ للقلب، فيقال: تسميةً للمظروف باسم الظرف، وقَدْ يريد هذا من عَبَّرَ هنا بالحالّ والمَحَلّ.

وتقدُّم الظَّرف على المظروف غيرُ لازم، بل يجوز اقترانهما. ويجوز أنّ التسمية للجوار، ولا تَظْهَرُ الكُلّية والجزئيَّة إذ لا نسلّم أنّ القلب جزء من الصدر.

﴿ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ
وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُواْ
بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ٨ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ
الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ
الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُۥ
لَهُۥ وَلَهُۥ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١ يَوْمَ تَرَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢﴾

الحثُّ على الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وعلى الإنفاق

﴿ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الإيمان بالله ورسوله محقّق ومبيِّن لعلم المالك أنَّ ما في يده هو خليفة فيه عمَّن قبله، وخليفة لمن بعده يحفظه لمن بعده، كما حفظه له مَن قبله.

وإذا تحقّق أنّه انتقل إليه ممَّن قبله وسينتقل عنه لمن بعده سهل عليه الانفاقُ منه، ورغب في أن يربح به الأجر قبل فَوته، وفي أن ينفقه فيما أمره بإنفاقه فيه من جعله خليفةً عليه، و لم يملكه حقيقة الملك.

قال رسول الله ﷺ : «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت**»[1]. قيل لأعرابي: لمن هذه الإبل؟ قال: هي لله عندي. قيل:

وما المالُ والأهلون إلاّ ودائع ولا بُدَّ يوما أن تُردَّ الودائع

أي تردُّ لله تعالى، ولمن بعدُ، بأن يورث المال وتتزوَّج المرأة.

وعظَ عالمٌ زاهدٌ عمر بن عبد العزيز فقال: ليس بينك وبين آدم إلاّ الموتى، وأنت خليفة فيما بين يديك، حافظ له لمن بعدك.

والمراد بالإنفاق ما يشمل الواجب والمندوب إليه، استعمالاً للكلمة في معنييها، أو في حقيقتها ومجازها، على أنَّ الأمر حقيقة فيهما، أو مجاز في المندوب إليه، أو في عموم المجاز وهو هنا مطلق الترغيب في الإنفاق.

١-رواه **مسلم** في كتاب الزهد، رقم ٣ (٢٩٥٨)، و**النسائي** في كتاب الوصايا (١) باب كراهية تأخير الوَصيَّة، رقم٣٦١٥، وأوَّله قوله: «أتيت النبيء ﷺ وهو يقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ...} ...»، من حديث مطرق عن أبيه.

﴿فَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿منكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ كما أمروا به ﴿لَهُمْ﴾ على إيمانهم وإنفاقهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أكّد بالجملة الاسميَّة ثبوت الأجرِ إذْ لم يقل: يثابون أجرًا كبيرا، وبإعادة ذكر الإيمان والإنفاق، إذْ لَم يقل: فمن يفعل ذلك.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُومِنُونَ بِاللهِ﴾ عطف إنشاء على إخبار، فإنَّ «مَا» للاستفهام الإنكاريِّ المسلَّط على السببَ دون المسبَّب، أي: ما سبب؟. و«لاَ تُومِنُونَ بِالله» حال من الكاف، أي: أيُّ شيء حصل لكم غير مؤمنين، والمسبِّب هو مضمون ﴿لاَ تُومِنُونَ بِاللهِ﴾، وهو ثابت لا منْتف، فإنَّ عدم إيمانهم ثابت. وقد ينتفي المسبَّب مع السبب، في مثل هذه العبارة نحوَ قوله تعالى: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي...﴾ (سورة يس: ٢٢) ، فإنَّ انتفاء عبادته الله منتف، فإنَّه عابد له تعالى.

﴿وَالرَّسُولُ﴾ محمَّد ﷺ ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ جملة «وَالرَّسُول...» حال من واو «تُومِنُونَ»، مُوبِّخٌ لهم على انتفاء الإيمان مع وجود موجبه، وهو دعاء الرسول لهم إلى الإيمان، دعاءً فصيحًا بليغًا عليه النور كالشمس. واللام بمعنى إلى أو للتعدية، فإنَّه يقال: دعاه ودعا له، أو للتعليل، وعليه فيقدَّر: يدعوكم إلى الإيمان لتومنوا بربِّكم.

﴿وَقَدَ اَخَذَ﴾ الله أو الرسول ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ حال من كاف «يَدْعُوكُمْ»، أو من المستتر في «يَدْعُو»، أو حال ثانٍ من واو «تُومِنُونَ» بواسطة العطف، وفيه تخالف بالفعليَّة والاسميَّة، فما تقدَّم أولَى.

وأخذُ الميثاق نصبُ الدلائل التي هي السماوات والأرض، وأبدانهم وأحوالها، وسائر الخلق وأحواله، والتمكين لهم من النظر بالفكر، فأخذ الميثاق دليل عقليٌّ، ودعاء الرسول دليل سمعيٌّ، ولعلَّ تقديمه يدلُّ على شرف السمعيِّ على العقليِّ.

وعن مجاهد وعطاء والكلبيِّ ومقاتل: إنَّ الميثاق هو ما كان يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) ، ويبحث بأنَّ المشركين لا يعرفونه، وكيف يحتجُّ عليهم به قبل تصديقهم برسالته؟ فيجاب بأنَّ المتحقّق يذكر في الاحتجاج به على من لا يُقِرُّ به إلغاءً لإنكاره، كقول امرئ القيس:

ألم تريان كلَّما جئت زائرًا وجدت بها طيبًا وإن لم تُطيِّب

فعنَّف على ما لم يشاهده غيره إذ تحقَّق في زعمه، ولا سيما إن قارنه احتجاج آخر قبله أو معه، كما هو شأن الرسول والقرآن.

ويجوز أن يكون الميثاق [ما في قوله تعالى:] ﴿فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى...﴾ (سورة طه: ١٢٣) ، أي: هُدًى برسول، كما قال: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُم...﴾ أو بكتاب كما قال: ﴿هُوَ الذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ...﴾ أو كلاهما، أو يردُّ ضمير «أَخَذَ» للرسول، فالميثاق ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ... لَتُومِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ (سورة آل عمران: ٨١) ، أي: الميثاق الذي أخذه الأنبياء على أممهم.

إلاَّ [أَنَّ] المشركين لا يقرُّون بـ﴿إِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى...﴾ ولا بـ﴿يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ولا بـ﴿وَإِذَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ...﴾ فكيف يحتجُّ عليهم به؟ ففي ذلك ما مرَّ من ميثاق يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

[قلت:] وأبعد من ذلك في الاحتجاج على المشركين ما قيل: إنَّ الميثاق هو ما في حديث عبادة بن الصامت: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله تعالى ولا نخاف لومة لائم»[1]. والواضح **ما مرَّ أوَّلاً**.

١-رواه **الربيع** في كتاب الجهاد، باب البيعة، رقم٤٩٥، من حديث عبادة بن الصامت، دون =

والخطاب لِلْكُفَّارِ، وقيل: لمن لم يومن ثمَّ آمن و لم ينفق، وقيل: للمؤمنين، على أنَّ معنى «ءَامَنُوا» ثَبِّتُوا على الإيمان، ومعنى ﴿مَالَكُم لاَ تُومِنُونَ﴾ ما لكم لا تثبتون عليه؟.

﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ الجواب محذوف، أي: إن كنتم تؤمنون لدليل مَّا فهذا دليل كالشمس، لا دليل يساويه أو يفوقه، أو إن كنتم مِمَّن يؤمن فمالكم لا تؤمنون الآن؟ لحال أخذ الميثاق ودعاء الرسول.

أو إن كنتم تؤمنون بدليل عقليٍّ أو نقليٍّ، فكلاهما جاءكم على يد محمَّد ﷺ بالقرآن المشتمل على دلائل الآفاق والأنفس، أو إن كنتم مؤمنين بنبيء أو أنبياء كموسى وعيسى وإبراهيم فآمنوا بمحمَّد ﷺ ، فقد جاءوا بنبوءته، وجاء بما جاءوا به. وقيل: **الخطاب للمؤمنين، أي: إن دمتم على الإيمان فلكم شرف عظيم دنيا وأخرى.**

﴿هُوَ الذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِه﴾ محمَّد ﷺ ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات متلوَّة، ومعجزات أفقيَّة ونفسيَّة ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ بالآيات، أي: يخرجكم الله، لأنَّه المخبر عن العمدة في الجملة قبل هذا[1]، أو ليخرجكم عبده وهو أقرب في الذِّكر، وهذان أولى من ردِّ الضمير إلى الله تعالى. والعبد ﷺ ، بتأويل من ذكر، أي: ليخرجكم الله ورسوله.

=

ذكر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفقة. ورواه **النسائيُّ** في كتاب البيعة، باب على أن لا ننازع الأمر أهله، رقم ٤١٥٣. من حديث عبادة، مع اختلاف يسير.

١- في الطبعة العمانيَّة: «لأنَّه المخبر عنه العمدة في الجملة قبل هذا»، وفي كلا الوجهين العبارة غامضة. تأمَّل.

﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الشرك أو أنواعه، أو الشرك وسائر المعاصي، لما علم أنّ المشرك مخاطب بالفروع أيضًا، فالظلمات مستعار لما ذكر، والجامع المضَرَّة، وعدم التمسُّك بما ينجِّي منها ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان المتفرِّع عليه الأعمال المنجية، وهو استعارة لجامع النفع العامِّ والتمسُّك بما ينجي.

﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ﴾متعلِّق بما بعد لام الخبر، ولا صَدْرَ لها ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أخصُّ من الرحمة، ومع ذلك قُدِّمتْ لجواز الرجوع إلى ذكر الأعمِّ بالتفصيل للامتنان، ولأنَّه قد لا يتذكَّر العموم بعد الخصوص، وللفاصلة، فإنَّ الميم أقرب إلى النون.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ﴾ في أن لا تنفقوا ممَّا جعلكم مستخلفين فيه، وذلك توبيخ للمؤمنين الذين لا ينفقون، أو لِلْكُفَّارِ على ترك الإنفاق بعد توبيخهم على الكفر ولا عذر لهم ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في ما يُقرِّبكم إلى الله عَجَّلَ ، استُعير له لفظ السبيل لجامع الإيصال، وفي ذكره مزيد توبيخ كيف لا تنفقون فيما ينجيكم من المضارِّ العَامَّة دنيا وأخرى؟ ويورثكم المنافع العامَّة فيهما ممَّا جعل في أيديكم لتصرفوه في ذلك لا لتملكوه البتَّةَ، مع أنَّه ينتقل عنكم لمن بعدكم أو لمن معكم من عدُوٍّ أو صديق؟ كما انتقل إليكم مِمَّن قبلكم كذلك.

وأكَّد انتقاله عنهم بقوله عَجَّلَ : ﴿وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ الجملة حال من واو «تُنفقُوا»، أي: والحال أنَّه لا يبقى لكم بل يبقى لله عَجَّلَ ، وترك الإنفاق قبيح مطلقًا فيما أمر به، ومع ما يوجب الانفاق أشدُّ قبحًا.

(بلاغة) و«ميرَاثُ» مجاز بالاستعارة، أو الجملة استعارة تمثيليَّة، أو المراد ميراث ما فيهما، لأنَّ أخذ الظرف مستلزم لأخذ ما فيه، أو المراد يرِثُهما وما فيهما، ولو كان لا علاقة لأخْذِهما، لأنَّ أخذهُما تأكيدٌ وتحقيق لأخذِ ما فيهما.

﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنَ اَنفَقَ﴾ ومن لم ينفق، وقدَّم «منكُمْ» وهو حال ممَّا بعده تنويهًا بشأن المؤمنين مطلقًا **﴿مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾** أي: فتح مكَّة، و«ال» للعهد، وهوالصحيح المشهور، أو فتح الحديبيَّة، سمِّي فتحًا لأنَّ فتح مكَّة بني عليه، فانظر ما مرَّ في سورة الفتح.

قال أبو سعيد الخدريُّ: قال رسول الله ﷺ : «**يوشك أن يأتيَ قوم تحتقرون أعمالكم مع أعمالهم**»، قلنا: من هم يا رسول الله أقريش؟ قال: «**لا، لكن هم أهل اليمن هم أرقُّ أفئدة، وألْيَنُ قلوبًا**» فقلنا: أهم خير منَّا يا رسول الله؟ قال: «**لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مدَّ أحدكم ولا نصيفَه، ألا إنَّ هذا فصل بيننا وبين الناس، ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنَ اَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ...﴾**»[1].

وذلك خطاب للصحابة وتفضيل لبعض على بعض، وزجرٌ للمتأخِّر عنهم أن يحقر المتقدِّم.

(سيرة) جرى كلام بين خالد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، فقال خالد: تستطيلون علينا بأيَّام سبقتمونا بها، فقال ﷺ : «**دعو لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم**».

﴿أوْلَئِكَ﴾ المنفقون من قبل الفتح، المقاتلون في سبيل الله ﷻ ، وكلٌّ من إشارة البعد ووضعها موضع الإضمار للتَّعظيم. والجمع نظرٌ لمعنى «مَنْ»، والإفراد قبلُ نظرٌ لِلَفظها. **﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾** منزلة **﴿مِّنَ الذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾**

١- رواه **الطبراني** في تفسيره عن أبي سعيد الخدري، ج٢٧، ص٢٢١، ورواه **الشيباني** في الآحاد والمثاني، في مسنده، ج٤، ص٢٦٦. من حديث أبي سعيد الخدري.

بعد الفتح ﴿وَقَاتَلُواْ﴾ لأنَّ الإنفاق والقتال قبل الفتح أشدُّ على النفس، لقلَّة المال، وقلَّة المسلمين، وكثرة المشركين، وقلَّة الطمع في الغنائم.

﴿وَكُلاًّ﴾ ممَّن قاتل وأنفق قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل بعده، لا الفريق الأوَّل فقط. وقدَّم المفعول على طريق الاهتمام ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ الأشياء الحسنى، أو المثوبة الحسنى: النَّصر والغنيمة والجنَّةَ ورضاه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعدٌ ووَعيدٌ، أي: عالم بظاهر الأشياء وبواطنها، فيجازي كلاًّ على قدر عمله فللسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار فضلٌ على غيرهم، وللمقاتلين المنفقين قبل الفتح فضلٌ على من فعل بعدُ، ولمن أنفق وقاتل قبلُ وبعدُ فضلٌ على الفريقين.

وللصديق فضلٌ على الكلِّ قال ﷺ : «**ليس أحدٌ أمنَّ عليَّ بصحبته من أبي بكر**»[1]. روي عن الكلبي أنَّ الآية في أبي بكر، أنَّه أوَّل من أسلم، وأوَّلُ من أنفق ماله في سبيل الله، وذَبَّ عن رسول الله ﷺ .

قال ابن مسعود: أوَّل من أظهر إسلامه النبيء ﷺ وأبو بكر. قال ابن عمر: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلَّلها في صدره بخلال، فنزل جبريل، فقال: ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلَّلها في صدره بخلالٍ؟ قال: أنفق عليَّ ماله قبل الفتح، قال: فإنَّ الله عَجَّلَ قال: اقرأ عليه السلام، وقل لَه: أرَاضٍ أنت عنِّي في فقْرِكَ هذا أم ساخط؟ فقال: أأسخط على ربِّي؟! إنِّي على ربِّي راضٍ، إنِّي على ربِّي راضٍ، وفي ذلك وفي الآية فضل أبي بكر على غيره.

١- أورده الألوسي في تفسيره، مج٩، ص١٧٣. بدون إسناد ولا تخريج.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ استفهام حثٍّ وتحضيض على القرض الحسن، متضمِّنٌ للتوبيخ على تركه.

[قلت:] والقرض الحسن أن يكون من حلالٍ مع إخلاصٍ، وأن يكون ممَّا يحبُّه وأن يضعه في أهله، وأن يكتمه ولا يمنَّ به، ويكون من أحبِّ ماله إليه، وأن يستحقره ولو كثُر أو عظم، وأن لا يرى عِزَّ نفسه على الفقير. وزاد بعض: أن يحتاج هو إلى ما أنفق، فذلك عشرة شروط.

[قلت:] ولا يخرج القرض عن كونه حسنًا إذا كان من أوْسط ماله أو من رديئِه أو كريهه إذا لم يتيسر له في الحال إلاَّ رديئُه أو كريهُه، ولا إذا لم يكتمه لأمرٍ لا بدَّ منه، لا رياءً ولا سمعةً، ولا إذا ذكره لمن يقتدي به مع خلوص النية، ولا إذا دعا المعطَى ليأخذه ولم يحمله إليه، ولا إذا أعطاه من لم يحتج جدًّا أو لم يحتج البتَّة ولكن له سرور به، وأنت تعرف أنَّ الحسن يتفاوت، فالحمل إلى المعطَى أحسن من دعائه إليه.

والآية تشمل ما أُعطيَ وأُمضيَ، وما أُعطي سلفا لوجه الله، فإنَّه صدقة أيضا. وسمَّى الصدقة قرضا تشبيها بالقرض، إذ يردُّ الله تعالى إليه بها الثواب.

﴿فَيُضَاعِفَهُ, لَهُ,﴾ يعطيه اثنين أو ثلاثا فصاعدا، إلى سبعمائة وأكثر، وإذا أعطاه الله تعالى عليه ما دون العشر فلكلٍّ مِمَّا أعطاه عشر فصاعدا، لأنَّ الحسنة بعشر ولا تكون دونها.

﴿وَلَهُ, أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ الواو للحال، فليس الأجر الكريم زيادة على المضاعفة، والمعنى في حال أنَّ تلك المضاعفة أجر كريم، أو في حال أنَّ لتلك المضاعفة في العدد مضاعفة في الكيف كريمة. ويجوز العطف بالواو على أنَّ الإضعاف من محض الفضل.

والمثل فضل أيضا سمَّاه أجرا، لأنَّ الثواب على العمل بلا مضاعفة فضلٌ من الله أيضا، إذ لا واجب على الله، وإذ ثواب الله لا يقابله عمل مَّا، لأنَّه هو الموفِّق إليه، ولأنَّه لو حوسب عليه لعذِّب.

(نحو) ولم ينصب المضارع في جواب الاستفهام، لأنَّ المراد من انسحاب الاستفهام عليه حثُّهم على الإقراض الحسن، وأن يكون على وجه يضاعف لا على وجه لا يثاب عليه، فضلا عن أن يضاعف، ولا يوجد هذا المعنى بوضوح في النصب، وكأنَّه قيل: أيقرض فيضاعف؟.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ متعلّق بـ«يُضَاعِفُ»، أو باستقرار «لَهُ أَجْرٌ»، أو بـ«لَهُ» الأخير، أو بمحذوف نعت لـ«أَجْرٌ»، ولا دليل على تقدير: اذكر، مع وجود متعلّق بلا داعٍ. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلٍّ من يصلح له على العموم البدلي.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ حال من «الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ»، وإن جعلت الرؤية علمِيَّة فمفعول ثان. والنور حسِّيٌّ على الصحيح، وهو قول الجمهور، وقيل: معنويٌّ، وهو نجاتهم وفوزهم. وفي حديث ابن مسعود: «منهم من نوره كالجبل، ومن نوره كالنخلة، وأدناهم من نوره على إبهامه»، وذلك على قدر أعمالهم، كما قيل: «نورهم القرآن»، وكما قيل عن الضحَّاك: نورهم الهدى والرضوان الذي هم فيه. وعن ابن مسعود: «نورهم على قدر إيمانهم، فمنهم من نوره كالنخلة، ومنهم من نوره كالرجُل القائم، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه، فيطفأ تارة ويقد أخرى»[1].

١-رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير (٢٧) باب تفسير سورة الحديد، رقم٣٧٨٥. وأورده الألوسي في تفسيره، مج٩، ص١٧٤. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن حاتم وابن مردويه وصحَّحه، عن ابن مسعود.

وعن قتادة عن رسول الله ﷺ : «**من المؤمنين من نوره من المدينة إلى عدن أو صنعاء، ومن دون ذلك، حتَّى إنَّ من المؤمنين من لا يضيء له إلاَّ موضع قدميه**»[1] وقيل: نورهم كتب أعمالهم.

﴿**بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾ يسعون به إلى الجنَّة، لأنَّ السعداء يُعطَوْن كتبهم من جهتين: الأمام واليمين، كما أنَّ الأشقياء يُعطَوْنَها من جهتين: الخلف واليسرى، فنور يمينهم يضيء به الخلف والشمال والفوق، ونور الأمام يضيء به الجهة التي يمضون إليها، جعلنا الله ﷻ منهم بفضله، [آمين].

وقيل: المراد في الآية جميع الجهات. وقال الجمهور: نور الأمام هو من نور اليمين، وقيل: الباء بمعنى عن، والمعنى: في جهاتهم، وخصَّ اليمين بالذكر تشريفا.

روي عن أبي ذرٍّ وأبي الدرداء عن رسول الله ﷺ : «**أنا أوَّل من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأوَّل من يؤذن له فيرفع رأسه، فأرفع رأسي فأنظر بين يديَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمَّتي بين الأمم**» فقيل: يارسول الله وكيف تعرفهم من بين الأمم ما بين نوح عليه السلام إلى أمَّتك؟ قال: «**غرٌّ محجَّلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد غيرهم، وأعرفهم أنَّهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم**»[2].

١-أورده **ابن كثير** في تفسيره، ج٦، ص٥٥٤. كما أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٧٥، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم من حديث قتادة.

٢-رواه **الربيع** عن أبي هريرة بالاقتصار على الجزء الأوَّل منه، في باب الأُمَّة، رقم٤٣. وأورده **المنذري** كاملا في الترغيب والترهيب، في الترغيب في الوضوء وإسباغه، ج١، ص١٥١، رقم٦. وقال: رواه أحمد.

وظاهر الحديث تخصيص هذه الأُمَّة بالنور، وإعطاء الكتب بالأيمان، والآية هذه كسائر الأخبار تفيد عموم مؤمني الأمم السابقة بالنور، ويدلُّ له حديث أبي أمامة: «**تبعث ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفّه حتَّى يبعث الله تعالى بالنور للمؤمنين بقدر أعمالهم**»[1].

وحديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «**بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله تعالى نورا، فإذا رأى المؤمنون النور توجَّهوا نحوه، وكان النور دليلا لهم من الله ﷻ إلى الجنَّة**»[2].

وأقول: المراد في الحديث الأوَّل أنّه يعرف هذه الأمَّة بإيتاء كتبهم بأيمانهم إيتاء فوق إيتاء الأمم، وبنور فوق نور الأمم، أو يمتاز إيتاؤهم ونورهم عمًّا للأمم بنوع تمييزا، و لم يذكر إيتاء مؤمني الأمم ونورهم لقلّتهم بالنسبة إلى مؤمني هذه الأمَّة.

﴿**بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ**﴾ الجملة مفعول لحال تقدَّر بعد المفعول الثاني، لـــ«رأى» أو لحال بعد حال، أي: مقولا لهم: بشراكم اليوم جنَّات، أو مفعول لقول مستأنف، أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنَّات، والقائل الملائكة.

و«بُشْرَى» بمعنى ما يبشَّرون اسم مصدر هو تبشير بمعنى مفعول، ويقدَّر مضاف، أي: دخول جنَّات، لأنَّ البشارة لا تكون بالأعيان، وإذا قيل: بشَّرته بولد، فالمعنى: بولادة ولد، وإذا قيل: بشَّرته بضالّته فالمراد بوجود ضالّته، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ (سورة الصافات: ١٠١)، و﴿بَشَّرْنَاهُ

١-أورده **ابن كثير** موقوفا عن ابن عبَّاس، ج٦، ص٥٥٤. **والألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٧٥. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم من حديث أبي أمامة.

٢-أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٧٥، وقال: أخرجه ابن جرير الطبري والبيهقي في البعث، من حديث ابن عبَّاس.

بغُلاَمٍ﴾ (سورة الصافات: ١١٢) ، بشَّرناه بوعد ما ذكر أو بوجوده بعد، كما تقرر أنَّ الأحكام لا تَتَعَلَّقُ بالذوات، ولا إشكال. و«الْيَوْمَ» متعلِّق بـ«بُشْرَاكُمْ». ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ نعت جنَّات.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال سَبَبِيَّة من «جنَّات» جارية على غير ما هي له، و لم يبرز الضمير مع ذلك لظهور المراد، وكذا في النعت الجاري على غير ما هو له، والخبر، ولو أبرز لقيل: خالدا هم فيها، و«هم» فاعل «خالدا» على طريق الالتفات إلى الغيبة، أو خالدا أنتم فيها، على عدم الالتفات، و«أنتم» فاعل «خالدا». ويجوز أن تكون نعتا لـ«جنَّات» كأنَّه قيل: الجنَّات التي خلدوا فيها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من النور والتبشير، على أنَّ هذا من كلام الله تعالى، أو ذلك الذي هم فيه من النور وغيره، أو ذلك المذكور من الجنَّات، أو تلك الجنَّات، لكن أفرد لتأويل ما ذكر، وذكَّر لأنَّ الخبر مذكَّر، وهو الفوز، على أنَّ هذا كلام من الملائكة.

﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ مصدر بمعنى مفعول، أي: المفوز به، أو يقدَّر مضاف، فيبقى على المَصدَرِيَّة، أي: حصول ذلك، أو تحصيل ذلك هو الفوز، ﴿الْعَظِيمُ﴾ لا فوز دونه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

حوار بين المنافقين والمؤمنين يوم القيامة

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ وذكر المنافقات ولم يدخلهنَّ في لفظ المنافقين لزيادة بيان حالهم القبيحة، والمقام لذلك، بخلاف المؤمنات فدخلن في «الذينَ ءَامَنُواْ». و«يَوْمَ» بدلٌ من «يَوْمَ»، أو يَتَعلّقُ بالفوز، فيكون الأمر أشدَّ على المنافقين حسرة وللمؤمنين فرحا، أي: تفوزون يوم يخسر المنافقون والمنافقات. وظهور المرء يوم خمول عدوِّه مضادة أبدع.

وقيل: لا يوصف المصدر قبل مجيء متعلّقه. قال بعضهم: مَن استَعمَلَ ذلك على خلاف قوله:

«إنّ وجدي بك الشديد أرَاني»[1]

فقد أخطأ. ولو علّق بـ«عظيم» لَسَلِمَ من ذلك.

﴿للذينَ ءَامَنُواْ﴾ إيمانا خالصا من النفاق ﴿انظُرُونَا﴾ انتظرونا لنمشي قريبا منكم، أو انظروا إلينا، فحذف الجارَّ وانتصب المجرور، ويدلُّ للأوّل قراءة فتح الهمزة وكسر الظاء، بمعنى: أمهلونا. ﴿نَقْتَبِسْ﴾ نأخذ القبس، أي: الجذوة، أي: قطعة كقطعة من النار ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾ شبَّه النور بالنار لجامع الإضاءة، ورمز إلى ذلك باقتبس، وذلك أنَّ للمؤمنين ــ كما مرَّ ــ نورا عن يمينهم وأمامهم أو في جميع جهاتهم، والمنافقون في ظلمة.

١- البيت من الشواهد وهو مذكور بلا نسبة، وتمامه:

«عاذرا من وجدت فيك عذولا».

وقيل: يكون لهم ضعيفا فيطفأ، فإذا أطفئ قالوا: ﴿انظُرُونَا...﴾، وقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا...﴾ (سورة التحريم: ٨) ، لا تسلبه عنّا كما سلبت عن المنافقين نورهم.

ويروى أنّ الله ﷻ يرسل ظلمة على الناس فيستغيثون ربّهم، فيعطي المؤمنين نورا عظيما، والمنافقين نورا ضعيفا، ويمشون إلى الجنّة جميعا، فيطفأ نور المنافقين ويتردّدون في الظلمة ويقولون: ﴿انظُرُونَا...﴾.

﴿قِيلَ﴾ قال المؤمنون، لأنّهم المذكورون المقول لهم: ﴿انظُرُونَا﴾ فهم المجيبون، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما. وقال مقاتل: قال الملائكة، وعلى القولين الجملة استـئناف جواب، كأنّه قيل: فماذا أجيبوا به ؟ فقيل: «قِيلَ».

﴿ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ خلفكم، يقال رجع وراءه، أو «وَرَاءَ» اسم فعل، بمعنى تأخّروا إلى ورائكم، وعلى كلٍّ هو تأكيد.

(نحو) يقال: «وَرَاءَكَ أَوْسَعَ» بنصبهما، أي: ارجع وراءك تجد مكانا أوسع لك. ويروى برفعهما، قال أبو أمامة من التابعين: ارجعوا إلى المكان الذي قسم فيه النور.

﴿فَالْتَمِسُواْ نُورًا﴾ اطلبوا نورا، وهذا استهزاء بهم كما استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا إذ قالوا: آمنّا و لم يؤمنوا، قال الله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (سورة البقرة: ١٥) ، أي: حين يقال لهم: ارجعوا وراءكم. وعن أبي أمامة يقال لهم: ارجعوا وراءكم، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئا، فيرجعون إلى المؤمنين وقد ضرب بينهم بسور، وذلك خدعة كما خدعوا المؤمنين ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (سورة النساء: ١٤٢) .

وقيل: «وَرَآءَكُمْ» الدنيا والتمسوا نورا هو الإيمان والعمل الصالح، أو تنحَّوْا عَــنَّا والتمسوا نورا غير هذا، لا سبيل لكم إلى هذا النور، ولا نور لكم عندنا، فيرجعون إلى الموقف فلا يجدون شيئا، وذلك تهكُّم.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ هو الأعراف وقيل: غيره. والباء زائدة، و«سور» نائب الفاعل، كذا قيل، والصحيح أنَّها غير زائدة، والجارُّ والمجرور نائب الفاعل، أي: فرِّق بينهم بسور.

﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ الجملة نعت «سُورٍ» ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ الجملة نعت «بَابٌ»، أو نعت ثان لـــ«سُورٍ»، والهاء للسور، أو الباب. و«الرحمة» الجنَّة وما فيها للمؤمنين ﴿وَظَاهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾ من جهته، والهاء للباب أو السورِ أو الباطنِ ﴿الْعَذَابُ﴾ النار وما فيها للمنافقين والمشركين.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ هذا السور في موضع الجدار الشرقي من بيت المقدس، عند الموضع الذي يقال له الآن: وادي جهنَّم، وباطنه الذي فيه الرحمة هو المسجد.

وكأنَّه قيل: فماذا قالوا بعد ضرب السور؟ فأجاب بقوله ﷻ: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادون المسلمين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا ؟ نقول: لا إله إلاَّ الله، محمَّد رسول الله ﷺ ﴿قَالُواْ﴾ أي: المسلمون ﴿بَلَىٰ﴾ لستم لم تكونوا معنا بل كنتم [معنا].

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ صرفتموها عمَّا تقولون بألسنتكم، أو أهلكتموها بمخالفة ما في ألسنتكم ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر، أو أخَّرتم الصدق والعمل بما تقولون لعدم صدقكم ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ شككتم في أمور الدين.

(صرف) ﴿وَغَرَّتْكُمُ الاَمَانِيُّ﴾ جمع أمنية، وأصل هذا المفرد: "أُمْـــنُوِيَة" (بضمِّ الهمزة والنون وإسكان الميم والواو)، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء والضمَّة كسرة بوزن "أفعولة"، وهو المنى العظيم، كأعجوبة وأضحوكة وأحدوثة وأنكوحة.

وذلك أنَّهم يتمنَّون أشياء باطلة، كانتكاس الإسلام، وموت النبيء ﷺ، ورجوع العزِّ إليهم. وعن ابن عبَّاس: ﴿فَتَـــنتُمُ, أَنفُسَكُمْ﴾ بالشهوات واللذَّات، ﴿وَتَرَبَّصتُّمْ﴾ بالتوبة، ﴿وَارتَبْتُمْ﴾ قيل: شككتم في الله، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الاَمَانِيُّ﴾ طول الآمال. وقال أبو سنان[1]: قلتم سيغفر لنا.

قال جابر بن عبد الله: رأيت رجلا أبيض الوجه، حسن الشعر واللون، عليه ثياب بيض، أتى فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «**عليك السلام ورحمة الله**» فقال: يا رسول الله ما الدنيا ؟ فقال: «**حلم نائم، وأهلها مجازون ومعاقبون**» قال: يا رسول الله، وما الآخرة؟ قال: «**لا بدَّ منها، فريق في الجنَّة وفريق في السعير**»، فقال: يا رسول الله ما الجنَّة ؟ قال: «**بدل الدنيا لتاركها نعيمها أبدا**»، قال: ما جهنَّم ؟ قال: «**بدل الدنيا لطالبها، لا يفارقها أبدا**»، قال: فمن خير هذه الأُمَّة ؟ قال: «**العامل بطاعة الله عز وجل**»، قال: فكيف يكون الرجل فيها ؟ قال: «**مشمِّرا كطالب القافلة**»، قال: فكم القرار فيها ؟ قل: «**قدر المتخلِّف عن الرفقة**»، قال: فكم بين الدنيا والآخرة ؟ قال: «**غمض عين**»، قال: فذهب الرجل فلم نره، فقال ﷺ: «**هذا جبريل يزهِّدكم في الدنيا ويرغِّبكم في الآخرة**».

١-هو سعيد بن سنان البرجمي الشيباني الكوفي، شيخ محدِّث نزل الري، وكان يحجُّ كلَّ عام، حدَّث عن الشعبيِّ والضحَّاك وطاوس، وثَّقه أبو حاتم، وقال ابن حجر: صدوق ولكن له أوهام. تُوُفِّيَ بعد المائة الأولى من الهجرة. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج١، ص٢٩٠.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ امْرُ اللهِ﴾ أي: الموت **﴿وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾** الشيطان، قال لكم: إنَّ الله غفور كريم لا يعذِّبكم. و[الغرور] هو صفة مبالغة، والمراد الجنس، ويجوز أن يكون المراد إبليس، لأنَّه سنَّ المعصية لكلِّ عاص، وما زال يأمر بها فما فعل أتباعه فهو فعل له.

قال الإمام عليٌّ: «من جمع ستَّ خصال لم يدع للجنَّة مطلبا، ولا من النار مهربا: عرف الله تعالى فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحقَّ فاتَّبعه، وعرف الباطل فاتَّقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها».

وروي أنَّه رأى في سفر له ﷺ شاة ميِّتة يتحرَّك الدود فيها، فوقف حتَّى جاء القوم فقال: «**أترون هذه ؟ هانت على أهلها واستغنوا عنها؟**» قالوا: نعم، قال: «**والذي نفس محمَّد بيده لَلدُّنيا أهون على الله منها على أهلها**»[١].

﴿فَالْيَوْمَ﴾ متعلِّق بـ«يُوخَذُ» من قوله: **﴿لاَ يُوخَذُ مِنكُمْ﴾** أيـها المنافقون، ولا صدر لـ«لاَ» النافية إن لم تعمل عمل «إنْ» ولا عمل «ليس»، ولا صدر لـ«لاَ» الناهية. **﴿فِدْيَةٌ﴾** فداء تنجون به من النار، كَمَالٍ وتحقيق الإيمان الآن، وَكَأَمْرٍ مَّا من الأمور.

والمتبادر أنَّ المراد المال، وأيضا قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله تعالى يقول للكافر يوم القيامة أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يَا رَبِّ، فيقول الله تبارك وتعالى: قد سألتك أيسر من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم ألاَّ تشرك بي فأبيت إلاَّ الشرك**»[٢].

١- رواه ابن ماجة في كتاب الزهد (٣) باب مثل الدنيا رقم٤١٨٦ من حديث المستورد بن شداد بلفظ: إذ أتي على سخلة منبوذة...

٢- رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذرِّيـته، رقم٣٣٣٤، من حديث =

ولم يقرن الفعل بتاء التأنيث في أوَّله للفصل، ولأنَّ النائب ظاهر مَجازيُّ التأنيث.

﴿وَلاَ مِنَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أشركوا صراحا لا نفاقا ﴿مَأْوَايكُمُ النَّارُ﴾ اسم مكان ميميٌّ، أي: محلُّ أويكم، أي: رجوعكم (بفتح الهمزة وإسكان الواو بعدها ياء مثنَّاة تحتيَّة).

﴿هِيَ مَوْلاَكُمْ﴾ هي ناصرتكم، أي: لا مولى لكم ولا ناصر، كقولك: أطعمته السيف، وأشبعته بالضرب، وكما قيل: «تَحيَّة بينهم ضرب وجيع»، وكقولهم: أصيب بسوء فاستنصر الجزع، قال الله تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾ (سورة الكهف: ٢٩) .

أو المعنى: هي سيِّدتكم تلي ما ينفعكم، وذلك تهكُّم. أو هي سيِّدتكم المتصرِّفة فيكم، بحسب ما تصرَّفتم في المعاصي الموجبة لها. أو هي مكان قربكم من رضا الله ﷻ على التهكُّم، فهي اسم مكان، من الولي وهو القرب، أو قربهم إلى النار مشاكَلَةً لقرب المسلمين من الجنَّة قبل دخولها ﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ هي النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

=

أنس، بلفظ: «إنَّ الله يقول لأَهْوَنِ أهل النار...».

يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

خشية الله، وجزاء المتصدّقين المؤمنين، وجزاء الكافرين

(سبب النزول) ﴿أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ طائفة من المؤمنين أصابهم فتور لِمَا أصابوا من العافية ولين العيش في المدينة، بعد اجتهاد قبل الهجرة، فمرحوا وضحكوا، فنزلت الآية.

كما روي أنَّ نفرًا مرَّ عليهم في المسجد يضحكون، فقال: **أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربِّكم؟ وقد نزل عليَّ: ﴿أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾** ؟ فقالوا: يارسول الله، فما كفَّارتنا ؟ قال: «**أن تبكوا كما ضحكتم**». وظاهر الحديث أنَّها لم تنزل فيهم بل نزلت قبل ضحكهم، لكن لا مانع أن تنزل فيهم قبل ضحكهم، فتكون إخبارًا بالغيب.

(سبب النزول) وفي خبر أنَّ أصحاب النبيء ﷺ فشا فيهم المزاح والضحك، فنزلت. وعن ابن عبَّاس: استبطأ الله تعالى قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وقال أنس: على رأس سبع عشرة سنة فنزلت.

وفي مسلم والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود والطبراني والحاكم: «ما بين إسلامنا وعتاب الله تعالى لنا ﴿أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ إلاَّ أربع سنين». و«يَانِ» مضارع أَنَى، يقال: أَنَى الأمر بمعنى أَتَى وقتُه.

وقال مقاتل والكلبيُّ: نزلت في المنافقين، ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَكُونُواْ كَالذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لأنَّ المنافقين ليسوا مؤمنين بإخلاص وقست قلوبهم.

(سبب النزول) وقيل: نزلت الآية في المنافقين بعد الهجرة بسنة إذ قالوا لسلمان: حدِّثنا عن التوراة فإنَّ فيها العجائب، فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (سورة يوسف: ٣) ، فأخبرهم سلمان أنَّ القرآن أحسنُ من غيره، فكَفُّوا ما شاء الله ﷻ ، ثمَّ عادُوا فسألوه أن يحدِّثهم عنها، فنزل ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾ (سورة الزمر: ٢٣) ، فكفُّوا ما شاء الله تعالى فسألوه فنزلت هذه الآية.

﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ الخشوع لذكر الله وما نزل هو الانقياد للأمر الشرعيِّ، والقرآن بما فيه فعلاً وتركا. وكان ابن عمر يقول إذا قرأ الآية: بلى يَا رَبِّ، بلى يَا رَبِّ. ﴿لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ من القرآن و«مِنْ» للتبعيض، والمراد بالذكر القرآن، ذكره باسمين لاختلاف مفهوميهما، فإنَّه ذكرٌ لله ﷻ ومقروءٌ نزل من الله، أو إنَّه تذكير وموعظة ومقروء نزل.

وذكر بعض أنَّه إذا أريدَ به تذكير الله الناس أو التكلُّم بأسماء الله وما أمر به في الشرع فهو غير القرآن، ولا بأس، لأنَّ ذلك اعتبار، فإن اعتبرت أنَّ ما يتكلَّم به أو التذكير هو من القرآن فهو قرآن أيضًا.

و«مَا» معطوف على لفظ الجلالة أو على «ذِكْرِ»، وهو أولى، ولا ضعف في الأوَّل، لصحَّة قولك: تخشع قلوبهم بتذكير الله تعالى مطلقًا، وبألفاظ القرآن، أو بذكر الله وهو الوعظ، أو التكلُّم المسموع بالأذكار.

وقيل: الذكر: القرآن، و«مَا نَزَلَ»: الفُيُوضات الإلهيَّة النازلة على القارئ، كما روى البخاري ومسلم والترمذيُّ عن البراء: كان رجل يقرأ سورة الكهف

وعنده فرس مربوط، فجعلت سحابة تدنو فجعل الفرس ينفر منها، وَلَمَّا أصبح ذكر ذلك للنبيء ﷺ فقال: «**تلك السكنية تنزل للقرآن**». قلت: لا يجوز تفسير القرآن بهذا[1].

واللام متعلّق بـ«تَخْشَعَ» على التعدية، أو للتعليل.

﴿وَلاَ يَكُونُواْ كَالذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ أهل التوراة والإنجيل. و«لاَ» نافيةٌ، والفعل منصوب عطفًا على «تَخْشَعَ»، ويضعف جعلها نافية والفعل مجرور[2]. **﴿مِن قَبْلُ﴾** أي: من قبلهم **﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** أي: الأجل، وهو طول أعمارهم وآمالهم، أو مدَّة ما بينهم وبين أنبيائهم، أو أمدُ انتظار يوم القيامة والجزاء، وقيل: أمد انتظار الفتح.

والأمد: الزمان باعتبار الغاية، والزمان أعمُّ. والمراد: تحذيرهم أن تقسو قلوبهم كما قست قلوب أصحاب التوراة والإنجيل. قال الحسن: «أما والله لقد استبطأ الصحابة وهم يقرأون القرآن أقلّ مِمَّا تقرأون، فانظروا في طول ما قرأتم وما ظهر فيكم من الفسق».

ويروى أنّ أحمد بن أبي الحواري[3] كان في طريق من طرق البصرة، فسمع صعْقَةً، فإذا رجل مغشيٌّ عليه، فقيل: هذا رجل حاضر القلب سمع **﴿أَلَمْ يَانِ**

١- يعني الشيخ والله أعلم أنّ تفسير ما في القرآن بالفيوضات الإلهيَّة لا يجوز، لأنّ ذلك لا ينضبط ويؤدّي إلى التقوُّل على الله اعتمادا لما أفاض الله على ذلك الشخص في قلبه، والمعصوم عن الخطأ هو الرسول ﷺ فقط دون بَقيَّة البشر، وهو الحقُّ.

٢- كذا في الأصل، وَلَعَلَّ الصواب: «ويضعف جعلها ناهيةً والفعل مجزوما».

٣ -هو أحمد بن عبد الله بن ميمون أبو الحسن الثعلبي الغطفاني الدمشقي الزاهد، شيخ أهل الشام، أصله من الكوفة، ولد سنة ١٦٤هـ. روى عن سفيان بن عيينة وغيره. وروى عنه أبو داود وابن ماجه، تُوُفِّيَ سنة ٢٤٦هـ. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج١، ص٣٧.

لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ وأفاق عند سماع الكلام فقال:

أما آن للهجران أن يتصرَّما ... وللغصن غصنِ البان أن يتبسَّما

وللعاشق الصَّبِّ الذي ذاب وانحى ... أما آن أن يُبكى عليه ويرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحي ... كتابًا حكَى نقْشَ الوشيِّ المُنَمْنَمَا

فخرَّ مغشيًّا عليه ومات.

وقرئت هذه الآية على قوم من أهل اليمامة بحضرة أبي بكر فبكوا شديدا، فقال: كذلك كنَّا حتَّى قست القلوب، يعني قلوب غيره وغير نظائره. فذلك مدح لنظائره بعدم القسوة، وزجرٌ لمن قسا قلبه، أو أراد إدخال نفسه هضمًا لها، أو أراد أنَّ ما في زمان الرسول ﷺ أقوى ممَّا بعده، ولو لم تكن القسوة، ولا يخفى هذا فإنَّ معاصرته تزيد خيرًا فكيف مشاهدته ؟.

بعث أبو موسى الأشعري في البصرة إلى قرَّائها، فدخل عليهم منهم جمٌّ غفير، فقال لهم: أنتم قرَّآء أهل البصرة وخيارُها فاتلوه، ولا يطولَنَّ عليكم الأمدُ فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من قبلكم.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن حكم التوراة والإنجيل، مصرُّون على الكبائر والبدع، زيادة في فشلهم عن العبادة لمزيد قسوة قلوبهم.

قال عيسى عليه السلام : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيد من الله عز وجل ، ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنَّكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم فإنَّكم عبيد. والناس رجلان: مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا على العافية». وقيل: المعنى: كافرون بعيسى ومحمَّد صلَّى الله وسلَّم عليهما.

﴿اعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللهَ يُحْيِي﴾ بالماء والنبات **﴿الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** بالقحط وزوال النبات، وذلك استعارة تمثيليَّة للرجوع عن القسوة بالتوبة والخشوع، والذكر وقراءة القرآن، أو كنايةٌ عن ذلك.

﴿قَدْ بَيَّـنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾ من جملتها ما ذكر **﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** ما في الآيات، وتعملوا بموجبها، فتفوزوا بخير الدنيا والآخرة، وتنجوا من شرِّهما. و«لَعَلَّ» للترجية أو للتعليل.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أبدلت التاء فيهما صادًا، وأدغمت في الصاد، والمراد مدح من ينفق ماله في وجوه الأجر **﴿وَأَقْرَضُواْ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾** الضمير عائد لـ«الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ» أولى من أن يعود إلى «الْمُصَّدِّقِينَ»، فيقدَّر: وأقرضن. وكذا «لَهُمْ» في الموضعين تعود الهاء لـ«الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ» أولى من أن تعود إلى «الْمُصَّدِّقِينَ» ويقدَّر: لهم ولهنَّ.

والعطف على محذوف: أخلَصوا وأقرَضوا. وواو «أخلصوا وأقرضوا» لـ«الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ»، وجملة «أخصلوا» معترضة، أو عطف على «مصَّدِّقين» لأنَّه بمعنى تصدَّقوا.

أو نقول هو شامل للمتصدِّقات فترجع الواو لـ«الْمُصَّدِّقِينَ» الشامل لهنَّ، فيعطف «أَقْرَضُوا» الشامل لهنَّ على «مصَّدِّقين»، وإنَّما ذكرن بعد الشمول تأكيدًا، كما قال ﷺ: «**يا معشر النساء تصدَّقن، فَإِنِّي رأيتكنَّ أكثر أهل النار**»[1] وليس ذلك فَصلاً بين أجزاء الصلة بعطف المصَّدِّقات، لأنَّه كَلاَ فصلٍ، لِمَا علمت من الشمول.

١-رواه **البخاري** في كتاب الزكاة (٤٤) باب الزكاة على الأقارب، رقم١٤٦٢. **والترمذي** في كتاب الإيمان (٦) باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، رقم٢٦١٣. مع زيادة في آخره، من حديث أبي هريرة.

أو نقول: الواو للمعيَّة في قوله: ﴿وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾، فيعطف «أَقْرَضُوا» على «مُصَّدِّقِين» شاملاً لهم ولهنَّ. أو يقدَّر موصول معطوف على «الْمُصَّدِّقِينَ»، أي: ومن أقرضوا. وَوَاوُ «أَقْرَضُوا» للفريقين، والكوفيُّون أجازوا حذف الموصول، كقوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينـــصره سواء

أي ومن يمدحه، إلاَّ أنَّه يحتمل وقوع مَنْ على الفريقين، كأنَّه قيل: القوم المشتملون على الهجاء والمدح والنصر مستوون، أو نجيز الفصل بين أجزاء الصلة، ونجيزه بتقدير معطوف هكذا: وأقرضوا وأقرضن، بعطف أقرضوا على مصدِّقين، وأقرضن على مصدِّقات.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ نائب الفاعل، والهاء للفريقين، أو النائب مستترٌ عائد إلى التصدُّق أو الإقراض، على حذف مضاف، أي: ثواب التصدُّق أو ثواب الإقراض ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مرَّ مثله.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِه﴾ وأتبعوا الإيمان بالعمل الصالح وترك المعاصي ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ المبالغون في الصدق، إذ صدَّقوا بأخبار الله تعالى ورسوله ﷺ كلِّها، فكان لهم بذلك اسم الصدق، وهو صدِّيق. وشدَّد للمبالغة، بل المشدَّد صيغة مستقلَّة، وليس الصدِّيقون بمعنى المصدِّقين.

قال مجاهد: «كلٌّ من آمن بالله ورسوله فهو صدِّيق» وتلا الآية، فهي عامَّة، وليس كما قال بعضهم: إنَّ الآية في ثمانية سبقوا أهل الأرض إلى الإيمان خَاصَّةً: الصديق وعليٌّ وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر ألحقهم بهم لصدق نيَّته.

﴿وَالشُّهَدَآءُ﴾ أكدَّ بالجملة الاسميَّة، وبإشارة البعد في الكمال، وبذكر لفظ «هُمْ»، سواء جُعل متبدأً ثالثًا أو فصلاً. ومعنى شهادتهم: رسوخهم في الشهادة بالتوحيد وأمر الشرع، أو كأنَّهم شهدوا القيامة، وليس المراد خصوص القتل في سبيل الله تعالى.

أو المعنى: شهداء على الناس، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) ، أو شهداء على الناس والتوحيد وأمر الشرع.

[قلت:] ويدلُّ على أنَّه ليس المراد خصوص القتل في سبيل الله ﷻ حديثُ البراء بن عازب عنه ﷺ : «**مؤمنو أمَّتي شهداء**»[1] وتلا الآية، وقولُ أبي هريرة: «كلُّكم صدِّيق وكلُّكم شهيد» وتلا الآية، وكذا قال مجاهد: «كلُّ مؤمن صدِّيق وشهيد» وتلا الآية.

وقال رجل: يارسول الله، إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله وصلَّيت الخمس وأدَّيت الزكاة وصمت رمضان، وقمته فمن أنا ؟ قال: «**صدِّيق وشهيد**». قال عمر ﷺ : ما لكم لا تردُّون على من يغتاب الناس؟ قالوا: نخاف لسانه، قال: ذلك أحرى أن لا تكونوا شهداء على الناس[2].

وقال أبوا الدرداء عنه ﷺ : «**من خرج من أرض خوفًا على دينه فهو صدِّيق، وإذا مات مات شهيدًا، وحشر في درجة عيسى** عليه السلام »[3]، أي: في مثلها، وهي دونها، يعنى أنَّ الآية صادقة فيهم لا مخصوصة بهم.

١- ساقه **الثعالبيُّ** في تفسيره، ج٤، ص٢٦٨، وقال: أخرجه ابن جرير الطبري، من حديث البراء.

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٩، ص١٨٣، وقال: أخرجه **ابن حبَّان** عن عمرو بن ميمون الجهني. الدر المنثورة، ١٦/٨. الشوكاني: ١٧٤١.

٣- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

وهذه الأحاديث والأخبار تدلُّ على عطف «الشُّهَدَاءُ» على «الصِّدِّيقُونَ». وقيل: الشهداء الأنبياء، يشهدون على أممهم. وقيل: إنَّ عامة المؤمنين لهم مثل ما للخاصَّة من الصدِّيقين والشهداء. وعن ابن عبَّاس والضحَّاك ومسروق ما حاصله أنَّ «الشُّهَدَاءُ» مبتدأ، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبَرَانِ. والخبر «لَهُمْ...»إلخ و«عِندَ» متعلِّق بـــ«الشُّهَدَاءُ».

واستظهر الإمام أبو حيان أنَّ الشهداء مبتدأ، ووجهه أنَّه فسَّر الشهداء بالمقتولين، أو بهم وبكلٍّ من يشهد على الناس يوم القيامة كالأنبياء، وأنَّه ليس كلُّ مؤمن شهيدًا، وقوله هو قول ابن عبَّاس ومن ذكر معه آنفًا.

والعطف لتغاير الوصفين، والموصوف واحدٌ، أي: الجامعون بين الصدِّيقيَّة والشهادة، ويجوز أن يراد القتل في سبيل الله، والعطف عطف تغاير، وكأنَّه قيل بمعنى: منهم الصدِّيقون ومنهم الشهداء.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـــ«شُهَدَاء» ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر ثانٍ، والضمائر عائدة إلى «الذينَ»، أي: لهم ما قضى الله لهم وأعدَّه لهم من الأجر والنور الشهيرين العظيمين، [كقوله: «أنا أبو النجم وشعري شعري»][1].

أو المراد: نوع من المؤمنين دون الشهداء والصدِّيقين لهم أجر كأجر الصدِّيقين والشهداء، وعلى هذا فهاء «أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» للصدِّيقين والشهداء، وهاء «لَهُمْ» لـــ«الذين»، ويقدَّر مضاف، أي: مثل الصدِّيقين والشهداء لهم مثل أجر الفريقين ومثل نورهم.

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَآ﴾ كلِّها، قيل: شامل للكفر بالرسل ﴿أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ مصاحبوها لا يفارقونها، وهي نار تتأجَّجُ.

١-ما بـــين معقوفين إضافة من الطبعة العمانيَّة.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

ضرب مثل للدنيا وزوالها، والحثُّ على عمل الآخرة

﴿اعْلَمُواْ﴾ خطاب للمؤمنين يحذِّرهم عن الدنيا، أو لهم وللمشركين، على أنَّ «الكُفَّارَ» بعدُ في الآية الحرَّاثون **﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾** لا ثمرة لها **﴿وَلَهْوٌ﴾** شاغل عمَّا يعني.

(فقه) شهر أنَّ ضرب الدفِّ مع اجتماع عليه كبيرة، وبدون اجتماع عليه مكروه، وأجيز إعلانًا للنكاح، وعنه ﷺ: «**أعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه الدفَّ**»[1]. وعنه ﷺ: «**الفصل بين الحلال والحرام ضرب الدفِّ، ورفع الصوت في النكاح**»[2].

وكان عمر إذا سمع صوت الدفَّ أقرَّه إن كان عرسًا أو ختانًا إن لم تجتمع نساء ورجال ولا غناء محرَّم، رواه البعض. ورووا أنَّ الصدِّيق دخل على عائشة وعندها جاريتان تضربان الدفَّ فزجرهما، وقال: أتفعلن ذلك عند رسول الله ﷺ؟ فقال: «**دعهنَّ يا أبا بكر فإنَّ هذا عيد لهنَّ ولنا، ولكلِّ قوم عيد**».

١- رواه **الترمذي** في كتاب النكاح (٦) باب إعلان النكاح، رقم١٠٨٩، من حديث عائشة.

٢- رواه **النسائي** في كتاب النكاح، باب إعلان النكاح بالصوت وضرب الدفِّ، رقم ٣٣٦٩، ورواه **الترمذي** في كتاب النكاح (٦) باب ما جاء في إعلان النكاحِّ، رقم١٠٨٨، من حديث محمَّد بن حاطب الجمحي بلفظ: «فصل ما بين».

(فقه) [قلت:] والصحيح المنع من ضربه إلاَّ إشْعارًا بالنِّكاح، ولجمع عسكر، ونحو ذلك من المصالح، وأمَّا ما ذكر عنه ﷺ آنفًا فترخيص غير مستمرٌّ.

وكذا نذرت امرأة ضرب الدفِّ إن رجع سالمًا من الغزو، فقال: «لا إلاَّ إن عزمت في النَّذر» فضربت، فجاء عمر وزجرها، فكفَّتْ فقال ﷺ : «**إنَّ الشيطان يفرُّ منك يا عمر**»، ولا يخفى أنَّ ما روي في الأحاديث من ذلك جاء مع كراهة.

وقال السمرقنديُّ: ضرب الدفِّ في النكاح كناية عن المبالغة في إشهاره لا حقيقة، وقال: الضرب الذي في زماننا للدفِّ مع الجلاجلات والصنجات يكره بالاتِّفاق، وإنَّما الاختلاف في الدفِّ الذي في زمانه ﷺ .

﴿**وَزِينَةٌ**﴾ لا شرف لها ذاتي، كلباس ومركب وبناء ﴿**وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ**﴾ بالأنساب والعظام البالية ﴿**وَتَكَاثُرٌ فِي الاَمْوَٰلِ وَالاَوْلاَدِ**﴾ هذه الصفات قد تصدر عن المؤمنين فنهوا عنها، والخطاب في «بَيْنَكُمْ» لهم أو لهم وللمشركين، وقيل: الخطاب في الموضعين للمشركين، و«الكُفَّارَ» بعدُ: المشركون أو الحرَّاثون، والمراد: صفة الحياة الدنيا أو حالها مثل صفة لعب أو حال لعب...إلخ.

﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ**﴾ خبر ثان، أي: كصفة غيث، أو حال غيث، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه مُتَعَلِّق بمحذوف حالٍ من المستتر في «لَعِبٌ» بمعنى لاعب، أو الكاف حال من الضمير، وإنَّها اسم مضاف لما بعد، إذْ لا حاجة إلى ذلك، ولا إلى قولك: الدنيا لاعبة، ولا إلى تأويل «لَعِبٌ» بلاعبة، ولو صحَّ أن يقال: لعبت به الدنيا، وماذا يفعل بما بعدُ أيضًا ؟ أيُؤَوِّلَه كلَّه أو لا يُؤَوِّلُه ؟. والغيث المطر.

﴿**اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**﴾ أهلَ الشرك، لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بأمر الدنيا، ورغبةً فيها، وأمَّا المؤمن فيصرفه ما رأى منها إلى شكر الله تعالى واستحضار قدرته ﷻ ، قال أبو نواس... [يصف وردة النرجس]:

عيون من لُجـــــين شاخصـــات على أطرافها ذهب سبـــيك
على قضب الزبرجد شاهـــــدات بـــأنّ الله ليــــــــس
له شـــــريك

أو «الكُفّارَ» الحُرَّاث، لأنّهم يكفرون الحبَّ في الأرض، وعليه ابن مسعود.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتيبَّسُ ﴿فَتَرَاٰيهُ﴾ يا من يصلح للرؤية ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ زائل الخضرة، لم يقل: فيصفر، بل قال: تراه مصفرًّا، لأنّ المراد مشاهدة صفرته لكلّ من يراه، ولأنّ المرتَّب على جفوفه الرؤية لا اصفراره.

﴿وَفِي الاَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على الكفر، قدَّمه على المغفرة لأنّه ممَّا يتتجه الرغبة في الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة على الإيمان، وأكّدها أيضًا بقوله تعالى: ﴿مِّنَ اللهِ﴾ ما بالك بشيء قصد ذكره بأنّه من الله ﷻ، مع أنّ كلّ شيء منه تعالى ؟ وأكّد أيضًا بقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ عظيم لا يقدَّر قدره.

(بلاغة) [قلت:] وفي مقابلة العذاب الشديد بشيئين مغفرة ورضوان تغليبٌ للرَّحمة، كما ذكر اليسر مرَّتين ـــ وهو نكرة ـــ كلٌّ واحد غير الآخر، وذكر العسر مرَّتين والثاني غيرُ مغايرٍ للأوَّل بل هو الأوَّل المعهود، وجاء: «إنّه لن يغلب عسر يسرين» [وذلك في سورة الشرح]، ووصف الرحمة بأنّها من الله دون العذاب تغليبًا لها، وكلٌّ منه تعالى، ورمز إلى أنّ الخير هو المقصود الذاتيّ الأوَّليّ.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ﴾ ما متاع الحياة الدنيا ﴿إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أو ما الحياة الدنيا إلاّ ذات متاع الغرور، أو ما الحياة الدنيا إلاّ شيء يتمتّع به قريب الذهاب لمن اطمأنّ إليها، وألْهته عن العمل للآخرة، ومن جعلها ذريعة فنعمت

المطيَّة له، ونعم المتاع هي.

قال أبو عليٌّ القالي في الأمالي[1]: حدَّثنا أبو بكر قال: حدَّثنا أبو مسلم بن قتيبة عن المدائني قال: «لقي عالم من العلماء راهبًا من الرهبان قال: يا راهب كيف ترى الدهر؟ قال: يُخلق الأبدان ويجدِّدُ الآمال، ويباعد الأمنية، ويقرِّب المنيَّة، قال: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به نَصَبَ، ومن فاته تعب، قال: فما الغنى عنه؟ قال: قطع الرجاء منه، قال: فأيُّ الأصحاب أبرٌّ وأوفى؟ قال: العمل الصالح، قال: فأيُّهم أضرٌّ وأبلى؟ قال: النفس والهوى، قال: فأين المخرج؟ قال: سلوك المنهج، قال: وفيم ذلك؟ قال: في قطع الراحات وبذل المجهود».

﴿سَابِقُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى موجبات المغفرة، وهي أنواع العبادات وترك المعاصي، أي: ليجتهدْ كلٌّ واحد منكم أن يكون أكثر عبادة من غيره، وأشدَّ إخلاصًا، بلا حسد ولا منافسة.

وذلك أن يكون أوَّلَ داخل المسجد وآخر خارج، وأوَّل صفٌّ في القتال، وأن لا تفوته تكبيرة الإحرام مع الإمام، وأوَّل من يصلِّي أوَّل الوقت إذا صلَّى وحده، وأوَّل راجع إلى الصلح إذ فاتن أحدًا، وأوَّل عافٍ إذا أمكن العفو من الجانبين، وأن يزكِّي أوَّل الوقت، ولا يؤخِّر زكاة أو حجًّا أو غيره مِمَّا لزمه وهكذا.

(بلاغة) والكلام استعارة تمثيليَّة في أمر المتسابقين على الخيل على شيء يؤخذ، أو مجاز مرسل تعبير بالملزوم عن اللاَّزم يلزم من الأعمال

١-ذيل الأمالي ص٤٢. وهوإسماعيل بن القاسم بن عيلون القالي نسبة (قالى قلا) موضع بأعالي الفرات التي ولد بها سنة ٢٨٨هـ ، ثُمَّ رحل إلى العراق، ثُمَّ إلى المغرب سنة ٣٢٨ ، ودخل قرطبة فاستوطنها. تُوُفِّيَ بها سنة ٣٥٦هـ . له كتاب "النوادر" ويُسَمَّى "الأمالي"، وكتاب "البارع"، وهو من أوسع كتب اللغة. الزركلي: الأعلام، ج١، ص٣٢١.

الفوز بالجنَّة.

وقيل: سابقوا الموت بالعمل قبل مجيئه. ويقال: سابقوا إبليس وأعوانه عن أن يصدُّوكم عن الأعمال. وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ تعظيم للمغفرة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ﴾ السماوات السبع ﴿وَالأَرْضِ﴾ الأرضين السبع مُتَّصلات مبسوطات كرقَّة الورقة، ولو أنَّ الجنَّة مسحت بماء البحور كلِّها لم تعمها، وإذا كان العرض كذلك فكيف الطول؟. أو ذلك تمثيل بما يعرف الناس. أو العرض البسطة والوسعة، كقوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (سورة فصِّلت: ٥١) .

وقدَّم المغفرة لأنَّها سبب الجنَّة ومتقدِّمة في الوجود على دخول الجنَّة، ولأنَّها تخلية والجنَّة تحلية ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ إيمانا مستتبعاً للأعمال الصالحة وترك الإصرار.

(أصول الدين) والأطفال والمجانين قبل البلوغ يدخلونها بلا عمل، وكذا من مات قبل أن يلزمه عمل إن وحَّد، والتوحيد عمل، ومن لم يلق أحدا لبعده جدًّا، أو لكونه في جزيرة بحيث لا يجد من يخبره بالإسلام البتَّة، يعاقب على الإشراك فقط، لأنَّ في نفسه وذاته وسائر الدلائل الكونيَّة ما يدلُّ على وَحْدَانِيَّة الله تعالى، على أنَّ شكر المنعم واجب بالشرع، والشرعُ لم يصله، وهو مذهبنا. والآية والأحاديث تدلُّ أنَّ الجنَّة والنار موجودتان الآن، وهو الصحيح.

﴿ذَلِكَ﴾ الموعود من المغفرة والجنَّة ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ عطاؤه غير الواجب، ولا واجب عليه تعالى ﴿يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ أن يؤتيه إيَّاهُ ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ في الجملة وعمومًا، فلا يبعد عنه التفضُّل بالمغفرة والجنَّة للتائب، وهذا تذييل لما قبله.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٢٤ ﴾

نزول المصائب بالقضاء والقدر والتحذير من الاختيال والجزع

﴿مَآ أَصَابَ﴾ إنسيًّا أو جنــيًّا أو حيوانا **﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾** فاعل «أَصَابَ»، و«مِنْ» صلة.

(لغة) وأصل المصيبة في اللغة أن تكون في الخير والشرِّ، ثمَّ خصَّ في اللغة أيضًا بالشرِّ، وهو عرف لها ولغيرها. وأصاب يستعمل فيهما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنَ اَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ﴾ (سورة النساء: ٧٣) . وما قيل من أنَّ مصيبة للشرِّ لأنَّه مأخوذ من: أصاب السهمُ الرميةَ. وأصاب إذا كان في الخير يعتبر بالصَّوْب، أي: المطر لا عبرة به، بل الإصابة بمعنى ملاقاة الشيء أصل مطلقًا.

وقد قيل: المصيبة هنا تعمُّ الخير والشرَّ، ويدلُّ له قوله: ﴿ لِكَيْلاَ تَاسَوْا﴾ وقوله: ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا﴾، وذكر الفعل لأنَّ الفاعل ظاهر مجازيُّ التأنيث، والأصل فيه التأنيث كما هو ظاهر، وكما نصَّ عليه السعد، وللفصل.

﴿فِي الاَرْضِ﴾ كقحط وعاهة زرع وثمار وعدم الثمار وقلَّتها وزلزلة وغير ذلك، **﴿وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ﴾** كمرض وجرح وكسر وحزن، وقدَّر بعض: وما أتت من نعمة، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَاكُمْ﴾، فيكون ذلك من باب الاكتفاء، كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (سورة النحل: ٨١) ، أي: والبرد.

﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ مثبَتة، وهو كون عامٌّ، كتابة أو مكتوبة، وهو كون خاصٌّ. والكتاب هو اللّوح المحفوظ، أو علم الله تعالى، فيقدَّر: ثابتة، لا مثبتة ولا مكتوبة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ من قبل أنْ نخلق المصيبة، والضمير لها، لأنّ الكلام عليها بالذات، وذكر الأرض والأنفس بالتبع لها لبيان المحلّ، وعن ابن عبَّاس: الضمير لـ«أَنفُسِكُم»، وقيل: لـ«الاَرْضِ»، وقيل: للارض والأنفس والمصيبة، وقيل: عائد للمخلوقات وإن لم يجر لها ذكْرٌ، وهو بعيد في التفسير، ولو كان المعنى يجوِّز ذلك.

(نحو) و«فِي الاَرْضِ» متعلّقٌ بمحذوف مرفوعٌ نعتٌ لـ«مُصِيبَةٍ»، تبعًا للمحلّ، أو مجرور تبعًا للّفظ، أو متعلّق بـ«أَصَابَ» أو بـ«مُصِيبَةٍ».

وذكر الأرض والأنفس لأنّهما المشاهدان عندنا، ولأنّ أهل السماوات لا مصيبة لهم سوى الموت، أو ما شذّ، كعتاب مَلَك أو إسقاطه عن رتبته. ولم يطلق الحوادث لأنّها لا تتناهى. واللوح المحفوظ متناه لا يسعها. وإذا فسَّرنا الكتاب بعلم الله تعالى فالتقييد بالأرض والأنفس لمشاهدتهما، ولقلّة المصيبة في أهل السماء، وعلمه تعالى محيط بما لا يتناهى.

﴿إِنَّ ذَالِكَ﴾ الإثبات لها في الكتاب المحفوظ، أو ثبوتها في علم الله تعالى ﴿عَلَى اللهِ﴾ لا على غيره، قدّم للحصر وللفاصلة ﴿يَسِيرٌ﴾ لأنّ أفعاله بلا علاج ولا آلة في الإثبات في اللوح المحفوظ. وإذا فسَّرنا الكتاب بعلم الله فمعنى يُسْرِ ذلك أنّ ثبوته ذاتيٌّ لا فعل له ولا حدوث.

(أصول الدين) وذكر هشام بن الحكم[1]: أنّه تعالى لا يعلم الشيء

١- هشام بن الحكم الشيباني، بالولاء الكوفيّ، أبو محمّد شيخ الإماميّة في عصره نشأ بواسط، وسكن =

حتَّى يخلقه، وذلك في المعنى شرك، لأنَّه وصف الله بالجهل تعالى عنه علوًّا كبيرًا. قال رسول الله ﷺ : «سيفتح على أمَّتي باب من القدر آخر الزمان لا يسدُّه شيء يكفيكم منه أن تلقوه بهذه الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ...﴾»(١).

وروي أنَّ رجلين دخلا على عائشة رضي الله عنها فقالا: إنَّ أبا هريرة يحدِّث أنَّ النبيء ﷺ كان يقول: «إنَّما الطيرة في المرأة والدَّابة والدار»، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، ولكن كان رسول الله يقول: «كان أهل الجَاهِلِيَّة يقولون: إنَّما الطيرة في المرأة والدابَّة والدار»، وقَرَأَت الآية.

﴿لِّكَيْلاَ تَاسَوْاْ﴾ لكي لا تحزنوا، متعلِّق بمحذوف، أي: أخبرناكم بذلك لكيلا تاسوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعيم الدنيا ﴿وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَاكُمْ﴾ منها، لأنَّ من علم أنَّ الموجود من خير أو شرٍّ بقضاء وقدر لا يتخلَّفان **لا يعظم جزعه بفوت، ولا فرحه بإتيان، ومن علم أنَّ ما بيده ولو دام سيفقده بالموت أو أنَّه عارية لا يحزن بفوته، ومن علم أنَّ الله يرزقه لم يعظم عنده الفرح عند وجوده.**

وذكر الخير والفرح هنا مع أنَّ المتقدِّم الإصابة بالسوء فقط، لأنَّه لا قائل بالفرق بين الخير والشرِّ، ولو عند الكفَّار في أنَّهما من الله ﷻ ، فلا حاجة إلى تقدير بعض بعد قوله تعالى: ﴿وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ﴾: وما أتت من نعمة، ولا سيما إذا قيل: المصيبة تشمل النعمة، فأولى أن لا تقدير.

=

بغداد، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكيِّ. تُوُفِّيَ إثر نكبة البرامكة، وكان مستترا. له تآليف كثيرة، منها: كتاب الإمامة، وكتاب الردِّ على المعتزلة. الزركلي: الأعلام، ج٨، ص٨٥.

١-أورده **السيوطي** في الدر، ج٦، ص١٩٦، وقال: أخرجه الديلمي من حديث سليم بن جابر النجيمي.

وأسند «فَاتَ» إلى ضمير «مَا»، لأنَّ الفوت والعدم ذاتيٌّ للمخلوقات، فلو لم يبقها الله تعالى لفنيت وعدمت، بخلاف بقائها فغير ذاتيٍّ، بل بإبقاء موجدها تعالى، فأسند الإيتاء إلى الله ﷻ، ولم يقل: بما أتاكم (بهمزة بلا مدٍّ)، كما قرأ أبو عمرو بن العلاء، فيكون الإسناد في الموضعين إلى ضمير «مَا». و«لاَ» في الموضعين نافية.

[قلت:] والمراد: الزجر عن حزنٍ يُؤَدِّي إلى عدم الرضا بقضاء الله تعالى، أو حزنٍ غالبٍ مُفَوِّت للعبادة، أو موصلٍ إلى الشكوى، اللهمَّ إلاَّ لأخ أو لضرورة؛ والزجرُ عن فرحٍ بَطِر، وَإِلْهَاءٍ عن الطاعة، وأمَّا الحزن الطبعيُّ وما لا يخلو عنه إنسان فلا بأس، وكذا الفرح.

والمسلم يشكر على النعمة، ويصبر على المصيبة فيثاب، وقد يفرح بالمصيبة، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في الآية: «لا أحد إلاَّ يفرح ويحزن، لكن من أصابته مصيبة فليجعلها صبرًا، ومن أصابه خير فليجعله شكرًا». وعن جعفر بن محمَّد الصادق من آل البيت: «يا ابن آدم ما لك تأسف على مفقود لا يردُّه إليك الفوت؟ وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت؟»».

﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ هذه كُلِّـيَّة عَامَّة السلب، ولو تقدَّم السلب على «كُلَّ»، كما كثر في القرآن، والغالب في مثل ذلك سلب العموم. والمعنى هنا: لا يحبُّ هذا ولا هذا، وهكذا حتَّى يفرغوا. وهذا تذييل لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَاكُمْ﴾ مشيرا إلى أنَّ الفرح المذموم هو المؤدِّي إلى الاختيال والفخر.

(لغة) والفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن ذات الإنسان، كالمال والجاه. والاختيال: التكبُّر لفضيلة في ذاته، وقيل: الاختيال في الفعل والفخر فيه وفي غيره.

(أصول الدين) وحبُّ الله الشيء هو لازم الحبِّ، وهو النفع بالإثابة. وبغضُه الانتقامُ اللازم للبغض، وغيرنا من أوائلهم يثبتون الحبَّ والبغض لله تعالى بلا تأويل، ويقولون: بلا كيف.

﴿الذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بدل من «كُلّ»، أو من «مُختَالٍ فَخُورٍ» لا نعت لأحدهما، لأنَّهما نكرتان و«الذِينَ» معرفة، أو يقدَّر: همُ الذين، أو الذين يبخلون لا ينفقون، والله غنيٌّ عن الإنفاق، أو منصوب على الذمِّ والتحذير.

﴿وَيَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يقولون بلسان القال: لا تنفقوا فتبقوا أنتم وأولادكم فقراء، أو لا تنفقوا على الأجانب، ويقولون: ﴿لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾ (سورة المنافقون: ٧) ، والمختال بالمال يبخل به غالبًا بالبخل[1]، كأنَّه ناصح لمأموره. أو يقولون بلسان الحال، إذ حالهم البخل فيتبعهم غيرهم فيه، فهم قدوة فيه، كأنَّهم يأمرون به. والمراد بالبخل الإمساك عن الإنفاق لا البخل بالطبع، لأنَّه لا يؤمر به إذ ليس بكسب.

والآية متعلِّقة بما قبلها كما رأيت، وقيل: مستأنفة في صفة اليهود الذين كتموا صفة رسول الله ﷺ وبخلوا ببيانها.

﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإنفاق، الجواب محذوف، أي: لم يضرَّه تولِّيه، أو فهو مستغنٍ عنه، نابت عنه علَّته في قوله ﷻ : ﴿فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: لأنَّ الله هو الغنيُّ عن إنفاقهم، أو عن إنفاق كلِّ أحد وعن كلِّ شيء، فيدخل إنفاقهم أوَّلاً وبالذات، ولا يقدَّر: فهو مذموم، أو فهو معذَّب، لأنَّ ذمَّهم وتعذيبهم لا يعلَّلان بغنى الله وحمده.

١- كذا في النسخ. تأمَّل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

الغاية من بعث الرسل

-١-

دستور المجتمع الإسلامي ونظام الحكم

﴿لَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ كآدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ﴿بِالْبَـيِّـنَاتِ﴾ الحجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب الشامل للكتب، ومن لم يترل عليه فقد أُنزل على رسول قبله، وأُمر باتِّباعه والجري عليه، واتِّباع الكتاب مصاحبة له، فالكتاب مصاحب لمن أنزل عليه ولمن اتَّبعه.

ويجوز أن يراد بالرسل هنا الرسل الذين أنزل عليهم الكتب لا مطلق الرسل، بل يترجَّح هذا. وعلى كلِّ حال يتعلَّق «مَعَ» بـ«أَنزَلْنَا» بمعنى أثبتنا، أو بمحذوف حال من «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»، بقي أنَّ الكتاب ليس متَّصفًا بالمعيَّة حال الإنزال بل بعده، فنقول: الحال مقدَّرة، أو يترِّل شدَّة القرب مترلة المقارنة.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ ومعنى إنزاله الأمر بضبطه والعمل به، وهو شامل للمكيال، أو يقدَّر بالعطف، أي: والميزان والمكيال، وهما مفْعَال للآلة، وياء «ميزان» عن واو. ﴿لِيَقُومَ﴾ متعلِّق بـ«أنزل» ﴿النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل في أمورهم الدِّينيَّة وَالدُّنيَويَّة.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أثبتناه في اللوح المحفوظ، وإثبات الشيء في اللوح ملزوم لإنزاله وسبب له، فذلك تعبير باللازم والمسبَّب عن الملزوم والسبب. وفسَّره

الحسن بخلقناه، تفسيرا باللازم والمسبَّب، وأنت خبير بأنّ اللزوم بيانيٌّ، وقال قطرب[١]: **أنعمنا به عليكم من نُزْلِ الضيف.**

﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ عذاب **﴿شَدِيدٌ﴾** لأنّ آلات الحرب تتَّخذ منه والكتاب والميزان يقومان بالسيف وهو من الحديد، وكذا السِّهام وسنان الرمح، وشيم النفوس السفه والظلم فتقهر بالسيف ونحوه، والقيام بالقسط يحتاج إلى السيف.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ مصالحهم ولا صنعة إلاّ بالحديد، أو ما يعمل بالحديد، وقيل: الرسل الملائكة أنزلوا بالوحي والمعجزات، وإنّ جبريل نزل بالميزان على نوح عليه السلام، وقال: مر قومك يزنوا به. وقيل: الميزان العدل. وعن ابن عبَّاس: نزل على آدم الميقعة والسندان والكلبتان، وقيل: الأربعة والمطرقة. وعن ابن عمر عنه ﷺ : «**إنّ الله عز وجل أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح**».

وقيل: «أَنزَلْنَا»: أنشأنا مثل إخراج الحديد من المعادن، وشملت الآية الفأس والسلاح، وقيل: المسحاة والسندان والكلبتان والإبرة والمطرقة والميقعة، وهي المسنُّ، وقيل: ما تحدَّد به الرحا[٢]، وعن ابن عبَّاس: نزل آدم بآلة الصنائع.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ عطف على محذوف، والمحذوف متعلّق بـ«أنزل»، أي: أنزلنا الحديد لينفع الناس وليعلم الله. وجملة «فيه بَأْسٌ...» معترضة أو حال، أو يقدَّر: وأنزله ليعلم الله، أو يقدَّر مؤخرًا، أي: وليعلم الله من ينصره ورسله أنزله، ويجوز تقدير: أنزلناه، وتقدير: أنزله الله.

وعلم الله أزليٌّ، والمراد بالعلم هنا مسبَّبه ولازمه وهو الجزاء.

١- محمَّد بن المستنير، تَقَدَّمَ التعريف به في ج٨، ص٣٣٨.

٢- الآية عَامَّة وما ذكر أمثلةٌ للعموم في قوله تعالى: {فِيهِ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ}.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المستتر في «يَنصُرُ» أو من الهاء في «يَنصُرُهُ»، أو من «رُسُلَهُ»، والمعنى: غائبًا عنهم لا يرونه، أو الرسل غائبون عن الناصر. والنصر يكون باستعمال آلات الحديد بالقتال، وغيبة الرسل أن لا يدرك الناصرُ رسولاً، أو يدركه ولا يلتقي معه.

﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يحتاج إلى نصر ناصر، وإنَّما أمرهم بالقتال تكليفًا لهم ليجازيهم بالخير على الامتثال، وبالعقاب على المخالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

-٢-

وحدة الشرائع في أصولها وجزاء المؤمنين بها قولا وعملا

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بعض تفصيل لقوله عَجَّلَ : ﴿لَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾. وكرَّر القسم للتأكيد، أي: وبالله لقد أرسلنا، والباء القسميَّة تكون في

غير الاستعطاف كما هنا، وتكون في الاستعطاف نحو: بك لأتوبَنَّ، وسائر حروف القسم تكون في غيره، ويجوز تقدير الواو هنا، ولو تجتمع واوان، لأنَّ في اللفظ واوا واحدة هي واو العطف، ولا يخفى أنَّ الباء أولى، للسلامة من اجتماع الواوين.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ﴾ جعنا النبوءة، وأكثر الأنبياء في ذرِّيَّة إبراهيم لكنَّه ابن نوح، فهم راجعون إلى نوح، ﴿وَالْكِتَابَ﴾ كصحف إبراهيم وموسى والتوراة والإنجيل والزبور، وقد قيل غير ذلك أيضًا. وعن ابن عباس: الكتاب الخطُّ بالقلم.

﴿فَمِنْهُم﴾ من الذرِّيَّة، وقيل: من الأمم المدلول عليها بذكر الرسل والإرسال ﴿مُهْتَدٍ﴾ إلى التوحيد وحكم الشرع ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لم يقل: ضالون كماً هو المطابق لـ«مُهتَد»، لأنَّ المقام لذمِّهم. وذَمُّهُم بالفسق ــ وهو الخروج عن الدين بالإشراك والكبائر بعد التمكُّن منه ــ أعظم من ذمِّهم على الضلال عن الطريق، وللإشعار بغلبة أهل الضلال على غيرهم، فهم أكثر من الفاسقين بالمعنى الذي هو أقبح من الضلال، وفي قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ دلالة على قبح، فهؤلاء ثلاثة: مهتدٍ ومبالغ في الكفر وكافر.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أرسنا بعدهم،كجعل الشيء خلف قفا غيره. والهاء لنوح وإبراهيم وقومهما، وقيل: لمن عاصرهما من الرسل، ويبحث بأنـا لا نعرف رسولاً على عهد نوح عليه السلام لو كان على عهده رسول، فإمَّا أن يرسل إلى قوم نوح كهارون مع موسى، أو إلى غيرهم كلوطٍ مع إبراهيم، وشعيبٍ مع موسى، إلاَّ أنَّ شعيبًا سبق موسى في النبوءة.

ولا يخفى أنَّه لم يرسل أحدًا مع نوح، وأنَّه لا قوم على عهد نوح غير قومه، وأجيب بما يذكر في الأخبار أنَّ نوحًا لم يرسل إلى غير قومه المخصوصين، وأنَّ

الغرق لم يعمَّ الأرض، وأنَّ الكافرين الذين دعا عليهم هم قومه المخصوصون، ولكن ليس هذا مشهورا مصحَّحًا، وأيضًا يحتاج إلى حجَّة في إثبات رسول أو رسل معه، وأجيب أيضًا بأنَّ ذلك توجيه لضمير الجمع، وكون لوط مع إبراهيم مثلا كاف فيه.

وقيل: الهاء للذرِّيَّة، ويبحث بأنَّ الرسل المقفَّى بهم من الذرِّيَّة، فلو عاد الضمير عليهم لزم أنَّهم غيرهم أو اتِّحاد المقفِّي والمقفَّى به، وأجيب بأنَّ المراد بالذرِّيَّة أوائلهم، فلا يلزم أنَّهم غيرهم، ولا الاتِّحاد المذكور، ورُدَّ بأنَّ هذا خلاف الظاهر بلا دليل يدلُّ عليه.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى اَبْنِ مَرْيَمَ﴾ على آثار هؤلاء الرسل رسول ثمَّ رسول إلى عيسى عليهم السلام ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الاِنجِيلَ﴾ بإيحائه إليه مرَّة واحدة على لسان جبريل، كتبه إسرافيل لجبريل من اللوح المحفوظ بإذن الله، وحرَّفه النصارى بالنقص والزيادة والتبديل. وممَّا زادوه وافتروه قصَّة صلبه، كما هو موجود.

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذِينَ اَتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ رحمة شديدة ﴿وَرَحْمَةً﴾ مطلقة، كما قال الله ﷻ في شأن الصحابة: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الفتح: ٢٩) ، فيكون ذلك ذكرًا للخاصِّ قبل العامِّ، وحكمته شدَّة الاعتناء بالمدح والتعظيم، وكذلك إذا فسِّرت برحمة مشتملة على دفع الشرِّ وإصلاح الفساد، وفسِّرت الرحمة بما فيه جلب الخير مطلقًا يكون ذكرًا للخاصِّ قبل العامِّ، وهذا راجع إلى أنَّ الرأفة الرحمة الشديدة.

وعبارة بعض: إنَّ الرأفة إذا ذكِّرت مع الرحمة فإنَّها ما فيه دفع الشرِّ وإصلاح الفساد، والرحمة جلب الخير فتقدَّم الرأفة على الرحمة لأنَّها تخلية وهي قبل التحلية، ودفع المفاسد أهمُّ من جلب المصالح.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ نسب إلى رَهبان (بفتح رائها) ورهبان مفرد بوزن عطشان، من الرهبة، وهو وصف، والرهبة: الخوف الشديد، أو هي المبالغة في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس.

(أصول الدين) وذلك خلق من الله ﷻ، ولهم فيها اختيار ـــ كما سمعت ـــ وكما يخلق الله الأفعال الطبعيَّة يخلق الاختياريَّة، ولا خالق سِواه.

والعطف على «رَأْفَةً». ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ نعت «رَهْبَانِيَّةً» على حذف مضاف، أي: وحبَّ رهبانيَّة مبتدعة، أو بلا تقدير مضاف لأنَّ مبدأ فعلها من القلب، فهي في القلب بجعل الله تعالى، وهم ابتدعوا آثارها وأعمالها، وحذف المضاف كما رأيت.

أو «ها» عائد إلى الرهبانيَّة بمعنى آخر، هو تلك الأفعال من رفض الدنيا، وترك اللذّات، وترك اللباس اللّين، وترك التزوُّج، ومن سائر ما يشقُّ، بطريق الاستخدام. أو «رَهْبَانِيَّةً» منصوب على الاشتغال، لجواز أن يرفع على الابتداء في العَرَبِيَّة، لوجود المسوِّغ للابتداء بالنكرة، وهو التعظيم، فإنَّ التنوين والتنكير فيه للتعظيم، كقولهم: «شر أهر ذا ناب»[1]، ولأنَّ النسب كالوصف، تقول: قريشيٌّ جاء، كأنَّك قلت: جاء رجل من قريش جاء، وكأنَّه قيل: خصلة منسوبة إلى رهبان.

وقال بعض: إنَّه يجوز النصب على الاشتغال ولو لِمَا لا يصلح الابتداء به، كما أجاز بعضهم جعل اسم كان أو إنَّ أو المفعول الأوَّل من باب ظنَّ، أو الثاني من باب أعلم، ممَّا لا يصلح للابتداء لعدم المسوِّغ، والمشهور غير ذلك. وقيل: انقطع الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

١-مثل يضرب لشرٍّ بدأت دلائله تظهر، أي الذي جعل ذا الناب (الكلب) ينبح، ويهر صوت شر سمعه.

﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ ما فرضناها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الجملة نعت ثانٍ أو حال من مفعول ابتدع، أو مستأنفة ﴿إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ أي: رضاه، والاستثناء منقطع، أي: فرضوها على أنفسهم و لم نفرضها عليهم، ويجوز أن يكون متَّصلا، أي: ما وفّقناهم إليها وقضينا بها لشيء مَّا من الأشياء إلاَّ ليبتغوا بها رضوان الله.

فمعنى نفي الكتابة نفي تيسيرها لهم بعدما طلبوها، فلا منافاة بين ابتداعهم ونفي الكتابة، وإن قلنا: أمرهم الله بها بعد ابتداعهم لم تحصل منافاة أيضًا، وكذا إن قلنا معنى «ابْتَدَعُوهَا» أنَّهم أوَّل من فعلها بعد الأمر بها.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ما أعطوها ما تستحقُّ من المحافظة، كمن أنذر أمرًا عظيمًا و لم يف به لله ﷻ، قال رسول الله ﷺ: **«لا تشدِّدُوا على أنفسكم فيُشدَّدُ عليكم، فإنَّ قومًا شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانيَّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم»**[1].

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ معنى «مَا كَتَبْنَاهَا» ما فرضناها عليهم رأسًا ولكن ألزموها أنفسهم، فلا منافاة بين «ابْتَدَعُوهَا» و«مَا كَتَبْنَاهَا» حيث إنَّ «ابْتَدَعُوهَا» يقتضي أنَّهم لم يؤمروا، و«مَا كَتَبْنَاهَا» يقتضي أنَّهم أمروا بها لابتغاء رضوان الله، يبقى أنَّ مبتغي الرضوان هم المبتدعون لها، والكاتب الله، فيختلف فاعل المفعول من أجله وفاعل عامله، فقيل بالجواز، والمشهور المنع.

وعليه فنقول: الابتغاء على هذا الوجه فعلُ الله، أي: ابتغى الله لهم الرِّضوان في أمره بها، والذين لم يراعوها هم المبتدعون لها، والمراد: ما رعوها كلُّهم، بل بعضهم رعاها وبعض لم يراعها، فهم قسمان كما قال الله ﷻ:

١-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب (٥٢) باب في الحسد، رقم٤٩٠٤، من حديث أنس بن مالك.

﴿فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ مِنهُم, أَجْرَهُمْ﴾ آمنوا حقَّ الإيمان وراعَوْها، أو اقتصروا على بعضها، أو على الواجب ولم يفسقوا **﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** ارتدُّوا، أو فعلوا الكبائر، وأكلوا الخنزير، وشربوا الخمر، وتركوا الوضوء وغسل الجنابة والختان، وكلٌّ ذلك قبل رسول الله ﷺ .

ويجوز أن يراد بالذين ابتدعوها مبتدعوها أوَّلاً، ومن اتَّبَعَهم عليها إلى عهد رسول الله ﷺ ، ومن اتَّبَعَ بدعة مَن قبْلَهُ صحَّ أنَّه ابتدعها، ﴿فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأخلصوا قبله ﷺ ، أو على عهده فآمنوا به وتركوها، فيكون الإسناد إلى المجموع، كقولك: أكرَمَ بنو تميم فلانًا، وإنَّما أكرمه بعضهم.

وقال الضحَّاك: الذين لم يراعوها الأخلاف، وهو خلاف الظاهر، فإمَّا أن يكون استخداما بأن ردَّ الضمير للذين ابتدعوها ويراد به الأخلاف، وإمَّا أن يكون الحكم على المجموع، والمراد الأخلاف ومن آمن به ﷺ على عهده ودام عليها بعد نهيه ﷺ عنها فهو كافر، ومن لم يؤمن به فكافر لم يراعها، كما فسَّر الزجَّاج وغيره الكثير الفاسقين بمن أدركه ولم يؤمن به. والظاهر أنَّ المقصود هنا ليس الإيمان به ﷺ .

ومن عدم مراعاتهم قولُهم بالتثليث والصليب، وتحريف التواراة والإنجيل، والقول بالإلحاد والسفه والرشوة، وغير ذلك.

قال رسول الله ﷺ : «**فرقة قاتلت الملوك على دين الله ﷻ وهو دين عيسى** عليه السلام ، **وفرقة لم يقدروا على القتال، فأمروا ونهوا فقتلتهم الملوك، وفرقة لم تقدر على ذلك فابتدعوا رهبانيَّة وساحوا في الجبال، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً...﴾. ﴿فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ مِنهُم, أَجْرَهُمْ﴾: الذين**

آمنوا بي وصدَّقوني، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾: الذين كفروا بي»[1]. وهذا يقوِّي قول الزجَّاج المتقدِّم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عنه ﷺ : **«إنَّ لكلِّ أمَّةٍ رهبانيَّة ورهبانيَّة أمَّتي الجهاد في سبيل الله»**[2] وكذا روي عن أنس.

[قلت:] والبدعة منها واجبة وهي كتعلم علم الكلام للردِّ على المشركين وأهل البدع، ومندوب إليها كتأليف العلم وبناء المدارس، ومباحة كالتبسُّط في أنواع الأكل واللباس، ومكروهة ومحرَّمة، فحديث **«كلُّ بدعة ضلالة»**[3] عامٌّ مخصوص.

وقد قال عمر رضي الله عنه في كَيفيَّة صلاة التراويح: «نعمت البدعة». وعن ابن مسعود عنه ﷺ : **«افترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، نجا منها ثلاثٌ: فرقة قاتلت الملوك على دين عيسى ولم يحرِّفوه، فقتلهم الملوك، وفرقة خافوا ولا طاقة لهم فهربوا وترَّهبوا، ولم يحرِّفوا، وطائفة أدركوني وآمنوا بي»**[4]. وعنه ﷺ : **«ظهرت الجبابرة بعد عيسى عليه السلام ، فهزموا أهل الإيمان في ثلاث حروب، فتفرَّق الباقون ـــ وهم قليل ـــ في الغيران**

١- أورده **ابن كثير** في تفسير الآية بلفظ: «هل علمت أنَّ بني إسرائيل...». ج٦، ص٥٦٨. من حديث ابن مسعود.

٢- أورده **ابن كثير** في تفسير الآية وقال: رواه أبو يعلى عن عبد الله بن المبارك. ج٦، ص٥٦٩.

٣- رواه **مسلم** في كتاب الجمعة (١٣) باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم٨٦٧ من حديث جابر بن عبد الله، بلفظ: «أمَّا بعد فإنَّ خير الحديث كتاب الله...». ورواه **ابن ماجه** في المقَدِّمَة، باب اجتناب البدع والجدل، رقم٤٥، من حديث جابر.

٤- قال القرطبي: رواه الكوفيُّون عن ابن مسعود. (القرطبي: ٢٦٥/١٧). ورواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وقال: رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق آخر. (ابن كثير، ٣١٦/٤).

والجبال ينتظرون النبيء الذي وعدهم به عيسى، فمنهم من فسق، ومنهم من آمن بي حين أدركني»[1].

وعن ابن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ : «إنّ ملكًا جمع من بقي على دين عيسى، وقال: إمَّا أن تتَّبعونا على ما حرَّفنا أو نقتلكم، فقالت طائفة: ابنوا لنا محلاًّ ترفعون إلينا فيه قوتنا ولا نخالطكم، وقالت طائفة : أسكنونا في الفيافي نحفر الأبيار ونحرث، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض، وجاء مَن بعدهم جاهلين فاتَّبعوهم في ذلك الاعتزال وخالفوا دنيهم».

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ﴾ من أمَّة محمَّد ﷺ بالله ورسوله، وما أنزل عليه ﴿اتَّقُواْ اللهَ﴾ احذروا المعاصي أو دوموا على ما أنتم عليه من تركها ﴿وَءامِنُواْ بِرَسُولِهِ﴾ محمَّد ﷺ، أي: دوموا على الإيمان به.

﴿يُوتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ نصيبَيْن، وقيل: ضعْفين، وقيل: الكفل الحظُّ الذي فيه الكفاية، كالمتكفِّل لصاحبه بمقصوده، والقول بأنَّ كفلين بمعنى ضعفين لغة الحبشة خطأ. والمراد: أجرٌ على الإيمان بما آمنتم به من الكتب السابقة والأنبياء، وأجرٌ على الإيمان بالنبيء ﷺ وما أنزل عليه، والأجران في الآخرة. وقيل: هما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (سورة البقرة: ٢٠١) .

(سبب النزول) روي عن ابن عبَّاس أنَّه أتى أربعون رجلا من نصارى الحبشة مؤمنين، وشهدوا أحدا مع النبيء ﷺ ، فرأوْا احتياج المسلمين، فقالوا:

١-قال القرطبي: رواه الكوفيُّون عن ابن مسعود (القرطبي: ٢٦٥/١٧). ورواه بالمعنى ابن أبي حاتم. كما أورده ابن كثير في تفسيره، وقال: رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق آخر. (ابن كثير: ٣١٦/٤).

يا رسول الله إيذن لنا أن نأتي بأموالنا فنواسي المسلمين بها، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين ءاتيناهم الكتابَ... أُولَئِكَ يُوتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ (سورة القصص: ٥٢ ــ ٥٤) ، فقالوا: يا معشر المؤمنين، من آمن منَّا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ واحد كأجر أحدكُم، فنزل قوله تعالى: ﴿يَآ أَيـُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ...﴾ ردًّا عليهم، وجعل للمؤمنين أجرين، وزاد لهم النور، كما أنَّ لمن آمن به ﷺ من أهل الكتاب أجرين. وقولهم: من لم يؤمن بكتابكم فله أجر باطلٌ.

وقيل: لَمَّا نزلت الأولى افتخر بها من لم يؤمن من أهل الكتاب، فنزل خطابا لهم ردًّا عليهم قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ...﴾ أي: يا أَيـُّهَا الذين اتَّصَفوا بالإيمان اتَّقوا الله وآمنوا برسوله الذي كفرتم به ــ وهو محمَّد ﷺ ــ ﴿يُوتِكُم كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ كفلا على إيمانكم به، وكفلاً على إيمانكم برسلكم.

روي عن رسول الله ﷺ : «**من كانت له أمة علَّمها فأحسن تعليمها، وأدَّبها فأحسن تأديبها، وأعتقَها وتزوَّجها فله أجران. وأيُّما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيئه وآمن بي فله أجران. وأيُّما مملوك أدَّى حقَّ الله تعالى وحقَّ مواليه فله أجران**».

وإثابة من آمن من اليهود والنصارى على إيمانهم بما لَمْ يُنسخ من مللهم وبأنبيائهم، وبما نسخ، لأنَّه من الله تعالى، ولهم أجر على ذلك، وأجران بالإيمان به ﷺ .

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يوم القيامة، وهو في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ (سورة التحريم: ٨) ، **﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾** ذنوبكم **﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** عظيم الغفران والرحمة، فلا بدع في إيتائه الكفلين، وإثبات النور والمغفرة لهم.

﴿لِّــيَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ﴾ متعلّق بمحذوف، أي: فعل ذلك لئلاّ يعلم أهل الكتاب، أو أنزل ذلك لئلاّ يعلم...إلخ، أو أعلم الناس بذلك لئلاّ يعلم. وادَّعى بعض أنّه متعلّق بـــ«يُوتِ» أو بـــ«يَجْعَلْ» أو بـــ«يَغْفِرْ» ويقدِّر للآخرين، وأنّه يجوز التنازع، فيضمر للمهمل ضمير المصدر. و«لاَ» نافية، أي: لينتفي علمهم بانتفاء قدرتهم على شيء من فضل الله تعالى. والحاصل: ليثبت علمهم بقدرتهم على أن ينالوا فضل الله بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

وواو «يَقْدِرُونَ» لأهل الكتاب، ويجوز أن يكون للنبيء ﷺ والمؤمنين، أي: لئلاّ يعتقد أهل الكتاب أنّ محمَّدًا والمؤمنين لا ينالون شيئًا من فضل الله تعالى، وقدْ نالوا سعادةَ الدارين، أو أنّ النبيء والمؤمنين لا يقدرون...إلخ، على أنّ علمهم بعدم قدرتهم على نيل الفضل كناية عن علمهم بقدرتهم على نيل الفضل، وعلى هذا يكون «أَنَّ الفَضْلَ» معطوفًا على «أَلاَّ يَعْلَمَ» داخلا معه في التعليل.

وشهر أنّ «لاَ» زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿مَامَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ (سورة الأعراف: ١٢) ، ومرَّ كلام فيه، وذلك لظهور المراد. ويدلُّ للزيادة أيضًا قراءة ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «كَيْ يَعْلَمَ» وقراءة سعيد بن جبير: «لِكَيْ يَعْلَمَ».

و«أَنْ» مخفَّفة، واسم «أَنْ» ضمير أهل الكتاب، أي: أنّهم لا يقدرون، أو ضمير الشأن، أي: أنّه، والمعنى على الزيادة: **ليعلم أهل الكتاب بأنّهم لا ينالون شيئًا من فضل الله تعالى ما لم يؤمنوا بمحمَّد ﷺ ، ويتَّبعوا شريعته.**

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ عطف على «أَلاَّ يَقْدِرُونَ» **﴿يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾** إيتاءه، خبر ثان، أو مستأنف، ويجوز أن يكون خبرًا و«بِيَدِ اللهِ» حالاً، لأنّ الفضل حدث، ولأنّه مقيَّد بتأكيد «أَنَّ». وبعض أجاز الحال من المبتدأ مطلقا، مع أنّ الحال لا يكون قيدًا للعامل الذي هو الابتداء.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ لا يعجزه إجزالُ العَطِيَّة. قالت اليهود: يوشك أن يبعث نبيء يقطع الأيدي والأرجل، فلمَّا خرج من العرب كفَرُوا به إذْ تفضَّل به على العرب، وكذا عمل اليهود إلى نصف النهار وقد استأجرهم إلى الليل وعجزوا، وأُعْطوا قيراطًا والنصارى من نصف النهار إلى العصر وعجزوا، وأُعطُواْ قيراطًا، وعملت هذه الأُمَّة من العصر إلى الغروب وأعطوا قيراطين، وتركوا قراريطهم وقالوا: نحن أكثر عملاً، وهذه الأمَّة أقلُّ عملاً، فقال الله ﷻ : «هل أنقصتكم أجرتكم؟ ذلك فضلي أوتيه من أشاء، ولو شئتم لأتممتم العمل فيكون لكم قيراطان». وفي رواية: «استأجر اليهود من أوَّل مَرَّة إلى نصف النهار». وذلك تمثيلٌ، والروايتان في البخاري.

اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّد وصحبه
وأجزل عطيَّتنا
آمين

تفسير سورة المجادلة وآياتها ٢٢

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي
تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ
الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ② وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④ ﴾

النهيُ عن الظهار، وكفارتُه

﴿قَدْ﴾ لتوقُّع المخاطَب، لأنَّ النبيء ﷺ وخولة وزوجها أوس الأنصاريَّين يتوقَّعون الجواب، أو القبول من الله، والمعنى أنَّ «قَدْ» استعملت في كلام ينتظره أحد، كقول المقيم للصلاة: «قد قامت الصلاة»، فإنَّ الناس الحاضرين ينتظرونها، كذلك النبيء والزوجان ينتظرون نزول الوحي بالجواب أو القبول.

والسمع المتوقَّع هو جواب الله ﷻ، أو قبول شكواها، على التجوُّز الإرساليِّ، لأنَّ السمع سبب للجواب أو القبول، وملزوم، أو السمع كناية عن الجواب أو القبول. ويجوز أن تكون «قَدْ» للتحقيق.

﴿سَمِعَ اللهُ﴾ أجاب أو قبل، وإلاَّ فسَمْعُه تعالى عِلمُه بالأصوات التي تأتي بعد الأزل ﴿قَوْلَ اَلتِي تُجَادِلُكَ﴾ هي خولة بنت ثعلبة بن مالك على الصحيح وعليه الأكثر، أو خولة بنت خويلد، أو خولة بنت حكيم، أو خولة بنت

الصامت، أو خويلة بنت الصامت (بالتصغير)، وقيل: خويلة بنت مالك بن ثعلبة (بالتصغير)، وقيل: جميلة وقيل وقيل... وكانت حسنة الجسم.

(لغة) والمجادلة: المراجعة في الكلام، كما قرئ: «تُحَاوِرُكَ»، وقرئ: «تُسَائِلُكَ»، وأصله معالجة الصرع على الجدالة، وهي الأرض، وكما قال: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

﴿فِي زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت على الصحيح، أو مسلمة بن صخر الأنصاري، والمراد: في شأن زوجها.

(نحو) ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ عطف على «تُجَادِلُكَ». ومن العجيب جعل الواو للحال داخلة على مضارع مثبت مُجَرَّد من «قد» على القلّة، أو داخلة على مبتدأ محذوف، أي: وهي تشتكي، بلا دليل على ذلك وبلا داع.

(لغة) والاشتكاء: إظهار ما فيها من غمٍّ لله ﷻ، أي: النطق به، أو التضرُّع في قلبها إليه تعالى، والله لا يخفى عليه شيء. ومن العجائب جعل الشكوى من الشَّكْوِ بمعنى فتح الشكوة وإظهار ما فيها، وهي سقاء صغير، بل كلمةٌ وضعت لمعان.

(سيرة) وذلك أنَّ خولة دخل عليها أوس فراجعته في كلام، وكان كبير السنِّ قد ساء خلقُه فغضب، وقيل: كان به لَمَمٌ، أي: خفّة عقل، وقيل: رغبة في النساء، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، وقيل: رآها تصلّي ولَمَّا سلّمت راودها فأبت، فقال: ذلك، وهو كلام مُحَرِّمٌ للمرأة في الجَاهلِيَّة، وهذا أوَّلُ ظهار في الإسلام.

فندم ودعاها فأبت فقالت: والله لا تصل إليَّ إلاَّ بحكم رسول الله ﷺ،

فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنّ أوسًا تزوَّجني شابَّةً مرغوبًا فيَّ، ولَمَّا كبرت، وكثر ولدي، وفرغ ما في بطني، وأكل مالي، وأفنى شبابي، وكبر سنِّي، وتفرَّق أهلي، وطالت صحبتي له، وهو أحبُّ الناس إليَّ، وأبو ولدي جعلني كأمِّه، فهل تجد لنا مخرجًا ؟.

فقال: والله ما أُمِرت في شأنك بشيء إلَى الآن. وهذا ظاهر في أنّه ﷺ عَلِمَ بظهاره قبل مجيئها. ويروى :«والله ما أراك إلاّ حرمت عليه»، وقالت: ما ذكر طلاقًا، وراجعت كلامًا مرارًا، وقالت: «اللَّهمَّ أشكو إليك وحدتي، وفراقَهُ وفاقَتي، إن ضممت إليه صبية صغارًا ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا»، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: «اللهمَّ إنِّي أشكو إليك، اللَّهم أنزل على نبيئك»، وكلَّما قالت ذلك قال لها: «ما أراك إلاّ حرمت عليه»، فنزلت الآيات في حينها فقال ﷺ : «**يا خولة، أبشري!**» فقالت: خيرًا، فقرأهنَّ عليها.

وإذا دخلت على عمر أكرمها، وقال: «سمع الله قولها»، ولقيته يمشي مع رجال يومًا وقالت: قف يا عمر، فوقف وغلَّظت عليه، ودنا منها ووضع يده على كتفها، واستمع لها حتَّى قضت حاجتَها، فقيل له: وقفت لعجوز عن قريش، وقد أغلظت عليك؟ فقال: ويحك أتعرفُ من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف حتَّى أتى الليل ما انصرفت حتَّى تقضي حاجتها، وما لي لا أستمع لها وقد سمع الله تعالى لها !.

[قلت:] وإنَّما وضع يده على كتفها من فوق ثوبها بدون غمزها، ولأنَّها عجوز لا تُشتَهَى، ولأنَّه وضعها بلا اشتهاء منه ولا منها، كما غمز الصدِّيق عائشة في فخذها من فوق.

(أصول الدين) ﴿**وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ**﴾ الآن بسمعه الأزليِّ، لا

بعلم متجدِّد، وإلاَّ لزم جهل الله تعالى عنه. والسمع: العِلْم بالأصوات الواقعة الآن، فليس كما قال بعضهم: سمعه للأصوات صفة يدرك بها الأصوات غير صفة العلم، ولا يخفى أنَّ في وصفه بالإدراك وصفًا بتقدُّم الجهل بما أدرك حاشاه.

والمحاورة: المراجعة، وليس المضارع للتجدُّد كما قيل، بل لبيان أنَّ علمه الأزليَّ متعلِّق بهذه الواقعة الحاليَّة. والخطاب له ﷺ وللتي تجادله، تغليب له على الغيبة، وتشريف لها، إذ ضمَّها إليه ﷺ في الخطاب.

(نحو) والواو للحال من ضمير «تُجَادِلُ»، أو ضميرِ «تَشْتَكِي»، أو من لفظ الجلالة بعد «إِلَى»، أو من الكاف، أو للعطف على «تُجَادِلُكَ» فتحتاج إلى رابط يعود إلى الموصول إذ عطفت على الصلة، وهو حصَّتُها من كاف الخطاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ عليم بكلِّ صوت تسمعه الأذن، عليم بكلِّ شيء تدركه العين، من ذات وهيئة، كرفع رأسها إلى السماء، وهيئات تضرُّعها.

لَمَّا نزلت الآية قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسِعَ سَمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبيء ﷺ تكلِّمُه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول»، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾. وكرَّر لفظ الجلالة لتأكيد الحكم وتأكيد الزجر عمَّا يخالف مضمون الأُلوهيَّة.

وشرع في بيان حكم الظهار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ﴾ يتفعَّل، من الظهر، أصله: يتظهَّر، أبدلت التاء ظاء وأدغمت الظاء في الظاء.

(فقه) والتظهُّر: تشبيه الرجل زوجَه أو بعضها [في الحرمة] على نفسه، أو زَوْجَ عبدِه، أو بعضها على عبده بمن تحرم عليه، أو على عبده لنسب أو رضاع أو صهر، أو حرمة مَّا كنساء النبيء، أو نساء الرجال، وكالرجل

والدبر، والمطلَّقة التي لا تحلُّ له بعد طلاقها، ومزنيَّته، وزوج ربيبه في قول، فلو ظاهر بمطلَّقته ثلاثًا لم يكن ظهارًا، لأنَّها تحل له بعد نكاح زوج غيره، وإن نوى ما لم تَتَزَوَّجْ كان ظهارًا.

وإن ظاهر بنساء الرجال ونوى مَا دُمنَ نساءً لهم كان ظهارًا، وإن لم ينو لم يكن ظهارًا لحلِّهنَّ له بعد الفرقة. وإن ظاهر بمعتدَّة ونوى ما دامت في العِدَّة كان ظهارًا، وإلاَّ فلا ظهار.

(لغة) وأصل التظهُّر علاج ركوب الظهر، وزوج الرجل كمركوبه، وأصل قوله: «أنتِ عليَّ كظهر أمِّي» ظهرك عليَّ كظهر أمِّي، وذلك كما يقال في الطلاق نزل عن امرأته، وكأنَّه كان راكبًا عليها ونزل، كما تُركب الدَّابَّة ويُنزل عنها. وقيل: الأصل يتبطَّنون وعبَّر عنه بيتظهَّرون، والأصل إتيان المرأة من بطنها، ولكن عبَّر بيتظهَّرون لجوار الظهر للبطن، وكونه عمود للبطن.

وحكمته التلويح بأنَّ ذلك في الحرمة كحرمة الدبر، وكحرمة إتيان القبل من الدبر قبل أن يحلِّله الله ﷻ. ولا ظهار بكتابيَّة لحلِّ الكتابيَّة بنصِّ القرآن.

(لغة) وقيل: الظهار من الظهر بمعنى العلوِّ، أي: عُلوِّي عليك كعلُوِّي على أمِّي، فيكون لفظ الظهار شاملا للظهر وغيره.

وإنْ شبَّهَها بكتابية محارِبة كان ظهارًا، لأنَّ ابن عبَّاس قال: لا يحلُّ نكاح الكتابيَّة التي لا تعطي الجزية. وكذا يكون ظهارًا إن شبَّه عضوا من زوجه بمحرم.

﴿مِنكُم﴾ أيُّها المؤمنون، فلا يتصوَّر الظهار من المشرك، لأنَّه لا يتصوَّر أن يملك رقبة مؤمنة فيعتقها، وكذا لا يَصِحُّ منه الصوم لأنَّه عبادة بدنيَّة غير معقولة المعنى، ولا يقال بعد: غير مستطيع، لأنَّه يستطيع الإسلام، فيتصوَّران منه على

الترتيب، نعم يتصوَّر أن يقول لمملوكه: أسلم على قَصدي حريَّتك، تكفيرًا، أو يقول لمسلم: أعتق عنِّي.

(فقه) وقال الشَّافعيَّة بصحَّة الظهار من المشرك، وبأنَّ قوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ غير قيد، وإنَّما هو لأنَّه لم يكن في غيرهم مستعملاً، كذا قيل، وفيه أنَّه كان في الجَاهِلِيَّة.

والصواب أن يقال: خاطب المؤمنين لأنَّهم المنتفعون بالقرآن، المتَّبعون له، أو الخطاب للناس عمومًا كما هو ظاهر قوله: ﴿الذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِم﴾.

(فقه) والخصم يقول: هذه الآية في المؤمنين أيضًا، والموصول للعهد، والذي يكون راجحًا صحَّة الظهار من المشرك، فتفوته الرجعة إن لم يعتق عنه مسلم رقبة مؤمنة، كما يصحُّ طلاق المشرك وإعتاقه وإنكاحه. وذكر بعض أنَّه يصحُّ ظهار الذمِّيِّ.

(فقه) ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أي: أزواجهم، فتدخل الذِّمِّـيَّة وتخرج السريَّة، فلا ظهار منها، والمراد ما يشمل المدخول بها وغير المدخول بها، ويشمل المطلَّقة رجعيًّا، خلافًا لبعض في المسألتين.

(فقه) والمراد أيضًا ما يشمل البعض من المرأة، ولو ظفرًا أو شعرةً، وإن قال: كروح أمِّي كان ظهارًا، لأنَّ الروح في أمِّه كجزء منها بل جزء لا يحسُّ، وإن أراد العزَّة عليه والإكرام لم يكن ظهارًا، وإن قال: كأُمِّي، حكم عليه بالظهار. وقيل: إن ادَّعَى الإكرام لم يكن ظهارًا.

(فقه) ولا يخفى أنَّ الأَوْلى اعتبار الحال حين التكلُّم. وقال الْحَنَفيَّة: بشرط أن يكون البعض ممَّا يعبَّر به عن الكلِّ، كالوجه والرأس، أو يحرم النظر إليه كالفرج والثدي. وعن أبي حنيفة: الظهار بالظهر والبطن والفرج والفخذ لا

بغير هذه الأعضاء.

و«مِنْ» الأولى للتبعيض، وهذه للابتداء، أو للمجاوزة. وعنّفهم الله ﷻ بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ إنكارًا عليهم، وليس ذلك كذبًا منهم، إذ لم يقصد بذلك كذبا عمدًا ولا خطأ، بل التشبيه في الحرمة.

وكان الظِّهار طلاقًا في الجَاهليَّة، قيل: وفي أوَّل الإسلام، ويناسبه قول رسول الله ﷺ لخولة قبل نزول الآية: «ما أراك إلاّ مُحَرَّمة عليه». وقيل: كان طلاقًا يوجب حرمة مؤبَّدة لا رجعة فيه. وقيل: لم يكن طلاقًا من كلّ وجه، بل لتبقى معلَّقة لا ذات زوج ولا خلِيَّة تنكح غيره. وقيل: يعدُّونه طلاقًا مؤكّدًا باليمين على الاجتناب.

﴿إِنُ امَّهَاتُهُمُ, إِلاَّ اَلَّٰٓيِٓ وَلَدْنَهُمْ﴾ لا يشبههنَّ في الحرمة إلاّ من ألْحق الله بهنَّ كالمرضعات، وأزواج الرسول ﷺ، إذ دخلن في حكم الأمَّهات، وقد علمت أنَّ الظهار لا يختصُّ بالأمِّ، إلاّ أنَّ العرب تظاهرُ بها، وخصَّه الشافعي في القديم بها.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا﴾ ما ينكره الطبع والعقل والشرع، وهذا العموم مأخوذ من المشاهدة لا من التنكير، كما قيل: منكرًا ﴿مِّنَ الْقَوْلِ﴾ «مِنْ» للتَّبعيض، والبعض الآخر سائر المناكر، بل يدخل في القول ما هو حقٌّ، لأنَّه ليس المراد أنَّهم يقولون، بل المراد أنَّ القول عامٌّ أخذوا منه الظهار، كما أخذوا منه الشرك، ومناط التأكيد القول من حيث تعلُّقه بما هو منكر.

﴿وَزُورًا﴾ ما مال عن الحقِّ، وكان باطلاً ولو كان لا يسمَّى كذبًا إلاّ تجوُّزًا، ولا يحسن لأحد أن يقول: المظاهر مخْبِرٌ فضلاً عن أن يكذب، بل منشئ لحرمة، والإنشاء لا يكون كذبًا إلاّ عن عَرَضٍ، مثل أن يتضمَّن إخبارًا، مثل أن

يقول إنشاءً للبيع: بعت لك هذا العبد، وهو لغيره، فإنَّه يتضمَّن إخبارًا بأنَّ هذا العبد ملك له.

بل إن كان المظاهر مخبرًا فليس كلامه كذبًا، لأنَّه لم يتعمَّد كذبًا ولا أخطأ إليه بل أنشأ تشبيهًا، وقيل: سمَّاه ﴿مُنكَرًا مِّنَ القَوْلِ وَزُورًا﴾ لأنَّ الأمَّ محرَّمة أبدًا، ومن أوَّلِ الأمرِ بالشرع، والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريمًا مؤبَّدًا، بل هو تحريم من جانب الزوج.

(فقه) وظاهر الآية أنَّ الظهار من الكبائر، ويقوِّيه قوله ﷻ : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للتائب، إذ العفو والغفران عن الذنب، لكنَّهما كثيرًا ما يطلقان في المكروه، وما لا ينبغي، وفي الصغيرة. ووجه كونه كبيرة أنَّ فيه إقدامًا على إحالة حكم الله تعالى وتبديله بدون إذنه، وهذا أشدُّ خطرًا من كثير من الكبائر، لأنَّ فيه تحريم ما أحلَّه الله ﷻ ، وهو من باب الإشراك في المعنى.

(فقه) وأمَّا قول الرجل لزوجه: إنَّها حرام عليه، فمكروه، وقد حرَّم رسول الله ﷺ العسل مثلا فقال جلَّ وعلا: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التحريم: ١) ، وهو دون الظهار، لأنَّ الزَّوجِيَّة ومطلق الحرمة يجتمعان، بخلاف الزَّوجِيَّة مع التحريم المشابه لتحريم الأمِّ ونحوها، ولهذا وجبت المغلَّظة في الظهار، وكفارة اليمين في تحريم الزوجة.

(فقه) وأطلق بعضٌ كراهة الظهار كراهة شديدة و لم يسمِّها كبيرة في شأن الموحِّدة، لأنَّه ما أراد إلاَّ عبارة عن طلاق مخصوص، ولم يُرِدْ بدعةً ولا تشريعًا، وتأوَّل الآية بذلك.

﴿وَالذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ من التحريم، أي: إليه بالإبطال أو بالتحليل. أو يقدَّرُ مضاف، أي: يعودون لإبطال ما قالوا، أي:

ذكروا من التحريم. و«ثمَّ» للترتيب الذكري مطلقًا لا بقيد التراخي، وفيها تلويح إلى تباعد ما بين جعلها كالأمِّ والرجوع إلى مسِّها.

(نحو) واللام بمعنى إلى كما هو المتبادر، ويقال: يتعدَّى العود باللام أيضًا، فلا حاجة إلى تأويلها بـ«إلى» كما يتعدَّى بـ«في» أيضًا، يقال: عاد إلى كذا، وعاد لكذا، أو عاد في كذا، قال الله ﷻ : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ (سورة هود: ٣٦) ، وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (سورة الزلزلة: ٥) ، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ (سورة الأنعام: ٢٨) ، وعليه فهي كـ«لام» المصلحة، و«لام» الاستحقاق.

وقيل: العود لِمَا قالوا: **العزم على الوطء، كما يقال: عاد على الشيء بمعنى تداركه بالإصلاح**، وعاد الغيث على ما أفسد، أي: تداركه بالإصلاح، والمعنى: يتداركون ذلك القول بنقضه، ونقضُهُ الوطءُ أو العزم عليه. وقيل: العود إلى إمساكها بعد الظهار منها. وقيل: إلى الوطء. وقيل: إلى الإمساك والوطء.

و«ما» موصول اسميٌّ، أي: لِمَا قالوا من التحريم، قيل: أو موصول حرفيٌّ، وفيه أنَّه إن لم يبق المصدر على حاله صحَّ وضَعُفَ المعنى، كأنَّه قيل: يعودون إلى كلامهم، وإن أُوِّل بمفعول كان كالعبث في القرآن، لأنَّه يغني عنه جعلها اسمًا موصولاً أو نكرة مقصودة، وقيل: العود لما قالوا.

وقيل: العود بمعنى الرجوع، واللام بمعنى عن، أي: يرجعون عَمَّا قالوا من التحريم، ويريدون الوطء، وهو في معنى الوجه الأوَّل وهو حسن، إلاَّ أنَّ اللام بمعنى «عن» خلاف الظاهر.

وقالت الظاهريَّة: العود لِمَا قالوا أن يقول: هي عليَّ كظهر أُمِّي بعد ما قاله، فالعود التكرير، وعليه أبو العالية، وبكير بن عبد الله بن الأشج، والفرَّاء، قيل: وأبو حنيفة، ويردُّه أن لا تكرير في قِصَّة خولة، وأنَّه لم يسأل

عنه رسول الله ﷺ .

(فقه) وعن الشافعيِّ: العود لمَا قالوا ترك الطلاق بعد الظهار. وعن ابن عبَّاس: العود الندم إلى الألفة، وعن أبي حنيفة: العود استباحة الوطء وإرادة التمتُّع بالمسِّ والنظر. وعن مالك: العود العزم على وطئها، وهو قريب من قول أبي حنيفة. وعن الحسن وقتادة ومجاهد وطاوس: العود العزم على الوطء، وقالوا: لا كَفَّارَة عليه ما لم يطأها. ومراد الشافعي بالطلاق مطلق الفرقة، وكانَ الظهار طلاق الجَاهليَّة، وكان أشدُّ فرقة، ولا رجعة عندهم.

(فقه) ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة، وذلك حمل للمطلق على المقيَّد، وأجاز أبو حنيفة الرقبة المشركة لأنَّ الإيمان ورد في غير الظهار، وهو الظاهر، والأوَّل لأصحابنا وهو الأحوط، أي: فعليه تحرير رقبة، أو فالواجب عليه تحرير رقبة، قيل: أو فيلزمهم تحرير رقبة، وفيه أنَّه لو قيل في جواب الشرط: «فيلزمهم» لقدِّر «قد» أو المبتدأ، أي: فقد يلزمهم، أو فهم يلزمهم.

(فقه) ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا﴾ بذكره وغيوب الحشفة، أو ولو لم تغب، أو ولو في سائر بدنها، أقوال. فإنْ مَسَّ قبل التحرير حرمت، وقال مالك والأوزاعيُّ والزهريُّ والنخعيُّ: تحرم ولو بالتقبيل أو نحوه من دواعي الجماع، لأنَّ الأصل تحريم الدواعي إلى ما حرِّم، ولم تحرم الدواعي في الصوم والحيض لكثرتهما، وهو المطابق للتشبيه، ألا ترى أنَّه لا يحلُّ الاستمتاع بالأمِّ مطلقًا.

(فقه) ولا تحرم بنظر الفرج قبل التحرير. والمذهب حرمتها أبداً بالمسِّ قبل التكفير، ولا كفارة عليه بالمسِّ ولا بالظهار، ويعترض بما ذكر قومنا أنَّ سلمة بن صخر الأنصاريَّ ظاهر من زوجه ومسَّها قبل التكفير، فقال ﷺ : «**ما حملك على ذلك ؟** » فقال: رأيت خلخالها، ويروى: «بياض ساقها في

ضوء القمر»، فضحك ﷺ ، فقال: «اعتزلها حتَّى تكفِّر».

(فقه) ولعلَّ الحديث لم يثبت عند أصحابنا، وردٌّ بهذا على مجاهد وعمرو بن العاصي وسعيد بن جبير وقبيصة والزهريِّ وقتادة إذ قال: تلزمه كَفَّارَة أخرى بالمسِّ قبل التكفير، وعلى من قال: تلزمه ثلاث كفَّارات، كما هو قول الحسن والنخعي. ولزم المراة أن تمنعه من المسِّ حتَّى يكفِّر. ويحرم عندنا وعند أبي حنيفة الجماع وكلُّ تمتُّع ولو بنظر، وهو قول للشافعيِّ، وعنه أيضًا أنَّه يحرم الجماع فقط.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين الموجودين عند النزول، وقيل: للمؤمنين مطلقًا من الأمَّة، والإشارة إلى الحكم بالكفَّارة. ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ تزجرون به عن العود إلى أزواجكم بالوطء قبل التكفير، فإنَّه حرام وزنى.

وَالكَفَّارَة جبر للخلل عند بعضٍ كسجود السهو، أو عقوبة محضةٌ، قولان، ثالثهما أنَّها محْوٌ للذَّنب، أو تخفيف له، وقد قيل أيضًا: إنَّها دائرة بين العبادة والعقوبة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطلقًا، ومنه الظهار والعود والتكفير ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بباطنها وظاهرها، فهو مجازيكم فاحذروا. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة، أو وجدها ولم يجد ثمنًا يشتريها به، وذلك كلُّه في الآية.

(فقه) والثمن هو معتبر بعد قدر كفايته له ولعياله، لأنَّ قدرها مستحقُّ الصرف، فهو كالعدم، وقدر الكفاية من القوت للمحترف قوتُ يومٍ، وللذي يعمل قوت شهر.

(فقه) ومن له عبد يحتاج لخدمته واجدٌ، فلا يجزيه الصوم، بخلاف مسكنه فإنَّه كلباسه ولباس عياله. وعن مالك والأوزاعيِّ: من له رقبة وهو محتاج إلى

الخدمة، أو له ثمنُها لكنَّه محتاج إليه في نفقته ونفقة عياله لزِمهُ الإعتاقُ، وقيل: يصوم.

(فقه) والثمن معتبر أيضًا بعد دينه، ولو مؤجَّلاً. ومن له دين على غيره لا طاقة له على قبضه غير واجد. ويعتبر وقت الظهار، أو وقت التكفير، قولان. ومن له دين على غيره مؤجَّل يفوت أجل الظهار به غير واجدٍ. ومن له دين وعليه دين مثله أو أكثر فغير واجد، إلاَّ إن كان ما عليه مؤجَّلاً.

(فقه) ومن ملك رقبة فهو واجد، ولو كان عليه دين، لأنَّه لو أعتقها لم يَمنع الدينُ من صحَّة عتقها. ومن لم يجد شراءها إلاَّ بغَبْن فهو غير واجد، كما في شراء الماء لنحو الوضوء.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا﴾ فالواجب عليه صيام، أو فعليه صيام، ويكفيه شهران كلٌّ منهما تسعة وعشرون يومًا، وهما ثمانية وخمسون يومًا، وإن بدأ بالأيَّام فلا بدَّ من ستِّينَ يومًا، وإن بدأ من أوَّل الشهر ناويًا الصوم بالأيَّام كمن صام من وسط الشهر كفاه الشهران، ولو نقُصَا، وقيل: من بدأ بالأيَّام من وسط الشهر ـ أعني غير اليوم الأوَّلِ ـ حَسِبَ الشهرَ بعده بالهلال، وأتمَّ الأوَّلَ من الثالث ثلاثين.

(فقه) وإن أفطر ـ ولو بعذر، كمرض وسفر ونسيان أو عدم النية من الليل إن كان ينوي لكلِّ يوم ـ استأنف، ولو أفطر في اليوم الأخير لعدم التتابع.

(فقه) وعن عمرو بن دينار[1] راوي جبار بن زيد وسعيد بن المسيب

١-عمرو بن دينار الجمحي بالولاء أبو محمد الأشرم، فقيه محدِّث، وثَّقه النسائيُّ، كان مفتيَ أهل فارس، ولد بصنعاء سنة ٤٦هـ. وتُوُفِّيَ بِمَكَّةَ سنة ١٢٦هـ. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٧٧.

والحسن وعطاء والشعبي ومالك والشافعيٍّ في قولٍ له: يــبْــنِي. والذي يظهر أنَّه يستأنف إن أفطر لسفر، لا إنْ أفطر لِمَرضٍ ونحوه من الضرائر.

(فقه) وإن جامع التي ظاهر منها ــ ولو ليلاً أو ناسيًا ــ حرمت عليه، لأنَّه جامعها قبل تمام التكفير. وقال الشَّافعيَّة: لا تحرم ولو عمدًا وعصى، ولم يفسدوه صومه إن جامع ليلاً. وقيل: لا تحرم للنسيان. وقال أبو حنيفة ومحمَّد: يستأنف الصوم للنسيان. وقال أبو يوسف: لا يستأنف، لأنَّه لا يَفسُدُ به الصومُ عنده للنسيان، ويردُّه أنَّ المأمور به في الآية صيام شهرين متتابعين لا مسيس فيهما. وإن جامع زوجا أخرى غير التي ظاهر منها ولو ناسيًا نهارًا استأنف، ولا يستأنف إن كان ليلاً ولو عمدًا.

(فقه) وإن ظاهر من امرأتين فصام عن إحداهما وعتق عن الأخرى لم يَصِحَّ للأخرى، وبطل عن الأولى لصومه مع القدرة على العتق، وإن قدَّم العتق صحَّ هو والصوم. وكذا ما بين الصوم والإطعام إن قدَّم الإطعام.

(فقه) وإذا فسد التكفير بالعتق أو الصوم أو الإطعام استأنف بها قدر ما عليه من ترتيب الآية.

(فقه) وإن ظاهر من اثنتين فصاعدًا بلفظ واحد فلكلٍّ واحدة كَفَّارَة، وزعم بعض قومنا أنَّه تجزي واحدة.

(فقه) وإن صام مسافر عن الظهار في شهر رمضان لم يجزه، وقيل: يجزيه، وهو أصحُّ. وإن عالج مريض الصوم عنه في رمضان مع المشقَّة لم يجزه، وزعم بعض أنَّه يجزيه.

(فقه) وإن نسي المظاهر الرقبة، أو لم يعلم بها، وكذا ثمنها، فصام، لم يجزه. وقيل: يجزيه، كالخلاف في نسيان الماء في رحله، وفي وجود ماء لا يدري به، وبئر قريبة منه لا يدري بها.

قال الله تعالى في العتق والصوم : ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا﴾، ولم يقله في الإطعام، فقيل: المراد فيه أيضًا من قبل أن يتماسَّا، حملا للمطلق على المقيَّد، وذلك مذهبنا.

(فقه) [قلت:] وعندي أنَّ الحمل على المقيَّد يكون إذا كان الإطلاق والتقييد في مسألة واحدة، نحو: أطعم أهلك بُرًّا حتَّى يشبعوا أطعمهم برًّا صبحًا. وقيل: يجوز المسُّ قبل الإطعام إذ لم يقيَّد، والأوَّل قولنا، وهو أحوط، ونسب الثاني لمالك.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ صيام شهرين متتابعين بل استطاع الصوم بلا تتابع، أو لم يستطع العدد كاملاً، أو لم يستطع الصوم البتَّة، وذلك لكبر أو مرض لا يرجى برؤه، أو خاف حدُوثَ مرضٍ، أو تأخيرَ برءٍ، أو زيادة مرض.

(فقه) وذكر بعض قومنا أنَّه يعتبر دوام المرض في ظنِّه شهرين بالعادة الغالبة في مثله، أو بطبيب عدل، ولَمَّا أمر رسول الله ﷺ أوسًا إذ ظاهر من خولة بالإعتاق ولم يقدر، قال: «**صم شهرين متتابعين**»، فقال: والله يا رسول الله إن لم آكل في اليوم والليلة ثلاث مرَّات كلَّ بصري، وخشيت أن تعشو عيني.

وعند بعضهم من أسبابِ عدم الاستطاعة شدَّة الرغبة في الجماع، ورَوَوْا في ذلك أنَّ سلمة بن صخر وصف نفسه بذلك، وأنَّه دخل رمضان فظاهر من امرأته، حتَّى يخرج رمضان لئَلاَّ يصيبها قرب الفجر، حتَّى لا يدرك الغسل أو في النهار، وَوَثَبْتُ عليها ليلاً إذَ كانت تخدُمني ورأيت منها شيئًا، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «**أنت بذاك**»، فقلت: أنا بذاك، وقال: «**أنت بذاك**»، فقلت: أنا بذاك، أي: مصاب بذاك، أو تلمُّ بذاك، فأمْضِ حكم الله تعالى عليَّ، قال: «**أعتق رقبة**»، فضربت صفحة عنقي بيدي، وقلت: والذي بعثك بالحقِّ ما أملك غيرها، أي: غير رقبتي، فقال: «**صم شهرين متتابعين**»، فقلت: ما أصابني

ذلك إلاَّ في الصيام، فقال: «**أطعم ستِّينَ مسكينًا**». ــ وفيه عدم الحرمة في المظاهر منها قبل التكفير ــ قال: والذي بعثك بالحقِّ ما أملك طعامًا، قال: انطلق إلى صاحب صدقة بني زريق يدفعها إليك ففعل.

وروي أنَّه قال له: كل أنت وعيالك منها وتصدَّق، وذلك لك خاصَّة، وقال لقومه وقد سألهم أن يمشوا معه إلى رسول الله ﷺ فأبَوْا: وجدت عند رسول الله ﷺ السَّعة لا عندكُم.

وروي أنَّه أعانه ﷺ بعَرَقٍ (بفتح العين والراء) وهو زنبيل يسع ثلاثين صاعًا، فقالت زوجه: وأنا أُعينه بثلاثين. ويروى أنَّها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، لا يجد رقبة، قال: «**فليصم شهرين متتابعين**»، قالت: شيخ كبير لايطيق الصوم، قال: «**فليطعم ستِّينَ مسكينًا**»، قالت: ماله شيء، قال: «**أعينه بعرق من تمر**»، قالت: وأنا أعينه بعرق آخر، قال: «**قد أحسنت**»، قال: قال: «**اذهبي فأطعمي بها ستِّينَ مسكينًا وارجعي إلى ابن عمِّك**»، رواه أبو داود[1]. فإمَّا أن يتكرَّر منه ذلك، وإمَّا أن تكون قِصَّة واحدة سألت رسول الله ﷺ وسأله زوجها أيضًا، وبعدما قال: اذهب إلى بني زريق أعطاه عرقا وأعطته آخر، فلم يسألهم.

[قلت:] وفي أكله هو وزوجه وعيالُه من كَفَّارَة نفْسه خصوصيَّة له رحمه الله تعالى.

﴿**فَإِطْعَامُ**﴾ فالواجب عليه إطعام، أو فعليه إطعام ﴿**سِتِّينَ مِسْكِينًا**﴾ مدَّان من بُرٍّ أو دقيقه، أو من تمر جيِّد، وقيل: صاع من تمر، وقيل: ثلاثة ولو جيِّدًا، أو صاع من شعير، وقيل: ثلاثة أو من دقيقه لكلِّ مسكين.

١-رواه **أبو داود** في كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم٢٢١٤. ورواه **البيهقي** في كتاب الظهار، باب من له كَفَّارَة بالصيام، رقم١٥٦٧١. من حديث خويلة بنت مالك.

(فقه) وأجاز الشَّافعيَّة مدًّا لكلِّ مسكين من برٍّ لحديث وَرَدَ به، فحديث الْمُدَّيْنِ ندبٌ. ويجوز إطعام بعضٍ غداء وعشاء، والصائم فطورًا وسحورًا، وكيل لبعض، اتَّفَقَ نوعُ الطعام أو اختلف في تلك المسائل. وأجيز من غالب طعام البلد في غالب السَّنَة. وعن مالك: مدٌّ وثلث، وعنه: مُدٌّ وثلثا مدٍّ. وقيل: ما يشبع به، ولو نصف مدٍّ. وإن غدَّى السِّتِّين مرَّتين أو عشاهم مرَّتين، أو غدَّاهم وسحَّرهم، أو سحَّرهم مرَّتين، ولو غدى ستِّين وعشَّى آخرين لم يجز، إلاَّ إن أعاد لأحد الفريقين في غير وقتهم.

(فقه) ولم تجز الشَّافعيَّة الإطعام وأوجبوا الكيل، لأنَّه أدْفَعُ للحاجة، ولوجوب الكيل في الزكاة وزكاة الفطر، ويردُّه أنَّ النصَّ في الآية الإطعام، وهو صادق على الأكيال والكيل، والواردُ في الزكاة الإيتاءُ، وفي زكاة الفطر التَّأدية وهما للتمليك، وورَدَ: أَطعمه وسقًا.

(فقه) وإن أطعم مسكينًا واحدا ستِّينَ يومًا لم يجز، لأنَّ النصَّ ستِّينَ مسكينًا، وهو قولنا وقول مالك والشَّافعي، وصحيح أحمد، والجمهور، وأجازه أبو حنيفة وقوم، لأنَّ المقصود سدُّ الخَلَّة والخَلَّة تتجدَّد في كلِّ يوم، ويردُّه أنَّه لا يجوز أن يحمل على المجاز إلاَّ بقرينة، فوجب الحمل على ستِّين إنسانًا، وهو الحقيقة وهو ظاهر الآية، وأمَّا الحمل على السِّتين حقيقة أو حكمًا فمجاز بلا دليل.

[قلت:] وكذا يردُّ على من قال: المراد إطعام السِّتين ولو لواحد، وأيضًا إدخال السرور على ستِّينَ أولى مِمَّا دونه لاجتماع قلوب كثيرة على الفرح به، والحبِّ والدعاء.

(فقه) واختلف في إعطاء القيمة وفي إعطاء مسكين من نوعين فصاعدًا، ومن مكيل وقيمة، ومن طعام وقيمة، ومن ذلك أن يعطي مُدًّا زبيبًا يسوى مدَّين برًّا.

(فقه) وإن مضت أربعة أشهر ولم يكفِّر خرجت بالإيلاء. وقال غيرنا: لا تحرم بالمسِّ قبل التكفير، إلاَّ أنَّه لا يترك عليه، ولا تخرج بالإيلاء عند تمام أربعة أشهر عندهم، وإذا لم يجد التكفير بأحد الثلاثة أخَّر حتَّى يجد، وهو خطأ، واستظهروا بقاء حرمة المسيس إلى أن يكفِّر ولو كفَّر ببعض طعام ولم يتمَّ وينتظر باقيه، وإن كرَّر الظهار فلكلِّ ظهار كَفَّارَة، إلاَّ إن أراد التأكيد، أو كان التكرار في مجلس واحد، وقال مالك: عليه واحدة ولو كرَّر في مجالس.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من البيان والتعليم، مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿لِتُومِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ثابت، أو مثبَّت، أو يقدَّر كون خاصٌّ، أي: واقعٌ أو مشروع لتؤمنوا بالله ورسوله. أو «ذَالِكَ» مفعول لمحذوف، أي: أنزلنا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله إيمانًا مستتبعًا لاتِّباع الشريعة، وترك أمور الجَاهِلِيَّة.

﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ لا يسوغ لأحد مجاوزتُها بتركها، ولا بنقضها بما يخالفها، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ على ترك القيام بها.

(أصول الدين) قيل: الكفر هنا يشمل الشرك وكفر النعمة المسمَّى عند غيرنا بكفر الجارحة، فشملت الآية الموحِّد المخالف لأحكام الظهار، والملوك الجائرين من أهل التوحيد، وأصحاب الكبائر.

قلت: المعنى المذكور كلُّه صحيحٌ، إلاَّ أنَّه لا يصحُّ تفسير الآية به، لأنَّها ظاهرة في المشركين، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ اَلذِينَ يُحَآدُّونَ اَللهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدَ اَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اُللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَيٰهُ اُللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَےْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ اَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللهَ يَعْلَمُ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلَارْضِ مَا

يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

وعيدُ محادَّاة الله ورسوله، واطِّلاعُه تعالى على الخفايا

﴿إنَّ الذينَ يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ألا ترى قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ فإنَّ من قبلهم المشركون، ولو جاءت المحادَّة في الفاسق معبَّرًا عنها في الحديث بالمبارزة لله تعالى والمحاربة.

[قلت:] وإنَّما يجوز للسلاطين ومن ينحو نحوهم وضع قوانين لا تخالف الشرع، بل ترجع إليه استنباطًا، وقد قال الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (سورة المائدة: ٥) .

(فقه) فكلُّ شيء يُحتاج إليه في الدين يُؤخذ من القرآن نصًّا وفهمًا، أو ضمنًا وبالقياس، والكامل لا يُكمَّلُ[١].

والآية نزلت في قريش المخالفين لأحكام الظِّهار المتَّبعين لمن قبلهم في حدود الكفر، الواضعين لبعض ما لم يتقدَّم قبلهم.

(لغة) ومعنى ﴿يُحَادُّونَ...﴾ يخالفون الله ورسوله ﷺ، كأنَّهم في حدٍّ ورسُولهُ في حدٍّ آخر، أي: جهة، كعُدْوَتَيْ الوادي وعُدْوَتَيْ البحر، وهذا أولى من أن يجعل من المفاعلة بالحديد، كالسيف والنِّصال والسنان، كما يقابل العدوَّ بذلك لعدم شهرة هذا، ولتقدُّم الحدِّ قبله لا الحديدُ إذْ قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾.

١- وذلك يدخل ضمن المصالح المرسلة، أمَّا عند صريح النصِّ فلا اجتهاد مع وروده.

(لغة) ومعنى ﴿كُبِتُوا﴾ أُخزُوا، أو غِيظُوا، أو رُدُّوا مخذولين، أو أُهْلِكُوا، أو ردُّوا بعنف وإذْلاَل، أو أُلْقُوا على الوجوه، أو لُعِنُوا، أو كُبِدُوا، أي: أُصيبوا بداء الكبد، أو أُصيب كَبدهم، أبدلت الدال تاءً.

وذلك الكبت بأوجهه كان يوم بدر، أو يوم الخندق، وعليه الأكثر، أو مستقبل ليوم القيامة، تتريلاً مترلة ما وقَعَ للتَّحقُّق، وذلك تبشيرٌ للمؤمنين بالنصر وإذْلال العدوِّ.

﴿وَقَدَ اَنزَلْنَآ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فيمن حادَّ الله ورسله قبلهم من الأمم. والآيات: آيات الإخبار عن هلاكهم، أو نفس إهلاكهم المخبر به، أو آياتٌ تدلُّ على صدْقه ﷺ . والعطف على «كُبِتُوا». وقيل: الجملة حالٌ من واو «كُبِتُوا» على أنَّ الكبت متأخِّر عن الإنزال محكيَّة، أو متأخِّرٌ فهي مقدَّرة.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مطلقًا فتدخل هؤلاء الكفرة بهؤلاء الآيات بالأولى، أو المُراد هؤلاء الكافرون بهذه الآيات، ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذْهِبٌ لعزِّهم وكِبْرهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ متعلِّق بما تعلَّق به «لِلْكَافِرِينَ» أو بقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لنيابته عنه، ولا يوجد قائل: إنَّه يتعلَّق بالكافرين، وإنَّما قيل: يتعلَّق بكافرين يتعلَّق بالجار والمجرور معًا، وهو شيء لا بأس به. وقيل: مفعول لـ«اذكر» تعظيمًا لذلك اليوم. وقيل: متعلِّق بكون تامٍّ جوابٌ لمن قال: متَى يكون ؟ .

﴿جَمِيعًا﴾ حال من الهاء للتأكيد، لا بمعنى: لا شيء منهم غير مبعوث. وقيل: حال مؤسِّسَة مقدَّرة، أي: مجتمعين في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من المعاصي، كناية عن العقاب عليها، قيل: أو يصوِّرها لهم بصورة فظيعة، بحضرة الناس، زيادةً في إذلالهم وتحسُّرهم. قيل: كأنَّه قيل: كيف هذه التنبئة ؟ أو كيف سببها وهي أعراض منقضية؟ أو لماذا ينبِّئهم؟ فأجاب بقوله:

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ حال من الهاء في «أَحْصَاهُ»، أو من لفظ الجلالة بتقدير «قد»، أو حال مع مبتدأ محذوف، أي: وهم نسوه، أو بلا تقدير على قول، ويتحقَّق عندهم أنَّ العذاب لأعمالهم في الدنيا. أو الواو عاطفة.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ شاهد عليه شهادة عظيمة، أو مشاهدٌ له.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ شامل لأجزائهما وما فيهما من غيرهما ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاَثَةٍ الاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ الاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ, أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ زيادة تقرير لعموم عِلْمِه.

(نحو) ولاخبرَ للكَوْن في الموضعين. و«مَا» نافية. و«نَجْوَى» فاعل «يَكُونُ». و«مِنْ» صلة للتأكيد.

(لغة) و«نَجْوَى» اسم للمصدر الذي هو التناجي، بمعنى المسارَّة، كأنَّهم يطلعون نجوة من الأرض، وهي الموضع المرتفع من الأرض، يتكلَّمون عليه بسرٍّ لِئَلاَّ يسهل للناس الحضور معهم، أو المعنى: الرفعة إلى غاية الخفاء وأعلاه، أو الترفُّع عن ظهور ما يسرُّونه. أو التناجي: التعاون على ما فيه النجاة ممَّا يكره، أو من ظهور السرِّ.

(نحو) ويقدَّر مضاف، أي: من ذوي نجوى ثلاثة، كذا قيل، ولا يصحُّ هذا على إضافة «نَجْوَى» لـ«ثَلاَثَة»، لأنَّ «ثلاثة» هم «ذوي» المقدَّر، ولا يصحُّ مع جعل «نَجْوَى» وصفًا بمعنى متناجين، لأنَّ «نَجْوَى» هم «ذوي» أيضًا، بل إذا جعل «نَجْوَى» وصفًا فلا حذف، وإذا جعل مصدرًا قدِّر: ذَوي نجوى، وجعل ثلاثة نعتًا لـ«ذوي» المقدَّر.

وإنَّما قلت ذلك لأنَّ التناجي ليس ثلاثةً اللهُ رابعهم، وإنَّما هو رابع للثلاثة المتناجين، ولا دليل على كون النجوى بمعنى المتناجين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ (سورة الإسراء: ٤٧) ، لجواز أن يكون المراد: وإذْ هم تناجٍ، بالإخبار بالتناجي مبالغة، كزيد صومٌ وعلمٌ. ويجوز أن لا يقدَّر ولو بقي «نَجْوَى» على معنى المصدر، كما تقول: لا يكون سَفَرُ زيدٍ إلاَّ معه أبوه.

(نحو) و«خَمْسَة» معطوف بالواو على «ثَلاَثَة»، وقد انسحب عليهم معنى التناجي لعطفه على ما أضيف إلى الثلاثة، وهو «نَجْوَى». وإن جعل «نَجْوَى» وصفًا فالعطف عليه. وقوله: ﴿هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ معطوف بتلك الواو على ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ من العطف على معمولي عامل واحد، وهو «يَكُونُ» العاملُ الرفعَ في محلّ «نَجْوَى».

(سبب النزول) وخصَّ الخمسة والثلاثة لأنَّ قوما منافقين خلوا للتناجي على العددين ليغيظوا المؤمنين، فالآية تعريض بهم. وعن ابن عبَّاس: نزلت في ربيعة بن عمرو وأخيه حبيب بن عمرو، وصفوان بن أميَّة، قال أحدهم: أترى أنَّ الله يعلم ما نقول؟ وقال الآخر: يعلم بعضًا، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضًا علم الكلّ، أي: لأنَّ علمه بلا سبب ولا واسطة، وهو ذاتيٌّ، فلا وجه لاختصاصه بالبعض.

أو خصَّ العددين لجريان العادة بهما وما يقرب منهما فوق وتحت، ولأنَّ الله ﷻ وترٌ، فبدأ بالوتر الأوَّل من العدد وهو ثلاثة ــ وهم لا يعدُّون الواحد عددًا ــ وثنَّى بوتر يليها.

[قلت:] والشورى يقلِّلُ أهْلُها لِئَلاَّ تكثر المخالفة والنزاعُ، وتُوتَر ليرجع إلى الوتر لزيادته على الأشفاع، وينبغي أن لا تجاوز التسعة، وجعلها عمر رضي الله عنه ستَّة لأنَّهم هم رؤساء الناس، كما قال لهم: «أنتم رؤساء الناس»، وأيضًا الثلاثة

معتبرة، كما هي أقلُّ الجمع، وكما قال موسى عليه السلام : ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ...﴾ (سورة الكهف: ٧٦) ، ولأنَّ التناجي بالقلب واللِّسان والأذن، وكالتوضُّؤ ثلاثًا، وغير ذلك.

والخمسة عدد الحواسِّ. ويدخل غيرها من الأشفاع والأوتار بقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلاَ أَدْنَى...﴾. ولا نجوى للواحد، وجاء الحديث: «**إنَّ الله وتر يحبُّ الوتر**»[1]. وقيل: أقلُّ ما يكفي في المشاورة ثلاثة، فاثنان كالمتنازعين، والثالث كالحاكم بينهما. وكذا جمعٌ للمشاروة لا بدَّ من واحد يحكم بينهم مقبول القول.

﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ ليفتضحوا في أنفسهم، وعند الناس وغيرهم، وإظهارا لما يوجب عذابهم ﴿**إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ لأنَّ علمه ذاتيٌّ، فلا يختلف بالأشياء. بدأ الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآيات بالعلم وختمها بالعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

١- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء (٢) باب في أسماء الله تعالى رقم٢٦٧٧، وأوَّل الحديث عنده: «لله تسعة وتسعون اسما...»، من حديث أبي هريرة. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الوتر، رقم١٤١٥. من حديث علي.

آدابُ المناجاة، وجزاءُ المتناجين بالسوء

(سبب النزول) وكانت اليهود والمنافقون يتناجون ويتغامزون بمرأى المؤمنين، يوهمونهم موت أقاربهم والمؤمنين في القتال، ولا يزالون كذلك حتَّى تَقْدَم الأقاربُ والمؤمنون من سفرهم، وكثر ذلك منهم، فشكا المؤمنون إلى رسول الله ﷺ ذَلكَ، فنهاهم و لم ينتهوا، فنزل قوله تعالى:

﴿اَلَمْ تَرَ إِلَى الذينَ نُهُواْ عَنِ النَّجْوَى﴾ الخطاب له ﷺ أولى من أن يكون لكلِّ صالح له، لأنَّه هو الذي نهاهم، كان اليهود والمنافقون يتناجون بغير سوء، بمرأى المؤمنين، فيظنُّ المؤمنون أنَّ ذلك تناجٍ فيهم، أو في السرايا بأنَّهم قتلوا أو هزموا، وذلك إثمٌ وعدوانٌ، ويتناجون أيضًا بما هو كذبٌ، وثَقُلَ ذلك على المؤمنين لأنَّهم أكثروا من ذلك، ونهاهم الله ﷻ و لم يتنهوا. والاستفهام تعجيب.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ المضارع للتجدُّد والاستحضار للصورة ﴿لِمَا﴾ اللام للتَّعدية والاستحقاق، أو بمعنى إلى، أو في، ﴿نُهُواْ عَنْهُ﴾ وهو جنس ما فعلوا أوَّلاً، هكذا نفسُه أو غيره، بل لو كان عينُه لكان غيره لأنَّ ذكره الآن غير ذكره في الوقت الآخر.

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المعاداة لله ورسوله ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ معصية الرسول داخلة في الإثم والعدوان، وذكره استعظامًا لمعصيتهم لمن هو رسولٌ من الله، واعتَبر معصية الرسول هي المرادُ بالإثم والعدوان، فيكون تفسيرا لهما بمعصيته ﷺ ، وذلك أنَّه نهاهم عن النَّجوى وعصوه بالعود إليها، أو يوصي بعضٌ بعضًا بمعصية الرسول ﷺ .

(رسم) وكان «معصية» بتاء مفتوحة كتاء «رحمت الله» لَمَّا كانت الإضافة لِمَا بعدُ واتِّصال به ناسب امتداد التَّاء إليه، والتلويحُ في الخطِّ إلى معنى

أو إلى نوعٍ واردٌ كثيرٌ، كما يحذف الحرف نطقًا، وهو مرادٌ، فيتبعه الحذف خطًّا أيضًا في بعض الكلمات مثل: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ (سورة الشورى: ٤٤) .

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ يحييه الله ﷻ بـــ«سلام عليك أيُّها النبيء ورحمة الله وبركاته»، ونحوه من ألفاظ الخير، والذي يحييه به اليهود لعنهم الله: «السَّامُ عليك»، ولكون المحيِّين به اليهود قال مجاهد: نزلت في اليهود. وقال ابن السائب: نزلت في المنافقين، ولعلَّ من قال به من الصحابة علم أنَّهم يقولون ذلك، ولم يعلم أنَّ اليهود قالوه، فلعلَّهم قالوا جميعًا فنزلت فيهم جميعًا، وإن قاله فريقٌ دون آخر فالآخر يرضى به ويفرح، فهو قائل به، أو المراد المجموع لا الجميع.

ولعلَّ تَحيَّة المنافقين «عِمْ صباحًا»، وعُدَّتْ سبًّا لقصدهم التهاون بـــ«السلام عليكم»، كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ ناسًا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ ـــ أي الموت ـــ عليك يا أبا القاسم، فقال ﷺ : «**وعليكم**»، يعني: كلُّنا يَمُوت، وقالت عائشة رضي الله عنها: «عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم»، وروي أنَّها قالت: «عليكم السام والذام واللعنة»[1]. وعلى كلِّ حال قال لها رسول الله ﷺ : «**يا عائشة إنَّ الله لا يحبُّ الفاحش ولا المتفحِّش**»، فقالت: أو لم تسمع ما قالوا ؟ فقال ﷺ : «**أوما سمعتِ أقول: وعليكم ؟** ».

وفي البخاري قال: «**ياعائشة عليك بالرِّفق وإيَّاك والعنف والفحش**»، فقالت: أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال: «**أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم**

١-رواه **البخاري** في كتاب الاستئذان (٢٢) باب كيف الردُّ على أهل الذمَّة بالسلام، رقم ٦٢٥٦، من حديث عائشة.

فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيَّ»[١]. وفي الحديث: «**إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فإنَّما يقولون: السام عليكم، فقولوا: وعليكم**»[٢] بالواو، بمعنى أنَّ الموت علينا وعليكم، والسام الموت.

واختار ابن عيينة أنَّه بلا واو ليكون الكلام ردًّا لسوئهم عليهم بدون التلفُّظ بالشركة معهم، وله ﷺ زيادة عفو، إذ لم يذكر ما قالوا، بل قال: «**وعليكم**»، ولو كان مرادً له فهو أبدًا في ارتفاع شأن وكرم، ومعادوه أبدا في سفال، فأنزل الله عَجَلَّ في ذلك الآية.

وعن ابن عمر يقولون: «سام عليك» يريدون الشتم، يقولون ما ذكر الله عَجَلَّ عنهم بقوله: ﴿**وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ**﴾ لوكان نبيئًا لعذَّبنا الله عَجَلَّ بذلك.

والسام بألف، ويروى بالهمز، ومعناهما الموت، أو المهموز بمعنى تسأمون دينكم، ويجوز في غير المهموز بمعنى تسأمون دينكم، قلبت ألفا إلاَّ أنَّ الأصل عدم القلب.

ويبعد أن يكون تَحيَّة اليهود «عم صباحًا»، ومثله: «أنعم صباحًا»، وهو خيرٌ، وعُدَّ ذمًّا لأنَّهم قصدوا به مخالفة تَحِيَّة الإسلام، ويكره الآن لأنَّه تَحِيَّة الجَاهلِيَّة، ويجوز أن لا يُرَدَّ لقائله تأديبًا له.

١- رواه **البخاري** في كتاب الاستـــئذان، باب كيف الردُّ على أهل الذِّمَّة بالسلام، رقم٥٩٠١. ورواه **مسلم** في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، رقم٢١٦٥، من حديث عائشة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الاستـــئذان باب كيف الردُّ على أهل الذِّمَّة بالسلام، رقم٦٢٥٨. من حديث أنس.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جزاءً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها أو يقاسون حرَّها، أو يصطلون بها، وفي هذا الأخير تهكُّمٌ، إذ شُبِّهُوا بمن يعامل النار لإزالة البرد ﴿فَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنَّم.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ إذا أردتم المناجاة في مجامعكم أو غيرها ﴿فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ كما تفعل اليهود والمنافقون، نهاهم عنه وهم لا يفعلونه ولا فَعَلُوه تحذيرًا لهم، وإنْذَارًا لغيرهم، أو قد فعله بعضهم فنهاهم، أو الذين آمنوا المنافقون، وهو الصحيح عند بعض، وصفهم بالإيمان على دَعْواهم، واعتبارًا للفظهم إذ آمنوا بألسنتهم.

﴿وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ﴾ ما يتضمَّنُ للمؤمنين خيرًا وسائر العبادات ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ ما ليس معصية لرسول الله ﷺ في أمْرٍ من الدِّين ولا ذمًّا له، أي: اجعلوا بدل التناجي بالشرِّ التناجي بالخير، إذا كان الصَّواب التناجي، وإلاَّ فأظْهِرُوا الدِّين ولا تتناجوا، ويجوز أن يراد بالتناجي هنا مطلق التكلُّم، استعمالاً للمقيَّد في المطلق، أو إذا أردتم التناجي بالسُّوء فاجعلوا بدلها التكلُّم بالخير.

﴿وَاتَّقُواْ﴾ فيما تأتون وما تذرون ﴿اللهَ الذِي إِلَيْهِ﴾ وحده لاَ إلى غيره، ولا إليه وإلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للثَّواب والعقاب.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ بتزيـــينه، والله خالقُها وناهٍ عنها ﴿لِيَحْزُنَ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تعليلٌ متعلّق بقوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أو متعلّقه، أو خبر ثانٍ لـــ«النَّجْوَى». قيل: إحزانُ المؤمنين بها أنَّهم يتوهَّمون أنَّها في نكبة أصابتهم.

﴿وَلَيْسَ﴾ الشيطان، أو التناجي الذي يزيِّنها أو يأمر بها في السوء، وقيل: ليس الحزن بضارِّهم، وردَّ بأنَّ الآية لإزالة الحزن، وأجيب بأنَّه إذا علموا أنَّ هذا الحزن لا يضرُّهم إلاَّ بإذن الله اندفع.

﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا﴾ ضُرًّا مًّا، فهو مفعول مطلق، ولا يجوز أن يفسَّر بشيء مًّا من الأشياء، وهو مفعول، لأنَّه يتعدَّى لواحد، وقد أخذه وأضيف إليه.

﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ كموت قضاهُ الله وكغلبة العدوِّ، والضَّارُّ في الاستثناء هو ما قضاه الله لا تناجيهم، فالاستثناء منقطع، فإنَّ المضرَّة اللاَّحقة لهم بالتناجي غير اللاَّحقة لهم بما قضاه الله تعالى. وإن كان المعنى أنَّ تناجيَهم لا يغيظهم إلاَّ إن أراد الله تعالى أن يغيظهم كان متَّصلاً.

﴿وَعَلَى اللهِ﴾ لا على غيره ولا مع غيره، متعلِّقٌ بما بعده، والفاء صلة **﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾** من توكَّلَ على الله تعالى لا يَخِبْ عمله، ولا يبطُل سعيُه، فلا يبالون بنجواهم، وذلك إزالة لحزن المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ : «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان عن واحد**»[1] رواه البخاري ومسلم، وفي رواية زيادة: «**حتَّى يختلطوا بالناس، فإنَّ ذلك يسوءه**»[2] ولفظ أبي داود عن ابن مسعود: «**فإنَّ ذلك يحزنه**»[3]، أي: فإذا اختلطوا بالناس بأن كانوا أربعة فصاعدًا جاز تناجي اثنين عن اثنين فصاعدًا.

تناجى ابن عمر مع واحد فقال لرجل: تناج أنت مع هذا، فهم أربعة، فإن كانوا أربعة فلا يتناج ثلاثة عن واحد، وهكذا لا يبقى واحد، ومن ذلك أن يتكلَّم اثنان بلغة لا يعلمها الثالث، أو يرمز في كلامه، أو يكتب إليه.

١-رواه **البخاري** في كتاب الاستـــئذان باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارَّاة، رقم٥٩٣٢. ورواه **مسلم** في كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، رقم٢١٨٤. من حديث ابن عبَّاس.

٢- لم نقف على تخريجه بلفظ «يسوءه»، وإنَّما ورد بلفظ «يحزنه»، رواه **البخاري** كتاب الأدب المفرد، باب إذا كانوا أربعة، رقم٨٩٢ (١١٦٩)، من حديث ابن مسعود.

٣-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في التناجي، رقم٤٨٥١ من حديث ابن مسعود.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١ ﴾

أدب المجالسة في الإسلام

﴿يَآ أَيُّـــهَا الذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ﴾ توسَّعوا لأخيكم في الدِّين بضمٍّ ما انبسط من ثيابكم أو جسدكم، لا بانتقال من موضعكم ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ موضع الجلوس، متعلّق بـــ«قِيلَ»، أو بــــ«تَفَسَّحُوا» وهو أولى لقربه، وليشمل القول من خارج المجلس.

والمراد: مجلس رسول الله ﷺ ، و«ال» للعهد، وقيل: مجالس القوم، فهي للجنس، كلٌّ أحد له مجلس، كما قرئ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي الْمَجَالِسِ﴾ بالجمع.

(بلاغة) ﴿فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ يجازيكم على فسحكم، وسمَّى الجزاء فسْحًا مشاكلة لأنَّه كان للفسح، وهو مجاز لعلاقة اللُّزوم والتسبُّب، أو الشبه بأن شُبِّه التوسيع في الخير بالتوسيع الحسِّيِّ على طريق الاستعارة التبعيَّة. أو المراد: يوسِّع الله لكم في رحمته في كلِّ ما تريدون من الدينا والآخرة، فحذف المفعول للعموم. أو في منازلكم في الجنَّة، أو في قبوركم، أو في صدوركم، أو في رزقكم، أقوال، والأوَّلُ أولى.

وأنت خبير بأنَّ الفسح التوسعة الشاملة للحسِّـــيَّة وَالعَقْلِيَّة كَمًّا، ففيه استعمال الكلمة المجازية في معانٍ متعدِّدة.

(سبب النزول) كان ﷺ في الصفَّة، وقيل: فيها يوم الجمعة، وضاق الموضع، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر

منهم ثابت بن قيس بن شمَاس، وقد قيل: نزلت فيه، إذ كان ثقيل السمع، وأراد القرب، فأبى بعضُهم الفسح له، فعيَّره ثابت، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته». ـــ ويروى: «أيُّها النبيء» ـــ فردَّ عليهم السلام، وسلَّموا على القوم فردُّوا عليهم، وداموا قائمين ينتظرون أن يفسح لهم، فقال ﷺ لبعض من حوله: «قم يا فلان، قم يا فلان» بعدد من وقفوا فشقَّ ذلك عليهم وعرفت الكراهة في وجوههم. وقال المنافقون: ما عدل إذ قدَّم من تأخَّر حضورُه فنزلت الآية. وكانوا يتناجون في القرب منه ﷺ .

وقيل: الآية في تضامهم في صفِّ القتال رغبة في الجهاد والشهادة، وكانوا يتضامُّون في صفِّ القتال حرصًا على القتال لوجه الله ﷻ ، وعلى الشهادة، والشجاع يحتاج إليه خصوصًا. وقد قيل: الآية في مجالس القربات والقتال، ومنها مجلس العلم والقرآن، والذكر والوعظ والدعاء. والجمهور على ما تقدَّم، فنقول بكلِّ ذلك، وفي كلِّ مجلس للمباح أيضًا، كما عمَّ اللفظ، ولو كان سببُ النُّزول خاصًّا.

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ﴾ ارتفعوا عن مجلسكم للقادمين من مواضعكم بالانتقال عنها ﴿فَانشُزُواْ﴾ بنهوض لا ببُطء، وأصل النشز المرتفع من الأرض، وليس كلُّ مجلس فيه ارتفاع موضع عن موضع، فالمراد ارتفاع الجالس عن موضعه، وهو ذهابه عنه. أو سمَّى النهوض ارتفاعًا، أو سمَّى الارتفاع نشزًا لأنَّه صعب على النَّفس كطلوع جبل، وهذا تأكيد لما قبله أو الأوَّل في ضمِّ الإنسان نفسه وثيابه، والثاني في تحوُّله عن موضعه.

وعن الحسن وقتادة والضحَّاك: إذ دُعيتُم إلى قتال أو صلاة أو طاعة فأجيبوا. وقيل: إذا قال لكم رسول الله ﷺ : قوموا عن المجلس فقوموا لحاجة دينِيَّة أو دُنيَوِيَّة أو حاجة لأهله، وأراد الانفراد لذلك، أو مع بعضِ خاصَّته فقوموا، وكذا غير النبيء ﷺ .

[قلت:] وإذا ترتَّبت مفسدة على إقامتهم فلا يفعل إلاَّ لمفسدة أعظم. ولا يقيم أحدٌ أحدًا عن مجلسه فيقيم فيه إلاَّ السَّــيِّد والزوج والأب والأمُّ والأجداد. قال ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «**لا يقيم الرجل الرجل عن مجلسه ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا**»[1] ويستثنى ما ذكرت، ومن هوجر، وكلٌّ من لا يستحقُّ الحضور في المجلس.

وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقيمن أحدكم رجلاً عن مجلسه ثمَّ يجلس فيه، ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا يفسح الله لكم**»[2]. وفي مسلم عن جابر بن عبد الله موقوفًا عند بعض، وفي رواية مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ : «**لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ثمَّ يخالف إلى مقعده فيقعد فيه، ولكن يقول: افسحوا**»[3]. ويوم الجمعة تمثيلٌ بوقت الازدحام، والمراد العموم لكلِّ وقت ازدحام لطاعة أو مباح، أو هو بفتح الجيم وإسكان الميم [أي الجَمْعة] فيعمُّ، وقيل: إذا قال: انهضوا إلى الصلاة أو الجهاد أو خير مَّا فانهضوا.

(سبب النزول) وكان رجال يتثاقلون عن صلاة الجماعة إذا نادى المؤذِّن لها، فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ﴾.

١-رواه **مسلم** كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه... رقم٢١٧٧. ورواه **أحمد** في مسند ابن عمر، رقم٤٧٢١. من حديث ابن عمر.

٢-رواه **ابن حبَّان** في كتاب البرِّ والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، رقم٥٨٧. من حديث ابن عمر بدون ذكر: «ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا يفسح الله لكم».

٣-رواه **مسلم** كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه... رقم٢١٧٨. ورواه **البيهقي** في كتاب الجمعة، باب الرجل يقيم الرجل من مجلسه يوم الجمعة، رقم٥٩٩١. من حديث جابر.

﴿يَرْفَعِ اللهُ الذينَ ءَامَنُواْ منكُمْ﴾ الجزم في جواب «انشُزُوا»، والمعمول محذوف، أي: رفعة واحدة، أي: درجة واحدة بالنصر والجنَّة وحسن الذكر ﴿وَالذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: يرفعهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أي: رفعات بذلك، والرفعة والدرجة مرجعها إلى معنى واحد، والدرجات المذكورة للذين أوتوا العلم، سواء حضروا المجلس وفسح لهم أو لم يحضروا.

[قلت:] وإنَّما لم أعطف «الذينَ» على «الذينَ» و«دَرَجَات» المذكورة على الدرجة المحذوفة، لأنَّ النشز ممَّن نشز ليس فعلاً من الذين أوتوا العلم، اللَّهمَّ إلاَّ باعتبار أنَّهم السبب في نشز الناشز، فكأنَّه النشز فعلُهم، فيُثابوا، فيراعوا في الجزم في جواب الأمر، فيصحُّ ذلك العطف.

ويجوز أن يكون «الذينَ ءَامَنُواْ» و«الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ» متَّحدين بالذات مختلفين بالصفة، وهي الإيمان وإيتاء العلم، فتنزل التخالف بالصفة منزلة التغاير بالذَّات، فساغ العطف، وساغ العطف أيضًا من وجه آخر هو أنَّ العلماء في الآية أريدوا بالتفسُّح لهم، فهم مع سائر المؤمنين يضمُّهم مجلس ويتفسَّح لهم، وعلى **كلِّ حال في تمييزهم تسهيل للتَّفسُّح لهم على النفوس**، إذ كان من شأنها كراهة التفضيل عليها.

ويحتمل أنَّ «دَرَجَات» المذكور لهم جميعًا بلا حذف، فلعامَّة المؤمنين، لإكراههم النفوس على ما صعب عليها من التفسُّح، وللعلماء المتفسَّح لهم لعلمهم، وقد جاء: «**من تواضع لله رفعه الله**»[1].

(فضل العلم) وكما أنَّ للعلماء رفعة يوم القيامة وفي الجَـنَّة

١- رواه الربيع في كتاب الآداب (٥٢) باب نسمة المؤمن، رقم ٧٠٥، من حديث ابن عبَّاس، وأوَّله: «من عظَّم نفسه للناس وضعه الله، ومن تواضع...».

على سائر المؤمنين، تكون لهم رفعة في المجلس في الدنيا. وقد قيل: يحصل للعالم ما لا يحصل لغيره، فإنَّه يقتدى به في أقواله وأفعاله كلِّها، وشهر أنَّه يقتدى بقوله لا بفعله.

وعن أبي الدرداء مرفوعًا: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على الكواكب**»[١]. وجاء عنه ﷺ : «**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين النبيئين درجة**»[٢]. وقال رسول الله ﷺ : «**بين العالم والعابد مائة درجة، بين كلِّ درجتين حضر**[٣] **الجواد المضمر سبعين سنة**»[٤].

وقال ﷺ : «**يجمع الله العلماء يوم القيامة فيقول إنِّي لم أجعل حكمتي في قلوبكم إلاَّ وأنا أريد لكم الخير، اذهبوا إلى الجنَّة فقد غفرت لكم، على ما كان منكم**»[٥]، أي: لموتكم تائبين ولو خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيِّئًا. ويروى في الأثر: «إذا ورد المؤمن من باب الجنَّة قيل له: ادخل، وإذا ورد المؤمن العالم، قيل له: قف اشفع للناس». وقال عليه السلام : «**يشفع يوم القيامة الأنبياء**

---

١ -رواه **أبو داود** في كتاب العلم، باب الحثّ على طلب العلم، رقم٣٦٤١. وورواه **الدارمي** في كتاب أبواب متفرِّقة في صفات النبيء... باب في فضل العلم والعالم، رقم ١٠٤، من حديث أبي الدرداء.

٢-رواه **الدارمي** في كتاب أبواب متفرِّقة في صفات النبيء... باب في فضل العلم والعالم، رقم ٣٦٠، من حديث الحسن.

٣-مِنْ أحضر الجواد: عَدَا عَدْوًا شديدا.

٤-رواه **الدارمي** في كتاب أبواب متفرِّقة في صفات النبيء... باب في فضل العلم والعالم، رقم ٣٥٨، من حديث الزهري. مع اختلاف طفيف في اللفظ.

٥-رواه **الطبراني** في المعجم الصغير، كتاب باب العين، باب من اسمه عبد الله، رقم٥٩٢، من حديث أبي موسى.

والعلماء والشهداء»[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنّ رسول الله ﷺ مرَّ بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلّمون الفقه ويعلّمُونه، فقال ﷺ : «**كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضلُ من صاحبه، أمَّا هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه،** ـــ وفي رواية زيادة: «**فإن شاء أعطاهم وإن شاء ردَّهم**» ـــ **وأمَّا هؤلاء فيتعلّمون الفقه ويعلّمون الجاهل فهؤلاء أفضل، وإنَّما بعثتُ معلّمًا**»[2] ثمَّ جلس فيهم، وكأنَّ الله لا يَرُدُّ المعلّم والمتعلّم، فذلك مبالغة في فضلهما، إذ لم يقل فيهما: «إن شاء أعطاهم وإن شاء ردَّهم».

وعن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقّهه في الدّين**» رواه البخاري ومسلم ومثله في الترمذيِّ عن ابن عبَّاس والربيع.

وروى عن قيس بن كثير: قَدِمَ رجل من المدينة على أبي الدرداء، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي، قال: حديث بلغني أنَّك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ ، قال: أما جئت لحاجة غيره؟ قال: لا، قال: أما قدمت في تجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلاَّ في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال: فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة تضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنَّ العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتَّى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد**

١- رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (٤) باب ذكر الشفاعة، رقم٤٣١٣. ورواه البيهقي في شعب الإيمان، كتاب طلب العلم، باب فضل العلم، رقم١٧٠٧، من حديث ابن عفّان.

٢- رواه البزّار في البحر الزخّار، مسند عبد الله بن عمرو، رقم٢٤٥٨. ورواه الدارمي في كتاب العلم (٣٢) باب في فضل العلم والعالم، رقم٣٤٩. من حديث ابن عمرو.

كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما أورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافر»[1] رواه الترمذي وأبو داود، وروى الربيع جزءا منه.

وكأنَّه حديث شهر عن أبي الدرداء فعلم أبو الدرداء أنَّه مراد الرجل أو ذكر له الرجل بعضه فعلم مراده.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تهديد لمن لم يمتثل الأمر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أردتم مناجاته **﴿فقَدِّمُواْ...﴾** إلخ.

أكثَروا التناجي على رسول الله ﷺ، ولا سيما الأغنياء لحبِّهم الفخر بالمناجاة ولو في غير مهمٍّ، ويغلبون الفقراء على المجلس، حتَّى ثقل عليه ذلك، وأصابه الملل، وكان سخيَّ النفس لا يردُّ أحدًا عن حاجة، فأمرهم الله ﷻ أمر

١-رواه **الترمذيُّ** في كتاب العلم (١٩) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم٢٦٨٢. وراه **ابن ماجه** في كتاب العلم (١٧) باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم٢٢٢. من حديث أبي الدرداء.

ندْب، وقيل: إنَّه أمر إيجاب، وإنَّه نسخ بقوله ﷻ : ﴿ءَأَشْفَقْــتُم﴾ على الصحيح، وقيل: بالزكاة، أن لا يناجوه إلاَّ أنْ يقدِّموا صدقةً تكون بيد النبيء ﷺ تعظيمًا له ﷺ ، ونفعًا للفقراء، وإزالة للشحِّ عن النفس، وتمييزًا للمخلص المحبِّ للآخرة، والمنافق المحبِّ للدُّنيا، وإزالة لإكثار المناجاة.

(بلاغة) ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاٰيكُمْ﴾ شبَّه النجوى بالإنسان، ورمز إليه بلازم الإنسان، وهو اليدان، فذلك استعارة بالكناية، وإثباهما تخييل، ووجه الشبه التوصُّل إلى المقصود، فإنَّه يحصل بالنجوى كما يحصل باليدين في جلب النفع بهما. و«بَيْنَ» ترشيح.

والمراد به حضور الصدقة عند إرادة النجوى، وإعطاؤها قبل النجوى، وأولى من ذلك أن يكون في ذلك استعارة تمثيليَّة ﴿صَدَقَةً﴾ تكون في يده ﷺ للفقراء، وهو ﷺ لا يأكل الصدقة، ولا تعطى في الغيب ولو ممَّن لا يكذب تأكيدًا وسدًّا للذريعة أن يقول الإنسان: أعطيت، و لم يعط، ونكَّرها ليجزي القليل.

واستشار ﷺ الإمام عليًّا: «**أترى دينارًا ؟**» قال: لا يطيقونه، قال: «**نصف دينار؟**» قال: لا يطيقونه، قال: «**فكم ؟**» قال: شعيرة، أي: موزونها فضَّة، وقيل: ذهبًا، فقال: «**إنَّك لزهيد**».

وروى الحاكم وغيره عنه: «إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي: آية النجوى، عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، وكلَّما أردت المناجاة قدَّمت درهمًا، ثمَّ نسخت، فلم يعمل بها أحد بعدي». والنسخ كان على عشرة أيــَّام عدد دراهم الإمام عليٍّ المذكورة، كما قال مقاتل، وسؤاله وصدقته في عشرة أيــَّام.

وعن قتادة: بقيت الآية ساعة من النهار، وعليه فالسؤال والصدقة في ساعة، كلُّ مسألة بدرهم.

قال: قلت: يا رسول الله ما الوفاء؟ قال: «شهادة أن لا إله إلاَّ الله»، قلت: وما الفساد؟ قال: «الشرك بالله»، قلت: وما الحقُّ؟ قال: «الإسلام والقرآن والولاية إذا انتهت إليك»، قلت: وما الحيلة؟ قال: «ترك الحيلة»، قلت: وما عليَّ؟ قال: «طاعة الله ورسوله»، قلت: وكيف أدعو الله؟ قال: «بالصدق واليقين»، قلت: وماذا أسأل الله تعالى؟ قال: «العافية»، قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: «كُلْ حلالاً وقُلْ صدقًا»، قلت: وما السرور؟ قال: «الجنَّة»، قلت: وما الراحة؟ قال: «لقاء الله تعالى».

ويروى أنَّ الأغنياء أكثروا مناجاة رسول الله ﷺ حتَّى ملَّ، فنزلت الصدقة فشحُّوا بها، والفقراء لا يجدون ما يتصدَّقون به، فاستراح ﷺ المدَّة المذكورة.

[قلت:] وفي ذلك تعظيم له ﷺ ولكلامه حتَّى لا يوصل إليها إلاَّ بصدقة، وما لا يوصل إليه إلاَّ بالمال أفضل، وقيل: وقع النسخ قبل العمل، ويردُّ القولين خبر عليٍّ. وقد يترجَّح القول بالساعة بأنَّه لو طالت المدَّة لشاركت الصحابة عليًّا في ذلك، لشدَّة رغبتهم في الدين والسؤال عنه، ومجالسته ﷺ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من تقديم الصدقة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ للثواب على الصدقة، وعلى التصديق للوحي ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأنفسكم بتعويدها صرف المال في وجوه الخير، وتنفيرها عن الرغبة في إمساكه ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدَّقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبيح لكم أن تناجوه ﷺ بلا ندب إليها، ولا إيجاب ولكن ذكر الغفران والرحمة، وقوله: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُم﴾ أظهر في وجوبها على الواجد.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ من أن تقدِّموا. و«أشفق» لازم كفزع، وقدَّر بعضهم لام التعليل على تضمين «أشفق» معنى خاف، وتعديته إلى محذوف، أي: أخفتم الفقر لأجل تقديم الصدقات؟ وفيه

تكلُّف لا حاجة إليه. وأجاز أن يكون ﴿أَن تُقَدِّمُواْ﴾ مفعولا لـ﴿ءَأَشْفَقْتُم﴾ لتضمُّنه معنى خفتم، وأنت خبير أنَّ الأصل عدم التضمين.

[قلت:] وعلى كلِّ حالٍ عاب الله عليهم العجز عن أن يقدِّم كلُّ واحد منهم تقديم صدقات متعدِّدة مثل تسع وعشر عند كلِّ إرادة نجوى، وكيف تعجزون عن الواحدة ؟. وهذا أولى ممَّا قيل: إنَّ المراد كلُّ واحد بصدقة واحدة.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أمرتم به من الصدقة ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أسقط عنكم الصدقة، ضمَّن «إذْ» معنى إذَا، وأجابها بقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ كما قيل: إنَّها بمعنى الاستقبال في قوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ (سورة غافر: ٧١) ، وزعم بعض أنَّها حرف هنا بمعنى «إنْ» الشرطيَّة.

(نحو) وإن أبقيناها على المضيِّ لم نجد لها متعلَّقًا إذْ لا تُعلَّقُ ــ وهي للماضي ــ بـ«أَقِيمُوا» وهو مستقبل، إلاَّ إن اعتبر ما مضى وما يأتي وقتًا واحدًا متَّسعًا، ويجوز أن تكون مفعولاً به لمحذوف، أي: تذكَّروا ولا تنسوا وقت عدم فعلكم، وتوبة الله عليكم، وتداركوه وأجبروه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإطاعة، فإنَّ قوله: ﴿أَقِيمُواْ...﴾ على كلِّ حالٍ للتدارك وجبر ما فات، ودخل في الطاعة جميع الطاعات، ومنها التفسُّح، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهرًا وباطنًا يجازيكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ
عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٥
اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ
وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا

فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

جزاء المنافقين الذين يوالون غير المؤمنين

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ استفهام تعجيب من حال المنافقين الذين يتَّخذون اليهود أولياء، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، ويناصحونهم. والقوم اليهود. و«غَضِبَ...» نعت لـ«قَوْمًا»، وعدَّى «تَرَ» بإلى لمعنى تنظر. ﴿مَّا هُمْ﴾ ما هؤلاء الذين تولَّوا القوم ﴿مِّنكُمْ﴾ في نفس الأمر يا معشر المؤمنين، ولو أظهرُوا لكم أنَّهم منكم.

﴿وَلاَ مِنْهُمْ﴾ من القوم المغضوب عليهم وهم اليهود، إذ ليسوا على دينهم أيضًا، فهم منافقون بين اليهود والمؤمنين. قال ﷺ : «**مثل المنافق مثل الشاة العايرة بين غنمين**»[1]، أي: المتردِّدة لا تدري بم تلحق.

وجوز ابن عطيَّة[2] أن يكون «هُمْ» للقوم وهاء «مِنْهُمْ» لـ«الذينَ»، فيكون فعل المنافقين أخسَّ، لأنَّهم تولَّوْا قَوْمًا مغضوبًا عليهم ليسوا من أنفسهم، فيلزمهم ذِمامُهم، ولا من المحقِّين فتكون الموالاة صوابًا، وهذا لا يتبادر، إلاَّ أنَّه يناسبه ردُّ الضمير إلى أقرب.

وجملة «مَّا هُمْ...» نعت آخر لـ«قَوْمًا» على قول ابن عطيَّة كما هو

١- رواه **الدارمي** في كتاب العلم (٣١) باب من رخَّص في الحديث إذا أصاب المعنى، رقم٣١٨. من حديث ابن عمر.

٢- تَقَدَّمَ التعريف بالمفسِّر الأندلسي، انظر: ج١١، ص٢٥٣.

ظاهر، وعلى ما مرَّ لجواز الربط بما اتَّصَلَ بالمعطوف.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ عطف على «تَوَلَّوْا» بالتعجيب منسحب عليه، ويجوز عطفه على «مَا هُم مِّنكُمْ». و«عَلَى الْكَذِبِ» حال من الواو، أو متعلّق بـ«يحلف»، أي: ثابتين على الكذب، أو يحلفون في شأن الكذب. والكذب هو في حلفهم، ويجوز أن يكون الكذب بمعنى المكذوب به، على أنَّ المعنى على شيء غير واقع أنَّه واقع، أو بالعكس.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من واو «يَحْلِفُونَ». وفيه تشنيع عليهم بما هو من غاية القبح، وهو حلفهم مع علمهم على خلاف الواقع، وهذا الحلف حلفهم أنَّ الإسلام حقٌّ، وإنَّما كان كاذبًا لأنَّه مخالف لاعتقادهم، وقيل: حلفهم ما شتموا النبيء ﷺ .

(سبب النزول) قعد ﷺ مع أصحابه في ظلّ حجرة من حجره، وقال: «**يأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فلا تكلّموه**» فجاء رجل أزرق فقال ﷺ : «**علام تشتمني أنت وأصحابك**»؟ فقال: ذرني آتك بهم، فأتى بهم، فحلفوا، فنزلت الآية.

وعن ابن عبَّاس: فنزل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ الآيتين. وفي رواية: «**يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبَّار، وينظر بعيني شيطان**» فدخل عبد الله بن نبتل، أزرق أسمر قصيرًا خفيف اللّحية، فقال ﷺ : «علامَ تشتمني؟» إلى آخر ما مرَّ، وهو ابن الحارث بن قيس الأنصاري الأوسي. وقيل: هو صحابيٌّ، ولعلَّ القائل به لم يعلم بنفاقه، أو علم بتوبته من نفاقه، أو أراد أنَّه صحابيٌّ في الظاهر.

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا اِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة

بسبب حلفهم كاذبين، وهو نصٌّ في خطاب المشركين بالفروع ﴿اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ﴾ كاذبة ﴿جُنَّةً﴾ سترة عن المؤاخذة بما قد يظهر منهم من الإشراك وما دونه، فلا تباح دماؤهم وأموالهم وأولادهم ﴿فَصَدُّواْ﴾ كلَّ من تمكَّنوا من صدِّه ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ إخلاص الإيمان والجهاد، والدخول في الإسلام، وقيل: صدُّوا المسلمين عن قتلهم بكلمة الشهادة التي يتلفَّظون بها.

والمقام مقام التشنيع عليهم بالسعي في تضعيف أمر المؤمنين، وجرِّ الناس إلى الكفر، فيضعف تفسير الصدِّ بمجرَّد الإعراض على أنَّه لازم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الآخرة بسبب صدِّهم، فذلك عذاب شديد فيها بسبب حلفهم، وعذاب آخر مهين فيها بسبب صدِّهم، وهذا أولى ممَّا قيل: عذاب واحد وصف بالشدَّة وبالإهانة، ألا ترى كيف فرَّع الأخير على الصدِّ؟ فبان أنَّه غير الأوَّل، وأيضًا النكرة الثانية غير الأولى على القاعدة. وقيل: العذاب الشديد في القبر، والعذاب المهين في الآخرة، ولا دليل على هذا التفصيل، نعم الإهانة يتبادر منها الظهور، ولا ظهور في القبر بل في الموقف.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمُ, أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم﴾ يوم القيامة مع افتخارهم بها في الدنيا، وإهلاك أنفسهم بها فيها، ومع دعوى أنَّهم كما احترموا بها فيها يحترمون بها في الآخرة ﴿مِّنَ اللهِ﴾ حال من قوله: ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، بمعنى لن تدفع عنهم مضرَّة جائية من الله ﷻ.

﴿اوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والخلود في النار لا ينافي الزمهرير، لأنَّ المراد بالنار إمَّا دار العذاب الشاملة للزمهرير لا خصوص النار، وإمَّا النار المحرقة بمعنى أنَّها لهم دائمًا، ولو كانوا ينقلون عنها تارة وتارة إلى الزمهرير، لكن لا يدوم انقطاعُهم عنها، وإمَّا النار المحرقة باعتبار أنَّها الغالب عليهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ متعلِّق بـ«تُغْنِي» أو بـ«خَالِدُونَ» على أنَّ

زمان البعث والموقف وما بعد ذلك زمان واحد، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ قائلين: «والله ربّنا ما كُنّا مشركين». ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا إنّهم مسلمون.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ جالب للخير دافعٍ للضرّ، كما دفعوا الضرّ وجلبُوا النفع في الدنيا بإيمان ألسنتهم، عطف على «فَيَحْلِفُونَ لَهُ»، ويجوز عطفه على «يَحْلِفُونَ لَكُمْ»، أي: وكما يحسبون في الدنيا، والأوّل أظهر، يزعمون أنّ أيمانهم الكاذبة تروج عنده ﷻ، كما راجت في الدنيا.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ الكاملون في الكذب، الكاذبون غاية الكذب، إذ زعموا أنّ كذبهم يخفى عن الله ﷻ فلا يعاقبهم.

(لغة) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ تغلّب على قلوبهم بوسوسته وتزيينه تغلّبًا شديدًا، كما يقال: حاذ يحذو الإبل، أي: ساقها سوقًا شديدًا بعنف، وكما يقال: استحوذ الحمار على الأتان: استوى على جانبي ظهرها، وكما قالت عائشة: إنّ عمر كان أحوذيًّا، أي: مشمّرًا في الأمور قاهرًا لها، وهذا اللّفظ شاذٌّ قياسًا، فصيح استعمالا، فإنّ القياس: "استحاذّ" بنقل فتح الواو إلى الحاء وقلبها ألفًا.

﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ صيّرهم ناسين لذكر الله، أي: تاركين بوسوسته وتزيينه، لا يذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم إلاّ قليلاً، غير مخلص وغير نافع. أو المراد: ذكر القلب، وهو التأثّر والاتّعاظ، ولو لم يتركوا الذكر اللّساني.

والشيطان فيما مرَّ أو يأتي الجنس أو إبليس، لأنّ كلّ معصية صدرت من أحد معصية منه، لأنّه سنّ المعصية وبثّ جنوده في الأمر بها.

قال شاه الكرماني[1]: «علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكُّر في آلاء الله تعالى ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربِّه ﷻ بالغيبة والكذب والبهتان والنميمة، ويشغل لبَّه عن التفكُّر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها». وفي رواية إسقاط النميمة، واللُّب: النور الذي من شأنه أن يكون في القلب.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المذكورون بالأسواء ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنوده المعينون له المتَّبعون له ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ غاية الخسران، لأنَّهم فوَّتوا على أنفسهم ما لهم من أجر الدنيا والآخرة بالعذاب الدَّائم. وأكَّد ذلك بالجملة الاسميَّة و«أَلَا» و«إِنَّ» و«هُمْ»، وإظهار «حزب» و«الشيطان» في مقام الإضمار.

والخسران الذي هو غير كاملٍ خسرانُ الإنسان في أمر من أمور الدنيا، وبطلان بعض أعماله، وإهباطه عن درجة في الآخرة إلى ما هي أدنى مع سعادته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ

١-لعلَّه محمَّد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني، ولد سنة ٧١٧هـ في كرمان، أخذ العلم عن والده وعضد الدين الإيجي، وكان عالما بالفقه والتفسير والحديث والأصول، استوطن بغداد، وتصدَّى لنشر العلم بها مدَّة ٣٠ عاما، وقد تُوُفِّيَ ببغداد سنة ٧٨٦هـ. له حاشية على تفسير الكشَّاف للزمخشري بعنوان «أنموذج الكشَّاف». عادل نويهض: معجم المُفَسِّرِينَ، ج٢، ص٦٥٦.

فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

جزاءُ المعادين لله تعالى والرسول ﷺ

والوعدُ بنصر المؤمنين، وتحريمُ موالاة الأعداء

﴿إِنَّ الذِينَ يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ, أُوْلَئِكَ فِي الاَذَلِّينَ﴾ استئنافٌ لذمٍّ آخَرَ عامٌّ لمن تقدَّم من المنافقين ولسائر المشركين، ولا يظهر ما قيل: إنَّه استئناف للتعليل.

ولا يخفى ما فيه من التأكيد بـ«إنَّ» والجملةِ الاسميَّة، وذكْرِ الإشارة، وكونِها بلفظ البعد، وقولِه: ﴿فِي الاَذَلِّينَ﴾ بدل «الأذلون» بالرفع وإسقاط «في»، أو بدل «أذل»، وذلك اسم تفضيل فهم أذلُّ من كلِّ ذليل، كما أنَّ عزيز الآخرة أعزُّ من كلِّ عزيز؛ وكما أنَّ عظمة الله تعالى لا منتهى لها يكون ذلٌّ من عصاه لا غاية له.

﴿كَتَبَ اللهُ﴾ قضى وحكم، أو أثبت في اللوح المحفوظ، والمفعول محذوف، أي: كتب الله ﷻ الغلبة، وهذا تأكيد أعظم من القسم، فأجيب كما يجاب القسم بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِيَ﴾ أو يقدَّر حال ناصب لقسم محذوف وجوابه، أي: قائلاً والله لأغلبنَّ، أو مفعول لـ«كَتَبَ»، أي: كتب في اللوح المحفوظ هذا اللفظ.

والمراد بالغلبة ما يعمُّ الغلبة بالسيف أو الحجَّة، أو الانتقام في الدنيا، والغلبة بالحجَّة دائمة، فتارة تنفرد، وتارة تقترن معها الغلبة بالسيف، وتارة تقترن بها الغلبة بالانتقام، ولاطِّراد الغلبة بالحجَّة فسَّر بعضهم الغلبة بها، وليس كذلك.

(سبب النزول) فعن مقاتل: لَمَّا فتح الله تعالى للمؤمنين مَكَّة والطائف وخيبر وما حولها، قالوا: نرجو أن يفتح الله علينا فارس والرُّومَ، فقال أُبي لعنه الله: أتظنُّون أنّ فارس والروم كبعض ما فتحتم؟ كلاَّ إنَّهما لأعظم وأكثر وأشدُّ بطشًا، فنزل: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِيَ﴾.

﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ﴾ على نصر رسله ﴿ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه أحد عمَّا أراد، والحرب ولو كانت سجالاً لَكِنَّ العاقبة لغلبة المؤمنين، كما أنَّ المؤمنين غالبون يوم بدر، ومغلوبون يوم أحد، والعاقبة غلبتهم، كما فتحت مَكَّة إلى أن كان زمان هارون الرَّشيد عرس الإسلام.

ومن انتقام الله في الدنيا إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، ونمرود وقومه، وقوم لوط وقوم فرعون معه، وأصحاب الأيكة، ومسخ من مسخ من اليهود والنصارى، وإذلال اليهود إلى قيام الساعة.

﴿لاَ تَجِدُ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للخطاب ﴿قَوْمًا يُومِنُونَ﴾ نعت لـ«قَوْمًا»، أي: قومًا مؤمنين، قيل: نزلت الآية في حاطب إذ كاتب أهل مَكَّة بأنَّ رسول الله ﷺ يستعدُّ لفتح مكَّة. وعن الثوري: نزلت فيمن يصحب السلطان، لقي المنصور عبد العزيز بن أبي روَّاد[1]، فهرب منه وتلا الآية.

﴿بِاللهِ﴾ أي: ورسوله بدليل ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ,﴾ ﴿وَالْيَوْمِ الاَخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا مخلصًا ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ,﴾ مفعول ثانٍ لـ«تَجِدُ» بمعنى تعلم، أو نعت أو حال من «قَوْمًا» لنعته، أو من واو «يُومِنُونَ»

١-عبد العزيز بن أبي رواد ميمون، وقيل ابن أيمن بن بدر، مولى المهلب بن أبي صفرة الأزدي المكّي، أحد الأئمَّة العبَّاد، حدَّث عن الضحَّاك وعكرمة، وحدَّث عنه ولده عبد المجيد ويحيى القطَّان وغيرهم. وثَّقه يحيى بن معين والرازي، وقد روى له البخاري. تُوُفِّيَ سنة ١٥٩هـ. الحمصي: تهذيب أعلام النبلاء، ج١، ص٢٥٥.

على أنَّ «تَجدُ» بمعنى تلقى أو تصادف، فمن وَالَى من حادَّ الله ورسوله فليس مؤمنًا إيمانًا صحيحًا مخلصًا.

والنفي باق على ظاهره، وهو الصحيح، ويجوز أن يكون الكلام من باب التخيُّل، خيَّل أنَّ من الممتنع المحال أن تجد قومًا مؤمنين ــ إيمانًا مطلقًا ولو غير مخلص ــ يوادُّون المشركين، بمعنى لا ينبغي أن يكون ذلك ولو كان فقد جعل الواقع كعدم الواقع لعدم لياقته، فالنفي متسلِّط على اللِّياقة.

ومعنى «يُوَادُّونَ» يتحبَّبون ويوالون. والآية تشمل بالمعنى من يوادُّ السلطان الجائر الموحِّد، وأمَّا بالنزول ففي المحادِّين المشركين، وذكر سفيان أنَّها نزلت فيما يرون لشأن من يخالط السلطان.

وفي الحديث القدسيِّ: «**وعزَّتي وجلالي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي**». وقال رسول الله ﷺ : «**اللَّهمَّ لا تجعل لفاجر ولا فاسق عليَّ يدا ولا نعمة فيودُّه قلبي، فَإِنِّي وجدت فيما أوحي إليَّ: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ يُوَآدُّونَ ...﴾**».

(أصول الدين) ولا يتحبَّبُ إلى مبتدع ولا يؤنس، ولا يؤاكل ولا يشارب، ولا يصاحب، ولا يضاحك، فذلك سبب لنزع نور الإيمان، قال التستري[1]: من صححَّ وأخلص توحيده فإنَّه لا يأنس بمبتدع، ولا يجالسه ويظهر له من نفسه العداوة، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب متبدعًا لطلب عزِّ الدنيا أو غناها أذلَّهُ الله بذلك العزِّ، وأفقره بذلك الغنى. وكان بعض المتصوِّفة يفعل ذلك ولا يقلع، وقد قالوا: كلُّ تصوُّف خالف تصوُّف الجنيد[2] فهو بدعة.

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج٥، ص٢٢٧.

٢- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج١٠، ص٢٩٧.

﴿وَلَوْ كَانُواْ﴾ أي: من حادَّ وضمير الجماعة للمعنى، والإفراد في «حَادَّ» للَّفظ ﴿ءَابَاءَهُمْ﴾ آباء القوم الموادِّين ﴿أَوَ اَبْنَاءَهُمْ, أَوِ اخْوَانَهُمْ, أَوْ عَشِيرَتَهُمْ,﴾ المراد مطلق الأقارب، بل الأمُّ والجدُّ وما ذكر تمثيل، وقدَّم الآباء لوجوب طاعتهم وبرِّهم على الأبناء، وثنَّى بالأبناء لكونهم أكبادًا للآباء، وثلَّث بالإخوان لأنَّهم أعضادٌ، والمراد بالأخ في قوله:

أخاك أخاك إنَّ من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح[1]

ما يشمل الأخ بالنسب أو الرضاع، أو التناصر. وختم بالعشيرة لأنَّهم يلون الإخوان في النصر.

وَلَمَّا كان الكلام في التغنِّي حمل الأبوَّة على النسَبيَّة، لا على ما يشمل الجدَّ وأبوَّة الرضاع وأبوَّة التبنِّي، وحمل البنوَّة على النسبيَّة لا على ما يشمل بنوَّة التبنِّي وبنوَّة الالتقاط وبنوَّة الرضاع، وحمل الأخوَّة على الأخوَّة النسبيَّة الشقيقيَّة والعشيرة على الخُلَّص لا على ما يشمل اللصيق.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الاِيمَانَ﴾ أي: أثبته، وعبَّر بالكتابة لأنَّها أقصى ما يحافظ به في ثبوت ملك شيء، فلو أعطيت إنسانا شيئا وأشهدت لكانت الكتابة أشدَّ حرزًا له. ويراد الشيء، ثمَّ يُقال، ثمَّ يُكتب.

(أصول الدين) قيل: دلَّت الآية على خروج العمل عن الإيمان، لأنَّ جزء الشيء الثابت في القلب ثابت فيه قطعًا، ولا شيء من أعمال الجوارح ثابت فيه، لكنَّه شرط للإيمان ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ ؟.

١- البيت من الشواهد لمسكين الدارمي، ونسبه البعض لابن هرمة، وبعض لقيس بن عاصم. إميل بديع يعقوب: معجم الشواهد، ج٢، ص١٣٧.

﴿وَأَيَّدَهُم﴾ قوّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ من عنده، والروح نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء تحصل به الطمأنينة والتحقيق، وتسميته روحًا مجاز لعلاقة التسبُّب للحياة الطّـيِّـبَة الأبديَّة، أو لعلاقة الشبه، فإنَّه من لم يكن له ذلك النور كميِّت فهو كالحياة لمن هو فيه.

أو الروح القرآن لعلاقة الشبه، وهو أولى من علاقة التسبُّب، أو جبريل، فقد شاع تسميته روحاً، والتأييد بجبريل للوحي، أو يوم بدر. أو هاء «مِنْهُ» للإيمان والروح أيضًا الإيمان، عظَّم الإيمان حتَّى كأنَّه تولَّد منه إيمان آخر، على طريق التجريد.

(نحو) و«مِنْ» التجريدية ابتدائية، أو بيانية، قولان، نحو: ترى من زيد البحر.

(سبب النزول) والآية في أبي بكر سمع أباه يسبُّ رسول الله ﷺ فصكَّه صكَّة سقط بها، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: أفعلت يا أبا بكر؟ قال: نعم، فقال: لا تعد، فقال: والله لوكان السيف قريبًا منِّي لضربته، ويروى: لقتلته. أو في أبي عبيدة بن عبد الله بن الجرَّاح أكثر أبوه التعرُّض لقتله، وهو يميل عنه، وَلَمَّا رأى ذلك قتله، قيل: ذلك يوم أحد، والصحيح أنَّه يوم بدر كما ذكر البخاريُّ ومسلم أنَّه أسر يوم بدر، فسمعه أبو عبيدة يسبُّ رسول الله ﷺ فقتله. أو نزلت في أبي بكر إذ دعا ابنه إلى البراز يوم بدر، أو في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيدة بن عمير يوم أحد، أو في عمر قتل خاله العاصي بن هشام يوم بدر، أو نزلت في هؤلاء كلِّهم، وهو أولى.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾: يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه الجرَّاح يوم أحد، ﴿أَوَ اَبْنَآءَهُم﴾: يعني الصدِّيق رضي الله عنه دعا ابنه إلى البراز

يوم بدر، وقال: يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى، فقال له رسول الله ﷺ : متِّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما علمت أنّك منِّي بمنزلة السمع والبصر؟ ﴿أوِ اخْوَانَهُمْ﴾: يعني مصعب بن عمير، قتل أخاه عبد الله بن عمير، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وهو من عشيرته وعلي بن أبي طالب وحمزة وأبا عبيدة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة يوم بدر.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ قَبِلَ عملَهم وأثابهم عليه ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ عملوا بما أمرهم به، أو شكروه وحمدوه، وابتهجوا بما لهم عاجلاً وآجلاً.

﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ﴾ وحدهم لا غيرهم، ولا هم مع غيرهم ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ اللهمَّ بفضلك وسعة رحمتك اجعلنا منهم على ما كان.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

تفسير سورة الحشر وآياتها ٢٤

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي
الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ⑤ ﴾

بيان بعض قدرة الله تعالى وإجلاء يهود بني النضير

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عبَّاس: سورة الحشر، فقال: قل سورة بني النضير، أي لئلاَّ يظنَّ أنَّ الحشر حشر يوم القيامة، وإنَّما المراد إخراج بني النضير، رواه البخاري، وتمسيتها سورة الحشر مكروهة.

﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مثل أوَّل سورة الحديد، إلاَّ أنَّ هنا تكرير «ما» زيادة في التأكيد، والتنبيه على استقلال ما في السماوات بالتسبيح، واستقلال ما في الأرض بالتسبيح.

﴿هُوَ الذِي أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ «مِنْ» للتبعيض، متعلِّق بمحذوف، حال من «الذينَ» **﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾** «مِنْ» للابتداء متعلِّق بـ«أَخْرَجَ».

والآية بيان لبعض آثار قُدْرتِه تعالى، و﴿الذِينَ كَفَرُواْ﴾ بنو النضير، قبيلة عظيمة من يهود خيبر، ويقال لها ولقريظة: الكاهنان، لأنَّهما ولدا الكاهن هارون.

(قصص) خرجوا من الشام إلى قريب من الشام انتظارا لخروج رسول الله ﷺ ليؤمنوا به، ويعينوه، و لم يؤمن به ﷺ من أدركه من ذريَّتهم إلاَّ قليل. وقيل: إنَّ موسى عليه السلام أرسلهم إلى قتل العمالقة كلِّهم و لم يقاتلوا، ورجعوا وقد مات موسى وردَّهم بنو إسرائيل عن الشام لأنَّهم عصوا موسى عليه السلام، فسكنوا الحجاز.

(سيرة) يروى أنَّه لَمَّا دخل النبيء ﷺ المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، ولَمَّا ظهر ﷺ على المشركين يوم بدر، قالوا له: إنَّه الذي نجده في التوراة لا تردُّ له راية، ولَمَّا هُزم المسلمون في أحد ارتابوا ونقضوا الصلح، وركب كعب بن الأشرف في أربعين إلى مكَّة وتواثقوا مع أربعين من قريش، فيهم أبو سفيان تحت أستار الكعبة، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ بذلك، وأمره بقتل كعب فقتله محمَّد بن مسلمة غيلة.

(سيرة) ومن قبل ذلك أتاهم رسول الله ﷺ يستعينُهم في دية المسلمَيْن اللذين قتلهما عمرو بن أميَّة الضميري في منصرفه من بئر معونة، فهمُّوا بطرح حجر عليه من الحصن، فأخبره الله تعالى فرجع إلى المدينة، فكتب إليهم أن قد نقضتم العهد، ولَمَّا قتل كعب أمر ﷺ الناس بالمسير إلى بني النضير، وهم في قرية تسمَّى زهرة، ووجدهم ينوحون على كعب، فقالوا: يا محمد واعية بعد واعية وباكية بعد باكية ؟ فقال: نعم، قالوا: دعنا نبك وافعل أمْرك. وكتب إليهم: اخرجوا من القرية، فقالوا: الموت أقرب من ذلك، وتنادوا بالحرب، وكتب إليهم أُبي بن سلول ومن معه: لا تخرجوا نقاتل معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، ودرجوا على الأزقَّة وحصَّنوها.

فقالوا له بقصد الغدر: اُخرج إلينا في ثلاثين ونخرج إليكم في ثلاثين فإن صدَّقوكَ آمنَّا، ففعل، ثمَّ قالوا: كيف نصل إليه وهو في ثلاثين كلٌّ واحد يفديه بنفسه؟ فكتبوا إليه: كيف يفهم الكلام في ثلاثين مع ثلاثين؟ ولكن ثلاثة منَّا وثلاثة منكم، وأعدُّوا الخناجر.

وكتبت يهوديَّة بذلك إلى أخيها من الأنصار، وهو مسلم فسارع إليه ﷺ فأخبره سرًّا قبل أن يصل، فرجع ﷺ فصبَّحهم بالكتائب وحصرهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخلهم، فقذف في قلوبهم الرعب وأيسُوا من ابن أبي سلول، فصالحهم على أن يخرجوا بما حملت إبلهم إلاَّ السلاح، وعن ابن عباس: عَلَى أن يحمل أهل كلِّ بيت على بعير ما شاءوا، وقيل: لكلِّ ثلاثة نفر بعير، وسقاء، ففعلوا إلى أدرعات وأريحا من الشام، إلاَّ آل أبي الحقيق وآل ابن أخطب فلحقوا بخيبر، وطائفة بالحيرة وذلك في مرجعه ﷺ من أحد. وفتح قريظة في مرجعه من الأحزاب، وبينهما سنتان.

وليس ﴿الذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الآية بني قريظة، كما قال الحسن: إنَّهم بنو قريظة. ومن الغريب ما قيل: إنَّ «هُوَ» مستعار لاسم الإشارة، إذ لا دليل على ذلك ولا داعي، فإن كان الداعي تكلُّف اسم مشعر بالعزَّة والحكمة مثل قولك: ذلك المتَّصف بالعزَّة والحكمة، فإنَّه يكفي في ذلك ردُّ الضمير إلى الله الموصوف في الآية بالعزَّة والحكمة.

﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ اللاَّم للتوقيت، كقولك: كتبته لخمس مضين، وفيها معنى في، ولم تخل عن التلويح إلى أصلها وهو الاختصاص، فإنَّ ما وقع في وقت مخصوص بذلك الوقت، كذا قيل. قلت: بل مفيد الاختصاص مدخولُها دُونَها.

وقيل: للتعليل، ويردُّه أنَّ الإخراج هو أوَّلُ الحشر، فهو تعليل للشيء بنفسه. والحشر حشرهم إلى الشام، قال رسول الله ﷺ : «اخرجوا»، فقالوا: إلى أين؟

قال: «إلى أرض المحشر»، ومعنى كونه أوَّلاً أنَّه لم يصبهم إخراجٌ إليها قبل، وليس هناك إخراجٌ ثانٍ.

واعترض هذا بأنَّ بختنصَّر قد أخرجهم فما معنى الآية ؟ قلت: بختنصَّر أخرجهم عن الشام، وهذا إخراج إليه، وأيضًا الأوَّليَّة في الإسلام، وبختنصَّر قبل، وأيضًا المخرجون في الآية لم يكونوا على عهد بختنصَّر بل غيرهم، وليسوا من ذرِّيـــَّاتهم، وقد قيل: إنَّ بختنصَّر أخرجهم من الشام إلى جزيرة العرب، وهم غير الذين أخرجهم بنو إسرائيل المذكورين آنفًا لَمَّا خالفوا موسى بعد موته.

وقيل: للحشر الأوَّل المذكور في الآية حشر ثانٍ هو إخراج عمر إيَّاهم من أرض العرب إلى الشام، وقيل: حشرهم يوم القيامة من قبورهم إلى الشام، لأنَّه أرض المحشر، وقيل: الحشر الثاني حشر لهم ولغيرهم بنار تخرج من أقصى عدن إلى المغرب وهو الشام عند قرب الساعة[1].

وقيل: المراد بالحشر الأوَّل حشره ﷺ المسلمين لقتال اليهود، ولو لم يحشر المسلمين كلَّهم إليه بل جملة منهم فقط، حتَّى إنَّه مشى ﷺ على حمار مخطوم بليف لعدم اكترائه بهم. وقيل: المراد حشر اليهود أنفسهم ليقاتلوا المسلمين.

[قلت:] وقد نسخ الحشر للمشركين الكتابيين والمجوس إلى غير بلدهم، بل الإسلام وإلاَّ فالجزية وإلاَّ فالقتل، وأمَّا غير هؤلاء فالإسلام أو القتل.

١- كذا في النسخ، ولَعَلَّ الصواب: «من أقصى عدن إلى الشرق وهو الشام»، لأنَّ عدن في الجنوب الغربي من الحجاز. وقد أورد **الهيثمي** حديثا لرسول الله ﷺ بلفظ: «إنَّ أوَّل أشراط الساعة نار تخرج من المشرق وتحشرهم إلى المغرب»، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح». الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٨، ص١٣.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيـها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ لشدَّة بأسهم فيما قيل، ووثاقة حصونهم، وكثرة عددهم وعدَّتهم، كما أشار الله ﷻ إلى منعة حصونهم وقوَّتها بقوله:

﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر سببيٌّ ﴿حُصُونُهُم﴾ فاعل (نحو) «مَانِعَتُهُمْ»، أو «مَانِعَتُهُمْ» خبر لـ«حُصُونُهُمْ»، والجملة خبر «أَنَّ»، لا مبتدأ خبره «حُصُونُهُمْ»، لأنَّ فيه إخبارًا بالمعرفة عن النكرة، وهي «مَانِعَتُهُمْ»، لأنَّ إضافته لَفْظِيَّة، لأنَّه للاستقبال، وكأنَّه منوَّنٌ ناصب للضمير بعده، كأنَّه قيل: إيَّاهُم مانعة.

ولم يقل: وظنُّوا أن لا يخرجوا مع أنَّه أنسب بقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ بل قال: ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُم...﴾ لتفاوت الظنَّين، ظنَّ المؤمنون أنَّ اليهود لا يخرجون، وظنَّ اليهود أنَّ حصونهم مانعة، فإنَّ واو «ظَنُّوا» لليهود وظنُّهم قريب من يقينهم، فجيء بالجملة الاسميَّة، وقدم «مَانِعَتُهُمْ» على أنَّه خبر مقدَّم تأكيدًا بالحصر، أي ما حصونهم إلاَّ مانعة، وفي قول بعض في مثل هذا الحصر: إنَّ المعنى: لا مانع إلاَّ حصونهم.

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ من بأس الله ﷻ، وذلك لِقُوَّة جهلهم، حتَّى صاروا في نوعٍ آخر من الإشراك، وهو ظنُّهم أنَّهم مانعتهم حصونهم من حزب الله تعالى، وهم النبيء والمؤمنون. ولا يجوز أن يكون واو «ظَنُّوا» للمؤمنين، لأنَّ المؤمنين لا يَظُنُّون أنَّ شيئًا مَّا من الأشياء يمنع من الله ﷻ، ولولا لفظ «مِنَ اللهِ» لاحتُمِلَ أن يَظُنُّوا أنَّ اليهود تمنعهم من الفتح، إلاَّ إذا أخبرهم الله ﷻ أنَّها تفتح.

وحصونهم ستَّة: الكُتَيْبة (بالتصغير)، والوطيح (بفتح الواو وبالحاء المهملة)، والسّلالِم (بضم السِّين وفتحها، وكسر اللام بعد الألف بلا ياء بعد اللام، وبالياء)، والنطاوة والوخدة وشقا.

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ كناية عن إخراجهم وإخراب ملكهم، أو يقدَّر مضاف، أي: أتاهم أمر الله ﷻ ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ لم يخطر ببالهم، وذلك أنَّه قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنَّه زال أمنهم وطمأنينتهم بقتله، وكسرت شوكتهم.

وقيل: هاء «أَتَاهُم» وواو «لَمْ يَحْتَسِبُواْ» للمؤمنين، وإنَّ المراد: أتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، ويردُّه أنَّ الضمائر قبله في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ والضمائر بعده في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ...﴾ لليهود، وفي ردِّ الهاء والواو بينهما للمؤمنين تفكيك الضمائر بلا داعٍ ولا دليل.

﴿وَقَذَفَ﴾ القذف: الرمي الشديد، أو الرمي من بعيد، والمراد هنا الإثبات الشديد، استعارة من الحِسِّيِّ للعقليِّ، وهو إثبات الرعب في قلوبهم.

(لغة) ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف الشديد، من رعبت الحوض إذا ملأته، كذا قيل، ووجهه أنَّ ملءَ الحوض حسِّيٌّ وملء القلب عقليٌّ، والحسِّيُّ أقوى، ولذا لم يجعل رعب الحوض مأخوذًا من رعب القلب.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِم﴾ يهدمونها ليسُدُّواْ بحجارتها وطوبها وخشبها أفواه الطرق عن المؤمنين، ولئلاَّ ينتفع المسلمون بسكناها بعدهم، وليرحلوا بما رغبوا فيه من عمود وباب ونحوه، قيل: وليرموا المؤمنين بما نقضوا، وليخرجوا من باطن إلى ظاهر، والمؤمنون يخربون من ظاهر، وهذا أمر عجيب، إلاَّ أنَّ الرمي للقتال ولا قتال، ولعلَّهم خافوا القتال، أو ربَّما قاتلوا، أو العَامَّة أو بعضهم لا يعلمون بحقيقة الصلح. وكذا قول اليهود: دعوا النخل لمن غُلب عليه، يدلُّ على وقوع القتال، ولعلَّه كان قتال خفيف ثمَّ أذعنوا للصلح.

﴿وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ﴾ لأنَّهم يخربوها من خارج ليدخلوا على اليهود، وليزيلوا تحصُّنهم، ويتَّسع المجال للقتال، ولزيادة الانتقام منهم. وأسند إخراب أيدي المؤمنين إليهم لأنَّهم السبب بكفرهم، ففي قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ جمع بين الحقيقة والمجاز، فإخرابهم بأنفسهم حقيقةٌ، وإخرابهم بيوتهم بأيدي المؤمنين مجاز، أو يحمل على عموم المجاز، بمعنى: يضرُّون أنفسهم.

(بيان) والجملة مستأنفة بيان للازم الرعب، فإنَّ الإخراب من لوازمه، أو بولغ في رعبهم، حتَّى إنَّه نفس الإخراب، فيكون تفسيرًا له، والأوَّل أولى، أو مستأنفة جواب لسؤال كأنَّه قيل: ما حالهم بعد الرعب أو مع الرعب؟ فأجيب بأنَّهم يخربون، ويصحُّ أن تكون حالاً من هاء «قُلُوبِهِم» ولو مضافًا إليها، لأنَّ المضاف جزء من مضمونها.

﴿فَاعْتَبِرُواْ يَآ أُولِي الاَبْصَارِ﴾ اتَّعظُوا بما صار فيهم من الأمور الغريبة، وأنواع الانتقام منهم، لكفرهم وغدرهم، واعتمادهم في ذلك أيضًا على غيرهم من الناس وعلى حصونهم.

﴿وَلَوْلآَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ﴾ قضى الله، و«أَنْ» خفيفة لا مخفَّفة لعدم «قد» أو السين أو سوف. أو الجملة الاسميَّة أو الفعل الجامد بعدها، والمصدر المؤوَّل مبتدأ، أي: ولولا كَتْبُ اللهِ (بإسكان التاء وضمِّ الباء وجرِّ الهاء).

(لغة) ﴿الْجَلآَءَ﴾ الخروج عن أوطانهم، مِنْ "جَلاَ" اللازم، يقال: جلا، أي: خرج، أو الإخراج مِنْ "جَلاَ" المتعدِّي، جلاهُ، أي: أخرجَهُ، ويعدَّى اللازم أيضًا بالهمزة، وقيل: الجلاء والإجلاء مع الأهل والولد، والإخراج معهما ودونهما، وقيل: الجلاء والإجلاء لجماعة والإخراج لها أو لواحد.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل ومشاهدته قبله، كما فعل بأهل بدر، وكما فعل سنة خمسٍ بقريظة إذ اقتضته الحكمة ﴿وَلَهُمْ فِي الاَخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ هذا

وقوله: ﴿لَوْلَآ أَنْ...﴾ معطوفان على «يُخرِبُونَ» إذا لم يجعل «يُخْرِبُونَ» تفسيرًا للرعب أو للاَزمه، إذ ليسا معنى للرعب ولا للازمه، كما أنّ «يُخْرِبُونَ» تفسير له أو للازمه.

ويقال: الجلاء أشدُّ عليهم من القتل، ولا يخفى أنّ القتل أشدُّ بالطبع، ولأنّهم يصلون به إلى عذاب الآخرة في قبورهم وما بعد قبورهم، ولكن قبَّحهم الله لا يعتقدون أنّهم معذّبون في القبور وبعدها، وأيّام الحياة بعد الجلاء قلائل كالعدم مع تنغُّصها بمفارقة الوطن والتغرُّب، وإن اعتقدوا عذاب القبر وما بعده فقد أعرضوا عنه لقسوة قلوبهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ النازل بهم وما سيترل بهم في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ خالفوا الله ورسوله، بارتكاب ما نهوا عنه، مع الإصرار عليه.

﴿وَمَن يُشَآقِّ﴾ سواء كان هؤلاء أو غيرهم ﴿اللَّهَ﴾ أي: ورسوله، فذلك من باب الاكتفاء، لدليل قوله تعالى: ﴿شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أو لا حذف، لأنّ مشاقّة الله ﷻ مشاقّة لرسوله ﷺ .

ووجه الحذف أو عدم التقدير أصْلاً أنّ شدَّة العقاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ مختصَّة بالله تعالى. وإسناد التعذيب إلى الله ﷻ دون ذكر مخلوق معه ــ ولو أفضل الخلق ﷺ ــ أهولُ من ذكره مع المخلوق. والرابط محذوف، أي: فإنّ الله شديد العقاب له. أو الجواب محذوف، أي: يعاقبه الله، نابت عنه علّته، أي: يعاقبه لأنّ الله شديد العقاب، كذا قيل، وفيه أنّ المقدَّر لا يعلّل بشدَّة العقاب، بل بمطلق العقاب المعتاد المطلق للعصاة، أي: يعاقبه لأنّ شأنه ترك الإهمال، وليس هذا في الآية إلاّ إن أريد في الآية الشدَّة باللزوم وترك الاهمال، وهو تكلُّف، وإن قدِّر: يشدِّد عقابه لأنّ الله شديد العقاب، نَاسَبَ.

﴿مَا قَطَعْتُم﴾ أيُّها المؤمنون ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بيان لـــ«مَا»، فهو نعته.

(لغة) واللِّينة النخلة مطلقًا ولو عجوة أو برنيًّا، وعن ابن عبَّاس: النخل كلُّه لينة إلاَّ العجوة، وأهل المدينة يسمُّون ما عدا العجوة من النخل الألوان، وقيل: النخل كلُّه لينة إلاَّ العجوة والبرني. وعن ابن عبَّاس: اللِّينة نوع من النخل. وعن ابن عبَّاس وجماعة: النخلة التي ليست عجوة. وقال سفيان: النخلة التي تمرها شديد الصُّفرة، وزعموا أنَّ منها نوعًا يظهر نواه يغيب فيها ضرس، والنخلة منه أحبُّ إليهم من وصيف. وقيل: أنواع النخل المختلط الذي ليس فيه عجوة ولا برنيٌّ. وقال جعفر الصادق: هي العجوة. والأصمعيُّ: الدقل. وقيل: النخلة القصيرة. وعن سفيان: **الكريمة من النخل.** والياء عن واو قلبت لانكسار ما قبلها.

﴿اوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ ضمير النصب عائد إلى «مَا» وأُنِّث لأنَّ «مَا» واقعة على «لِينَة» كما مرَّ، ومعنى تركها قائمة على أصولها إبقاؤُها بلا تغيير، فلو قطع قلبها أو جذعها من غير أصله لم يصدق أنَّها قائمة كلُّها على أصولها لذهاب بعضها.

﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ فما ذكر من قطع وترك بإرادة الله، أو بأمره بأنْ أُوحي إليه ﷺ إباحة القطع، فقطع بعضًا دون بعض.

(فقه) [قلت:] ويجوز إحراق نخل المشركين وشجرهم وقطعها، وهدم ديارهم، وطمس مياههم، وإفساد زرعهم، وإن ظهرت مصلحة في إبقاء ذلك أبقي، وأفادت الآية والأحاديث جواز ذلك وما أشبه ذلك.

(نحو) ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ عطف علَّة على سبب، لتقارب العلَّة والسبب، ولا يَخْـــتَصُّ ذلك بهما، بل يجوز عطف الجارِّ والمجرور على الجارِّ

والمجرور مطلقًا ولو اختلف المعنى، نحو: جلست في الدار وعلى سطحها، ويجوز عطفه على محذوف متعلّق بمحذوف مُقَدَّمًا، أي: أذن الله ﷻ في القطع ليعزَّ المؤمنين وليجزي الفاسقين، أو بمحذوف مؤخَّر، أي: ليعزَّ المؤمنين وليخزي الفاسقين أذن في القطع. أو العطف على محذوف متعلّق باستقرار «بِإِذْنِ اللَّهِ»، أي: فتابث بإذن الله، ليعزَّ المؤمنين وليخزي الفاسقين.

والمراد بـ«الْفَاسِقِينَ» الكافرون من أهل الكتاب، فمقتضى الظاهر: وليخزيهم، وأظهر ليصفهم بالفسق ذمًّا لهم، وتصريحًا بموجب الإخزاء، وهو الفسق.

والمراد: أخزاهم بقطع نخلهم بأيدي أعدائهم، وتفويت منفعتها عنهم، وإخزاؤهم بإبقاء ما لم يقطع لنفع أعدائهم به، فهم متحسِّرون بالقطع والإبقاء لمطلق النخل، ولاسيما غارسها فإنَّه أشدُّ رحمة وشفقة كأنَّها ولده، حتَّى إنَّ بعض الغارسين يقول: سعفه كإصبعي، وهم يرون بعض المؤمنين يتجنَّب الكريمة ويقطع غيرها فيغتاظون، بأنَّها يبقيها للمؤمنين. وقَصدَ المؤمنون إغاظتهم بذلك.

كما روي أنَّ أبا ليلى المازني يقطع النخل العجوة حين أمر ﷺ بقطع النخل، فقيل له: لم قطعت العجوة؟ فقال: لأنَّ فيه كبتًا للعدوِّ، وعبد الله بن سلام يقطع اللون فقيل له؟ فقال: لأنِّي أعلم أنَّ النخل يبقى للنبيء ﷺ ، فأردت أن تبقى له العجوة.

وروي أنَّه ﷺ يقطع نخلهم إلاَّ العجوة، وذلك في أوَّل نزول المؤمنين عليهم، وقد أحرق ﷺ بعض النخل، وقالوا: يا محمَّد كنت تنهى عن الفساد فما بال قطع النخل وإحراقه؟ وهل أُوحيَ إليك في زعمك إباحة الفساد؟ وخشي بعض المسلمين أن يكون ذلك فسادًا كما زعموا فنزلت الآية ـــ قيل ـــ تصديقًا للنهي عن قطعه، وتحليلاً من الإثم لقاطعه.

ولم يذكر الإحراق اكتفاء بالقطع ولقلّته. وَذَكَرَ الترك مع أنّه ليس فسادًا عندهم لتقرير عدم كون القطع فسادا لنظمه في سلك ما ليس فسادا إيذانًا بتساويهما.

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ
أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ
لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ
فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن
دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ
إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾

حكم غنائم بني النضير

﴿وَمَآ أَفَآءَ اللهُ﴾ صيّره فائيًا، أي: أعادَهُ وردَّهُ الله ﴿عَلَىٰ رَسُولِه﴾ لفظ «عَلَى» لتضمّن «أَفَاءَ» معنى أنعم، أو هي بمعنى إلى و«مَا» موصولة أو شرطيّة، وجهان عند بعض المحقّقين، وذلك على أنّ «وَمَآ أَفَآءَ» عام، فإنّه إن أريد مخصوص معهود تعيَّنَ أنّه موصول، فلا تكون الفاء في خبره لعدم العموم إلاّ عند من أجاز زيادة الفاء في الخبر مطلقًا.

(نحو) وأجزنا زيادتها في خبر الموصول ولو لم يكن العموم إذ لا يخلو من شبه اسم الشرط به، أو اعتبرنا العموم في إجزاء ما عهد، كأنَّه قيل: أي ما كان منها، وقد قيل: المراد ما يفيء بعدُ، فالعموم ظاهر، وكذا إن قيل: نزلت قبل الجلاء.

(سبب النزول) وروي أنَّ المسلمين طلبوا تخميس أموال بني النضير بعد جلائهم كغنائم بدر فنزلت الآية.

وقيل: «أَفَاءَ» مِنْ فَيْءِ الظلِّ، ولا يخرج هذا عمَّا مرَّ، لأنَّ الفيْءَ الظلُّ الراجع بعد زواله إذ كان من جهة المشرق وزال، ثمَّ كان يعود إليه بعد نصف النهار. وإذا جعلت شرطيَّة فمفعول لـ«أَفَاءَ». وإذا جعلت موصولة فمبتدأ حذف رابط صلته، أي: ما أفاءه، على حدِّ ما رأيت.

﴿مِنْهُمْ﴾ من هؤلاء الكُفَّار. و«مِنْ» للابتداء، ويجوز أن تكون للتَّبعيض على حذف مضاف، أي: من أموالهم، وهو ما يبقى على الجلاء.

والمراد بالإفاءة التصيير، ويجوز أن يكون الرُّجوع كأنَّها كانت عند رسول الله ﷺ، وانتقلت إليهم ثمَّ رجعت إليه، ووجهه أنَّ الله ﷻ خلق المال لمن يعبده، فكأنَّه ملك لرسوله ﷺ وللمؤمنين إذ كَفَرَ هؤلاء.

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ﴾ ما أجريتم، أو ما حرَّكتم، أو ما أتعبتم على تحصيله خيلاً ولا ركابًا.

(لغة) وهي ما يركب من الإبل. قيل: غلّب الركاب عليها كما غلّب الراكب على راكب البعير، فلا يقال في الأكثر الفصيح: راكب لمن ركب الفرس أو الحمار أو نحوه، بل يقال: فارس وراكب حمار، وراكب بغل، بذكر المركوب، مع أنَّ اللَّفظ عامٌّ وضْعًا، كما قال الله ﷻ : ﴿وَالْخَيلَ وَالْبِغَالَ

والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ (سورة النحل: ٨) ، و لم يركبوا خيلاً ولا إبلاً إلى حصون بني النَّضير، بل مشوا على أرجلهم إلاّ رسول الله ﷺ فعلى حمار كما مرّ[1]، أو على جمل لقربها من المدينة نحو ميلين.

(سيرة) فما حصل منها لا مشقّة فيه، فكان لرسول الله ﷺ ، و لم يعطِ الأنصارَ، بل أعطى المهاجرين لغربتهم وفقرهم، فَنُزِّلت غربتُهم وفقرُهم منزلة الجهاد والمشقّة. وروي أنّه كان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنة، ثمّ يجعل ما بقي في السلاح والكراع عُدَّة في سبيل الله تعالى. وعن الضحّاك أنّه قسّمه على المهاجرين، ويجمع بأنّ هذا فيما بقي بعد نفقة السنة والكراع والسلاح.

و لم يعطِ من الأنصار إلاّ أبا دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمَّة، لفقرهم، وسعد بن معاذ، فإنّه روي أنّه أعطاه سيف ابن أبي الحقيق، وكان لهذا السيف شهرة.

وفي البخاري ومسلم أنّ عمر قال للعبّاس وعليٍّ: أنشدكما الله هل تعلمان أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورث ما تركناه صدقة**»؟ قالا: نعم، وكذا قال لعثمان وعبد الرحمن بن عوف، والزبير وسعد، فقالوا: نعم، وقرأ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِه...﴾ وقال: «عملت فيه ما عمل به رسول الله ﷺ وأبو بكر، وقلتما: ادفعه إلينا، فأخذتما على أن تفعلا به ما فعلا، فوالله الذي لا إله إلاّ هو الذي به تقوم السماوات والأرض لا أقْضي بغير ذلك، فإن عجزتما ارْدُدَاهُ إليّ أكْفِكُمَاهُ».

﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ, عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ﴾ من أعدائهم تسليطًا خاصًّا، فمن ذلك تسليط رسول الله ﷺ على بني النضير وغيرهم، فَفُتحت لكم بلا كدٍّ منكم، فلا حقَّ لكم فيما أفاء عليه ﷺ .

١- في بداية السورة، ص ٤٢٥.

قيل: الآية في فدك، لأنّ بني النَّضير حُصِروا وقتلوا، دون أهل فَدَك، قلنا: قتالهم قليل ضعيف لا يعتدُّ به، فهم المراد لا أهل فدك.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه التسليط أو غيره، فإن شاء سلّط على غير وجوه التسليط المعهودة.

﴿مَّآ أَفَآءَ﴾ يفيء بعد تلك الإفاءة، كأنّه قيل: هذا حكم ما أفاء من النضير، فما حكم ما يفيء من غيرها ؟ فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ...﴾ ولذلك كان بلا عطف، لأنّ الجواب للسؤال لا يقرن بواو. وقيل: هذه الآية بيان للآية قبلها في بني النضير، ولذلك كانت بلا واو. وأمرهُ الله أن يضع ما أفاء من بني النضير حيث يضع الخُمسَ من الغنائم مقسومًا على خمسة.

﴿اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنَ اَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ سائر قرى الكُفّار عمومًا، وقيل: المراد قرى بني النضير، وعليه فلم يضمر بأن يقول: منهم، ليشمل الأصول والعروض، كذا قيل، وقال ابن عطيَّة: القرى الصفراء، وينبوعُ، ووادي القرى، وما هناك من قرى العرب، وتسمى قرى عرينَة، وكلُّها كالنضير لرسول الله ﷺ، وقسَّمَها كغيرها.

(سيرة) وقيل: المراد قرى خيبر، وإنّ نصفها لله ﷻ ورسوله، الكتيبة والوطيح وسلالم والوخدة، وللمسلمين الشقا وكانت ثلاثة عشر سهمًا، ونطاة وكانت خمسة أسهم، ولم يقسِّم ﷺ من خيبر إلاّ لمن شهد الحديـبيَّة، ولم يأذن لمن لم يشهد الحديـبيَّة أن يخرج معه إلى خيبر، إلاّ جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري.

وفسَّر بعضهم ﴿مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ﴾ بالجزية والخراج.

واحتجَّ عمر ﷺ بهذه الآية على إبقاء سواد العراق بأيدي أهله، وضرب

الخراج والجزية عليهم، ردًّا على من طلب قسمته على الغزاة، وكان ذلك ليعمَّ المسلمين النفعُ بالقتال.

(تاريخ)ويروى أنَّه قيل: لعمر «ابدأ بنفسك» قال: لا بل أبدأ بالعبَّاس، ثمَّ الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ، ولكلِّ واحد من أهل بدر خمسة آلاف درهم، ولأهل الحديـــبيَّة أربعة آلاف لكلِّ واحد، ولمن بعدهم ثلاثة آلاف لكلِّ واحد، ثمَّ ألفين وخمس مائة، ولأهل القادسيَّة وأهل الشام ألفين ألفين، ولمن بعدهم واليرموك ألفًا ألفًا، ولمن بعدهم خمسمائة خمسمائة، ثمَّ ثلاثمائة، ثُمَّ مائتين، ولكلِّ زوج للنبيء ﷺ عشرة آلاف، إلاَّ عائشة فاثني عشر ألفًا، ولنساء أهل بدر خمسمائة، ثمَّ أربعمائة، ثمَّ ثلاثمائة، ثمَّ مائتين، والصبيُّ مائة والمساكين جريبين في الشهر، ولم يترك في بيت المال شيئًا، فقيل له؟ فقال: «المال فتنة لمن بعدي». وفرض الصحابة له قوته وقوت أهله بإذنه، ثمَّ أمروا له بالزِّيادة فأبى وغضب.

(تاريخ) وكان الإمام عليٌّ يقسِّم ما في بيت المال كلَّ جمعة، حتَّى لا يترك فيه شيئًا، وأمر به فكنس ثمَّ صلَّى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة. وقسَّم مالاً من إصبهان وفيه رغيفٌ أسباعًا، وقسم الرغيف سبعة، وجعل على كلِّ سبعة جزءًا، وأقرع بينهم. رواه ابن عبد البر.

﴿فَلِلَّهِ﴾ فهو لله ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ سهم الله والرسول واحد هو للرسول، وإنَّما ذكر الله تعالى تيمُّنًا وتبرُّكًا وتعظيمًا لشأنه ﷺ.

(فقه) وقال أبو العالية: لله سهم يصرف في بناء الكعبة وما تحتاج إليه كلباس إنْ قربت، وإن بعدت فلمسجد كلِّ بلدة ثبت فيها الخمس، ويردُّه أنَّه يلزم أنَّ السهام ستَّة، والمعروف خمسة.

(فقه) وسهم الرسول له في حياته إجماعًا، وهو خُمُس الخُمُس، على

ما قيل: إنّ هذا الخمس يقسَّم على خمسة لمن ذكر الله ﷻ ، وكان ينفق منه على نفسه وعياله، ويدَّخر منه نفقة سنة لأزواجه، وقيل: لبعضهنَّ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين كالسلاح والكُراع والثغور والقضاء والمشتغلين بالعلم، ولو مبتدئين، والأئمَّة والمؤذِّنين، ومن اشتغل بمصالح المسلمين، ومن عجز عن الكسب، ولو كان هؤلاء أغنياء.

(فقه) وعنه ﷺ : «**ما لي ممَّا أفاء الله عليكم إلاّ الخمس، والخمس مردودٌ عليكم**»، فنقول: يصرف في مصالح المسملين، واستظهر بعض أنَّه يصرف إلى السهام الباقية، قلت: الظاهر صرفه إلى مصالح المسلمين، وإلاّ فإليها وإلى السهام الباقية.

وقيل: سهمه بعده للخلفاء لعلَّة الخلافة، وكان ﷺ يستحقُّهُ لخلافته عن الله تعالى، وإمامته لا للرِّسالة، إذْ لا أجرة عليها.

وقيل: سقط سهمه بعده، لأنَّ علَّته الرسالة، لأنَّ «الرسول» مشتقٌّ، وتعليق الحكم بمضمون المشتقِّ يؤذن بعلِّـيَّة معنى ما منه الاشتقاق، ولا رسالة بعده، فسقط كما سقط ماله من الاصطفاء من المغنم.

﴿**وَلِذِي الْقُرْبَىٰ**﴾ هذا هو السهم الثاني، والمراد قرابته ﷺ ، بنو هاشم وبنو المطلب، قال ﷺ : «**نحن وبنو المطلب شيء واحد**»[1] وشبَّك بين أصابعه، رواه البخاري، لم يفترقوا في جاهليَّة ولا إسلام، ولمزيد تعصُّبهم.

(بلاغة) أفرد اللفظ ولم يقل: لذوي القربى، لأنَّهم كإنسان واحد في شدَّة الاتِّصال، لا يحبُّ لنفسه إلاّ الخير، وكأنَّهم إنسانٌ واحد أحبَّ لنفسه الخير. وعلى طريق شدَّة الاعتناء أعاد اللاّم مع الرسول وذي القربى، حتَّى

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٠، ص٤٦. وقال: رواه البخاري.

إنَّ بعضًا أَيَّدَ بذلك قول من أثبت سهمًا لله وسهما لرسوله ﷺ .

(فقه) والإمام مفوَّض في قسم سهم الله ورسوله وسهم ذي القربى، يسوِّي بين الغنيِّ والفقير، والعالم والجاهل، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، أو يفضِّلُ من شاء إرضاء لله ﷻ . وقد أعطى العباس منه وله عشرون عبدًا يتَّجرون له، وأعطى فاطمة وصفيَّة.

[قلت:] واختير تفضيل الذكر بسهم زائد على الأنثى كالإرث، لأنَّه استحقَّ بقرابة الأب، وإن أعرض ذو القربى عن سهمه لم يسقط كما لا يسقط الإرث، وقيل: لا بدَّ من التسوية في ذلك كلِّه، ويأخذ القاصي والداني. ويثْبُت كون الإنسان هاشميًّا أو مطَّلبيًّا بالبيِّنة.

(فقه) واختلف العلماء في الفيء بعد رسول الله ﷺ ، فقيل: هو للأئمَّة، وعن الشافعيِّ أنَّه للمقاتلين، وعنه أيضًا أنَّه لمصالح الإسلام، يبدأ بالمقاتلين، ثمَّ الأهمُّ فالاهمُّ. قال قوم: خُمُسُ الفيءِ لأهل خُمُسِ الغنيمةِ، وأربعةُ أخماسٍ للمقاتلين أو للمصالح، والأكثرون أنَّه لا يخمَّسُ بل مصرف جميعه واحدٌ، ولجميعِ المسلمين فيه حقٌّ.

قرأ عمر ﴿وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ...﴾ إِلَى: ﴿...وَالذِينَ جَآءُواْ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وقال: «استوعبت الآية جميع المسلمين، وما مُسلم على وجه الأرض إلاَّ وفيه له حقٌّ إلاَّ ما ملكت أيمانكم». وكان عمر يُعطي جميع ما في بيت المال ولا يخزنه، وكان يقول: «لا أتركُه فتنةً لمن بعدي»، وكذا كان الإمام عليٌّ، بل قيل: لا يُبقي في بيت المال شيئا من الجمعة إلى الجمعة.

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ مطلقًا من أهل الإسلام، بشرط أن يكونوا فقراء، ودخل ولد الزنى والمنفيُّ، ولا يدخل اللقيط، لأنَّا لم نتحقَّق موت أبيه، وهذا سهم ثالث.

وذُكرُوا مع شمول المساكين لهم دفْعًا لتوهُّم أنَّه لا سهم لهم، وكونهم لا جهاد لهم. وقيل بدخول اللقيط واليتيم الغنيِّ. ويثبت اليُتمُ والفقرُ والإسلامُ بالبيِّنة.

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ هذا سهم رابع ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سهم خامس

(فقه) ويكفي في ابن السبيل والمسكين قولهما بلا يمين، ولو اتُّهِمَا، ومن ادَّعَى عددا من العيال أو ادَّعَى تلف المال احتاج لبيِّنة.

(فقه) ويقدَّم فقير بني هاشم ويتيمهم وابن السبيل منهم. وذكر بعض أنَّه لا يُعطى غنيُّهم، وذكر بعض أنَّ هذه الأخماس الأربعة كانت لرسول الله ﷺ مع خمس الخمس، فله من الفيء أحد وعشرون سهمًا من خمسة وعشرين.

(فقه) وذكر بعض الشَّافعيَّة أنَّ الفيء ما أخذ من الكُفَّار بلا قتال وإيجاف خيل وركاب، كعُشُر تِجارة وجزية، وما صُولحوا عليه، وماجَلَوْا عنه خوفًا قبل تقابل الجيشين، ومالُ مرْتَدٌّ قُتِلَ أو مات، وذمِّيٌّ ومعاهد، وَأَمَّا ما جلوا عنه خوفًا بعد المقابلة فغنيمة. ومال المستأمن والمستجير لورثته عندنا إن كان له وارث، وقال غيرنا: لبيت المال منه ما بقي عن ورثته، والغنيمة ما تحصَّل من كُفَّار حربيِّين بقتال، أو تقابل جيشين، وإن حارب ذمِّيُّون المشركين فلهم ولا يخمَّس.

﴿كَيْ لاَ يَكُونَ﴾ ما أفاء الله على رسوله. و«كَيْ» حرف مصدر، معناه الدلالة على الاستقبال. والدلالة على المصدر، وحرف التعليل والجرِّ لامٌ مقدَّرة متعلِّقة بما يتعلَّق به «لله» أو بـــ«الله» لنيابته.

﴿دُولَةَۢ﴾ شيئًا متداولاً ﴿بَيْنَ الاَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يدار بينهم تارة عند هذا وتارة عند هذا، أو يقسَّم بينهم لا ينال الفقراء منه شيئًا، كغُرفة بمعنى ما يغترف.

(لغة) و«دُولَة» بضمِّ الدَّال، وأمَّا بفتحها فبمعنى المصدر وهو التداول، وقيل: هما بمعنى واحد، وهو ما يتداول كما مرَّ. وقيل: بالضمِّ في الملك بكسر الميم، وبالفتح في المُلك بضمِّهما، وهو قول الكسائيِّ وحذّاق البصرة. وقيل: بضمِّ الدال في المال وبفتحها في النصر، قيل: والجاه.

و«منكُم» متعلّق بنعت محذوف، لأنَّ «ال» للجنس، كان مدخولها نكرة، أي: بين الأغنياء الثابتين منكم، يختصمون به، كما مرَّ، أو يتكاثرون به، أو دولة جاهليَّة يختصُّ بها الرؤساء الأغنياء كمغانم الجَاهليَّة، يقولون: «من عزَّ بزَّ».

[قلت:] ولا يسمَّى رسول الله ﷺ فقيرًا، لأنَّ الفقر شأن من يتعرَّضُ لمال ولا يجده. بل قيل أيضًا: لا يُسَمَّى زاهدا، لأنَّ الزهد إعراض عن الدنيا بعد توجه مَّا إليها، وهو ﷺ كالملِك لا يتعرَّض لذلك، لَكِنَّ سَيِّدَنَا عيسى عليه السلام وُصف بهما لأنَّه دون رسول الله ﷺ، ولم يصحَّ ما روي عنه ﷺ: «الفقر فخري»[1]، فإن صحَّ فمعناه ما تسمُّونه فقرًا من عدم المال هو فخري، وليس المراد أنَّه يسمَّى فقيرًا، أو معناه الانقطاع إلى الله كالملَك. ومعنى قولنا في الدعاء: «لا فقيرا أفقر منِّي» أنَّه لا أحد أفقر إلى الله من أحد، بل فقرنا كلّنا إليه سواء.

﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ إذ هو حقُّكم من الفيء، كذا قيل، وهو ظاهر لفظ الإيتاء، وهو في المال والمنافع، ولو كان في أمر الشرع لقال: وما أتاكم به، كما يقال: جاء بالدين، وأتاكم بالوحي، إلاَّ أنَّ قوله تعالى:

١- أورده **الزبيدي** في الإتحاف، ج٨، ص٢١٨، و**العجلوني** في كشف الخفا، ج٢، ص١٣١.
كما أورده **الألوسي** في تفسيره، مج١٠، ص٤٩، وقال: ما اشتهر من قوله ﷺ: «الفقر فخري» لا أصل له.

﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾ يدلُّ على أمر الدِّين، إذ لم يشتهر: نهاه عن غنيمة، أو نهاه عن فيء، فنقول: الأَوْلى إبقاء الإيتاء على ظاهره من الإعطاء من المال، ويُردُّ إليه ما بعده على حذف مضاف، أي: وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه.

ولا يخفى أنَّ حمل الآية على عموم ما أَمَرَ به وما نَهَى عنه ـــ حتَّى إنَّه يدخل فيه حكم الفيء ـــ فيه زيادة فائدة، إلاَّ أنَّ الإيتاء لا يتبادر في ذلك، ولا سيما أنَّ ما قبله في الفيء، ولكن من الجائز استعمال الإيتاء في معنى الإتيان إلينا بأمر الشرع، وعليه فما لم يأمُرْنا به ولا نهانا عنه فهو حلال، إذ لا حرام إلاَّ بالنهي، كما لا فرض إلاَّ بالوحي.

ولكن أيضًا من الجائز إبقاء الإيتاء على ظاهره من الفيء، والنهي على عمومه في الفيء وغيره. ومن العموم ما روي أنَّ عليًّا قال: سلوني عَمَّا شئتم أخبركم عنه من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيئه ﷺ، فقال عبد الله بن محمَّد بن هارون: ما تقول في مُحرِمٍ قتل الزنبور؟ فأجاب بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ...﴾ مع حديث حذيفة: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[1]، مع قول عمر: أمر بقتل الزنبور فلا شيء على المحرم القاتل له، لأنَّه أمر بقتله، ومثله حديث: «**اقتلوا كلَّ مؤذٍ في الحلِّ والحرام**»[2].

(فقه) وما في البخاري ومسلم عن ابن مسعود: «**أنَّه لعن الواشمة**

١- رواه **الترمذي** في كتاب المناقب (١٦) باب في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ، رقم٣٦٦٢. ورواه **ابن ماجه** في المقدِّمة (١١) باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، رقم٩٦. من حديث حذيفة.

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

والمستوشمة والمتنمِّصات والمتفلِّجات للحسن»[1]، كما لعنهنَّ رسول الله ﷺ ، وقال ابن مسعود: إنَّ ذلك في القرآن، فقالت أمُّ يعقوب الأسديَّة: قرأت القرآن كلَّه ولم أجده، فقال هو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾ وقد أتانا أنَّ الرسول لعنهنَّ.

(لغة) والواشمة التي تَشِمُ غيرها، والمستوشمة الطالبة أن يفعل بها الوشم، وكذا في النامصة والمتنمِّصة، ونحوه الفاعلة للتي تفعل بغيرها، والمتفعِّلة التي تطلب أن يفعل بها ذلك غيرها، وعكس بعضهم ذلك. والفلج التي تفسح بين أسنانها، تطلب ذلك من نفسها فتفعله، أو تطلب من غيرها أن يفعله بها، وقيل: تتفسَّح في مشيها.

وقال رسول الله ﷺ : **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**[2]، رواه البخاري ومسلم عن عائشة. وفي رواية: **«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**[3]. وفي أبي داود والترمذي عن أبي رافع عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: **«لا ألفين أحدكم متَّكِئًا على أريكته يأتيه أمر مِمَّا أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله**

١-رواه **الربيع** في كتاب الأشربة (٤١) باب المحرَّمات، رقم٦٣٧، من حديث ابن عبَّاس. كما رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٤) باب {وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}، رقم٤٨٨٦، مع زيادة في آخره. من حديث ابن مسعود.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الصلح (٥) باب إذا اصطلحوا على صلح... رقم٢٥٥٠. ورواه **مسلم** في كتاب الأقضية (٨) باب نقض الأحكام الباطلة وردِّ محدثات الأمور، رقم١٧١٨. من حديث عائشة.

٣-رواه **الربيع** في مسنده (٧) باب في الولاية والإمارة، رقم ٤٩، من حديث ابن عبَّاس. ورواه **مسلم** في كتاب الأقضية (٨) باب نقض الأحكام الباطلة وردِّ محدثات الأمور، رقم١٧١٨. من حديث عائشة.

اتَّبعناه»[1]، أي: بدون أن يعلم ما قيَّده به الحديث أو ما فسَّره به الحديث ونحو ذلك.

﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ في مخالفة ما أتاكم الرسول وما نهاكم عنه ﴿**إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ لمخالفه.

وقولُه: ﴿**لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ**﴾ بدل من «لِذِي الْقُرْبَىٰ...» بدل كلٍّ، ودخل في الإبدال قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ جَآءُوا مِنۢ بَعْدِهِمْ...﴾ (سورة الحشر: ١٠) ، إذا عطفناه على الفقراء، و لم يدخل الرسول في الإبدال منه لمحاشاته عن الاتِّصاف بالفقر، كما مَرَّ آنفًا، لكن ذلك الإبدال يتفرَّع عليه أنَّه لا يعطى ذو القربى إلاّ إن كان فقيرًا.

وقيل: يعطى غنيُّهم كما قال الشافعي، وعليه قيل: يكون الإبدال من «الْيَتَامَى»، وفيه أنَّه لو كان بدلاً من «الْيَتَامَى» وما بعده لقيل: لليتامى، بلام الجرِّ، كما قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ» بلام الجرِّ، فنحتاج إلى اعتبار تقديرها مع «الْيَتَامَى» بالمعنى، لعطفه على ما هي فيه.

وقد يقال: يجوز الإبدال من «لِذِي الْقُرْبَىٰ...» ولو كان يعطى غنيٌّ ذوي القربى، على أنَّ الآية في خصوص فَيْءِ النضير، إذ كان ذوو القربى فيها فقراء، لا في مطلق الفيء، وفيه أنَّه خلاف الظاهر، والظاهر عموم الفيء، وأنَّ العبَّاس منهم أعطي وهو غنيٌّ كما مرَّ.

ويجوز إبدال «لِلْفُقَرَآءِ» من «لِذِي الْقُرْبَىٰ» ولو لم نشترط الفقر، على أنَّ

١-رواه **أبو داود** في كتاب السنَّة، باب لزوم السنَّة، رقم٤٦٠٥، **والترمذي** في كتاب العلم (١٠) باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبيء ﷺ ، رقم٢٦٦٣، من حديث أبي رافع.

ذكره لواقعة حال لا للتقييد، كما تقول: أكرم زيدا الفقير، وتريد أكرمه مطلقًا، إلاَّ أنَّك ذكرت فقره ترَحُّمًا عليه وبيانًا لحاله عند الأمر بإكرامه.

ثمَّ إنَّ في الإبدال إشكالاً، إذ يقتضي أنَّ اليتامى مهاجرون أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وأنَّهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وأنَّهم ينصرون الله ورسوله، وأنَّهم كاملون في الصدق، وأنَّ ابن السبيل متَّصفٌ بذلك أيضًا، وفي ذلك بعدٌ.

وقيل: قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ عائد إلى قوله: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً﴾، وكأنَّه قيل: ولكن يكون للفقراء. وقيل: كانوا يعلمون أنَّ الخمس يصرف لمن في قوله ﷻ : ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾ ولم يعلموا مصرف أربعة الأخماس، وكأنَّهم قالوا: لمن هي؟ فقيل: تكون ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾، وفيه أنَّه لا دليل عليه.

وعن عمر ﵁ : «إنَّ للمهاجرين سهمًا غير السهام السابقة»، فلا يكون «لِلْفُقَرَآءِ» بدلاً من «لِذِي الْقُرْبَىٰ» وما بعده، ولا ممَّا بعده.

وكان الرجل يعصب الحجر على بطنه للرجل، ويتَّخذ الحفيرة في الشتاء، ماله دثارٌ غيرها، وفي مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنَّة بأربعينَ خريفًا**»[1]. وفي أبي داود عن أبي سعيد قال رسول الله ﷺ : «**أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور التامِّ يوم القيامة، يدخلون الجنَّة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة**»[2].

١- رواه مسلم في كتاب الزهد والرقاق (مقدمة الزهد) رقم٣٧. والتبريزي في كتاب الرقاق (١) باب فضل الفقراء وما كان من عيش النبيء ﷺ ، رقم٥٢٣٥. من حديث ابن عمرو.

٢- أورده الهندي في الكتر، ج٦، ص٤٧٣. وقال: أخرجه ابن سعد عن أبي الزبير مرسلا، وعن يوسف المكِّيِّ مرسلا.

﴿الذينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ استعمال للمسبَّب في معنى السبب، لأنَّهم عملوا معهم ما يضيقون به عن المقام في مكَّة، وهذا غالبهم، إذ فيهم من لم يخرج من مَكَّة بل خرج وحده، ومنهم من ليس منها، وقد قيل: منهم مائة رجل.

﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلاً﴾ رزقًا ﴿مِّنَ اللهِ﴾ لفقرهم واحتياجهم لخروجهم عن ديارهم وأموالهم، فهم مستحقُّون للفيء، فلا تمنعوهم حقَّهم منه، فهذا راجع إلى الفيء. وذَكَرَهم بما يُفَخِّمُ شأنهم ويدلُّ على كمال توكُّلهم في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ في الآخرة والدنيا، لرضاهم بقضاء الله ﷻ . والجملة حال مقارنة.

﴿وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ,﴾ عطف على الجملة الحاليَّة، فالجملة حال بواسطة العطف مقارنَة، لأنَّ في خروجهم نصر الله ورسوله، لأنَّه تقوية لرسوله، وتضعيفٌ لِلْكُفَّارِ وإغاظة، وإن أريد بالنصر النصر بالقتال كانت مقدَّرة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ العَالُون مرتبة باتِّصافهم بمهاجرة الديار والأوطان والأحبَّاء والأموال، والتوكُّل على الله في طلب الرِّزق والرِّضوان، وبقصد نصرة الله ﷻ ورسوله ﷺ ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الكاملون في الصدق في ما يدَّعون من الإيمان الكامل، أو الصَّادقون صدقًا كاملاً مع الله ﷻ ، وذلك أنَّهم اختاروا الله ﷻ ورسوله ﷺ على أنفسهم، وعلى جميع ما لهم في الدنيا. والحصر إضافيٌّ منظور فيه إلى مَن دونَ رتبهم من المؤمنين.

[قلت:] وإمامة الصدِّيق وعمر وعثمان وعليٍّ صحيحة بإجماع الصحابة الأكثرين، والمعتبرين من الصحابة وغيرهم، لا نحتاج إلى تكلُّفها من الآية.

﴿وَالذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالاِيمَانَ﴾ أي: سكنوها وهي المدينة، وهم الأنصار. والتبوُّؤ: النزول والسكنى في منزل، كأنَّه قيل: والمعروفين المشهورين بمنزلهم حتَّى إنَّه لا يستحقُّ اسم الدار إلاَّ منزلهم، وهي التي أعدَّ الله تعالى لهم، ويمدحهم بها لنفع المؤمنين بها. وقد قيل: إنَّ «تَبَوَّءُو» بمعنى هيَّؤُوا للإسلام وأهله منزلاً. و«ال» للعهد حتَّى قيل: إنَّ «الدَّار» من أسماء المدينة.

(بلاغة) ونزول المدينة حقيقة، وأمَّا نزول الإيمان ـ بمعنى جعله مستقرًّا وموطنًا ـ فمجاز استعارةً مكنيَّةً تخييليَّة بإثبات تبوُّئه، ففي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز. والمانع يحمله على عموم المجاز، وهو قصد الشيء ولزومه، أو مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد أو اللُّزوم، بأن استعمل التبوُّء بمعنى مطلق القصد أو اللزوم، أي: لزموا الدار والإيمان، أو يقدَّر ما يناسب الإيمان، أي: وأخلصوا الإيمان، على الأوجه في قول الشَّاعر: «علفتها تبنًا وماءً باردًا».

وقدَّر بعض: تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان، كقولك: رأيت الغيث واللَّيث، وأنت تريد زيدا، **وفيه بعدٌ**. وقيل: الإيمان اسم للمدينة سُمِّيَت باسم الحالِّ فيها، وهو خلاف الأصل، مع أنَّه يتكرَّر مع الدار.

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ قبل المهاجرين، أي: قبل هجرتهم، فإيمانهم سبق هجرة المهاجرين، وإيمان المهاجرين سبق إيمان الأنصار. وهو متعلِّق بـ«تَبَوَّءُو»، أي: **أسلموا في ديارهم، وآثروا الإيمان، وبنوا المساجد** قبل قدوم النبيء ﷺ بسنتين.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الجملة حال من «الذينَ»، أو مدح مستأنف بأنَّهم رسخ الإيمان فيهم، فهم يحبُّون من هاجر إليهم لإسلامه، وقيل: كناية عن إكرامهم للمهاجرين بأموالهم ومساكنهم، وكلِّ ما أمكن، حتَّى إنَّ الرجل منهم ينزل عن زوجة من زوجتيه أو أزواجه لمهاجر يتزوَّجها، ولا يصيبهم مللٌ. أو

تعبير بالسبب وهو الحبُّ عن المسبَّب وهو الإكرام، والأوَّل أولى. وعدِّي بـــ«إِلَى» لتضمُّن معنى الانتقال.

﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ لا يلقونها ويصادفونها لعدم وجودها في صدورهم، أو لا يعلمونها في صدورهم لعدم وجودها. والحاجة ما يحتاج إليه، على حذف مضاف، أي: لا يجدون في أنفسهم طلب حاجةٍ. أو معناه: الاحتياج.

﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: أوتي المهاجرون من الفيء دونهم. قسم ﷺ مال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار إلاّ ثلاثةً، مرَّ ذكرهم. و«مِنْ» للتبعيض أو للبيان أو للتَّعليل، ويتعيَّن التعليل إذا فسِّرت الحاجة بالاحتياج.

وإيضاح المعنى: أنَّهم لا يطلبون شيئًا مِمَّا يُعطى المهاجرون ويحتاج إليه، وليس في قلوبهم احتياج إليه، فضلاً عن أن ينازعوهم فيه أو يحسدونهم، ولا تتبع أنفسهم ما يعطى المهاجرون.

(نحو) وواو «أُوتُوا» نائب الفاعل هو المفعول الثاني، والأوَّل منصوب محذوف فاعلٌ في المعنى، أي: مِمَّا أوتيه المهاجرون، أي: جعل آتيا إِيَّاهُم.

﴿وَيُوثِرُونَ﴾ يختارون المهاجرين وغيرهم في كلِّ نفعٍ، أو لا يقدَّر معمول، أي: من شأنهم الإيثار ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ﴾ أي: فيهم ﴿خَصَاصَةٌ﴾ فقرٌ.

(سبب النزول) فعن ابن عمر: أهدي إلى رجل ـــ لعلَّه من الأنصار المسلمين ـــ شاةٌ، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إليه منَّا، فأرسله إليهم، حتَّى تداوله أهل سبعة بيوت، فرجع إلى الأوَّل، فنزلت الآية، وهي في مدح الأنصار.

(سبب النزول) وعن أبي هريرة قال رجل: يا رسول الله أصابني الجهد، فلم يجد ﷺ شيئًا عند نسائه، فقال: ألا رجلٌ يضيفه اللّيلة؟ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، فمضى به، فقالت زوجه: «ما عندي إلاّ قوت الصبية» فقال: نَوِّميهم وأطفئي السراج ليظنَّ الضيف أنَّا نأكل ونطوي الليلة، أي: نجوع لضيف رسول الله ﷺ ، ولَمَّا أصبح الرجل ذهب إلى رسول الله ﷺ ، فقال: لقد عجب الله من فعل أبي طلحة وزوجه، أي: عظَّمه، ونزل فيهما: ﴿وَيُؤثِرُونَ...﴾.

(سيرة) قال أنس قال ﷺ كلَّ يوم: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجَـنَّة**» حتَّى تَمَّت ثلاثة أيَّام لرجل من الأنصار، فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاصي ثلاثًا ليرى عمله، فقال له: ما هو إلاّ ما رأيت، إلاّ أني لا أغلّ على مسلم ولا أحسده، لو كانت الدنيا لي فأُخِذَتْ منِّي لم أحزن عليها، ولو أعطيتها لم أفرح بها، فقال عبد الله بن عمر: وهذه التي لا نطيق، وبها فضِّلْتَ، وَإِنِّي أقوم الليل وأصوم النهار، لو وهبت لي شاة لفرحتُ، أو ذهبَتْ لحزنتُ.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال الأنصار للنبيء ﷺ : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، قالوا: نشركهم في التمر.

وفي البخاري عن أنس: «أراد رسول الله ﷺ قطع البحرين للأنصار، فقالوا: إلاّ أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مِثْلَهَا، قال: «**فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض، فإنَّه سيصيبكم أثرَةٌ بعدي**»، (بفتح الهمزة والثاء أو بضمٍّ فإسكان)، أي: اختصاص عنكم بالتقدُّم وفي القسمة.

(سبب النزول) وقال يوم النَّضير للأنصار: «**إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركوهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم**

فلكم أموالكم ودياركم ولا شيء لكم من الغنيمة»، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فنزلت الآية. وَلَمَّا قَسم للمهاجرين مال بني النضير قال للأنصار: «**إن شئتم قاسمتموهم أموالكم ويقاسموكم مال بني النضير**»، فقالوا ﷺ: نقاسمهم أموالنا ويختصُّون بمال النضير، فنزل: ﴿وَالذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ...﴾.

﴿**وَمَنْ يُوقَ**﴾ يمنع ﴿**شُحَّ نَفْسِهِ**﴾ أضاف الشحَّ للنفس لأنَّه غريزة فيها.

(لغة) و[الشحُّ] هو حرصها على المنع، وأمَّا البخل فهو المنعُ نفسُهُ، فالبخل ثمرةُ الشحِّ. وقيل: الشحُّ بخلٌ مع حرص، وذلك فيما كان عادة. وعن الحسن: البخل أن يمنع ما في يده، والشحُّ أن يكره إعطاء الناس ما بأيديهم. وقيل لابن مسعود: خفتُ الهلاك لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ...﴾ لا يكاد يخرج منِّي شيء، فقال: «ذلك بخل ولا خير فيه، وإنَّما الشحُّ أن تأكل مال أخيك ظلمًا». ومثله عن ابن عمر: «البخل منع مالك، والشحُّ أن تطمح إلى مال غيرك». ولعلَّ المراد هما شدَّة الحرص حتَّى يكره أن يجود أحدٌ، أو حتَّى يأكل مال غيره ولا يسمح أن يكون للناس مالهم.

ويقال: «من لم يأخذ شيئًا ممَّا نهاه الله ﷻ عن أخذه، ولم يمنع شيئًا مما أمره الله تعالى بإعطائه، فقد وُقِيَ شحَّ نفسه». وفي أبي داود عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**شرُّ ما في رجل شحٌّ هالع، وجبن خالع**»[1] والهلع: أشدُّ الجزع، وذلك يجزع جزعًا شديدًا على ما فاته، ويخلع فؤاده لشدَّة جزعه.

١- رواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب الجرأة والجبن، رقم٢٥١١. **والبيهقي** في الكبرى، كتاب السير (١٦) باب الشجاعة والجبن، رقم١٨٥٦١، من حديث أبي هريرة.

وفي النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنَّم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشحُّ والإيمان في قلب عبد أبدًا**»[1].

﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ الفائزون بخير الدنيا والآخرة، الناجون من كلِّ مكروه، ومن عاقبة الشحِّ الواردة في حديث أبي هريرة عنه ﷺ : «**ما محقَ الاسلامَ مَحْقَ الشحِّ شيء قطُّ**»[2]، وحديثه عنه ﷺ : «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنَّم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الإيمان والشحُّ في قلب عبد أبدًا**»[3]، وفي حديث أبي سعيد عنه ﷺ : «**خصلتان لا تجتمعان في جوف مسلم: البخل وسوء الخلق**»[4]، وفي حديث أنس عنه ﷺ : «**خلق الله جنَّة عدن، وغرس أشجارها بيده** ــ أي خلقها بلا واسطة شيء ــ **ثمَّ قال لها: انطقي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال الله ﷻ : وعزَّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل**» ثمَّ تلى ﷺ : ﴿وَمَنْ يُوقَ...﴾[5].

وفي حديث جابر بن عبد الله عنه ﷺ : «**اتَّقوا الظلم فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتَّقوا الشحَّ فإنَّ الشحَّ قد أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن**

١- رواه **النسائي** في كتاب الجهاد (٨) باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم٣١١٠ و٣١١٤، من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **الهيثمي** في المجمع: ج١٠ ص٢٤٢. **والمنذري** في الترهيب من البخل والشح ج٣ ص٣٨٠ رقم ٧ من حديث أنس وقال: رواه أبو يعلى والطبراني.

٣- تقدَّم تخريجه في نفس الآية.

٤- رواه **الترمذي** في كتاب البرِّ والصلة (٤١) باب ما جاء في البخيل، رقم١٩٦٢. **وأبو نعيم** في الحلية، ج٢، ص٣٨٩، من حديث أبي سعيد.

٥- رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب (٢٣) باب تفسير سورة المؤمنون، رقم٣٤٨٠، من حديث أنس.

سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم»[1]. وعن مجمع بن يحيى وجابر بن عبد الله وأنس مرفوعًا: «**بريء من الشحِّ من أدَّى الزكاة، وقرى الضيف، وأدَّى في النائبة**». وعن عليٍّ موقوفا: «بريء من الشحِّ من أدَّى زكاة ماله».

﴿وَالذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ المؤمنون الذين جاءوا إلى الإيمان، أو إلى المدينة من بعد المهاجرين الأوَّلين والأنصار، أي: من بعد هجرة المهاجرين وإيمان الأنصار، أو الذين جاءوا **إلى الإيمان حتَّى تقوم الساعة بعد المهاجرين والأنصار.**

(ذكر طائفة من أئمة الاباضية في المغرب والمشرق) فنقول:

هم إن شاء الله مثل جابر بن زيد، وأبي عبيدة والربيع بن حبيب ومن بعدهم، ومن معهم من أَئمَّة العدل الإمامة الكبرى، كعبد الرحمن بن رستم، ومن بعده من أَئمَّة المغرب، كما ذُكِروا هم وعلماءُ المغرب وعبَّادُهم في عدد من سير المغاربة[2].

ومن أَئمَّة عمان: الإمام الجلندَى بن مسعود، من شراة أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين ومائة، والإمام محمَّد بن عفَّان سنة سبع وسبعين ومائة، والإمام وارث بن كعب سنة تسع وسبعين ومائة، والإمام غسَّان بن عبد الله سنة اثنين وتسعين ومائة، والإمام عبد الملك بن حميد سنة مائتين وسبع، والإمام المهنَّا بن جيفر سنة ستٍّ وعشرين ومائتين، والإمام الصلت بن مالك سنة سبع وثلاثين ومائتين، والإمام عزَّان بن تميم سنة سبع وسبعين ومائتين، ومن بعدهم[3].

١- رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، رقم٢٨، من حديث أبي هريرة، وأوَّل الحديث قوله ﷺ : «إيَّاكُم والفحش والتفحُّش...».

٢- انظر طبقات المشائخ بالمغرب لأبي العَبَّـاس الدرجيني. وقد تعرَّض القطب اطفيَّش في تفسيره هذا لبعض من هؤلاء المشاهير من أَئمَّة عمان وعلمائها في ج١٣، ص٣٩٣.

٣- انظر: تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان، للشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.

ومن المتأخِّرين: الإمام ناصر بن مرشد سنة أربع وثلاثين وألف، والإمام سلطان بن سيف سنة ألف وَستِّينَ، أو هو سيف بن سلطان، أو كلاهما واحد بعد واحد.

ومن مشاهير علماء عمان: موسى بن أبي جابر، والبشير بن المنذر، وهاشم بن المهاجر، وسليمان بن عثمان، وهاشم بن غيلان، ومحمَّد بن هاشم، وموسى بن عليٍّ، ومحمَّد بن عليٍّ، وسعيد بن محرز، والوَضَّاح بن عقبة، ومحمَّد بن محبوب، وعزَّان بن الصقر، وأبو المؤثر الصلت بن خميس، وبشير بن محمَّد، وخالد بن قحطان، وغسَّان بن محمَّد، وسعد بن عبد الله، وعبد الله بن محمَّد بن بركة، وأبو الحسن بن عليٍّ، وابنه محمَّد، وراشد بن سعيد، وأبو الحسن عليُّ بن سعيد، وأبو سليمان مقداد، وأبو زكرياء يحيى بن سعيد، وأبو حفص عمر بن محمَّد اللخمي، وغيرهم...

﴿يَقُولُونَ﴾ حال من واو «جَاءُو»، أو مستأنف، أو خبر لـ«الذِينَ» على أنَّه مبتدأ. ﴿رَبَّنَا اَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ في دين الله، وأخُوَّة الدِّين عندهم أعزُّ من أُخوَّة النسب ﴿الذِينَ سَبَقُونَا﴾ في الزمان وفي الرتبة، وللقرب من المنبع ﷺ، وقد تقدَّم ذكر فضل من تقدَّم لكثرة الآخذين عنه، فوجًا يلي فوجًا ﴿بِالاِيمَانِ﴾ الباء على أصلها، أو بمعنى في. وهذا اعتراف بفضل المتقدِّمين، ومدحٌ لهم.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ﴾ حقدًا ﴿لِّلذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متقدِّمين أو مصاحبين أو متأخِّرين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حقيق أن تجيب دعاءنا.

عن عائشة رضي الله عنها: أمر النبيء ﷺ الناس أن يستغفروا لأصحابه فسبُّهم بعضهم، وقرأت هذه الآية: ﴿وَالذِينَ جَآءُو...﴾.

[قلت:] وليس من الشتم القول بأنَّ الحقَّ مع فلان الصحابيِّ، أو فلان

الصحابيِّ، يستحقُّ أن لا يقول كذا، أو لا يفعل كذا. وسمع ابن عمر رجلاً يسبُّ مهاجرًا هو الإمام عثمان، فقرأ عليه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾، وقال أأنت منهم؟ قال: لا، فقرأ عليه: ﴿وَالذِينَ تَبَوَّءُوا...﴾ وقال: هم الأنصار، أأنتم منهم؟ قال: لا، وقرأ عليه: ﴿وَالذِينَ جَآءُو...﴾ وقال: أأنت منهم؟ قال: أرجوا أن أكون منهم، قال: لا، والله ليس من هؤلاء من سبَّ هؤلاء.

وذلك كالصُّفريَّة والنجديَّة والأزارقة القائلين بتشريك عليٍّ وكلٍّ من فعل كبيرة، وبحلِّ دم الفاعل لها وماله، وكالشيعة المخطِّئين للصِّدِّيق وعمر وعثمان، المصوِّبين للإمام عليٍّ وحده، وكالأمويِّين المنافسين له في الإمامة.

وعن مالك: «من كان له في أحد من الصحابة ﷺ قول سيِّء أو بغضٌ فلا حظَّ له في الفيءِ لهذه الآية». وليس من ذلك أن يقال الصحابيُّ ظَلَمَ في كذا، أو ما يحقُّ له أن يفعل كذا، والمسلمون المهاجرون والأنصار والتابعون إلى آخر الزمان، ولا يجوز لأحد أن يخرج عن ذلك.

[قلت:] وليس من الخروج عنهم أن يقال: الحقُّ مع فلان من الصحابة أو غيرهم، لا مع فلان، وإنَّ فعل كذا غير صواب، وإنَّ فعل كذا كبيرة يستحقُّ فاعلها العقاب.

وكان بعض الناس على عهد رسول الله ﷺ يذمُّون بعض الصحابة على غير موجب، فقال ﷺ : **«دعوا أصحابي فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»**[1] كما في البخاري ومسلم عن أبي سعيد.

وفي مسلم عن عروة بن الزبير قالت عائشة: «يا ابن أختي أُمِرُوا أن

١-أخرجه **البخاري** في كتاب فضائل الصحابة، باب (٥) قول النبيء ﷺ : «لو كنت متَّخذا خليلا...»، رقم ٣٤٧٠. من حديث أبي سعيد.

يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبُّوهم»، وذلك حين الفتن بين بني هاشم وبني أميَّة، قوم عليٌّ وقوم عثمان. وجاءت الصفريَّة بعد ذلك بقولهم بأنَّه من فعل كبيرة كان مشركًا، صحابيًّا أو غير صحابيٍّ.

وفي الترمذي عن عبد الله بن معقل سمعت رسول رسول الله ﷺ يقول: «**الله الله في أصحابي، لا تَتَّخِذُوهم غرضًا بعدي، فمن أحبَّهم فبحبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله سبحانه، ومن آذى الله تعالى يوشك أن يأخذه**»[1].

[قلت:] وأنت خبير بأحوال الروافض في الصحابة، يقولون فيهم السوء إلاَّ الإمام عليًّا ومن معه، فضلت اليهود والنصارى وزادت الروافض، قالت اليهود: خير ملَّتنا أصحاب موسى، والنصارى: خير ملَّتنا حواري عيسى، والروافض شرُّ ملَّتنا أصحاب محمَّد ﷺ .

قال جابر قيل لعائشة: إنَّ ناسا يتناولون الصحابة حتَّى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا ؟ انقطع عنهم العمل، وأحبَّ الله أن لا ينقطع عنهم الأجر.

قلت: وحبُّ الصحابة كالمطبوع في القلوب، والله أعلم بما يصيبني إذا تذكَّرت قوله ﷺ للملائكة: «**أصحابي أصحابي**» إذا جرُّوا بعضًا من الصحابة، وقولهم: ما تدري ما أحدثوا بعدك؟ وقوله: ﷺ : «**فسحقًا سحقًا**»، والله ما ندري من المُراد في الحديث[2].

١- رواه **الترمذي** في كتاب المناقب، رقم٣٨٦٢. ورواه **أحمد** رقم١٦٣٦١ ص٤٦. من حديث عبد الله بن مغفل المزني.

٢- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **الربيع بن حبيب** في مسنده (٦) باب في الأُمَّة أُمَّة محمَّد ﷺ ، رقم ٤٣، من حديث أبي هريرة. ورواه **البخاري** في كتاب الرقاق (٥٣) باب في =

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

تواطؤ المنافقين واليهود، وجزاؤهم

﴿الَمْ تَرَ﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح للتعجُّب، فإنَّ الآية تعجيب بأحوال المنافقين **﴿إِلَى الذينَ نَافَقُواْ﴾** هم رهط من بني عوف، منهم عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول، بإثبات ألف ابن الثاني، لأنَّ ابن الثاني تابع لعبد الله لا لأبي، ووديعة بن مالك، وسويد وداعس. وقال السُّدِّيُّ: أسلم ناس من قريظة والنضير وفيهم منافقون، والصحيح الأوَّلُ. وعلى كلِّ حال أرسل هؤلاء المنافقون المرادون في الآية بما تضمنه قوله تعالى: **﴿يَقُولُونَ لإِخوَانِهِمُ الذينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ...﴾** إلخ.

=

الحوض، رقم٦٢١١ عن أنس، وله أحاديث أخرى في نفس المعنى.

والمضارع للتجدُّد، وإحضار ما مضى كالمشاهد. والمراد بالأخوَّة الأخوَّة في الدِّين، والكفر الشرك، فهؤلاء المنافقون مشركون لإضمارهم الشرك، إذْ سمَّاهم إخوة المشركين، وأهل الكتاب مشركون، ولو آمنوا بالتوراة والإنجيل والأنبياء لكفرهم برسول الله ﷺ والقرآن.

ويجوز أن تفسَّر الأخوَّة بالصداقة، والأكثر في الدِّين الإخوان، وفي النسب والصداقة الإخوة ﴿لَئِنُ اخْرِجْتُمْ﴾ من بلادكم، أخرجكم محمَّد ﴿لَنخرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من بلادنا نُصرةً لكم، وتقليلاً لأصحاب محمَّد، متَّبعين لكم حيث ذهبتم.

﴿وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في شأنكم مِمَّا يسوءكم، وقيل: من قتال أو خذلان وما دون ذلك، وفيه أنَّ تقدير القتال مترقَّب بعد، ولأنَّ وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرَّد طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم، بل نصرهم عليه، كما قال: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

﴿أَحَدًا﴾ يُعطِّلنا عن الخروج ﴿أَبَدًا﴾ ولو طَال الزمان.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ على عدُوِّكم، ولا يخفى أنَّ دعوة رسول الله ﷺ للمنافقين إلى خِذْلانِ اليهود لا تُتصوَّرُ فضلاً عن أن يدَّعُوا عدم طاعتهم فيها، لأنَّها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنصرهم، وإظهار الكفر، وإنَّما شأنه ﷺ عند ذلك قَتْلُهم لا دعوتهم إلى ترك نصر اليهود، وليس الخروج معهم بهذه المرتبة من إظهار الكفر لإمْكان أنَّ خروجهم معهم للصَّداقة لا للموافقة في الدِّين.

﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في وعد الخروج معهم، وانتفاءِ طاعتهم لأحدهم فيه، وكاذبون في وعد النصر، كما بَــيَّنَ كذبهم بقوله تعالى: ﴿لَئِنُ اخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ يَنصُرُونَهُمْ﴾ وفي ذلك تضمَّن

تكذيب قولهم: «لاَ نُطِيعُ فِيكُمْ, أَحَدًا اَبَدًا» قالوه مع أنَّه لم يطلب منهم شيء في شأنهم.

والسورة نزلت قبل وقعة النضير، فكان ذلك إخبارًا بالغيب، ومعجزة لنبوءته ﷺ ، إذ قوتلوا و لم يقاتلوا معهم نصرة، وأخرجوا و لم يخرجوا معهم. كما أنَّ الآية إخبار بالغيب إذ بعث عبد الله بن أُبي إليهم سرًّا ألاَّ يخرجوا، وأنَّه ينصرهم، وأنَّهم إن خرجوا خرج معهم هو ومن معه، فأخبر الله تعالى ﷻ نبيئه ﷺ بذلك.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ شرعوا في كسب النصر لهم، على سبيل الفرض ﴿لَيُوَلُّنَّ الاَدْبَارَ﴾ الواو في «نَصَرُوهُمْ» والمحذوفة في «لَيُوَلُّنَّ» للمنافقين، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ لليهود، لا تنصر اليهود بل تهلك، ولا يردُّ عنهم المنافقون شيئًا.

وقيل: واو «لاَ يُنصَرُونَ» للمنافقين، وقيل: واو «لَيُوَلُّنَّ» المحذوفة لليهود. وقيل: واو «نَصَرُوهُمْ» لليهود والهاء للمنافقين، أي: لئن نصر اليهود المنافقين ليولّـــيَنَّ اليهودُ الأدبار، وفيه **أنَّ المتبادر من الآية عكس هذا.**

وإنَّما قال: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعد الإخبار بأنَّهم لا ينصروهم على سبيل الفرض والتقدير، كقوله تعالى: ﴿لَئِن اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (سورة الزمر: ٦٥) ، وكما يعلم ما يكون، يعلم ما لا يكون لوْ كان كيف يكون، كما قال ﷺ في أطفال المشركين والمنافقين: «**الله أعلم بما كانوا عاملين لو كانوا عاملين**».

﴿لأَنتُمُ,﴾ أيُّها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ إرهابًا، فهو اسم مصدر، فالرَّهبة فعل للمؤمنين، لأنَّه بمعنى الإرهاب الذي هو مصدر من المبنيِّ للفاعل، ويجوز أن

يكون مصدرًا من المبنيِّ للمفعول الثلاثيِّ، لأنَّ المؤمنين مرهوبون لا راهبون.

﴿فِي صُدُورِهِم﴾ صدور اليهود والمنافقين أو الفريقين ﴿مِّنَ اللهِ﴾ أي: إرْهابُكم إيَّاهم أشدُّ عندهم من إرهاب الله لهم، أو رهبتهم منكم أشدُّ ممَّا يظهرونه لكم من رهبة الله ﷻ، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله عَزَّ وَجَلَّ.

[قلت:] واعلم أنَّ تقديم عزَّة الله على جلاله أولى، لتقدُّمها في الحديث القدسيِّ، كما مرَّ في قوله تعالى: «وَعِزَّتِي وجلالي» ولم يقل: وجلالي وعزَّتي.

والأَوْلى أنَّ المعنى تخيفونهم أكثر مِمَّا يخيفهم الله ﷻ عندهم، أو يخافونكم أشدَّ مِمَّا يخافون الله ﷻ، وفي ذكر الصدر مع أنَّ الخوف لا يكون إلاَّ منه مبالغةٌ، كقولك: هذا مِمَّا كتبته بيدي، وهذا مِمَّا رأيته بعيني، وهذا مِمَّا سمعته بأذني.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من كونكم أشدَّ إرهابًا لهم من الله عندهم، أو كونهم أشدَّ لكم رهبةً منه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنَّهم ﴿قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ عظمة الله ﷻ، فلم يخشوه حقَّ خشيته.

﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي: اليهود، أو هم والمنافقون، وبهذا ضعف ردُّ هاء «صُدُورِهِمْ» إلى المنافقين وحدهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الواو لا من الكاف، أي: لا يقدرون على قتالكم مع أنَّهم مجتمعون ﴿إِلاَّ فِي قُرًى﴾ حال، أي: إلاَّ في حال أنَّهم في قرى، أو متعلِّق بـ«يقاتل»، أي: لا يستعملون إليكم إلاَّ في قرى وخوفُهم شديدٌ، بحيث يصدق عليهم قول المتنبِّي:

وضاقت الأرض حتَّى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنَّه رجلاً[1]

١- انظر: ناصف اليازجي كتاب العرف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب.

وقول بعض:

ما زلت تحسب كلَّ شيء بعدهم خيلاً تُكرُّ عليكم ورِجالاً[1].

﴿مُّحَصَّنَةٍ اَوْ مِن وَّرَآءِ جُدُرٍ﴾ فكيف يقاتلونكم غير مجتمعين، أو في غير قرى، أو في قرى غير محصَّنة ؟ لقذف الله عَجَلَّك الرعب في قلوبهم ومزيد رهبتهم. والتحصين يكون بالخنادق والدروب والشوك ونحو ذلك. والجدر: الحيطان أو جذوع النخل القائمات، فإنَّ النخل ممَّا يستتر به.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ إذا تقَاتلُوا، ولكن خوَّفهم الله عَجَلَّك منكم. والجملة مستأنفة أو حال. و«بَيْنَ» متعلّق بـ«شَديدٌ»، قدِّم للحصر والفاصلة، أو حال من ضمير «شَديدٌ». ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين بقلوبهم كأبدانهم ذوي ألفة واتِّحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرِّقة لا ألفة بينهم، لعدواة وحقد بينهم، فليسوا يقاتلونكم بيد واحدة، ففيهم ضعفٌ وافتراق، فلا تخافوهم فكأنَّكم تقاتلون عددًا أقلَّ ممَّا ترون من عددهم، وكأنَّه فيهم من يُعينُكم لتعاديهم فيما بينهم، **وهذا تجسير للمؤمنين عليهم.**

(نحو) والجملة حال من ضمير: «تَحْسِبُ» والربط بواو الحال، أو من الهاء والربط بواو الحال والضمير. و«شَتَّى» جمع شتيت، وألفُه للتأنيث. وقيل: المرادُ أنَّ دين المنافقين وآراءهم يخالفُ دين اليهود وآراءهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر البعيد في الجملة عن الخير، وهو تشتُّت القلوب الذي تزول به شوكتهم المركوزة فيهم بالخلقة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنَّهم ﴿قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ طريق نفع أنفسِهم، وهي الألفة والاتِّفاق. ويضعف أن يقال: لا يعقلون أنَّ

١- البيت من الكامل، وهو لجرير في ديوانه، ص٥٣، انظر: إميل بديع يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج٦، ص٤٦.

تشتُّت القلوب يوهن قواهم.

﴿كَمَثَلِ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبر لمحذوف، أي: مثل اليهود من بني النضير أو اليهود والمنافقين كمثل الكُفَّار المقتولين ببدر قبلهم. أو كمثل بني قينقاع من اليهود الذين حول المدينة، غزاهم النبيء ﷺ يوم السبت على رأس عشرين شهرًا من الهجرة في شوال، قبل غزوة بني النضير الواقعة في ربيع سنة أربع، وأجلاهم إلى أذْرعات. أو مثل قريظة كمثل بني النضير، وبينهما سنتان. أو مثل هؤلاء المنافقين كمثل مُنافقي الأمم الماضية، وهو ضعيف، إذ ليس في الكلام تلويحٌ إلى منافقي الأمم، ولا شُهِرَ اسم المنافقين فيهم.

﴿قَرِيبًا﴾ زماناً قريبًا، متعلّق بما تعلّق به «مِن قَبْلِهِمْ»، أو بـ«مِن قَبْلِهِمْ»، أي: ثبتوا أو مضوا مِن قَبْلِهِم في زمان قريب منهم، فإنّ قتلى بدر وقينقاع متقدِّمون قبلهم بزمان قليل، فلهم أسوة بهم في الإهلاك. ويجوز تعليقه بقوله ﷻ : ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا سوء عاقبة كفرهم في زمان قريب من زمانهم. أو لا بدَّ من تعليقه بـ«ذَاقُوا» إذا فسَّرنا ﴿الذينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بمنافقي الأمم الماضية. وهذه الجملة متسأنفة تفسير للمماثلة في العذاب، والصلة «مِن قَبْلِهِمْ»، أو هي الصلة و«مِن قَبْلِهِمْ» متعلّق بـ«ذَاقُوا».

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الآخرة، لا يعلم قدره في العظم إلاّ الله تعالى. والجملة معطوفة على «ذَاقُوا» عطف لاسميَّة على فِعْلِيَّة، أو حال مقارنة من واو «ذَاقُوا»، لأنّ ثبوت العذاب لهم أزليٌّ مستمرٌّ.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ خبرٌ لمحذوف، أي: مثل المنافقين كمثل الشيطان، ومثلهم قبل هذا بنو النضير. وأُجيز أن يكون «مثلهم» المقدَّر هنا و«مثلهم» المقدَّر قبل هذا الفريقين. أو «كَمَثَلِ» خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدَّر في قوله ﷻ : ﴿كَمَثَلِ الذينَ﴾، أي: مثل الفريقين «كَمَثَلِ الذينَ...» و«كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ»، إلاَّ

أنّ «كَمَثَلِ الذينَ» عائد إلى بني النضير و«كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ» عائد إلى المنافقين، كأنّه قيل: مثل الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب، كمثل الذين من قبلهم، ومثل المنافقين في الإغراء على القتال كمثل الشيطان.

﴿إِذْ قَالَ لِلاِنسَانِ﴾ مرَغِّبًا له في الكفر ﴿اكْفُرْ﴾ بالله ﷻ وما يجب الإيمان به. و«الإنسان» الجنس، وكذا «الشيطان»، وقيل: الشيطان إبليس، والإنسان أبو جهل، والجمهور على الأوَّل.

(بلاغة) ولم يقل له قولاً باللِّسان مسموعًا بالآذان، بل زيَّن ووسوس، فالقول استعارة تمثيليَّة أو مفردة، وعلى التَّفسير بإبليس وأبي جهل يكون القول حقيقةً، وعليه فمعنى «اكْفُرْ» دُمْ على الكفر، أو زد منه، أو ذلك تمثيل.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسانُ ﴿قَالَ﴾ الشيطان ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ منْ كُفْرك، لا يصيبني ما يصيبك، ولا وَصْلَةَ بيننا، ولا تَرْجُ أن أدفَعَ عنك عِقَابَ كُفْرِكَ.

﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أخاف عقابهُ على الكفر في الدنيا قبل الآخرة، وقيل: في الآخرة، وهو الأوفق بقول الجمهور أنّ الإنسان والشيطان للجنس، ولا حجَّةَ لهم في قوله ﷻ : ﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، لأنّ عذاب الدنيا يخاف كما يخاف عذاب الآخرة.

(سيرة) وقد روي أنّ إبليس تصوَّر بصورة إنسان، وقال لأبي جهل يوم بدر: «لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ» وَلَمَّا شاهدَ الملائكة ورأى ما رأى، قال: «إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ, إِنِّيَ أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ...».

(قصص) لَمَّا وقع من برصيصا ما وقع ـــ على ما يأتي قريبًا إن شاء الله تعالى ـــ كان الرهبان في كتمانٍ وهوانٍ، حتَّى صار من جريج ما كان، رجعوا في عزٍّ، كما في مسلم مجموعًا وفي البخاري مفرَّقًا عن أبي هريرة عنه ﷺ : أنَّه

نادت جريجًا أمُّه في ثلاثة أيــّام، فيقول: ياربِّ أمِّي وصلاتي، فيقبل على الصلاة، فدعت عليه أن لا يموت حتَّى ينظر في وجوه الزَّواني، وذكر بنو إسرائيل عبادته، فقالت امرأةٌ جملية جدًّا: أنا أفتنه، فتعرَّضت له وأعرض عنها، وأمكنت نفسها من راعٍ يأوي إلى صومعته، فحملت، وولدت، ونسبت، فهدَّموا صومعته وجرُّوه، وجعلوا يضربونه، فقال: لم ذلك؟ فقالوا: زنيت بفلانة الزانية، وولدت منك، فقال: أين الصَّبيُّ؟ فجاءوا به، فقال: دعوني أصلِّ، فلمَّا صَلَّى، طعن في بطن الغلام وقال: من أبوك؟ قال: فلان الرَّاعي فقبَّلوه وتمسَّحوا به، وقالوا: نبني صومعتَكَ بالذَّهب، قال: بل بالطِّين كما كانت.

ومرَّ رجل بصبيٍّ يرضع فقالت أمُّه: اللَّهُمَّ اجعل ابني مثله، وكان حسن الهيئة، وترك الرضاع ونظر إليه، فقال: اللَّهمَّ لا تجعلني مثله، فرجع إلى الرضاع. قال أبو هريرة: كأنِّي أنظر إليه ﷺ يحكي رضاعَه بأصبعه السبَّابة في فيه.

ومرَّ بجارية تُضربُ ويقال: زنيت وسرقت، وتقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت: أمُّه اللهمَّ لا تجعل ابني مثلها، فترك الرَّضاع ونظر إليها فقال: «اللَّهمَّ اجعلني مثلها»، والرجل جَبــّار والأمة بريئة.

وفي الآية السابقة تشبيه حال إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال قتلى بدر، وفي هذه الآية المنافقين بحال الشيطان يوم بدر.

(قصص) وفي القصص أنَّ برصيصًا، كان يتعبَّدُ في صومعته فجاءه رجال بأختهم أصابها جنون ليدعو لها بالشِّفاء، فزنى بها، وحملت، وقال إبليس: اقْتُلها لَئلاَّ تفضح، وأخذوه للقتل فقال له إبليس: أنا الذي زيَّنْتُ لك الزِّنى بها والقتل، فاسجد لي سجدةً أنجِّكَ فسجد له، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وعلى هذا فخوف الله تعالى تَقْوًى يدَّعيها إبليس كذبًا أو رياءً، إذ لا يدري الناس أنَّه إبليس.

(قصص) ويروى أنّ برصيصا عَبَدَ الله في صومعته سبعين عامًا لم يعص الله تعالى فيها، وذلك في زمن الفترة، وأَعْـيَى إبليس، فجمع مَرَدَتَهُ، فقال الأبيض منهم: أنا أضلّه، وحلق وسط رأسه كالرَّاهب، فنادى برصيصًا و لم يجبه، وكان لا ينفتل عن صلاته، ولا يفطر إلاّ بعد عشرة أيّـام، فبعدها أشرف عليه فرآه يصلّي، فندم على ترك إجابته، وقال له: ما حاجتك؟ كنت مشغولاً، قال: أريد أن أعبد معك وأتعلّم منك العبادة، وتدعو لي وأدعو لك، فقال: أنّي في شغل عنك، إن كنت مؤمنًا جعل الله لك نصيبًا في دعائي. وأشرف عليه بعد أربعين ورآه يصلّي على حاله الأولى، قال: ما حاجتك؟ قال: أكون معك، ففتح له لشدَّة اجتهاده، وكان معه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته، إلاّ بعد أربعين يومًا، وقد يتمُّ ثمانين.

ولمّا تمّ الحول قال: بلَغني عنك أكثر مِمَّا رأيت فأنا ذاهب إلى صاحب لي، وكره برصيصًا فرقته لشدَّة اجتهاده، وودعه، وقال: أعلّمك كلمات تشفي بها المرضى والمجنون خيرًا لك من ذلك، وقال: لا لأنّ الناس يشغلونني في ذلك، فما زال به حتّى قبل تعليمه، فقال لإبليس: قد أهلكته، فخنق رجلاً وقال لأهله: أعالجه، فأظهر أنّه لم يقدر عليه، ودلّهم على برصيصًا فدعا بتلك الكلمات، فخرج الأبيض عنه.

وكان يفعل ذلك بالناس، وخنق بنت الملك فأرشدهم إلى برصيصا فقالوا: لا يجيبنا إلى ذلك، قال: ابنوا لها صومعة بجنب صومعته، وقولوا: هذه أمانة عندك، فرآها فأعجبته، وخنقها فدعا برصيصًا وخرج الأبيض، وأقبل على صلاته ثمّ خنقها الأبيض أيضًا وعالجها برصيصًا، وكانت تتعرَّضُ له، فقال له: واقعْها وتب، فحملت منه، وقال له: اقتلها وتب، وقل لهم ذهب بها شيطانها، وادفنها بجانب الجبل لِئَلاّ تفتضح، ففعل فجبد الأبيض طرف إزارها فجاءوا، وقال: ذهب بها شيطانها، وصدَّقوه.

فقال الأبيض في النوم لأخيها الأكبر: زنى بها برصيصًا وحملت منه وقتلها ودفنها، فكذّبه، وجاء للأوسط كذلك، فكذّبه، ثمّ الأصغر، فأخبرهما، وقالا: رأينا ما رأيت، فقالوا لبرصيصا: أين أختنا ؟ فقال: قد أخبرتكم فهل أتّهمتموني؟ قالوا: لا والله، فرجعوا وجاءهم الأبيض، وقال: إنّها تحت جبل كذا، وإنّ طرف إزارها ظاهر، وعاينوا ذلك، فهدموا صومعته وكتفوه وصلبه الملك، وقال له الأبيض: أقرَّ لهم لِئَلاَّ يجتمع عليك القتل وإنكاره، وقد زنيت وقتلت وفضحتَ أمثالك، وأنا صاحبك الذي علّمك الكلمات، قال: فما الحيلة ؟ قال: اسجد لي أحلّك وأغنّيك، قال: لا أقدر، قال: اسجد لي بطرفك ففعل، فقال: هذا الذي أريد منك.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ﴾ خبر مقدَّم ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ في تأويل اسم مؤخَّر ﴿خَالِدَيْنِ﴾ حال من ضمير الاستقرار ﴿فِيهَا﴾ أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الخلود فيها ﴿جَزَآؤُاْ الظَّالِمِينَ﴾ جزاء من ذكر، ولم يضمر ليذكرهم بالظلم الموجب للخلود، أو «الظَّالِمِينَ» الجنس، أو «ال» للاستغراق فيدخل المذكورون بالأولى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

الأمر بالتقوى والعمل للآخرة

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ﴾ احذروا عقابه على مخالفته ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ المراد الجنس مع الإثبات والتجريد من «ال» والإضافة، وهو فصيح وارد

في كلام العرب، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ (سورة التكوير: ١٤) ، وحكمة الإفراد في الآية التلويح بقلّة النفوس الناظرات في أمر دينها وآخرتها، وبإعظام شأنهنَّ، وتعيير الناس بالغفلة عن النظر، حتَّى كأنَّه نظرت نفس واحدةٌ فقط، قال ﷺ: «**الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة**»[1]. أو علمت كلُّ نفسٍ ما أحضرت، فالاستغراق مأخوذ من المحذوف.

﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ من الأعمال أصالحةٌ أم طالحةٌ؟ أكثير خيرها أم قليل؟ أمخلص أم مكدَّر؟ ﴿لِغَدٍ﴾ يوم القيامة.

(**بلاغة**) استعارة تحقيقيَّة أَصليَّة، شبَّه يوم القيامة بغد اللَّيلة، وهو غد الأمس، للقرب عند الله ﷻ، وكلُّ آتٍ قريب، والدنيا كيوم واحد، والآخرة غَدُه، أو كلَيْلَةٍ والآخرة صبحها. قيل: أو الغد يوم الموت، وعمر الإنسان كأمسه أو ليلته، والأوَّل هو الأكثر ورودًا واعتبارًا. وتنكيرُه للتعظيم.

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ تأكيد للأوَّل على أنَّهما عامَّان في الخير والشرِّ، أو الأوَّلُ في أداء الواجب على أنَّ ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يفسَّر بما قدَّمت من الأعمال الصَّالحات، والثاني في المحارم على أنَّها المرادُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي على أنَّه تهديد فيعاقبوا.

والتأسيس أولى من التأكيد، وأيضًا لا يخفى أنَّ المناسب تفسير ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ بالخير، وتفسير: ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ بعموم الخير والشرِّ، أو بالشرِّ.

قال ابن عبَّاس: قال رسول الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم في ستِّ آيات من آخر سورة الحشر**» وفي هذه الرواية تسمية السورة بسورة الحشر، ومرَّ عن

١- رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب آداب القاضي (٤٧) باب إنصاف الخصمين في المدخل عليه والاستماع منهما... رقم٢٠٤٥٥. من حديث ابن عمر.

البخاري[١] الكراهة، وكذا ورد تسميتها بذلك في روايات كثيرة بهذا الاسم، منها ما مرَّ، ومنها ما يأتي إن شاء الله.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ﴾ أيُّها الناس أو المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ﴾ تركوا أوامره ونواهيه تركًا بليغًا، كالأمر الذاهب عن الحافظة، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (سورة الحديد: ٢٧) ، ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (سورة الأنعام: ٩١) .

﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أبقاهم ناسين، أي: تاركين لمصالح أنفسهم الدِّينيَّة وَالأُخرَوِيَّة، لم يقدِّموا لأنفسهم خيرًا، واختاروا لأنفسهم خلاف الحقِّ، لكن بخلق الله أيضًا أوَّلاً، فأبقاهم عليه خذلانًا لهم، أو أراهم الله يوم القيامة أهوَالاً تنسيهم أنفسهم حتَّى لا يدرون من هم؟ ولا ما حالهم؟ ولا أين هم؟ وهذا ممكن، ولو ظهر أنَّه بعيد، وذلك في بعض الأحيان. ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء في سوء الاعتقاد والقول والفعل ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسق.

﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الناسون الله ﷻ ، المستحقُّون الخلود في النار ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المتَّقون لله الرحمن الرحيم، المستحقُّون الخلود في الجنَّة.

وقدَّم أصحاب النار إيذانًا من أول بأنَّ القصور والنقص جاء من جانبهم، وأنَّ الصواب أن يؤمنوا ويتَّقوا، فيساووا أصحاب الجنَّة. والأصل في عدم الاستواء اعتباره من الجانب الناقص، وعليه قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (سورة الرعد: ١٦) ،

١- انظر بداية السورة، ص٤٢٢.

وليس ذلك لازمًا، ألا ترى أنّه قدَّم «الذينَ يَعْلَمُونَ» على «الذينَ لاَ يَعْلَمُونَ» [في سورة الزمر، آية ٩].

والمراد بالاستواء الاستواء في أمور الآخرة، من إعطاء الكتب بالأيمان والشمائل، ونضارة الوجه وسواده، والجنَّة والنار، وغير ذلك، كما يدلُّ له التعبير بـ﴿أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، وكما يدلُّ له قوله تعالى:

﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ**﴾ فإنَّه مستأنف لكيفيَّة عدم الاستواء، بأنَّ المؤمنين فازوا بكلِّ مطلوب، والنجاة من كلِّ مكروه، والكفَّار بعكس ذلك.

(**فقه**) ولذلك قلنا: لا تدلُّ الآية على أنَّه لا يقتل مؤمن بكافر، ولا يحلُّ ما غنمه المشركون من المؤمنين، وإنَّما نقول: لا يقتل المؤمن بكافر بغير الآية [أيْ] من الحديث، وفي حلِّ ما غنموه من المؤمنين خلافٌ، ولي فيه رسالة.

والآية معرَّضة بأنَّ الناس كمن لا يعرف أنَّ الجنة شيء طَـيِّب، ولا أنَّ بها الفوز، ولا أنَّ النار شيء كريه إذ لم يجتهدوا في شأن ذلك، كمن قال لعبد عصى سَيِّده: إنَّه سيِّدُك، ولمن عقَّ أباه: إنَّه أبوك، كأنَّه لا يعرف أنَّه سَيِّده، وكأنَّه لا يعرف أنَّه أبوه.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَٰلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

مكانة القرآن، وعظمة منزِله ذي الأسماء الحسنى

(نحو) ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ أي: هذا المقروء، فهو باعتبار معنى جنسيَّته نعت، أو عطف بيان أو بدل، على ما شُهِرَ وبُحِثَ فيه، وإن جعلناه علمًا فهو عطف بيان أو بدل. وإشارة القرب تنبيه على ظهور كونه حقًّا، وكونه عظيمًا عند كلّ من لم يكابر عقله.

﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال كائنًا ما كان، أو على جبل عظيم، وركّب فيه العقل، ﴿لَّرَأَيْتَهُ, خَاشِعًا﴾ ذليلاً له ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ منشقًّا ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ مع قسوة الحجر والصخور، وعدم تأثُّرها بما يصادمها، وذلك لقوَّة ما في القرآن من الوعظ والزجر.

(بلاغة) وفي ذلك تعريض بقسوة قلب الإنسان، إذ لم يتأثّر به، وَصَرَّحَ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الاَمْثَالُ﴾ التي هي قوله تعالى: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ...﴾ وما أشبهه في سائر القرآن، كما أشار إليه بذكر القرآن، فإنَّه منطو على أمثال.

﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال سهل بن يسار: قال رسول الله ﷺ: **«من قال حين يصبح أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثمَّ قرأ ثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وَكَلّ الله به سبعين ألف ملك، يصلُّون عليه حتَّى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»**[1].

١-رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن، رقم٢٩٢٢. وابن **السني** في عمل اليوم والليلة، ص٧٨. من حديث معقل بن يسار.

(رقية للصداع) وعن عليٍّ وابن مسعود عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ قوله تعالى: ﴿لَوَ انزَلْنَا...﴾ إلى آخر السورة رقية للصداع**». قال إدريس بن عبد الكريم الحدَّاد[1]: قرأت على خلف ولَمَّا بلغت ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾، قال: ضع يدك على رأسك، فإنِّي قرأت على يحيى بن وثاب ولَمَّا بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنِّي قرأت على علقمة والأسود ولَمَّا بلغت هذه الآية قالا: ضع يدك على رأسك، فإنَّا قرأنا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فلمَّا بلغنا هذه الآية قال: ضعا أيديكما على رؤوسكما، فإنِّي قرأت على النبيء ﷺ فلمَّا بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنَّ جبريل عليه السلام لَمَّا نزل بها قال: ضع يدك على رأسك، فإنَّها شفاء من كلِّ داء، إلاَّ السَّام. والسَّامُ الموتُ، والله أعلم.

والمراد الوضع على وسط الرأس أو أعلاه، لا خصوص ما فوق الجبهة، ويأتي مثل ذلك في تفسير آخر سورة والضحى.

﴿**هُوَ اللهُ الذِي لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ**﴾ أي: الغائب، أو ذا الغيب كلِّه، ماضيه وحاضره ومستقبله، ما في الدنيا وما في الآخرة، والسرِّ والإعلان. و«ال» للاستغراق.

(أصول الدين) و[الغيب] هو مالم يتعلَّق به علم مخلوق، فهو عالم بنفسه، وما تحت الأرضين، وما بداخل الأرض، وداخل كلِّ جسم، وما يتضمَّن الماء والأرض، والشجرة من الثمار، وما يتضمَّن الحجر والشجر من النار، وهكذا...

١-هو إدريس بن عبد الحميد الحدَّاد البغدادي أبو الحسن: مقرئ العراق، قرأ على خلف والبزار وغيره، وروى عنه النجاد والطبراني وآخرون، سئل عنه الدراقطني فقال: ثقة وفوق الثقة بدرجة. تُوُفِّيَ سنة ٢٩٢هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص٥٦٢.

وقدَّم الغيب لتقدُّمه في الوجود في حقِّ المخلوق فيما يحدث له علم به، أو لأنَّ علم الله تعالى به دليل على علمه بالشهادة. والغيبُ المطلقُ ما لا يتعلَّق به علم مخلوق ولا إحساسه، والغيب المضاف ما لم يتعلَّق به علم مخلوق دون آخر.

وفسَّر بعضهم الآية بالمطلق، أمكن أن يُعلم بعدُ أو لم يكن، وعُلمَ بعدُ أو لم يُعلم، **وتفسيرها بالأعمِّ أولى**. وقيل: الغيب ما لا يقع عليه علم مخلوق من المعدوم أو الموجود الذي لا يدرك. وقيل: الغيب ما لم يكن، وبه قال أبو جعفر من آل البيت. وقال الحسن: الغيب السرُّ. وقيل: الغيب الآخرة، لأنَّه لم يشاهد منها شيء.

﴿**وَالشَّهَادَةِ**﴾ ما علمه بعض الخلق ولو جهله بعض، أو ما علم مع الحضور بالبصر والقلب. وقيل: ما يقع عليه الإدراك بالحسِّ. وقال أبو جعفر: الشهادة ما كان. وقال الحسن: العلانية. وقيل: ما في الدنيا.

وما لم يكن غيبًا فهو شهادة، وما لم يكن شهادة فغيب. والمراد: الشاهد أو ذا الشهادة.

﴿**هُوَ الرَّحْمَنُ**﴾ في الدنيا والآخرة ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ لكلِّ أحد إلاَّ من أبى في الآخرة، فالرحمن لأنَّه يرحم في الدنيا من هو مؤمن ومن هو كافر، وهذا كما قيل: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة.

﴿**هُوَ اللهُ الذِي لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ كرَّر لفظ «هُوَ» أوَّلاً وذكر لفظ الجلالة «الله» بعده، و لم يقتصر على أن يقول: الرحمن الرحيم الذي لا إله إلاَّ هو تأكيدًا للتَّوحيد. ﴿**الْمَلِكُ**﴾ الذي ملك ملكًا عظيمًا كلَّ شيء من الأجسام والاعراض والتصرُّف بالأمر والنهي، وإعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، والتولية والعزل، وبما شاء، ﴿**الْقُدُّوسُ**﴾ المتنزِّه تنزُّهًا عظيمًا عن صفات الخلق والنقص، الكامل في أوصافه.

﴿السَّلاَمُ﴾ ذو السلامة من كلِّ نقص، أو تُرجى منه السَّلامة، أو يسلِّمُ على عباده المؤمنين، فيَسْلَمون من كلِّ مكروه، ولا يتكرَّر مع «القُدُّوس» إذا فسِّر بالسلامة، لأنَّ «القُدُّوس» من معنى السَّلامة ــ على الإطلاق ــ من كلِّ نقص، و«السَّلاَمُ» من السلامة أن يصيبه نقص بعدُ.

﴿الْمُومِنُ﴾ الذي يصيِّر خلقه آمنين من جوره لانتفاء الجور عنه، أو المؤمن بنفسه ورسله المصدِّق لهم بالمعجزات، أو مؤمِّن خلقه السعداء من الفزع الأكبر، أو مخبرهم أن لا خوف عليهم، أو المصدِّق للمؤمنين في قولهم: «آمنَّا»، وفي شهادتهم على الناس يوم القيامة.

(صرف) ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ "مُفَيْعِل" من الأمن للمبالغة فيه كـ«مُسَيْطِر». [قلت:] وليس تصغيرًا، وأخطأ من قال: إنَّه تصغير، فإنَّ التصغير لا يدخل أسماء الله تعالى، ولعلَّ مراد المبرِّد بقوله: «بالتصغير» أنَّه على صورة التصغير.

ومعناه: الرَّقيب الحافظ لكلِّ شيء، الذي لا يغيب عنه شيء، القائم على خلقه، فحذف المتعلَّق للعموم.

(صرف) والأصول فيه ــ كما رأيت ــ : الهاءُ المبدَلة من همزة آمن، ومعنى أصالتها أنَّها غير زائدة، والميمُ والنونُ، والفعل هَيْمَنَ بوزن "فَيْعَلَ"، والأصل أَيْمَنَ (بفتح الهمزة والميم وسكون الياء بينهما)، ويقال: أَمِنَ الرَّاعي الذئبَ على الغنم، بمعنى أنَّه كَمُل حفظُه عليها.

(أصول الدين) والله ﷻ كامل القدرة والحفظ على خلقه، لا يخرج عنه شيء عمَّا أراد. وقيل: من الأمانة لأنَّ الأمين على الشيء حافظ له، وضعَّف هذا القول بعضٌ، لأنَّه لا ينبئ عن المبالغة، وعموم القدرة والعلم كما ينبئ على ذلك ما ذكر قبله.

(صرف) قال الجوهريُّ: اسم فاعل من أَمِنَهُ الخوف، أبدلت الهمزة الأَصليَّة ياء لئلاَّ تجتمع همزتان، وقلبت الأولى هاءً، وذلك كما في: هَرَاقَ الماء، والأصل: أراق الماء، وهياك في إِيَّاكَ. ومعناه صيَّر الخلق آمنين. وكلٌّ من «المؤمن» و«المهيمن» يفسَّر بما لم يفسَّر به الآخر. وفسَّره بعض بالقاضي، وبعضٌ بالأمين، وبعضٌ بالعليِّ.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب، وقيل: الذي يعذِّب من أراد، وهو تفسير باللازم، من القول الأوَّل، وقيل: الذي لا يحطُّ من منزلته، وهو أيضا تفسير باللازم، وقيل: الذي عليه ثواب العاملين، وليس هذا من معانيه في اللُّغة، وقيل: الذي لا نظير له.

(أصول الدين) ﴿الْجَبَّارُ﴾ صفة مبالغة من الثلاثيِّ على القياس، وهو من الجبر للكسر بمعنى إصلاحه، يقال: جبر الله العظم فانجبر، والله عَجَّلَّ **أصلح أحوال خلقه إصلاحًا عظيمًا، إيجادًا وإبقاءً وشكلاً وصورةً وهدايةً إلى كلّ ما ينفعهم دنيًا ودينًا، ومن خالف عوقب.** يقال: جبر الله الفقير بالغنيِّ، ويجبر الكسير، فهو صفة فعل.

وقيل: الذي لا ينافس في فعله، ولا يطالب بعلَّة، ولا يحجر عليه في مقدوره. فسَّره ابن عبَّاس بالعظيم، وجبروت الله سبحانه عظمته، فهو صفة ذات. وقيل: الذي لا يناله غيره، كما يقال للنخلة التي لا تصلها اليد بلا طلوع: جبَّارة، وكما يقال جرح العجماء جُبَار، والمعدن جُبَار (بالضمِّ والتخفيف)، أي: مهدور لا يُدرَك.

(صرف) وقيل: صفة مبالغة من الرباعيِّ، وهو أجبره، بمعنى قهره، وذلك واردٌ مسموع لا يقاس، وجاء أيضًا: جبره (بلا همزة)، بمعنى قهره، وذلك على القلَّة فصيغة المبالغة على القياس.

(أصول الدين) ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ التفعُّل للعلاج، والله منزَّهٌ عنه، فيفسَّر في صفات الله وأفعاله بلازمه، وهو كونه بليغًا في الوصف، لأنَّ الأمر الذي يتكلَّف ويعالج يكون قويًّا صحيحًا، فالمراد بالمتكبِّر كبير الشأن كبرًا قويًّا جدًّا ﴿وَلَهُ الكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ (سورة الجاثية: ٣٧) .

أو المتنزِّه عن كلِّ نقص تنزُّهًا عظيمًا، وقد شرحت الأسماء الحسنى[1] وشُرِحت قبلي، ويُفَسَّرُ كلٌّ بما لم يفسَّر به الآخر، ولا بأس بالترادف تأكيدًا، والتأسيس أولى.

وعن ابن عبَّاس: المتكبِّر هو الذي يتكبَّر بربوبيَّته، فلا شيء مثله، إذْ لا ربَّ سواه تعالى، وقيل: المرتفع عن كلِّ سوء، وقيل: المتعظِّم عَمَّا لا يليق بجلاله، وقيل: المتكبِّر عن ظلم العباد.

﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «ما» اسمٌ، والرَّابط محذوف مع الضمير الآخر، أي: عن الأشياء التي يشركونها به، أو عن أشياء يشركونها به، أو مَصدَرِيَّة، أي: عن إشراكهم.

(أصول الدين) ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ﴾ المُوجِدُ لكلِّ شيء من شيء أو من غير شيء، أو المقدِّر لكلِّ شيء على وجه تقتضيه الحِكْمَةُ، ويقال: بعض القوم يخلق ثُمَّ لا يفري، أي: يقدِّر الشيء ولا يقطع فيه، وقيل: المقدِّر لقلب الشيء إلى غيره بالتدبير، وفي هذا القول تخصيص في مقام العموم، ولعلَّ قائله اعتبر العموم في قوله: ﴿الْبَارِئُ﴾ فصحَّ له التخصيص في لفظ ﴿الْخَالِقُ﴾.

١- يشير الشيخ إلى كتابه: الذخر الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، طبع طبعا حجريًّا في الجزائر.

(أصول الدين) ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجدُ للأشْياء بريئة من التَّفاوت بحسب الحكمة، ولا يتكرَّر مع لفظ «الْخَالِقُ»، بمعنى الموجد، فإنَّه أخصُّ من الخالق، فإنَّ الخلق مطلق الإيجاد، والبرء: الإيجاد مع البراءة من التفاوت، وقيل: ﴿الْبَارِئُ﴾ مميِّز بعضٍ عن بعض، بحيث يبرأ عن الالتباس إذ جعل كلاًّ على شكْلٍ غيرِ شكْلِ الآخر.

(أصول الدين) ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصور الأشياء وأشكالها، أو ما تتميَّز به في الحسِّ كصورة الإنسان وصورة الفرس، أو عقلا كتمييز الإنسان عن نحو الفرس من العقل ونحوه، كما قال بعض: الممثِّل للمخلوقات بالعلامات التي يتميَّز بها بعض عن بعض، وفسَّره بعض بالخالق على غير مثال سابق.

وقيل: ﴿الْخَالِقُ﴾ على غير مثال سابق، و﴿الْبَارِئُ﴾ المنشئ لما يريد من خلقه من العدم إلى الوجود، و﴿الْمُصَوِّرُ﴾ المنشئ على صور مختلفة، وقيل: التصوير التخطيط، فأوَّلاً يكون خلقًا ثمَّ برْءًا ثمَّ تصويرًا.

ويقال: قدَّم ﴿الْخَالِقُ﴾ على ﴿الْبَارِئُ﴾ لأنَّ تأثير الإرادة مقدَّم على تأثير القدرة، وقدَّم ﴿الْبَارِئُ﴾ على ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ لأنَّ إيجاد الذات مقدَّم على إيجاد الصفات، وفيه أنَّه لا تخلو ذات موجَدَةٌ عن صفة أوَّلاً.

﴿لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾ بمعنى الألفاظ المخلوقة بعد الأزل.

(أصول الدين) والقدم هو من معاني صفات الذات، وعلمه بما سيحدثه بعد لزمانه ومقداره وكيفيَّته من صفات الأفعال، وكونه أهلاً لذلك كلِّه.

و[أسماء الله] حسنُها راجعٌ لذاتها، بمعنى أنَّها شيء يستحسن، وراجع إلى غيرها وهو الانتفاع بالإيمان بها دنيًا ودينًا وأخرى، وإجابة الدعاء بها، والتبرُّك والرقيا.

(أصول الدين) وصفات الذات هو لا غيره، ولا تبعُّضُ لتعدُّدِها، فذات الواجب كافية في معانيها.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ بلسان الحال ولسان القال ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الأرضين السبع وغيرهنَّ، كالعرش والكرسيِّ، وما تحت الأرضين، وما بين كلِّ شيئين من ذلك وأجزاء ذلك، فإنَّ جزء الشيء في الشيء.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أعاده تأكيدًا، أو هذا بمعنى من المعاني السابقة، والأوَّل بمعنى آخر منها. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كلِّ قول وفعلٍ، قيل: والحكمة تحلية فأُخِّرت، والعزَّة تخلية فقُدِّمت. والله أعلم.

وَصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

الفهارس

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية



الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس لبعض مختارات الشيخ



فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

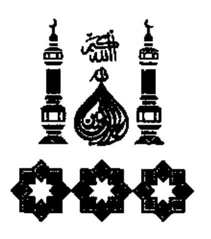
تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

تفسير سورة الحشر



التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ــ بلده الأصلي ــ واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.
- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.
- في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

ص.ب : ٦٦٨ - الرمز البريدي : ١٠٠ - مسقط - سلطنة عُمان

رقـم الإيـداع : ٢٩٣ / ٢٠١١

طبع بشركة مطبعة عُمان ومكتبتها المحدودة ش.م.م
هاتف : ٢٤٧٨٨٨٣٩ - فاكس : ٢٤٧٨٩٣٩٨